مذكرات الشيخ يوسف القرضاوى

الجزء الثانى

ما بعد المرحلة الجامعية

إلى تخصص التدريس

كان في الأزهر نوعان من التخصص لحملة الشهادة العالية، أو العالمية أوقف أحدهما وبقي الآخر.

أما النوع الذي أوقف، فهو (تخصص المادة) وفيه يتخصص الخريج في مادة معينة ويقدم فيها رسالة يحصل بها على شهادة (العالمية من درجة أستاذ).

وكان في كلية أصول الدين ثلاث شعب لهذا التخصص: شعبة التفسير والحديث وشعبة العقيدة والفلسفة، وشعبة التاريخ.

كما كان في كلية الشريعة شعبة الفقه، وشعبة أصول الفقه.

وفي كلية اللغة العربية، شعبة النحو والصرف، وشعبة البلاغة والأدب.

وقد خرج هذا التخصص بشعبه المختلفة عددا لا بأس به ثم أغلقت أبوابه، وكان من مطالبنا في المرحلة الثانوية وفي المرحلة الجامعية: إعادة فتح باب تخصص المادة لإتاحة الفرصة لطالب

الأزهر المتفوق لينال حقه في الدراسات العليا، كسائر طلاب مصر، وطلاب العالم كله.

وأما التخصص الآخر، فيسمى (تخصص المهنة). وكان في الأزهر ثلاث تخصصات للمهنة، تخصص تنفرد به كلية الشريعة، وهو (تخصص القضاء) وهو الذي يعد القضاة الشرعيين بما يلزمهم من دراسات معينة في أصول القضاء والمرافعات والإجراءات والإثبات ونحوها.

وتخصص تنفرد به كلية أصول الدين. وهو تخصص (الدعوة والإرشاد) ومهمته تخريج وعاظ وخطباء مساجد، مؤهلين للدعوة والخطابة دارسين لفنونها ووسائلها.

وتخصص ثالث تشترك فيه الكليات الثلاث، وإن كان ـ إداريا ـ تابعا لكلية اللغة العربية، وهو: تخصص التدريس. ومهمته إعداد مدرس علوم الدين أو اللغة العربية، وتأهيله بما يلزمه من أصول التربية ووسائلها وطرق التدريس العامة والخاصة.

كان أمامي ـ وقد تخرجت في كلية أصول الدين ـ إذن تخصصان عليَّ أن أختار أحدهما، الأول وهو تخصص الدعوة والإرشاد، والآخر هو تخصص التدريس.

ولم أتردد في اختيار الثاني، رغم إلحاح بعض الأصدقاء، أن ألتحق بتخصص الدعوة والإرشاد، لأنها أصبحت وظيفتي الأولى، وقد عرفت بها، وبرعت فيها، فأولى بي أن أتخصص فيها.

بيد أن لي وجهة أخرى أكننتها في نفسي، فقد كانت فكرتي أن يكون التدريس هو مهنتي التي أتعيش من ورائها، وأن أقوم بالدعوة محتسبا متطوعا، هذه هي الفكرة التي غلبت عليَّ.

حتى إن الدكتور محمد خميس حميدة نائب المرشد العام للإخوان عرض علي أن أتفرغ - بعد تخرجي - لدعوة الإخوان براتب مناسب يقدر لي، لحاجة الجماعة إلى مثلي، فاعتذرت بلطف.

لأني أحب أن أعمل للدعوة محتسبا، لا موظفا. ولأني أخشى أن يستهلكني هذا التفرغ في أمور جزئية تعطلني عما أريده لنفسي من مستقبل علمي ودعوي. مع أني أومن بضرورة تفريغ أشخاص للدعوة، ولكن في نظر نفسي لا أصلح أن أكون أحدهم.

على أية حال، لقد حسمت الأمر، وتقدمت لتخصص التدريس، وهو يتبع إداريا كلية اللغة العربية، كما أشرت، ومقره بالدَّرَّاسة، مع مباني كلية اللغة العربية الجديدة.

وكان تخصص التدريس يتكون من سنتين دراسيتين، وتدرس مقرراته في سنتين. هكذا مضى منذ نشأ، وهكذا تخرج فيه إخواننا ومشايخنا من قبل.

ولكن ابتداء من هذه السنة التي التحقنا فيها به، ستتم الدراسة على نظام السنتين في سنة دراسية واحدة، بحيث تنتهي السنة الأولى في أوائل أشهر الصيف، ثم تبدأ السنة الثانية وتنتهي في شهر أكتوبر.

وأعتقد أن العلوم التي درسناها في هذا التخصص قد أفادتنا، وأضافت إلينا جديدا، فقد توسعنا في دراسة علم النفس، الذي كنا درسنا شيئا منه في كلية أصول الدين في إحدى سنوات الدراسة، فدرسنا هنا علم النفس التربوي، والغرائز أو الدوافع النفسية، وعلم نفس النمو، والصحة النفسية، وغيرها.

كما درسنا أصول التربية، والتربية المقارنة، وتاريخ التربية، والطرق العامة والخاصة للتدريس، والتربية العملية، وغيرها.

أعتقد أنا أخذنا جرعة كافية ومروية من علوم النفس والتربية، وصلتنا أكثر بالحياة المعاصرة والثقافة المعاصرة. وكان مدرسونا وأساتذتنا في هذه العلوم من خريجي الجامعات المدنية العصرية، وليسوا من الأزهريين، فكان في ذلك تلقيح لثقافتنا الأزهرية العتيقة.

وأذكر ممن درسونا التربية العملية: الأستاذ الدكتور محمد قدري لطفي، وكان من أعلام التربية العملية في تدريس اللغة العربية، وله مؤلفات في ذلك، وفي أواخر الفصل الدراسي يأخذ طلبته إلى المدارس الحكومية، ليلقي كل منهم درسا نموذجيا يختاره ويحضره، ثم يلقيه أمام الأستاذ وأمام زملائه، وفي اليوم الواحد نحضر عدة دروس، ثم نجتمع مع الأستاذ في جلسة خاصة للنقد والتقويم، وتعطى الفرصة أولا للطلاب ليقوّموا عمل زميلهم، ويبدوا ملاحظاتهم عليه، ثم يبدأ الأستاذ.

وأذكر ذلك اليوم الذي كان فيه درسي، وكان في إحدى مدارس العباسية بالقاهرة، وكنا أربعة من طلاب التخصص، وبعد أن ألقينا دروسنا اجتمعنا كالعادة، ونقد بعضنا بعضا، ثم استمعنا إلى نقد الأستاذ الدكتور قدري، وكان نقده في الصميم: هذا كان عابس الوجه، وهذا كان قلق الشخصية، وهذا كان درسه تلقينيا لم يشرك الطلبة معه، ولم يستثرهم بالأسئلة المناسبة، إلى أن جاء عندي فقال: أما القرضاوي فكان درسه مثالا يحتذى: في شخصيته، وفي وقفته، وفي ابتسامة وجهه، وفي إقباله على التلاميذ، وفي إشراكهم معه في كل الخطوات، وفي تلخيص درسه في النهاية. ولا يسعني إلا أن أشكر له، وأن أتمنى له دوام التوفيق في مستقبل حياته، وقد أعطاني الدرجة النهائية خمسين من خمسين.

كما فعل معي ذلك في الفصل الثاني ـ أو قل في السنة الثانية ـ الأستاذ الدكتور الريدي، رحم الله الجميع، فقد أعطاني خمسين من خمسين

الشيخ محمد عبد الله دراز

"عرض علي نائب المرشد العام للإخوان أن أتفرغ ـ بعد تخرجي ـ لدعوة الإخوان براتب مناسب يقدر لي، لحاجة الجماعة إلى مثلي، فاعتذرت بلطف، لأني أحب أن أعمل للدعوة محتسبا، لا موظفا"

ومن أهم ما استفدته في تخصص التدريس: أن كان من أساتذتنا فيه الشيخ الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز، الذي كان يدرسنا (علم الأخلاق).

وكان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر، ويبهر سامعه كأن كلامه السحر. ويشرح الدقائق فيجليها، والغوامض فيكشف عن خوافيها، ويبين عن معانيها، لقد كنت أستمع إليه، وأنا معجب متابع، ورأيت أنه ينطبق عليه ما كان يكتبه الأولون عن علمائهم ومؤلفيهم، مثل: العالم العلامة، الحبر البحر الفهامة.

فهذا ما يمكن أن نقوله عن الشيخ، فقد أحاط بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة، وبالأدب وتاريخه، وبالعلوم الإنسانية العصرية، التي درسها في (السوربون) وحصل بها على الدكتوراه، وقدم فيها أكثر من رسالة، وبخاصة رسالته للدكتوراه (دستور الأخلاق في القرآن الكريم).

كان الشيخ دراز علما من أعلام الفكر، وإماما من أئمة الدين، وبحرا من بحور العلم والثقافة، جمع حقا بين الأصالة

والمعاصرة، فإن شئت نسبته إلى جامع (الأزهر) فهو ابنه البار، وتكوينه الأزهري قوي متين، وإن شئت نسبته إلى جامعة (السوربون) فهو من خريجيها الذين تعتز بهم، وتفخر بانتمائهم إليها، وهو أحد رجال الفلسفة والأخلاق المعدودين في عالمنا العربي والإسلامي.

كان الشيخ يدرسنا علم الأخلاق، وقد كتب فيه بالعربية رسالة لطيفة موجزة مركزة، صغيرة الحجم، ولكنها كبيرة القيمة، سماها (كلمات في مبادئ علم الأخلاق) يتجلى فيها علم الشيخ وثقافته الموسوعية، كما يتجلى أدبه وبيانه الرائع المشرق.

كما تجلى علم الشيخ وأدبه وأصالته فيما صدر عنه من كتب، ليست كثيرة من ناحية الكم، ولكنها قيمة من ناحية الكيف، سواء في فكرتها ومضمونها أم في بيانها وأسلوبها.

منها: (النبأ العظيم) وهو: نظرات جديدة في علوم القرآن وإعجازه، لم ينسجه على منوال أحد، كما لم ينسج أحد على منواله.

ومنها: (المختار من كنوز السنة) وهو: شروح عميقة متميزة لعدد من الأحاديث النبوية.

وله كتب شرع فيها، وظهر منها بعض الملازم ولم يكملها، مثل كتاب: (الميزان بين السنة والبدعة) كأنما كان يريد أن يحدِّث به كتاب (الاعتصام) للشاطبي.

كان الشيخ متمسكا بزيه الأزهري الأصلي، بجبته وعمامته، رغم أنه كان يدرس في (كلية الآداب) بجامعة فؤاد الأول، التي ألقى فيها عددا من المحاضرات في تاريخ الأديان، دعاه لإلقائها صديقه الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي، رئيس قسم الاجتماع في الكلية. وكان من ثمرات محاضراته فيها كتابه (الدين): دراسة ممهدة لتاريخ الأديان، كما كان يدرس في (كلية دار العلوم) محاضرات في تفسير القرآن الكريم.

وله رسائل عميقة متميزة في موضوعات كتبها للمشاركة في مؤتمرات عالمية مثَّل فيها الأزهر، مثل رسالته عن (الربا) التي قدمها لمؤتمر الحقوق الدولي في باريس سنة 1951م، ورسالته عن (الإسلام والعلاقات الدولية) ورسالته عن (موقف الإسلام من الأديان الأخرى) التي ألقاها في مؤتمر الأديان في لاهور سنة 1958م، والذي وافته المنية فيه، وهو يمثّل الأزهر هناك، وكان نبأ وفاته فجيعة هزت الأزهر والأوساط الإسلامية، لما كان يتمتع به رحمه الله من منزلة بين أهل العلم والدين.

وكان صبيح الوجه، يتلألأ وجهه نورا وإشراقا لكل من يراه، وتبدو عليه ملامح الربانية.

وقد كانت هذه الصلة الدراسية سببا لصلة أخرى فكرية وروحية، سنتحدث عنها فيما بعد.

مؤتمر طلاب الأزهر

استمر نشاطي المعتاد داخل الإخوان في المجالات التي كان لي بها صلة قوية: في قسم نشر الدعوة، حيث أذهب إلى بعض المحافظات في مناسبات مختلفة، وفي قسم الاتصال بالعالم الإسلامي، حيث كنت أشرف على عدد من الإخوة السوريين، وفي قسم الطلاب، حيث كنت مسؤولا عن طلاب الأزهر في كلياته الثلاث، وفي معهد القاهرة، وهو مجال نشاطي الأول.

وكان من أهم الأنشطة التي أقمناها في هذه المرحلة: المؤتمر الأزهري العام، الذي عقد في ساحة كلية الشريعة وكلية اللغة العربية، في مبانيها الجديدة بالأزهر، وقد حضر هذا المؤتمر طلاب الكليات الثلاث، وطلاب معهد القاهرة الديني، وكان من مطالب أبناء الأزهر، التي طالبنا بها من قديم، منذ كنا طلابا في القسم الثانوي، ولم يستجب لها، وقد ذكرت طائفة منها في حديثي عن المرحلة الثانوية من قبل، مثل فتح باب الدراسات العليا، لطلاب الأزهر كغيرهم، وفتح باب الكليات العسكرية ـ مثل الحربية والشرطة ـ أمامهم، والعمل ملحقين دينيين في سفارات مصر، وفتح مجالات العمل في المصالح والوزارات المختلفة أمام أبناء الأزهر، وفتح معاهد للطالبات .. الخ.

قدمني إخواني وزملائي (أحمد العسال، وعلي عبد الحليم محمود، ومحمد الراوي، ومحمد المطراوي، وصلاح أبو إسماعيل، وغيرهم) لأكون المتحدث الرئيسي باسمهم في هذا الملتقى، وتوليت

شرح المطالب، وضرورة إرسال نسخة من مطالبنا إلى شيخ الأزهر.

وكان مما قلته في هذه المناسبة قصيدة كان لها وقعها وصداها بين طلبة الأزهر، ضاعت إلا أبياتا منها، ويذكرني بها زملائي من أبناء الأزهر كلما لقوني، وقد حفظوا الكثير منها. حتى إني سمعت الخطيب الشهير الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله، ينشد أبياتا منها في إحدى خطبه، مما يدل على أنه حضر هذا المؤتمر وهو طالب، وسمع القصيدة يومها، فالتقطتها ذاكرته القوية واختزنتها.
ومطلعها:

صبرنا إلى أن ملَّ من صبرنا الصبر وقلنا: غدا أو بعده ينجلي الأمر

فكان غد عاما، ولو مد حبله فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر

وقلنا: عسى أن يدرك الحقَّ أهلُه فصاحت (عسى) من (لا) و(لا) طعمها مر

وماذا علينا بعد أن فار مرجل من الغيظ والإهمال يغلي به الصدر

سددنا بطول الصبر منا صمامه فزادت عليه النار، فانفجر القِدْر

ومنها:

عجبت لمصر تهضم الليث حقه   وتسرف للسِّنَّوْر،ويحك يا مصر!

سلام على الدنيا، سلام على الورى   إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر!

أيعطى لزيد ما يشاء من المُنَى   ويحرم ـ حتى من ضروراته ـ عمْرو؟

أيُعطَى لنا ـ يا قومنا ـ القشر والنوى   ومن دوننا يعطى له اللب والتمر؟

إذا العدل والإنصاف في الأرض لم يقم فمن أين يأتي أهلها العز والنصر؟

ووصلنا مطالبنا إلى الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر محمد الخضر حسين، وكان متجاوبا معنا في كل مطالبنا، وكان رجلا له هيبته ومقامه العلمي والديني الكبير، وصاحب تاريخ مجيد في العلم والجهاد، ولكن الدولة لم تكن تتجاوب مع آماله، وهو صاحب المقولة الشهيرة التي قالها لرجال الحكومة: إن لم يزد الأزهر في عهدي فلا ينقص منه!

وفي أوائل ثورة يوليو ذهب إليه اللواء محمد قائد الثورة وزاره في مكتبه في مشيخة الأزهر، وقال: إن من واجب الرؤساء أن يزوروا العلماء.

أنا والأزهر

"كان مدرسونا وأساتذتنا في علوم النفس والتربية من خريجي الجامعات المدنية العصرية، وليسوا من الأزهريين، فكان في ذلك تلقيح لثقافتنا الأزهرية العتيقة"

أحببت الأزهر منذ صباي المبكر، وشغفت به، وتمنيت أن أكون واحدا من علمائه. فقد كان الأزهر في نظري معقل الدين والعلم، ومعهد الثقافة والأدب، ومركز الدعوة والتوجيه. وعلى أيدي علمائه في قريتنا، يتعلم الجاهلون، ويهتدي الحائرون، ويتوب العاصون.

ولما حفظت القرآن الكريم بعد التاسعة بقليل، ظللت أترقب اليوم الذي أدخل فيه معاهد الأزهر، لأتعلم فيه الدين اللغة والأدب، وأقدر على الخطابة والتدريس والوعظ، مثل مشايخ قريتي الذين سمعتهم في صغري وتأثرت بهم: الشيخ أحمد محمد صقر، والشيخ أحمد عبد الله، والشيخ أحمد البتة ، والشيخ عبد المطلب البتة رحمهم الله جميعا.

ولقد حفظت فيما بعد رائعة شوقي الرائية عن (الأزهر)، وكنا نحن الأزهريين نعتز بها ونفخر، وفيه يقول:

قم في فم الدنيا، وحيّ الأزهرا   وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واخشع مليًّا، واقض حق أئمةطلعوا به زُهرا، وماجوا أبحرا

كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطانا، وأفخم مظهرا

وفيها يقول:

والله ما تدري لعل كفيفهم　　　يوما يكون أبا العلاء المبصرا

وفيها يخاطب أبناء الأزهر:

هزوا القرى من كهفها ورقيمها　　　أنتم ـ لعمر الله ـ أعصاب القرى

الغافل الأمي ينطق عنكمو　　　كالببّغاء مرددا ومكررا

لو قلتم: اختر للنيابة جاهلا　　　أو للخطابة باقلا لتخيرا

"الشيخ دراز علما من أعلام الفكر، وإماما من أئمة الدين، وبحرا من بحور العلم والثقافة، جمع بين الأصالة والمعاصرة، فإن شئت نسبته إلى جامع (الأزهر) فهو ابنه البار، وتكوينه الأزهري قوي متين، وإن شئت نسبته إلى جامعة (السوربون) فهو من خريجيها الذين تعتز بهم، وتفخر بانتمائهم إليها"

كان الأزهر هو (المنجم) المنفذ الذي تستخرج منه كنوز العلم، ويتخرج فيه العلماء على مستوى العالم الإسلامي كله، ففي رحابه الفسيح يلتقي طلبة العالم من المشرق والمغرب، أو قل: تلتقي الأمة الإسلامية كلها: عربها وعجمها. ولذا قلما تجد بلدا إلا وللأزهر فيها وجود بسبب خريجيه المنتشرين في الأرض انتشار الشرايين في الجسم.

ولقد حفظنا عن نبينا: أن العلماء ورثة الأنبياء، وإذا كانت النبوة هي أعلى الرتب، فوراثتها تليها في الفضل.

كما حفظنا من المأثور: صنفان من الأمة إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: الأمراء والعلماء. ونسبه بعضهم حديثا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يصح سندا، وإن كان معناه صحيحا في الجملة، فالأمراء لهم القيادة السياسية والتنفيذية، والعلماء لهم القيادة الفكرية والروحية، وبصلاح القيادتين يصلح المجتمع، وتصلح حياة الناس.

ولكن الخطر: أن تفسد القيادتان أو تفسد إحداهما، ولا سيما قيادة أهل العلم، فهم الأمل في الخلاص، إذا فسد الساسة والمتسلطون من أهل الإمارة والسلطان.

والإمام الغزالي يرى أن فساد المجتمعات بسبب فساد الملوك والحكام، وإنما يفسد الملوك بفساد العلماء، وإنما فساد العلماء بفساد قلوبهم، وفساد قلوبهم إنما هو بسبب حب الدنيا، ونسيان الآخرة.

ولهذا يبدأ الإصلاح الحق بإصلاح العلماء، وإصلاح العلماء في نظرنا يدور على أمرين: إصلاح العقول والأفكار، وإصلاح القلوب والضمائر.

وإصلاح العقول ينبغي أن يبدأ من المحضن، من المعهد الذي يصنع عقل طالب الأزهر، بحيث يتعلم فيه ثقافة إسلامية خصبة وإيجابية، تعتمد على لباب العلم لا على قشوره، وعلى الجوهر لا على الشكل، وعلى المعنى لا اللفظ، وتهدف إلى إيقاظ الروح والقلب، إلى جوار إضاءة العقل والفكر، وأن تجمع إلى هذه الثقافة الإسلامية: ثقافة عصرية مناسبة، تصل الطالب بزمانه وبيئته.

وهذا ما شغلنا ونحن طلاب منذ عهد مبكر.

وحين قدر الله لي دخول الأزهر، مبتدئا بمعهد طنطا الابتدائي، ومثنيا بمعهدها الثانوي، ومثلثا بكلية أصول الدين، ثم بإجازة التدريس.. كنت مهتما بكل ما يصلح الأزهر، ويرفع شأن أبنائه، وينهض بهم في أداء رسالتهم التي هي رسالة الإسلام، ويزيل المعوقات من طريقهم، حتى يقوموا بمهمتهم خير قيام.

فكنت أحضر وأنا طالب في القسم الابتدائي – المعادل للإعدادي الآن - مع طلاب القسم الثانوي، ممثلا لزملائي، في المناداة بمطالب الأزهريين، ومساواتهم بغيرهم من خريجي الجامعات المصرية.

وفي المرحلة الثانوية شاركت في عدة مؤتمرات عقدناها في طنطا وفي غيرها من عواصم المديريات (المحافظات)، حضرها ممثلون عن المعاهد الدينية في أنحاء المملكة المصرية (لم تكن الجمهورية قد نشأت بعد) حددنا فيها مجموعة من المطالب، ونقلناها إلى المسئولين بالأزهر وبالحكومة. أذكر منها:

1. إدخال اللغة الإنجليزية إلى معاهد الأزهر.

2. فتح باب الكليات العسكرية والمدنية أمام حملة الثانوية الأزهرية.

3. فتح معاهد دينية للبنات فهن نصف المجتمع، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

4. إتاحة الفرصة للمتفوقين بإعادة فتح باب الدراسات العليا، وتعيين معيدين بكليات الأزهر.

5. إعادة النظر في المناهج والكتب الدراسية.

6. الاهتمام بالجانب التربوي والسلوكي لطلاب الأزهر.

ولم نكن نكتفي بعقد المؤتمرات، ورفع المطالب والتوصيات، بل كنا أحيانا نقيم المظاهرات، أو ندعو إلى الإضراب. وكثيرا ما جعلنا هذا نصطدم بالشرطة، ونجرّ إلى "الأقسام" ونتعرض للإيذاء من أجل الأزهر.

وفي المرحلة الجامعية تبلورت المطالب وتحددت أكثر من قبل. وقد التقينا مع عدد من المسئولين في الأزهر للحوار حول هذه القضايا: فكان منهم المتجاوب إلى أقصى حد، كالمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، ومنهم من لم يعر هذه التطلعات بالا، واعتبرها أماني بعيدة المنال.

ولا زلت أذكر آخر مؤتمر عقدناه ـ وأنا طالب في تخصص التدريس أواخر سنة 1953م ـ في ساحة كلية الشريعة بالدرّاسة، حضره أبناء الكليات الثلاث، ومعهد القاهرة، ومعهد البعوث، وتحدثت فيه طويلا ـ باسم إخواني ونائبا عنهم ـ عن مطالبنا وتطلعاتنا الدينية والعلمية والأدبية والاجتماعية.

وأذكر أنني ابتدأت هذا المؤتمر الحاشد بقصيدة لا زال إخواني الأزهريون يحفظون بعضها، ويذكرونني بها إذا لقوني. ولم أعد أذكر منها إلا أبياتا قليلة، فقد ضاعت فيما ضاع في آتون المحن المتتابعة التي ابتليت بها مصر، ودعاة الإسلام فيها، أذكر منها:

صبرنا إلى أن ملَّ من صبرنا الصبر وقلنا: غدا أو بعده ينجلي الأمر

فكان غد عاما، ولو مد حبله فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر

وقلنا: عسى أن يدرك الحقَّ أهلُه فصاحت (عسى) من (لا) و(لا) طعمها مر

وماذا علينا بعد أن فار مرجل من الغيظ والإهمال يغلي به الصدر

سددنا بطول الصبر منا صمامه فزادت عليه النار، فانفجر القِدْر

ومنها:

عجبت لمصر تهضم الليث حقه وتسرف للسِّنَّوْر،ويحك يا مصر!

سلام على الدنيا، سلام على الورىإذا ارتفع العصفور وانخفض النسر!

أيعطى لزيد ما يشاء من المُنَى ويحرم ـ حتى من ضروراته ـ عمْرو؟

أيُعطَى لنا ـ يا قومنا ـ القشر والنوى ومن دوننا يعطى له اللب والتمر؟

إذا العدل والإنصاف في الأرض لم يقم فمن أين يأتي أهلها العز والنصر؟

وفي هذه الفترة التي بدأت بعد أن أوقفت معارك القناة ، التي شارك فيها الأزهر بكتيبته التي ذهبت إلى الشرقية، واحتفل بها في قاعة الشيخ محمد عبده بالدراسة في يوم من أيام الأزهر الخالدة ـ عدنا إلى القاهرة لنوجه عناية أكبر إلى إصلاح الأزهر من داخله، وبعث

الحيوية في كلياته، ومعاهده، ليتبوأ مكانه في قيادة الأمة تحت لواء الإسلام كما كان من قبل.

وبعد تفكير وبحث وحوار، بين مجموعة من الأزهريين الواعين والمخلصين لقضية الأزهر، وقضية الإسلام، منهم: أحمد العسال، وعلي عبد الحليم محمود، ومحمد المطراوي، ومحمد الراوي، وصلاح أبو إسماعيل، ومحمد عبد العزيز خالد، ومحمد الدمرداش مراد، ومحمد الصفطاوي وغيرهم ممن قضى نحبه وممن ينتظر.

قررنا أن ننشئ لجنة سميناها "لجنة البعث الأزهري".

لجنة البعث الأزهري

وليسمح لي القارئ أن أنقل له هنا أهداف هذه اللجنة ووسائلها كما وجدتها في أوراقي القديمة.

مجموعة من شباب الأزهر آمنوا بربهم ورسالتهم، وآلوا على أنفسهم أن يرفعوا صرح الأزهر عاليا أو يموتوا تحت أنقاضه.

أهدافها:

1. المساهمة في إيقاظ الوعي الإسلامي وتكوين جيل جديد يفقه الإسلام ويعمل به ويجاهد في سبيله.

2. جمع أبناء الأزهر من خريجيه وطلابه حول هذا الهدف الرفيع.

3. إصلاح أوضاع الأزهر ومناهجه إصلاحا شاملا يمكنه من حمل رسالة القرآن إلى العالم الإسلامي والعالم الإنساني.

4. تأمين مستقبل الثقافة الإسلامية المهددة، وإيجاد الينابيع الدائمة التي تصب في الأزهر، وذلك بتقرير حفظ أجزاء من القرآن في مدارس الدولة، وتكثير جمعيات التحفيظ وضمها إلى الأزهر.

“كُلفت بكتابة الرسالة الأولى للجنة البعث الأزهري المعرفة بها، استجبت لهذه الرغبة وكتبتها وعرضتها على الغزالي فقال عنها: إنها من أمتع ما قرأت، فكرة وعاطفة وأسلوبا”

وسائلها:

1. تنبيه الرأي العام في داخل الأزهر، ذلك عن طريق إلقاء المحاضرات وتنظيم الندوات، وطبع الرسائل والنشرات.

2. إعداد المراجع والتشجيع على البحث للنابهين من شباب الأزهر ليتخصصوا في شعب الثقافة الإسلامية المختلفة.

3. العمل على إصدار مجلة دورية تنطق باسم شباب الأزهر .

4. العمل على أن يكون قادة الأزهر وموجهوه من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

وقد كلفني الإخوة الزملاء مؤسسو اللجنة أن أبدأ بكتابة الرسالة الأولى من رسائلها، المعرفة بها، والمعبرة عن مهمتها.

ولم تكن أمامي إلا الاستجابة لهذه الرغبة وكتبت رسالة بعنوان "رسالتكم يا أبناء الأزهر" ولا زلت أذكر أني عرضتها على الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ليقرأها ويبدي ملاحظاته عليها، فأجاب ذلك مشكورا، وقرأها، وقال عنها: إنها من أمتع ما قرأت، فكرة وعاطفة وأسلوبا. وعرضتها كذلك على الداعية والمربي الجليل الأستاذ عبد العزيز كامل، فسر بها كثيرا، ولكنه نصحني بأن أخرج أحاديثها، حتى تأخذ الصبغة العلمية.

وتمت الرسالة وذهبت بها إلى المطبعة (دار الكتاب العربي)، وذلك في أواخر سنة 1953، ولكن أحداثا قاهرة حدثت في أوائل سنة 1954، انتهت بنا إلى معتقل العامرية، ثم إلى السجن الحربي، فتوقف عمل اللجنة، كما توقف طبع الرسالة، واستردتها بعد ذلك من المطبعة. وظلت مطمورة ضمن أوراقي التي سلمت من الضياع في المحن المتتابعة التي لحقت بدعاة الإسلام في مصر.

وحين بعث إليّ بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة: الأخ الأستاذ الدكتور الحسيني أبو هاشم الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية والأخ الدكتور عبد الودود شلبي، المشرف على العدد التذكاري لمجلة الأزهر بمناسبة عيده الألفي، سنة 197م بطلب كتابة مقالة عن الأزهر في هذا العدد، رجعت إلى أضابيري، لأجد الرسالة القديمة مكتوبة بخط الأخ الحبيب، الشاعر الأديب محمد حوطر، الذي طالما سجل بقلمه أحاديثي وخطبي بمدينة المحلة الكبرى.

ولقد وجدت أن في الرسالة أفكارا ومعاني يجب أن تنشر من جديد، وإن كانت تحمل حرارة الشباب وحماسه المتوقد. كما رأيت أن أعمل فيها يد التهذيب والإضافة والحذف والتعديل، وإن بقيت في جوهرها كما كانت قديما.

ومما حذفت منها مقدمتها: لأن شدتها لم تعد مناسبة للأوضاع، كما حذفت بعض المباحث لعدم ملاءمتها لما جد من أحوال، ولأن بعض ما نادت به قد تحقق فيما بعد.

وقد أعجبني فيما قرأته منها الإهداء في الصفحة الأولى، وكانت صيغته هكذا:

إلى كل مسلم يعنيه مستقبل الأزهر

وإلى كل أزهري يعنيه مستقبل الإسلام

وإلى كل عاقل يعنيه مستقبل الإنسانية

أهدي هذه الرسالة..

عسى أن يتحرك المسلمون لتجديد رسالة الأزهر.

وعسى أن يتحرك الأزهريون لتجديد رسالة الإسلام.

وعسى أن يتحرك العقلاء لإنقاذ سفينة الإنسانية.

كما أعجبني من تلك الرسالة خاتمتها المتوثبة توثب الشباب في كاتبها وفيمن وجهت إليه، ولا بأس أن أسجلها هنا كما وجدتها للتاريخ:

القضية الكبرى:

"حذار يا شباب الأزهر أن تشغلنا قضيتنا الصغرى: قضية الأزهر، عن قضيتنا الكبرى: قضية الإسلام. الذي تألب المتألبون عليه، وافترق خصومه على أمور شتى، ولكنهم اجتمعوا على محاربته والكيد له، والتربص بأهله، والتعدي على حرماته، وبات يعاني الآلام، ويشكو الجراح من اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبية الغربية، والنزعات القومية، والشهوات الحزبية، والموجات الإلحادية، والإباحية.

وأصبحت بلاد الإسلام نهبا مقسما في أيدي أعدائه، يستنزفون خيراتها ويمتصون دماءها، ويوجهونها وجهتهم التي يريدون.

كم صرفتنا يد كنا نصرفها   وبات يملكنا شعب ملكناه

أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد   تجده كالطير مقصوصا جناحاه

واجبنا مضاعف

يا ابن الأزهر:

إذا كان بعض الناس يشعر بواجبه مرة واحدة في هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة من تاريخنا، فعليك أن تشعر بواجبك أربع مرات:

فأنت يا أخي مسلم:

والمسلم يعيش في هذه الحياة لهدف أسمى، ورسالة عظمى، لخصها الله تبارك وتعالى في كتابه بقوله:(يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم) الحج:77،78.

فالمسلم في المحراب عابد خاشع، راكع ساجد.

وهو في المجتمع بار خير، منتج نافع.

كما هو في ميادين الكفاح بطل مجاهد، وجندي مناضل.

فإياك أن تظن نفسك كما مهملا، وسطرا مطموسا، فإنما أنت منفذ أحكام الله في الأرض، ووارث رسالات النبيين، وحامل هداية الله إلى العالمين.

اختصك الله بأعظم كتاب أنزل، وأفضل نبي أرسل، وأكمل دين شرع (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعتمي ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة:3.

أنت أخي شاب:

والشباب حيوية هائلة، وطاقة جبارة، فإن الذي خلق الشمس وأودعها الضياء، وخلق النار وأودعها الحرارة، وخلق الحديد وأودعه الصلابة، وخلق الشباب وأودعه الحيوية والعزيمة. ولو نظرت إلى التاريخ لرأيت الكثير من أعلام الهدى، وأنصار الحق كانوا شبابا:

كان أتباع موسى شبابا: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) يونس:83.

وكان أهل الكهف شبابا: (نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) الكهف:13.

وكان أكثر أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم شبابا، تقدموا الصفوف، وهل فينا من يجهل مثل علي، والزبير، وأسامة، ومعاذ؟

ومن الشباب في الصدر الأول من كان يحمل راية العلم في السلم وراية الجهاد في الحرب.

حفظ الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين، والموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة، وصحح عليه الأصمعي أشعار البدويين وهو شاب.

ومما يفخر به تاريخ الشباب أن قائد الكتائب ا لإسلامية لفتح الهند التي تحوي الآن أكبر دولة إسلامية "باكستان" لم يكن إلا شابا في السابعة عشر ألا وهو "محمد بن القاسم" الثقفي الذي قال عنه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبعَ عشرة حِجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

فإذا اعتذر الشيوخ لضعف القوة، وغلبة اليأس، وابيضاض الرأس، وإدبار الحياة، فما لك من عذر.

وأنت يا أخي مثقف:

قد رشفت من رحيق الثقافة، واستنار عقلك بنور العلم، وللثقافة ضريبة لا بد أن تدفع، وللعلم زكاة لا مفر أن تؤدى، فعليك أن تعلم الجاهل، وتنبه الغافل، وتنشر الوعي، وتأخذ بيد الحائر.

واعلم أنك إذا قصرت فلن تجد من يعذرك، والجاهل قد يعذر إذا قصر، فأفقه ضيق، ونظره قريب، وعلمه محدود.

وقد قال شوقي: "الجاهل غريب في وطنه، مقبور في بدنه، رافل في كفنه".

أما الذي نور الله بصيرته بالعلم، فمسئوليته أكبر، وعذره أقل.

العلم فضيلة توجب لصاحبها رفعة في الدنيا والآخرة، وهو كذلك تبعة توجب عليه مسئولية أمام الله والناس، وفي الحديث "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به".

وأنت يا أخي أزهري:

من الله عليك فحفظت كتابه الكريم، وهداك إلى معهد تدرس فيه لغة القرآن وأصول الإسلام، وعلوم الشريعة، فأنت ــلو علمت ــ

وارث الأنبياء، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء، تؤدي أمانة العلم، وتبلغ رسالة الله ـ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ رسالة الإسلام.

فعليك ما على أصحاب الأمانات الكبرى من أعباء ثقيلة، وواجبات جمة، فالهدف بعيد، والسفر طويل، والحمل ثقيل، وقطاع الطريق كثير، والسبيل محفوفة بالأشواك، مملوءة بالعقبات.

وعليك أن تزيل الغشاوات عن العيون لترى، والسداد عن الآذان لتسمع، والأكنة عن القلوب لتفقه، مستعينا بالله متوكلا عليه، معلنا في الناس: {ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين}الذاريات:50.

ومعك الضياء الذي لا يخبو، والدليل الذي لا ينحرف. كتاب الله "من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم".

يا أبناء الأزهر:

أنتم مسلمون، فعليكم واجب عظيم بقدر هدى العقيدة التي تميزكم عن الضالين.

وأنتم شباب. فعليكم واجب ثان بقدر الحيوية والحرارة التي تميزكم عن الشيوخ المحطمين.

وأنتم طلاب علم. فعليكم واجب ثالث بقدر الثقافة التي تميزكم عن الجاهلين.

وأنتم حملة رسالة الإسلام، فعليكم واجب رابع بقدر الدراسات الإسلامية التي تميزكم عن المدنيين.

والآن يا أخي الأزهري:

إن مجدنا في الأولى والآخرة مرتبط بالعمل للإسلام، ونحن إن لم نكن به، لم نكن أبدا بغيره، وهو إن لم يكن بنا كان بغيرنا، وقد نمنا زمنا طويلا فقيض الله للدين أفرادا وجماعات نفضت عنه غباره، وذادت عن حياضه، ونشرت تعاليمه، وأحيت في النفوس الأمل في سيادته.

ولولا نهوض هؤلاء في غفلة الأزهر، لكانت العاقبة تسوء المؤمنين وتسر الكافرين.. ولكن دين الله أعز عبده من أن يتخلى عنه ويتركه بلا دعاة وجنود.

فالبدار البدار يا إخوة.والعمل العمل للإسلام.

فإن العالم الإسلامي الآن يجتاز مرحلة دقيقة من حياته، وشبابه المؤمن في كل قطر يعمل جاهدا من أجل دينه.

وعلينا أن نقوم بواجبنا الكامل في هذا الجهاد، وأن نشعل مصابيح الهدى في ليل الشك الذي أطبق على المسلمين ظلامه.

لا ننتظر جزاء إلا من الله الذي لا تضيع عنده الودائع، رابطين حاضرا متحفزا بماض مجيد، متطلعين إلى غد مزهر ومستقبل منير.

يا شباب الأزهر:

تستطيعون أن تكونوا قوة دافعة لهذا الركب المؤمن، وصوتا عاليا يجمع هذه القلوب على كلمة سواء، وأدلاء أمناء لهذه القوافل التي يحدوها الإيمان إلى ربها.

ففي رحاب الأزهر صورة مصغرة للجامعة الإسلامية، وميدان يجب أن تصنع فيه النماذج الإسلامية الكريمة.

فإذا انتشرت في قراها وأقطارها كانت خير عنوان للإسلام، واستطاعت بعزم وعلم وعمل أن تحول الآمال إلى حقائق، والفرقة إلى وحدة، والتخلف إلى سبق بعيد.

هذه مهمتنا التي ندبنا أنفسنا لها، وينتظرها منا مجتمعنا، ويحاسبنا عليها ربنا.

فاعملوا.. فسيرى الله عملكم ورسوله المؤمنون. وإن تتولّوْا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

كان هذا ما كتبته سنة 1953 عن الأزهر ورسالة أبنائه، وكان الذي هيأت له نفسي: أن حياتي العملية بعد تخرجي ستكون كلها في رحاب الأزهر، فمن حقي ـ باعتبار تفوقي ـ أن أعين مدرسا في معاهد الأزهر، ومن واجبي: أن أظل حاملا راية الإصلاح للأزهر، التي حملتها وأنا طالب، وأن أتعاون في ذلك مع إخواني العاملين فيه من أبناء الأزهر المهمومين بقضيته وقضية الإسلام معه بل قبله.

ولكن الأقدار لم تسعدني بتحقيق ما أردت وما أعددت له عدتي، فمنعت من التعيين في الأزهر، وإن عدت إليه فترة قليلة من الزمن (نحو ثلاث سنوات) لا في التدريس ولا في الوعظ، ولكن في الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، مع الأستاذ الكبير الدكتور محمد البهي رحمه الله، في المكتب الفني لإدارة الدعوة والإرشاد مع مدير الوعظ في ذلك الوقت العالم الجليل الشيخ عبد الله المشد

رحمه الله. وذلك في عهد شيخنا الأكبر الفقيه العلامة الشيخ محمود شلتوت رحمه الله.

ومن الأزهر أعرت إلى حكومة قطر، للعمل في وزارة المعارف، وإدارة معهدها الديني الثانوي.

وسأعود إلى الحديث عن هذه الحقبة في قطر، عندما يأتي أوانها في هذا الجزء إن شاء الله.

الصِدام الأول بين الثورة والإخوان

عملية الزائدة الدودية

وفي هذه الفترة ـ فترة بقائي بمدينة المحلة الكبرى ـ وفي إحدى الليالي من شهر نوفمبر 1953م شعرت بمغص شديد، جعلني أتلوى من الألم، وقد عرف الإخوة ما ألمَّ بي فأحاطوا بي، وأعطوني بعض المُسَكِّنات التي لم تغن شيئا في دفع الألم الذي طفق تزداد حدته.

وفي الصباح ذهبوا بي إلى الدكتور زهير، وكان من أطباء الإخوان، فقال لي: إن الزائدة عندك ملتهبة التهابا شديدا، وكان يخشى أن تنفجر، ويجب أن يدخل الشيخ المستشفى فورا، ودخلت مستشفى مبرة المحلة، وكان مستشفى جيدا مجهزا، وتولى د.زهير إجراء العملية لي، وتمت بحمد الله، وبعد أيام خرجت من المستشفى بسلام والحمد لله أولا وآخرا.

فتنة احتلال المركز العام

وفي أثناء وجودي في المستشفى حدث بالمركز العام للإخوان حادث خطير وغريب،

فقد احتل بعض الشباب الذين ينتمون إلى النظام الخاص المركز العام، انتصارا لرئيس النظام عبد الرحمن السَّنَدي، وانشقاقا على المرشد العام الأستاذ الهضيبي.

وأراد هؤلاء الشباب المخلصون في نياتهم، المغررون في فكرهم: أن يفرضوا رأيهم على الجماعة ومرشدها، وهيئاتها الشورية، بالقوة والعصيان.

كان النظام الخاص قد بدأ التمرد على الجماعة، واعتبر نفسه دولة داخل الدولة، منذ عهد الإمام حسن البنا، مؤسسه ومؤسس الجماعة، كما في حادث مقتل الخازندار، الذي غضب الأستاذ البنا منه أشد الغضب، وكما في حادث نسف محكمة الاستئناف الذي حمل الأستاذ على أن يصدر بيانه الشهير يقول فيه عن هؤلاء: إنهم ليسوا إخوانا، وليسوا مسلمين.

وحينما اختير الأستاذ الهضيبي مرشدا للجماعة، وعرف بقصة النظام الخاص وتاريخه ونفوذ قادته، وشعورهم باستقلالهم عن الجماعة، أحس بأن هذا خطر يجب أن يقاوم، فأعلن أول الأمر أن لا سرية في الإسلام.

ثم يبدو أن بعض الإخوان أقنعوه أن الدعوة لا سرية فيها، ولكن بعض التنظيمات تقضي الضرورات التي تعيشها بلادنا أن تكون سرا، ولا سيما مع وجود الاحتلال الإنجليزي، والحكومات الموالية له، وفساد القصر، وتهديد الدولة الصهيونية على حدود مصر،..

الخ، فوافق المرشد على بقائه، على أن يحدث فيه بعض التغيير، وخصوصا في القيادة.

ويظهر أن النظام شعر بذلك، فبدأ يقاوم ذلك، مما أدى إلى فصل أربعة من كبار أعضائه وقادته، وهم رئيس النظام عبد الرحمن السندي، ومحمود الصباغ، وأحمد زكي حسن، وأحمد عادل كمال. وكان الفصل قد صدر من مكتب الإرشاد في 22 نوفمبر سنة 1953م.

وكان ذلك على إثر حادثة غير مسبوقة ولا ملحوقة في تاريخ الإخوان، تمثل جريمة من الجرائم الكبرى التي لا تبرر بحال من الأحوال، وهي قتل أحد الإخوة المخلصين والمهمين من الناقمين على قادة النظام، وقد كان من أركانه، وهو المهندس السيد فائز، الذي كان موضع الرضا والقبول من المرشد العام، ومن كبار الإخوان، ومن كل من عرفه، لما تميز به من حسن الفهم، وقوة الإيمان، وحسن الخلق، والبذل والإخلاص للدعوة.

وكان قتله بطريقة بشعة، إذ أرسلت له علبة حلوى بمناسبة المولد النبوي ، وكان غائبا عن المنزل، فلما عاد وفتح العلبة انفجرت فيه فأودت بحياته، وحياة شقيقه الصغير، وإصابة بعض جدران البيت، وكانت أصابع الاتهام كلها تشير إلى النظام، وإن كان التحقيق الرسمي لم يسفر عن شيء. وقد قال الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ): وقد ثبت ثبوتا قاطعا: أن هذه الجريمة الأثيمة الغادرة كانت بتدبير هذا الرئيس (السندي) وقد قامت مجموعة من كبار المسؤولين عن هذا النظام بقصي الأمور في شأن هذه الجريمة، وأخذوا في تضييق الخناق حول هذا الرئيس حتى صدر منه اعتراف ضمني!

وكانت صلة السندي بعبد الناصر قوية ومستمرة، وهو ما جعل التحقيق في الجريمة شكليا، ولم يوجه لأحد تهمة**!!**

وكانت هذه الجريمة النكراء سبب استياء عارم، وسخط عام في صفوف الإخوان، فكيف يستحل الأخ دم أخيه، وإن اختلف معه في الرأي؟ وبأي ذنب قتلت هذه النفس التي حرم الله، والتي جعل القرآن وكتب السماء من قتلها فكأنما قتل الناس جميعا؟ ومن أفتى هؤلاء بإباحة هذا الدم الحرام؟ أم أنهم جعلوا من أنفسهم المفتي والقاضي والمنفذ؟**!**

ومع هذا لم يكتف رجال النظام بما اقترفوا، بل أرادوا أن يقاوموا قرار فصل الأربعة الذي صدر من مكتب الإرشاد العام صاحب السلطة التنفيذية العليا في الجماعة، والذي من حقه أن يفصل الأعضاء بناء على اعتبارات يراها، وليس من الضروري أن يعلن الأسباب، ولا سيما إذا كان ذلك يضر بالجماعة.

أراد رئيس النظام ومن عاونه من شباب النظام أن يحدثوا انقلابا غير شرعي، وغير دستوري في الإخوان، بأن يحتلوا المركز العام بالقوة، وأن يذهب فريق منهم إلى منزل المرشد العام، ويرغموه على الاستقالة، وأن يتولى فريق من كبار الإخوان المركز العام ويديروه حتى يختار الإخوان لهم مرشدا جديدا.

وبالفعل احتلوا المركز العام، في يوم العطلة الأسبوعية: يوم 27 نوفمبر سنة 1953م. وذهب خمسون منهم إلى بيت المرشد، مقتحمين بغير استئناس ولا استئذان، كما هو أدب الإسلام، وطلبوا منه الاستقالة فرفض، وبهذا أخفقوا في هذا البند.

وقد تجاوب معهم من الكبار: الأستاذ صالح عشماوي، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور

محمد أحمد سليمان، والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، والشيخ سيد سابق، الذي قيل: إنهم اختاروه مرشدا بدل الهضيبي! وذلك بسبب خلافهم مع الأستاذ المرشد، وما كان ينبغي أن يصل بهم الخلاف إلى حد إحداث انشقاق في الجماعة، ومساندة رئيس النظام المعزول في تهوره، ومحاولته الانقلابية الفاشلة، المؤيدة من رجال الثورة، بل لعلها مدبرة منهم.

وقام الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل بدور مهم وكبير في التغلب على هذه المأساة، وبقي طول الوقت في المركز العام، مستغلا منزلته في نفوس الجميع، ومجتهدا في محاولة فض هذا الأمر، وإقناع الشباب بالانصراف، وقد استجابوا له بالفعل، فلم يأت الفجر حتى كانوا قد رحلوا.

وسرعان ما شعر الكثير منهم بجسامة ما اقترفوا، وسارع بعضهم إلى التوبة والاعتذار، ومنهم الأخوان الكريمان: علي صديق، وفتحي البوز.

وفي المساء امتلأ المركز العام بالإخوان، وتحدث عدد من دعاة الإخوان: عبد الحكيم عابدين، وسيد قطب، وسعيد رمضان، وعز الدين إبراهيم، وختم اللقاء بكلمة المرشد العام.

واعتذر د. سليمان، وأعلن ثقته بالمرشد العام، واكتفي منه بذلك، وأحيل الثلاثة الآخرون: عشماوي والغزالي وجلال إلى (لجنة العضوية) بالهيئة التأسيسية بصفتهم أعضاء بها، لتنظر في أمرهم، وانتهى الأمر بفصلهم، وهي نهاية مؤسفة، ولكن لم يكن بد منها، وآخر الدواء الكيّ! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

حدثت هذه الأحداث الخطيرة، وأنا في مستشفى المبرة بالمحلة، عرفت بعضها بالتليفون، وبعضها من الإخوة الذين زاروني؟ وقصوا علي ما جرى. فلم تؤلمني الجراحة التي أجريت في جسدي، بقدر ما آلمتني الجراحة التي تمت في جسد الجماعة التي آمنت بقدسية فكرتها، وسمو أهدافها.

إحراق سيارة هيئة التحرير بجامعة القاهرة

كان من أهم الأحداث وأخطرها في تلك الفترة ما حدث في 12 يناير سنة 1954م، بجامعة القاهرة.

ذلك أن طلبة الإخوان في جامعة القاهرة، أرادوا الاحتفال بشهداء الجامعة شاهين والمنيسي وغانم، ودعوا الزعيم الإيراني المعروف (نُوّاب صفوي) أحد المعارضين لطغيان الشاه زعيم حركة (فدائيان إسلام) الشهيرة ـ وكان يزور القاهرة وقتها ـ لحضور حفل الجامعة، وعمل مؤتمر بهذه المناسبة، وقد دعوني مع عدد من طلاب جامعة الأزهر للمشاركة في هذا المهرجان الوطني الإسلامي.

وقد تكلم زعيم الجامعة الأخ حسن دوح، وقدموني، فتكلمت كلمة باسم الأزهر، وتلكم بعض الإخوان، كما تكلم نواب صفوي.. وفي أثناء كلامه أراد الطلاب المنتمون إلى (هيئة التحرير) أن يفسدوا هذا الحفل، بإحداث بعض الشغب، لينفرط العقد، وينقسم الناس، ويتشاغلوا بفض النزاع، فينفض الحفل، وهي طريقة معروفة لدى الحزبيين من قديم.

وكانت (هيئة التحرير) هي الحزب الجديد، الذي أنشأته ثورة يوليو، ليستغنوا به عن المساندة الشعبية للإخوان، وليكون سندهم الشعبي في تأييد قراراتهم السياسية، وفي الانتخابات في المستقبل،

وهو الذي تطور بعد ذلك إلى الاتحاد القومي، ثم انتهى إلى الاتحاد الاشتراكي.

عزَّ على الإخوان أن يهان ضيفهم الكبير، وأن يضطرب الاحتفال الكبير الذي أقاموه له، فقاوموا طلاب هيئة التحرير، ومن جاء يساندهم من رجال الأمن ومنظمات الشباب من الخارج، واصطدموا بهم اصطداما عنيفا، وكان لدى الإخوان طلاب أشداء أقوياء معروفون من خريجي المعتقلات والسجون، مثل الأخ محمود أبو شلوع وغيره، الذين هتفوا بسقوط هيئة التحرير، بل أحرقوا لها سيارة دخلت الجامعة، لا أدري لماذا، وتكهرب الجو السياسي العام، وتلبدت سماء السياسة بالغيوم الكثيفة، وانفض الجميع، لا يدرون عاقبة ما حدث في الجامعة.

كنت مكلفا في هذا اليوم بإلقاء محاضرة في المساء في مدينة بنها، وقد سافرت إليها، وألقيت محاضرة بدار الإخوان هناك، وسلمت على الإخوة هناك، وعلى رأسهم الأخ محمد عبد الحليم عيسى، وزرت معه الأخ القديم المبارك الشيخ عبد الله النبراوي في منزله، ووصلني الإخوة إلى محطة القطار.

وفي المحطة وجدت أستاذنا البهي الخولي واقفا ينتظر القطار الذي أنتظره، وقد قدم من محاضرة ألقاها في شبين الكوم. وحكيت له ما حدث في صباح اليوم في جامعة القاهرة، وكان لا يعلم شيئا عنه، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. نحن الآن أمام امتحان خطير بعد هذه الواقعة. لا ندري هل سيبلعها (جمال) أي عبد الناصر، ويفوِّتها؟ أو يتخذ منها تكأة ليضرب ضربته؟ ستكشف ذلك الأيام القليلة القادمة.

الاعتقال الأول في عهد الثورة

وفي مساء اليوم التالي، ذهبت أنا والأخ أحمد العسال ـ وكنا زميلين في الدراسة ـ إلى كلية اللغة العربية في الدراسة، لنحضر كعادتنا المحاضرات المقررة علينا في تخصص التدريس.

وما كدنا ننزل من الحافلة (الأوتوبيس) ونصل إلى الباب، حتى وجدنا من يترقبنا، من رجال المباحث، ويأخذ بأيدينا في يسر، ويقول: تفضلوا معنا، ولم يكن لنا بد من أن نتفضل معهم. كل ما طلبناه منهم أن نذهب إلى البيت، لنضع كتبنا الدراسية هناك، ونأتي ببعض الملابس، ولم يمانعوا في ذلك، وأخذنا إلى السجن الحربي، لمجرد أن نبيت فيه ليلة أو ليلتين، ثم أخذونا بعد ذلك إلى معتقل (العامرية) بالقرب من الإسكندرية.



معتقل العامرية

وهناك عملنا على تحويل المعتقل إلى جامع وجامعة وجمعية: جامع للعبادة، وجامعة للتثقيف، وجمعية للتعاون على الخير.

يبدأ يومنا من قبل الفجر في التهجد وتلاوة القرآن، وذكر الله، والتضرع إليه بالدعاء والاستغفار، ثم صلاة الفجر في جماعة، ثم قراءة الأذكار والأدعية المأثورات، ثم درس علمي روحي، ألقيه أنا أو الأخ العسال، أو الأخ عز الدين إبراهيم، أو الأستاذ عطية الشيخ، أو غيرهم من دعاة الإخوان.

ثم طابور الرياضة، فالإفطار، ففترة حرة للقراءة والمناقشة والتزاور، ثم صلاة الظهر في جماعة، وبعدها الغداء والقيلولة. ثم تأتي فترة العصر للمحاضرات والندوات والأنشطة الثقافية المختلفة حتى صلاة المغرب.

وبعد صلاة المغرب وقراءة المأثورات، يكون العَشَاء ثم العِشَاء، ثم قد يكون هناك درس علمي مركز. ثم نخلد إلى النوم.

لقد استفاد الإخوان من معتقل الطور، وأرادوا أن ينقلوا التجربة إلى معتقل العامرية، فكانت صورة أخرى منه.

وما هي إلا أيام قليلة ونحن في معمعة هذا النشاط، حتى نودي على ستة من المعتقلين دون غيرهم، لينقلوا إلى القاهرة، كنت واحدا منهم. وهم: محمود عبده، وعز الدين إبراهيم، ومحمود حطيبة، ومحمود نفيس حمدي، وأحمد العسال، ويوسف القرضاوي.

في أول الأمر ظن الإخوان أن هذا أول كشف من كشوف الإفراج**!**

ولكن بالنظر في الأسماء التي نودي عليها، يستحيل أن يفرج عنها قبل غيرها، وهم من قادة العمل الطلابي والشبابي والدعوي.

وذهبت ظنون الإخوان وتفسيراتهم مذاهب شتى، لماذا هؤلاء دون غيرهم؟ وهل هم مفرج عنهم؟ ولماذا؟ وكيف؟ وهم من أنشط الإخوان؟ حتى قال بعضهم: إنهم أخذوهم ليحرموا الإخوان في المعتقل من نشاطهم ومحاضراتهم، ولكن قد ينطبق هذا على عز الدين والعسال والفقير إليه تعالى.

وقال بعض الإخوان: لعلهم يريدون أن يتفاوضوا مع شباب الإخوان خاصة، وكله ظن وتخمين، والظن لا يغني من الحق شيئا.

إلى السجن الحربي

على كل حال أخذنا نحن الستة في سيارة كبيرة، ووصلتنا إلى مكان في ضواحي القاهرة، أدخلنا إليه،

فإذا هو السجن الحربي الذي بتنا فيه ليلة اعتقالنا.

وقد وضعنا في سجن رقم (4) في زنازين انفرادية، وكان هذا هو السجن الذي ضم بعد ذلك الأستاذ الهضيبي المرشد العام وعددا من قادة الإخوان.

ورغم أن كلا منا في زنزانة انفرادية،فقد سمحوا بفتح الزنازين معظم النهار، وكنا نتزاور، ونصلي في جماعة، وقد أمرني الأستاذ المرشد أن أكون إماما لهم، فكنت أصلي بهم، وأطيل في الصلاة الجهرية، بحيث أقرأ ربعا أو أكثر أحيانا في الركعة، فنصحني الأستاذ أن أخفف. وكان هذا من فقهه رحمه الله، رعاية للكبير والضعيف وذي الحاجة.

وهذا ما جعل بعض الإخوان بعد ذلك إذا التقينا في مناسبة ما، يقدمونني للصلاة بهم، ويقولون: أنت الإمام بأمر المرشد.

وكان من الإخوان البارزين الذين شرفوا معنا في السجن الحربي الأستاذ الداعية المعروف سعيد رمضان زوج ابنة الإمام البنا، الذي

ساعدته الأقدار، فلم يشارك معنا في معتقل الطور، كما ساعدته مرة أخرى، فلم يدرك الاعتقال الثاني في عهد الثورة، حيث كان في الخارج، وأسقطت عنه الجنسية مع أربعة آخرين من الإخوان.

وكان منهم الأستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للإخوان، وزوج شقيقة الأستاذ البنا، الشاعر الرقيق المطبوع، وكان الأستاذ عابدين له في الأسحار دعوات واستغاثات يناجي بها ربه، بطرف دامع، وقلب خاشع، يسمعها من حوله في زنازينهم. وقد رآني الأستاذ عابدين يوما أنتفض من البرد، ولم يكن عليَّ من الألبسة الصوفية ما يتدثر به الموسرون عادة، فأهداني من عنده ما يسمونه (بلوفر) رصاصي اللون، لأتدفأ به في برد الشتاء، وهذه أول مرة ألبس فيها هذا النوع من الثياب، وقد بقي معي ودخلت به السجن الحربي في الاعتقال القادم، الذي قضيت فيه شتاءين، فأفادني كثيرا، جزى الله الأستاذ عابدين خيرا عن أخيه الفقير.

ولكن هذه الحال لم تدم كثيرا، فنقل المرشد ومعه مجموعة من القياديين إلى عنبر الإدارة، وبقينا نحن في عنبر 4

وكانت المعاملة بصفة عامة حسنة، يمر علينا في صباح كل يوم مدير السجون الحربية، وكان اسمه اللواء نظيم، كما يمر بنا طبيب السجن، وأحيانا تحدث غضبة مفاجئة لأي سبب، فيغلقون علينا الزنازين، وهنا ننتهزها فرصة للقراءة فيما حملنا من كتب قليلة، أذكر من الكتب التي كانت معي كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) لابن القيم طبعة صبيح، وهي ليست طبعة أنيقة ولا محققة،

ولكنها كانت تؤدي الغرض. وكانت إدارة كلية أصول الدين تعطينا بعض الكتب هدية منها، للاطلاع وتنمية الثقافة، وكان منها (زاد المعاد) وهي سنة حسنة، انقطعت بعد ذلك، ربما لضيق الميزانيات.

وأحسب أنه كان معنا بعض كتب التربية المقررة لنا نراجعها مع الأخ محمد مرسي عبد الله، وكان من خريجي معهد التربية العالي.

وأراد الأخ إبراهيم أن يصدر مجلة باسم المعتقل، وطلب إلي أن أشارك فيها بقصيدة، فأنشأت قصيدة (زنزانتي) المنشورة بديواني (المسلمون قادمون) ومن قارن وصف الزنزانة في هذه القصيدة ووصفها في قصيدتي (النونية) الشهيرة يعرف الفرق بين الاعتقال الأول في يناير 1954م والاعتقال الآخر في أكتوبر 1954 وما بعده.

وفي هذه القصيدة قلت:

ويزورني فيها الطبيب يسلّم

ونزلتها ضيفا أُعَزُّ وأُكْرَم

فيها لئيم أو أخ لي مسلم

تدمي، وأنى؟ والمقص محرم!

أثر، وحتى لست ممن يحلم!!
ومنايَ، إلا هاشم أو مكرم

حرّى تهز العرش وهو الأعظم
مع من يرى ما في الضمير ويعلم

أتلوه، يهدي للتي هي أقوم
والمرء حتى موته يتعلم

وجها عبوسا أو لسانا يشتم
عندي سوى قلب يعيثُ ويجرم

هي غرفتي للنوم حين تُنَوّم
في الرّكن، والباقي فضاءٌ يعظم!

في موضعي، إن الضرورة تحكم
إن جاء ميعاد الطعام فأطعموا

أجرٌ لسكناها به أتقدّم!

أو في النهار إذا أبوا وتحكموا

دارٌ حَلَلْتُ بها أُزار وأُخدم
قفصٌ، وإني في حديدِك ضيغمُ!

دار السلام، فليس فيها آلة
يسعى إلي بها المدير وجنده

مَلِك بها أنا، لا يرد رغائبي
هي لي، ولي وحدي، فليس منازعي

أنا في حماها راهب في خلوة
حجبت عن الدنيا فلا خبر ولا

هي علمتني الزهد في مُتع الورى
منها أصعّد للسماء ضوارعا

أو قيل: معتمةٌ، فليس بمعتم
إن قيل: موحشةٌ، فأُنْسي مصحف

أو قل: ضيقةٌ فكلّ حوائجي
أو قيل: مغلقةٌ، فذا كيلا أرى

هي مكتب حينا، وحينا مطعم
هي حجرتي فيها نهاريَ مجلسي

هي (دورتي) في الليل إنْ طال المدى
هي ساحة لرياضتي أعدو بها

حييت يا زنزانتي، فلأنت لي
هذا وليس عليَّ أوّل شهرها

وفي قصيدتي (النونية) قلت:

روضٌ، وتلك جحيمُ أهل الدِّين!
كانت هي القبر الذي يؤويني؟!

متداخلين كعُلْبةِ (السردين)

هي في هجير الصيف مثلُ أتون

هي ساحةٌ للّعْبِ والتمرين
وهي (البوفيه) وحجرة (الصالون)

في الكون ما أرجوه أو يرجون
ما الذنبُ إلا ذنبُ من سجنوني

أعنيه في شيء ولا يعنيني..
أما السماء فسقفها يعلوني

لا بل ظلمتُ القبر، فهو لذي التُّقى
أعرفتَ ما قاسيتُ في زنزانة

نُلقى ثمانيةً بها أو سبعةً
هي في الشتاء وبرده (ثلاجةٌ)

هي مسجد لصلاتنا ودعائنا
هي منتدانا وهي غرفةٌ نومنا

هي كلُّ الأرض عندي: أرضها
وهي (الكنيف) وللضرورة حكمها

فيها انقطَعْتُ عن الوجود فلم أعد
الأرض كل ما لي في الحياة فلم يعد

ومما عرفناه ونحن في السجن الحربي: أن الأستاذ الهضيبي بعث برسالة إلى الرئيس محمد نجيب، تتضمن

بعض النصائح، ويطالبه فيها بإعادة الحريات والحياة النيابية إلى الشعب، ومما أذكره مما جاء في هذه الرسالة قوله: إنكم عبتم على الأحزاب والزعماء قبل الثورة: أنهم لم يقولوا للملك وبطانته: لا، حيث يجب أن تقال. وأنتم بموقفكم من الإخوان تمنعونهم أن يقولوا لكم: لا، حيث يجب أن تقال.

أحداث فبراير 1954:

ثم وقعت أحداث فبراير عام 1954 التي بدأت داخل الجيش وسلاح الفرسان بقيادة خالد محي الدين، بعد إعلان قبول استقالة محمد نجيب .. خرجت المظاهرات تطالب نجيبا بالبقاء. وكان من المعروف أنها من تدبير الإخوان المسلمين.. وشهدت القاهرة أعنف المظاهرات، واضطر عبد الناصر إلى إعادة نجيب.

وفي يوم 28 فبراير خرجت المظاهرات من جامعة القاهرة والأزهر، ومن أبناء الشعب، فأصيب عدد من المواطنين، منهم الطالب ثروت يونس العطافي، الطالب بكلية الهندسة، واستشهد أحد طلاب الإخوان، وهو الطالب توفيق عجينه، وحمل المتظاهرون قمصان المصابين ملوثة بدمائهم وتوجهوا إلى قصر عابدين.. وخرج إليهم محمد نجيب محاولا دفعهم للانصراف.. ولكنهم لم يتحركوا.. ولمح بينهم الأستاذ عبد القادر عودة، فدعاه إلى الشرفة لإلقاء خطاب لفض المتظاهرين –وصعد بالفعل، ووقف بجوار محمد نجيب الذي أعلن أنه سينشئ الجمعية التأسيسية وسيعيد الحياة النيابية.. وانصرفت المظاهرات. وجاء في خطاب نجيب ما يلي:

" إننا قررنا أن تكون الجمهورية جمهورية برلمانية على أساس، هو أن نبدأ فورا بتأليف جمعية تأسيسية تمثل كافة هيئات الشعب المختلفة، لتؤدي وظيفة البرلمان مؤقتا، وتراجع نصوص الدستور بعد أن يتم وضعها. وبعد ذلك تعود الحياة النيابية إلى البلاد في مدى أقصاه نهاية فترة الانتقال. وهذا أمر متفق عليه.. ونحن عند وعدنا الذي قطعناه على أنفسنا من أننا لم نقم إلا لإعادة الدستور على أساس سليم في نهاية فترة الانتقال".

واختتم نجيب كلمته قائلا:

"نحمد الله سبحانه تعالى مرة أخرى على أننا اجتزنا هذا الامتحان القاسي بنجاح .. وأؤكد لكم مرة أخرى أني لا أطمع في حكم أو سلطة أو جاه، وإنما أطمع فقط في أن أؤدي واجبي، وأن تزهق

روحي في سبيل بلادي وتحريرها، وفي سبيل اتحاد أبنائها.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وكانت تلك الكلمة سببا في انصراف المتظاهرين.. وفي نفس الوقت أثارت ثائرة عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين.. فقد همس معاونوه أن الذي أوحى لنجيب بهذا الكلام هو عبد القادر عودة أحد أقطاب الإخوان، الذي كان يقف إلى جوار نجيب في شرفة قصر عابدين.

ومرت ثلاثة أيام .. وفي يوم 2 مارس قامت سلطات البوليس الحربي باعتقال 118 شخصا بينهم 45 من الإخوان، و20 من الاشتراكيين، و5 من الوفديين، و4 شيوعيين، بادعاء أنهم كانوا يدبرون لإحداث فتنة في البلاد، مستغلين فرحة الشعب بعودة نجيب.. وكان في مقدمة المقبوض عليهم: حسن الهضيبي وعبد القادر عودة وصالح أبو رقيق وأحمد حسين زعيم الاشتراكيين.

وتعرض بعض رجال الإخوان المسلمين لعمليات التعذيب داخل السجن الحربي. وفي 8 مارس 1954 بعث عمر عمر نقيب المحامين برسالة إلى نجيب ـ وكانت قد عادت له كل السلطات ـ يطلب فيها التحقيق في وقائع التعذيب التي حاقت بالمحامين المعتقلين، وهم: أحمد حسين، وعبد القادر عودة، وعمر التلمساني.

وأمر نجيب بالتحقيق فورا. ومع هذا لم يبدأ التحقيق إلا بعد مرور عشرة أيام بسؤال الثلاثة. وأكدوا جميعا أن الضابط محمد عبد الرحمن نصير، كان يشرف على أعمال التعذيب، وكان يشترك في ضربهم بنفسه.. واستطاع المرشد أن يهرّب رسالة من سجنه إلى محمد نجيب نشرت بجريدة المصري، وكان فيها:

أما بعد، فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قرارا في 12 يناير 1954 بأنه يجري على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية. ومع ما في هذا القرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه، فقد صدر بيان نسبت إلينا فيه أفحش الوقائع، وأكثرها اجتراء على الحق، واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقال ولا بأسبابه. وقيل يومئذ: إن التحقيق في الوقائع التي ذكرت به سيجري علنا، فاستبشرنا بهذا القول؛ لأننا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الرد عليه، لنبين أن ما اشتمل عليه وعلى الصورة التي جاءت به لا حقيقة له - فيعرف كل إنسان قدره، ويقف عند حده. ولكن ذلك لم يحصل.

وإلى أن تتاح لنا الفرصة، فإننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنا وندعو أنفسنا: إلى ما أمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام حين قال: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) آل عمران: .

وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها بلغوا

عدة آلاف، لكثير منهم مواقف في الدفاع عن البلاد وعن حرياتها شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس. أما كيفية الاعتقالات ومعاملة المعتقلين فلن نعرض لها هنا.

وقد بدت في مصر بوادر حركة ـ إن صحت ـ فقد تغير من شؤونها وأنظمتها. وإن قرار حل الإخوان وإنزال اللافتات عن دورهم لم يغير الحقيقة الواقعة، وهي أن الإخوان المسلمين لا يمكن حلهم؛ لأن الرابطة التي تربط بينهم هي الاعتصام بحبل الله المتين، وهي أقوى من كل قوة. ومازالت هذه الرابطة قائمة، ولن تزال كذلك بإذن الله. ومصر ليست ملكا لفئة معينة ولا يحق لأحد أن يفرض وصايته عليها أو يتصرف في شؤونها دون الرجوع إليها والنزول على إرادتها.. لذلك كان من أوجب الواجبات على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لا يمكن أن يبت في شؤون البلاد في غيبتهم. وكل ما يحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر في استقرار الأحوال ولا يفيد البلاد بشيء.

وإن ما دعوتم إليه من الاتحاد وجمع الصفوف لا يتفق وهذه الأحوال، فإن البلاد لا يمكن أن تتحد وتجمع صفوفها وهذه المظالم وأمثالها قائمة.

نسأل الله تعالى أن يقي البلاد كل سوء، وأن يسلك بنا سبيل الصدق في القول والعمل، وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الإفراج عن المعتقلين إلا واحدا هو أنا

في يوم 25 مارس، أي بعد حوالي شهرين ونصف من بدء الاعتقال، صدرت الأوامر من قيادة الثورة بالإفراج عن الإخوان في كل المعتقلات، سواء من كانوا في السجن الحربي أم في العامرية أم في غيرهما.

ونودي على جميع الإخوان الذين كانوا في السجن الحربي، فأفرج عنهم إلا واحدا، لم يناد عليه، وهو أنا. وأسقط في يد المسؤول عن السجن، حين لم يجد اسمي في كشف المفرج عنهم. فقد كان يظن أن الكشف يستوعب جميع المعتقلين. وأبدى تأسفه لي، وقال: لا بد أن اسمك سقط سهوا.. ولا بد أن تبقى ضيفا علينا الليلة حتى نتصل بالمسؤولين في الصباح لتدارك الأمر.

وعرف عدد من الإخوان ما حصل، فصبروني على البقاء هذه الليلة، وأكثرهم لم يعلم بذلك. وبقيت وحدي هذه الليلة في سجن الإدارة، وكانت ليلة طويلة طول ليالي المعتقل الماضية كلها. لأني بقيت فيها وحدي شاعرا بالوحشة، فاقدا الأنس بإخواني، حتى لو كان كل منا في زنزانة انفرادية، وقديما قال العرب: البلايا إذا عمَّت طابت. وعبرت عن ذلك الخنساء قديما في رثائها لأخيها صخر بقولها:

وأذكره بكل غروب شمس

يذكرني طلوع الشمس صخرا

علـى إخوانـهم لقتلت نفسي

ولولا كثرة الباكين حـولي

أعـزي النفس عنه بالتأسّي

وما يبكون مثل أخـي، ولكن

وقد فاتني ببقائي بالمعتقل في هذه الليلة: الاشتراك في المؤتمر الكبير الذي عقده الإخوان في المركز العام ليلة خروجهم من قفص الاعتقال، وقد بلغني عنه بعد ذلك: أنه كان مؤتمرا حاشدا، تحدث فيه عدد من دعاة الإخوان، منهم الأستاذ سيد قطب، الذي قال: لن نعتقل بعد اليوم. لن نمسّك كالفراخ (الدجاج) ونوضع في المعتقلات.

وأوصى الأستاذ الهضيبي المرشد العام الإخوان: ألا يكثروا الحديث عما أصابهم من المحن في سبيل الله، فإنهم لا يدرون ما ينتظرهم مما يخبئه الغد. وكأنما كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق!

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح الغد جاءني الضابط المسؤول، وقال لي: لقد صحح الخطأ، وجاءت الأوامر بالإفراج

عنك، ونأسف لما حدث، وسنأمر بسيارة توصلك إلى منزلك، تكفيرا عن غلطة الأمس.

قرارات مجلس الثورة التي لم تنفذ

يوم 25 مارس هذا الذي تقرر فيه الإفراج عن آخر دفعة من المعتقلين هو نفس اليوم الذي اجتمع فيه مجلس الثورة اجتماعا استمر خمس ساعات بحث خلالها الموقف الداخلي. وبعد انتهاء الاجتماع خرج الصاغ كمال الدين حسين إلى الصحفيين وأذاع عليهم القرار التاريخي وهذا نصه:

قرر مجلس الثورة بجلسته اليوم1954/3/25:

أولا: يسمح بقيام أحزاب.

ثانيا: المجلس لا يؤلف حزبا.

ثالثا: لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هناك تأثير على الانتخابات.

رابعا: تنتخب الجمعية التأسيسية انتخابا حرا مباشرا بدون أن يعين أي فرد وتكون لها السيادة الكاملة والسلطة الكاملة، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة، وتكون الانتخابات حرة.

خامسا: حل مجلس الثورة في 24 يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لممثلي الأمة.

سادسا: تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

المصالحة مع الإخوان:

وبعد أن نشرت الصحف هذه القرارات، نشرت ما يأتي:

"تم الإفراج أمس عن الأستاذ حسن الهضيبي من السجن الحربي كما أفرج عن باقي أعضاء جماعة الإخوان المعتقلين. وقد تم اتصال أمس بين المسؤولين وبين السيد حسن الهضيبي المرشد العام قبل الإفراج عنه بشأن عودة جماعة الإخوان المسلمين إلى نشاطها السابق.

وقد تم الاتفاق معهم على ثلاث نقط:

أولا: أن تعود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أي حد من حرياتها، وإعادة أموالها المصادرة وشعبها ومركزها العام.

ثانيا: الإفراج فورا عن جميع الإخوان مدنيين أو عسكريين مع إعادة من فصل منهم إلى الخدمة العسكرية.

ثالثا: أن يصدر مجلس الثورة بيانا يوضح فيه حقيقة الأسباب التي اعتبرها داعية إلى حل الإخوان. ويكون هذا البيان بمثابة الختام في هذه المسألة المؤسفة.

وقد صرح السيد حسن الهضيبي للمسؤولين بأن الإخوان سيكونون بعد عودتهم عونا للحكومة على طرد الإنجليز من منطقة قناة السويس، ورد اعتداءاتهم الوحشية. وفي منتصف ليلة أمس توجه البكباشي جمال عبد الناصر إلى منزل الأستاذ الهضيبي حيث اجتمع به في منزله.

وكانت صحيفة (المصري) الناطقة بلسان حزب الوفد، والتي يصدرها آل أبو الفتح، هي الجريدة المعارضة الوحيدة المسموح لها حتى الآن، والتي كانت تنطق بلسان الشعب، وتتبنى مطالبه بقوة، وقد اتسع انتشارها في الآونة الأخيرة لتجاوبها مع الجماهير، ولهذا سرعان ما أغلقتها الحكومة.

وكذلك كانت مجلة (روز اليوسف) الأسبوعية، التي كان يرأس تحريرها الكاتب المعروف الأستاذ إحسان عبد القدوس، الذي كتب في هذا الوقت مقالات نارية ضد الثورة، لا زلت أذكر عنوان واحد منها، وهو (الجمعية السرية التي تحكم مصر) مما وضعه عندهم في القائمة السوداء، ولقي جزاءه بعد ذلك.

الإضرابات المصنوعة

وبدأت جماعة الإخوان المسلمين تستأنف نشاطها من يوم 26 مارس.. واعتقد الجميع أن الحياة النيابية ستعود.. وفي نفس اليوم بدأ عبد الناصر تنفيذ خطته... وفوجئت القاهرة بتوقف جميع وسائل النقل بها في الساعة الواحدة ظهرا ما عدا الترام، وبعد أن استطاع أن يستميل إليه الصاوي أحمد الصاوي رئيس اتحاد نقابات عمال النقل، الذي دفع له عبد الناصر أربعة آلاف جنيه، وكانت مبلغا محترما في ذلك الوقت، ليعلن إضرابا شاملا لمطالب خاصة.. ثم بدأت الإذاعة تذيع إضراب العمال بسبب قرارات عودة الحياة النيابية للبلاد، ورغبتهم في الإبقاء على مجلس الثورة.

وخرجت جريدتا الأهرام والأخبار تؤيدان هذا الاتجاه، وتطالبان ببقاء مجلس الثورة.. بينما انفردت جريدة المصري بالوقوف ضد هذا الاتجاه.. ومحاولة الكشف عن المؤامرة التي تدبر للقضاء على الحياة النيابية الدستورية الطبيعية للبلاد.

وبدأت المظاهرات تشتد.. وهي المظاهرات التي كان يدبرها البوليس الحربي، وكانت تطالب بعدم عودة الحياة النيابية..وتهتف بسقوط المثقفين! وذهبت إلى مجلس الدولة، فاعتدت على رئيسه القانوني الكبير د.عبد الرزاق السنهوري!

بيان من الإخوان حول الأزمة

"أنشأت قصيدة (زنزانتي) المنشورة بديواني (المسلمون قادمون) أثناء تواجدي في السجن الحربي ومن قارن وصف الزنزانة في هذه القصيدة ووصفها في قصيدتي (النونية) الشهيرة يعرف الفرق بين الاعتقال الأول في يناير 1954م والاعتقال الآخر في أكتوبر 1954 وما بعده"

وأصدر المرشد العام بيانا يوم 28 مارس هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. لا ريب أن مصر الآن تمر بفترة بالغة الدقة والخطورة في تاريخها، بعيدة الأثر في كيانها ومستقبلها. وهي فترة تقتضي من كل مواطن أن يهب البلاد نفسه، ويبذل لها وجوده، ويؤثرها بالخالص من رأيه ومشورته حتى يأذن الله بانجلاء هذه الغمرة، ويبدل الوطن منها حياة أمن واستقرار ووحدة.

وقد فوجئ الإخوان المسلمون غداة خروجهم من السجون والمعتقلات بتوالي الأحداث الخطيرة التي تتعرض لها البلاد في

حدة وسرعة لم يتيسر معها معرفة أسبابها والعوامل التي تؤثر فيها، ثم تحديد وسائل العلاج التي تلائمها.

من أجل ذلك بادر الإخوان المسلمون إلى العمل على أداء واجبهم في التماس المخرج من هذه الأزمة، فبدا لهم أن من العسير أن ترسم الخطط الصالحة، ويوضع العلاج لهذه المشاكل، وتسمع المشورة الصادقة المستقلة في جو الغضب والانفعال، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الله أن لا يستجيب له وهو غضبان.

لهذا لم يكن بد من الإسراع بلقاء المسؤولين والاتصال بطرفي الخلاف للدعوة إلى اتخاذ مهلة تتجنب فيها المضاعفات، وتنتهي فيها حالة التوتر القائمة حتى يتيسر لأولي الرأي والإخلاص أن يتقدموا للمسؤولين من الأمة بخطة كاملة مدروسة تكشف عن البلاد هذه الشدة، وتضع الحلول الكفيلة بوقاية البلاد من أن تتعرض لمثلها في أية مناسبة.

وعلى هذا الأساس قام وفد من الإخوان المسلمين برياسة المرشد العام بلقاء البكباشي جمال عبد الناصر في الليلة الماضية ثم بزيارة اللواء محمد نجيب لانشغاله في هذه الليلة بالاجتماع بجلالة الملك سعود ضيف مصر الكبير، الذي آثر مشكورا بكريم وساطته في علاج هذا الموقف العصيب.

ومازال الإخوان المسلمون يواصلون خطواتهم في إقناع المسؤولين باتخاذ مهلة، مع قيامهم في الوقت نفسه بدراسة خطة العلاج الشاملة، آملين أن يستجيب المسؤولون إلى ندائهم، فتتغلب الحكمة والوطنية على بواعث الخلاف والفرقة، ويلتقي الجميع بإذن الله على كلمة سواء.

وإذا كانت الجهود تتوالى في العمل على جمع الكلمة وحل الأزمة، فإننا نناشد شعب مصر الكريم أن يعتصم بالهدوء والسكينة ورباطة الجأش، وأن ينصرف أبناؤه جميعا إلى أعمالهم في انتظام وطمأنينة، مع التوجه إلى الله العلي الكبير أن يحفظ البلاد من كل سوء، وأن يعين الساعين، ويجمع المسؤولين على الحل الكامل السليم الذي يخرج بالبلاد من المأزق الحاضر، ويحفظ وحدة الأمة، ويصون حقوق الشعب وحرياته، ويحقق الاستقرار المنشود، في ظل حياة نيابية نظيفة محوطة بالضمانات التي تجنبها مساوئ الماضي، وتوفر الجهود لتخليص الوطن من الغاصب المستعمر، ولمتابعة حركة الإصلاحات الإيجابية التي تستكمل البلاد بها نهضتها والله ولي التوفيق".

وأذيع هذا البيان الذي طلبه عبد الناصر من المرشد بعد اتفاق الاثنين، على أن توقف المظاهرات لحين انتهاء زيارة الملك سعود، وإيجاد حل للأزمة ـ ونشر البيان يوم 29 مارس نفس يوم مغادرة الملك سعود مصر.

ما بعد إفراج مارس 1954:

بعد هذا الإفراج عدت إلى حياتي العادية: عدت إلى القرية ليراني الأهل والأقارب والأحبة وأراهم، وعدت إلى الخطابة في مسجد آل طه بالمحلة كالمعتاد، بل بصوت أجهر، ونشاط أظهر، ووجدت مكتبتي، ولكن لم أجد فيها المبلغ الذي كان فيها، فقد نبهتهم عليه، فاستحلوا أخذه ولم يعترف أحد منهم بذلك، واستعضته عند الله، وهو مبلغ بسيط ـ أكثر من خمسين جنيها ـ ولكنه كان في ذلك الوقت يعتبر ثروة بالنسبة لمثلي.

ومما أذكره في تلك الفترة: أننا أردنا أن نبني دارا للإخوان في قريتنا صفط تراب، وذلك في مكان ليس مملوكا لأحد، إنما هو ملك عام، كان مقابر قديمة جدا. وجهزنا الحجارة، وأحضرنا الطين اللازم للبناء، وأعددنا العدة لذلك، ولم نعلن عنها، إلا قبلها بقليل، وكان البناؤون والمساعدون لهم جاهزين، فبدأنا في الليل، ولكن شيخ الخفراء، وخفراءه جاؤوا واصطدموا بنا، وكانوا قد بلغوا مركز المحلة الكبرى، فجاءت الشرطة، وكنا تفرقنا، فأخذونا من بيوتنا، وذهبوا بنا إلى حجز مركز الشرطة بالمحلة، وبتنا به ليلة، وقد حققوا معنا ثم أفرجوا عنا، وعدنا إلى القرية يهتف الشباب بحماس: الله أكبر ولله الحمد، إخوان مسلمون ولو كره المجرمون، وكانت هذه الحادثة في بداية التوترات بعد الإفراج في مارس

شركة الأخوّة الإسلامية بالمحلة

وكان مما فكر فيه إخوان المحلة أمام المد الأخواني: أن ينشئوا شركة تجارية عامة، تساهم فيها الجماعة، كما يساهم فيها الإخوان بأموالهم الخاصة، ويكون جزء من أرباحها للدعوة، وقد أنشئت بالفعل باسم "شركة الأخوّة الإسلامية" وساهمت فيها بكل ما أملك مما ادخرته من راتبي.

ولم تكد الشركة تجري سفينتها باسم الله مجراها ومرساها، وجرت بهم بريح طيبة، حتى جاءتها ريح عاصف، فأحاط بها الموج من كل مكان، وكانت المحنة مع الثورة، فصودرت الشركة وأغلقت، واستطاع أحد الأخوان ـ وهو الحاج سليمان مطاوع ـ أن يشتريها من الحكومة بطريقة خاصة، ويحولها إلى شركة خاصة باسم (شركة الشرق) وهي لا تزال تعمل إلى اليوم، المهم أن الذين دفعوا أموالهم فيها أولا خسروا نقودهم وعوضهم على الله.

وليست هذه أول مرة يخسر الإخوان فيها شركاتهم، فقد جربوا ذلك في عهد الملكية، فقد كان من رأي الإمام البنا أن يثبت الإخوان شمول دعوتهم عمليا، كما أثبتوا شمولها نظريا، فإذا قالوا: الإسلام نظام اقتصادي أسسوا شركات اقتصادية ليؤكدوا مصداقيتهم بأعمالهم.

ومن هنا أنشأوا أيام الشهيد البنا: شركة المعاملات الإسلامية، وشركة المناجم والمحاجر، وشركة الصحافة وغيرها، فلما حلت الجماعة حلت معها هذه الشركات، واعتبرت من ممتلكات الجماعة، فصودرت مع كل ما تملكه من دور ومؤسسات.

والذي أراه أن الشمول النظري لا يستلزم الشمول العملي، وأن مهمة الدعوة أن تربي أبناءها على هذا الشمول، وأن تطلقهم في ميادين الحياة يطبقونه بالفعل، كل فيما يحسنه ويختص به.

فهذا ينشئ وحده أو مع آخرين شركة تجارية، وآخر يؤسس مع آخرين مصرفا إسلاميا، وثالث يقيم مدارس إسلامية، وآخرون يقيمون مصنعا، وهكذا.

وبهذا لا يكون من السهل أن تصادر الحكومة كل هذه المؤسسات لأنها ستصطدم بحقوق الأفراد.

الرجوع إلى القاهرة

ثم عدت إلى القاهرة لأصل ما انقطع من دروس ومحاضرات في قسم إجازة التدريس، استعدادا لامتحان السنة الأولى في أوائل الصيف، وعكفت على ما فاتني من محاضرات في المقررات المختلفة، قارئا لكتبها، ومستعينا ببعض الزملاء فيما عندهم من مذكرات شارحة عند اللزوم.

ومن فضل الله تعالى علي أن وفقني في الامتحان توفيقا عظيما، كان عوضا من الله جل جلاله عما فاتنا وما أصابنا في تلك المرحلة (وما توفيقي إلا بالله) هود:

كما كنت أمارس نشاطي المعتاد في الإخوان، سواء في قسم الطلاب أم في قسم نشر الدعوة أم في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي، وخصوصا بعد الإفراج وإعلان عبد الناصر ورجال الثورة الصلح مع الإخوان، وزيارة جمال عبد الناصر للأستاذ المرشد حسن الهضيبي في بيته

سيد قطب

تحدثت عن الأستاذ سيد قطب في المرحلة السابقة باعتباره الكاتب الإسلامي المرموق، صاحب القلم السيال، والأسلوب الرفيع، والذي دخل الساحة الإسلامية بقوة، بكتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وما بعده، واقترب من الإخوان، وإن لم يصبح واحدا منهم.

واليوم أتحدث عن سيد قطب بعد أن اندمج في الإخوان، وأصبح واحدا منهم، بل غدا من قادة الفكر والتوجيه فيهم، وأضحى موضع الثقة عند مرشدهم، حتى أسند إليه رئاسة (قسم نشر الدعوة) في الجماعة، كما أسندت إليه (رئاسة تحرير مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، كما كان سكرتير تحرير المجلة معه الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ محمد فتحي عثمان.

وفي هذه الفترة طلبني الأستاذ سيد قطب لألقاه، فذهبت إليه في المجلة، وقال لي: إنه كلف رئاسة قسم نشر الدعوة، وهو يريد أن

ينهض بالقسم على أسس منهجية سليمة، ويرجو من دعاة الإخوان أن يعاونوه على ذلك، فهو لا يستطيع أن يحقق ما يريد إلا بتعاون الجميع معه، وخصوصا شباب الدعاة المرجوين أمثالك.

قلت له: أنا معك في كل ما تصبو إليه إن شاء الله، ونحن جنودك في تحقيق آمالك الكبيرة المرجوة في نشر الدعوة بطريقة علمية.

قال: تعلم أن أحاديث الثلاثاء، أصبحت متروكة للمصادفات، في كل ثلاثاء يقدَّم أحد الإخوان الدعاة ليلقي ما يخطر بباله بدون إعداد ولا تحضير، وإنما هو حديث مرتجل عفو الخاطر، ومثل هذا لا يليق بجماعة كبيرة مثل الإخوان.

لهذا رأيت أن ننظم هذا الأمر، بحيث نكلف عددا من دعاة الإخوان، كل واحد يأخذ شهرا، يلقي فيه أربعة أحاديث في موضوع محدد يتفق معه عليه، ويحضر له المادة المطلوبة، ويلقيه على الإخوان، فيستفيدوا علما وثقافة، لا مجرد عواطف ومشاعر، قلت له: نعم الرأي هذا.

قال: وعلى هذا الأساس أعرض عليك واحدا من موضوعين، تختار أحدهما لتعده وتلقيه في الوقت المناسب، الموضوع الأول: مواقف من السيرة النبوية، والثاني: من أخلاق القرآن، فهل ترى هذين مناسبين؟

قلت: كلاهما ملائم، ولكني أختار الثاني، فربما عندي فيه ما يقال مما يفيد إن شاء الله.

قال: على بركة الله، فليكن ذلك في شهر نوفمبر تقريبا، أي في أثناء السنة الدراسية إن شاء الله.

قلت: وهو موعد مناسب لي، وأسأل الله التوفيق.

ولكن الأمور تغيرت بسرعة مذهلة، وحدث ما حدث، حتى إن شهر نوفمبر الموعود حينما جاء، كان قد ضمه وضمني وضم الإخوان معنا السجن الحربي، والعبد يفكر، والله يقدر، ولله في خلقه شؤون.

وكانت هذه المرة الثانية التي ألقى فيها الشهيد سيد قطب رحمه الله وأجلس إليه منفردا به. أما المرة الأولى، فكنت أنا الذي طلبت لقاءه، فقد كنت مشغولا بإصلاح الأزهر، لعلمي بأن الأزهر مؤسسة علمية دينية كبرى ذات تأثير في مصر وفي العالم الإسلامي كله، بل في المسلمين خارج العالم الإسلامي حيثما كانوا، وأن بإضاعة الأزهر يضيع خير كثير على الأمة، وبإصلاحه يصلح كثير من شأن الأمة، وقديما قالوا:

يا أيها العلماء يا ملح البلد   ما يُصلح الملحَ إذا الملحُ فسد؟

الصدام الثاني بين الإخوان والثورة

توتر العلاقة بين الإخوان والثورة

لم تطل فترة الصلح بين الإخوان والثورة، فسرعان ما تحول الصفاء إلى كدر، والصحو إلى غيم، وكان لذلك أسباب شتى، بعضها نفسي، يتعلق بموقف عبد الناصر من الهضيبي، وعدم استراحته له، ونفس الشيء عند الهضيبي، وكما قيل: من القلب إلى القلب رسول.

وبعض الأسباب موضوعي، وهو أن عبد الناصر يريد أن يحكم البلد وحده، لا يشاركه أحد في حكمها، ولا ينتقده في رأي، وقد قال ذلك للأستاذ فريد عبد الخالق في إحدى جلسات الحوار معه: أنا أريد أن أضغط على زر فتتحرك البلد من الإسكندرية إلى أسوان، وأضغط على زر آخر فتتوقف البلد.

والإخوان يصرون على عودة الحكم النيابي البرلماني للبلاد، وعودة الحريات العامة، ومنها حرية الصحافة، وقد وعد رجال الثورة بذلك، وجعلوه من مبادئهم الستة التي أعلنوها من أول الأمر.

وكان عبد الناصر يقول للإخوان: تريدون أن يعود حكم الباشوات، وحكم النحاس باشا وزينب الوكيل من جديد؟

وكان الأستاذ الهضيبي لا يكل ولا يمل من المطالبة بعودة الحياة الديمقراطية والنيابية للبلاد، ويرى أنه لا خلاص لمصر إلا بها، كما كان ينادي باستمرار بتحكيم الشريعة الإسلامية، واتخاذها مصدرا للتقنين.

كما وجد عنصر جديد زاد العلاقة توترا، والنار اشتعالا، وهو الاتفاقية الجديدة التي عقدها عبد الناصر مع بريطانيا، ولم يرها الإخوان محققة لكل آمال البلاد، بعثوا مذكرة مفصلة إلى حكومة الثورة برأيهم في الاتفاقية وملاحظاتهم عليها، وقد أغضب ذلك عبد الناصر، وزاد من تدهور الوضع.

ولمن يكن الإخوان وحدهم هم الذين نقدوا الاتفاقية، فقد نقدها كذلك الرئيس محمد نجيب، وكان لا يزال رئيسا للجمهورية.

وأوعز عبد الناصر ببدء حملة صحفية إعلامية على الإخوان، وعلى الأستاذ وأعوانه خاصة، سعيا لإيجاد معارضة للمرشد داخل الجماعة، مؤيدة منه، ومسنودة من قبله، وهو ما حدث بالفعل.

وزاد الطين بلة: أن الصحف القومية التي كانت تتبع الحكومة - وكل الصحف كانت كذلك - بعد إلغاء جريدة المصري التي كانت لسان حزب الوفد هذه الصحف لم تكن تنشر ما يذيعه الإخوان من بيانات وردود على دعاوى الثورة عليهم واتهاماتها لهم، فلجأ

الإخوان إلى إصدار نشرات سرية تشن حملات نارية على الثورة وزعيمها ورجالها.

وفي هذا الوقت قبض على بعض الإخوان، للتحقيق معهم، وتعرضوا لتعذيب بشع داخل السجن، أذكر منهم الأستاذ محمد المهدي عاكف، ولا أذكر من كان معه.

وازداد الجو سخونة حين اختفى المرشد من القاهرة، ولجأ إلى مخبأ لا يعرفه أحد إلا عدد محدود جدا من المقربين منه، وقيل: إن سبب اختفائه أنه كان مهددا بالاغتيال، ولا أحسب أن هذا هو السبب الحقيقي، فقد كان الهضيبي من الرجال الشجعان المتوكلين على الله، الذين لا يخشون شيئا ولا أحدا إلا الله.

وهنا أدع للدكتور ريتشارد. ت ـ ميتشل مؤلف كتاب (الإخوان المسلمون) ـ الذي ترجمه د. محمود أبو السعود، وعلق عليه عضو مكتب الإرشاد، والقريب من الأستاذ الهضيبي وصنع القرار في الجماعة، الأستاذ صالح أبو رقيّق ـ يسرد هذه الحوادث، نقلا عن مراجعه، ليعيش القارئ معنا هذه الأجواء المكفهرة، يقول ميتشل: (261-268)

أعلنت الحكومتان البريطانية والمصرية في 27 يوليو موافقتهما المشتركة على "موضوعات الاتفاقية" كأساس لمعاهدة جديدة تسوي النزاع المصري البريطاني التاريخي، وفي 31 يوليو نشرت

صحيفة لبنانية في صدر عددها رأي رئيس الإخوان المسلمين في الاتفاقية، وكانت النقاط التي أثارها الهضيبي هي:

1- كانت معاهدة 1936 ستنتهي بعد فترة تقل عن السنتين مما يحتم الجلاء عن القواعد دون أي ارتباط قانوني يسمح لهذه القوات بالعودة إليها، بينما تعطي المعاهدة الجديدة لبريطانيا هذا الحق، إذ تنص على حالة الرجوع إلى القاعدة حالة الهجوم على الدول العربية أو تركيا.

2- إن النص الخاص بالعودة حالة الهجوم على تركيا يربط مصر والدول العربية بهذه الدولة وبالتالي بالمعسكر الغربي.

3- النص الذي يسمح لبريطانيا أن تحتفظ بقواعد جوية: تهديد لمصر كما أنه وسيلة لاستمرار السيطرة عليها في عصر الطيران الراهن.

4- أن "المدنيين" الذين ينتظر أن يساعدوا في تشغيل المنشئات بالقواعد هم بطبيعة الحال عسكريون في ثياب مدنية.

5- مدّ هذا الاتفاق معاهدة 1936 خمس سنوات أخرى وسمح "بالتشاور" في إعادة النظر فيه عند انتهاء مدته، وهو نفس النص الذي جعل من معاهدة 1936 معاهدة دائمة في واقع الأمر.

وبناء على هذه الأسباب جميعا، فقد "رفض" الهضيبي الاتفاق وأصر على وجوب عرض أي اتفاق بين مصر وأي حكومة أجنبية على "برلمان منتخب انتخابا حرا.. يمثل إرادة الشعب" وعلى صحافة لا تخضع للرقابة وتتمتع بحرية المناقشة.

كان أثر نقد الهضيبي الجريء الصريح لموضوعات الاتفاق مزعجا ومقلقا، وساءت الأمور إثر بيان طويل مفصل يحتوي على نقد الاتفاق أُرفق بخطاب بعث به حميدة نائب المرشد باسم مكتب الإرشاد في 2 أغسطس إلى عبد الناصر، وقد نشر كذلك عن طريق جهاز النشرات السرية، فكان ذلك توثيقا لحق الإخوان في إعلان رأيهم في الاتفاق، علاوة على كونه نقدا له، وقد زاد من تعكير الجو إصدار نشرتين أخريين إحداهما نقد للاتفاق أمضاها محمد نجيب ذكر فيها عدم صلته بالاتفاق، والثانية بإمضاء وزير سابق عرف فيما بعد أنه سليمان حافظ الذي كان وزيرا للداخلية في وزارة نجيب الأولى، وقد انتقد فيها الحكومة بوجه عام. وكانت النشرتان صادرتين بأحرف مشابهة للمنشورات الأخرى ومطبوعتين على نفس الشاكلة وعلى ورق مشابه، مما يدل على أن مصدر النشر واحد، وهو مطابع الإخوان المسلمين، وقد سلمت النشرتان إلى عبد القادر عودة لنشرهما.

ظل التوتر الناشئ عن نقد مشروع الاتفاق مكتوما أثناء غياب الهضيبي الذي كان مازال في سوريا وأثناء غياب عبد الناصر الذي كان بالسعودية من 7-15 أغسطس لأداء فريضة الحج، ولحضور المؤتمر الذي اقتُرح عقده مؤخرا ليضم زعماء المسلمين في مكة. وعاد الهضيبي في 22 أغسطس، وفي نفس اليوم نظمت

حملة صحفية تهاجم فيه موقفه من الاتفاق، واعتمدت في ذلك أساسا على التشهير بالهضيبي مفصلة موقفه في "الاتفاق السري" الذي زعم أنه تفاوض فيه مع الإنجليز في الربيع والذي ادّعت الصحف أنه أعطى الإنجليز امتيازات أكثر مما أعطتهم الحكومة.

قوبل الهضيبي بترحاب حار في المركز العام مساء ذلك اليوم، وكتب رده الأول والأخير على تهمة المفاوضات السرية، وأرسل به في خطاب إلى عبد الناصر، كما تضمن هذا الخطاب رجاء بالسماح للإخوان المسلمين أن يعبروا عن آرائهم حتى "يستطيع الناس أن يحكموا علينا بأفعالنا وليس بأقوالك"، ومرة أخرى وزِّع هذا الخطاب في صورة منشور

ذهبت إلى الأستاذ سيد رحمه الله، وعرضت عليه ما عندي من أفكار لإصلاح الأزهر، والرقي بمناهجه، والنهوض بعلمائه ورجاله، وشرحت له ذلك في جلسة مطولة، في دار الإخوان بالحلمية، وقد أثنى على جهدي وتوجهي الإصلاحي، وشجعني تشجيعا سرني وشرح صدري، وأضاف إليّ بعض النصائح والتوجيهات المهمة من ثمرات قراءته، ومن تجاربه في الحياة، وأذكر مما قاله لي، وأنا أحدثه عن الفلسفة الإسلامية: إنها في الحقيقة ليست فلسفة إسلامية، إنها في الواقع ظلال للفلسفة اليونانية، مترجمة إلى العربية، مضافا إليها بعض إضافات لم تغير جوهرها.

إننا في حاجة إلى فلسفة تعبر عن حقائق الإسلام الكبرى، وعن فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان، بصورة تبين مزايا

النظرة الإسلامية عن سائر النظرات والفلسفات الأخرى، سواء كانت نظرة الديانات السماوية الأخرى التي حرفت، أم الديانات الوثنية الأرضية، أم الفلسفات البشرية الوضعية.

ولم يقدر لي بعد هاتين الجلستين مع الشهيد، أن أسعد به مرة أخرى، فقد كنت في القاهرة صيف سنة 1964 حين أفرج عنه من سجنه بشفاعة الرئيس العراقي عبد السلام عارف، وأردت أن أسلم عليه بعد خروجه من السجن، وذهبت مع أحد الإخوة الأزهريين العراقيين الذين كانوا يدرسون للدكتوراه في مصر، وهو الأخ الشيخ حسيب السامرائي، الذي تفضل بأخذنا في سيارته أنا والأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر،وذهبنا إلى بيته في حلوان، ولكنا للأسف لم نجده، ولم تتح لنا زيارته مرة أخرى، إذ في السنة القادمة كانت محنة 1965، والتي جرى فيها ما جرى، والحمد لله على كل حال

وفي اليوم التالي كان اجتماع الثلاثاء الأسبوعي، وكان آخر اجتماع من نوعه، وقد ساده التوتر. وقف الهضيبي أمام جمع غفير، فأعاد ما سبق ذكره يوم الأحد الماضي، ليعلم من لم يسمعه ذلك اليوم مبديا تفاصيل رحلته وتفسيره للمحادثات مع تريفور إيفانز التابع للسفارة البريطانية، (وهذا تم بعلم عبد الناصر وتشجيعه)، ثم تناول موضوع توقف الصحيفة الأسبوعية التي كفت عن الصدور بعد عددها الثاني عشر، وأرجع ذلك إلى أن الرقابة جعلت صدور الصحيفة أمرا غير عملي، وأخذ شعور الإخوان يزداد التهابا كلما امتد الاجتماع، وبذل الهضيبي قصارى جهده ليحتفظ بالنظام، وتعمد التقليل من خطورة الموقف، مصدرا أمره في غضب،

ليسكت الأعضاء الذين كانوا يقفون هاتفين بهتافات عدائية للحكومة، وعلا صوته فجاوز نبراته المعتادة حين توجه باللوم إلى شاب صاح بهتاف "الموت للخائنين" ثم أنهى كلمته بعبارات هادئة كان لها أثر كبير على المجتمعين مقررا أنه "مستعد لكل ما قد يحدث" معلنا تمسكه بمبدأ أساسي للجمعية، وهو أن "الموت في سبيل الله أسمى أمانينا".

كانت تلك آخر مرة رأى فيها الكثير من الإخوان مرشدهم، حتى اعتقل وقدِّم إلى المحاكمة بعد عدة أشهر، إذ حدث اصطدام مسلح بين المجموعتين خلال الأسبوع التالي سنتعرض له فيما يلي. واختفى الهضيبي واثنان من أقرب مستشاريه: حسن العشماوي، وصلاح شادي، إذ إنهما نصحاه بأن يجنب نفسه احتمال الاغتيال أو الاعتقال، وأيدهما آخرون في ذلك، وقد وجد في نفسه استعدادا للبعد عن مسرح الحوادث، إذ كان مازال موقنا تماما أن في ذهابه خدمة للقضية وإنقاذا للموقف، وأقر مكتب الإرشاد غياب المرشد بإعلان أن المرشد في "إجازة". وبينما استغلت الحكومة اختفاء الهضيبي لتشتد في الحملة عليه شخصيا، لاقت مشقة في تأكيد عدم رغبتها في القبض عليه. وذلك حتى تبدِّد هالة أحاطت بشخصه وهو أنه ضحية لكيدها.

بدأت الحكومة منذ ذلك الحين في تطبيق سياسة هجومية ذات شعبتين: الأولى: إطلاق حملة صحفية ضخمة مستمرة ضد الهضيبي "وعصابته" وسياستهم، والثانية: تشديد الأمن وفرض رقابة شديدة تصل أحيانا إلى حد الاستفزاز على النشاط القليل الذي ظل الإخوان يمارسونه.

كان للحملة الصحفية مظهران: 1- أخذت افتتاحيات الصحف الحكومية تجيب على النشرات السرية التي ملأت الشوارع أو تنفي ما تذكره، ولو أنها لم تكن تذكر كل ما ينشر كاملا أو على صحته، و 2- كانت الصحف تنشر كل يوم تقريبا أعمدة تشتمل على خطابات تزعم أن الحكومة تلقتها من الإخوان يستنكرون فيها موقف الهضيبي خاصة أو الجمعية عموما بعدائهم لمجلس قيادة الثورة - وهي طريقة تقليدية تتبع في مصر لزعزعة الثقة في الخصم السياسي أو لإقامة مهرجان يدعو لشيء أو ضد شيء.

كان بث هذه الأخبار في الصحف والمجلات مبررا لتشديد الأمن حتى إذا جاء يوم 28 أغسطس نشرت الصحف بالخط العريض تقارير من وزارة الداخلية عن هجوم قام به الإخوان المسلمون على "البوليس والشعب" عقب صلاة الجمعة في مسجد الروضة، وجاء في التقرير: أنه عقب إلقاء خطبة قُصِدَ بها إثارة العنف خرج الإخوان من المسجد وهاجموا البوليس والجمهور، على أن الذي حدث فعلا يختلف في جوهره عن ذلك بعض الشيء، إذ كانت الخطبة التي ألقاها أحد زعماء الطلبة، وكان صديقا لعبد الناصر (وهو حسن دوح زعيم طلبة الجامعة)، عبارة عن نداء يدعو إلى الهدوء وإطلاق الحريات، تخللته استشهادات من القرآن والحديث، ثم انتهت التلاوة وأخذ فريق من المصلين يتفرقون قبل محاولة استفزازية قام بها البوليس الذي ترأسه ضابط من الجيش (وكان البوليس قد وصل أثناء الصلاة وأحاط بالمسجد) إذ أراد القبض على الخطيب فأثار الناس، مما "برر" استعمال القوة بما في ذلك إطلاق نار البنادق لتهدئة الموقف.

وفي 10سبتمبر ذكرت الصحف حادثا مشابها وقع في مسجد الإخوان في طنطا فقالت عنه: اعتداء الإخوان المسلمين على الجمهور "وأن معركة قامت بالمسجد" حيث استعمل فيها الخطيب سكينا ضد معارضيه! وفي اليوم نفسه نفت الحكومة في الصحف خبرا لم يسبق نشره، ولكنه قد عرف في القاهرة بعد ساعات من وقوع الحادث، وهو اشتراك الحرس الوطني الذي تشرف عليه الحكومة بالاشتباك، مما أوحى إلى كثير من المراقبين أن الحادث كان مدبرا لإثارة الإخوان. وقد فرضت الحكومة بعد هذا الحادث الأخير الوسائل الكفيلة بجعل الخطابة في المساجد تحت رقابة شديدة عن طريق وزارة الأوقاف.

وفي أواخر سبتمبر وصلت الأزمة إلى ذروة مرحلة خطرة إذ صدر قرار في 23 من الشهر من مجلس قيادة الثورة بنزع الجنسية عن ستة من المصريين بزعم أنهم أساءوا إلى سمعة بلادهم في الخارج، وأضروا بعلاقاتها مع جيرانها العرب، وكانت تهمتهم "خيانة الأمة"! وكان الستة جميعا في الخارج في ذلك الوقت وهم: سعيد رمضان، وعبد الحكيم عابدين، وسعد الدين الوليلي، ومحمد نجيب جويفل، وكامل إسماعيل الشريف (وهؤلاء جميعا من الإخوان المسلمين) ثم محمود أبو الفتح وهو وفدي بارز وأحد أفراد الأسرة التي تملك الصحيفة الوفدية (المصري) وقد اعتبر حليفا للإخوان، بجانب أمور أخرى اتُّهم بها.

أما الإخوان (الخمسة) فكانوا جميعا في سوريا في ذلك الوقت يحضرون مؤتمرا منعقدا في دمشق واعتبروا مسؤولين عن ظهور منشورات صدرت عن المؤتمر تحت أسماء الجمعيات في العراق والأردن والسودان تدافع عن الإخوان ضد حكومة مصر، كما اعتبروا مسؤولين عن الحملة الصحفية العنيفة في سوريا ضد مجلس قيادة الثورة وعن سيل الأخبار المستمر المتتابع من راديو إسرائيل حول النزاع في مصر، وتوترت العلاقات بين مصر وسوريا لسبب موضوع استمرار نشاط الإخوان في سوريا ومستقبل من سلبت جنسيته منهم، حتى أدى الأمر إلى حملة مرّة على سوريا ظهرت في الصحافة المصرية، مما جعل رئيس وزراء سوريا ورئيس أركان حرب جيشها يسارعان بالقيام بزيارة شخصية لمصر.

وحوالي منتصف سبتمبر توقف عبد الناصر عن الظهور أمام الجمهور لفترة معينة، إذ كان مهددا في حياته، فلما أن بلغ ذلك الهضيبي كتب خطابا آخر موجها إلى رئيس الوزراء (يعني: عبد الناصر) ما لبث أن وزع أيضا في منشورات عامة، وقد طلب فيه إنهاء التوتر السائد عن طريق السماح بمناقشة كريمة للقضايا القائمة وفي جو من الحرية. كما طلب "بإيقاف الاستثارة" التي يتولاها بعض الناس والسلطات القائمة على تنفيذ القانون ضد الإخوان، وخاطبه بقوله: "إن من واجبك أن تحمي الناس، سواء أكانوا مصيبين أم مخطئين" أما فيما يتعلق بالتهديدات العنيفة، فقد أكد الهضيبي لرئيس الحكومة أنه يستطيع أن يتجول بحرية ليلا أو نهارا، وحده .. حيثما أراد، دون أن يخشى من "الإخوان

المسلمين". ويبدو أن عبد الناصر وافق على ذلك، إذ إنه بدأ في أواخر الشهر يظهر في المناسبات العامة

انقسام داخل الإخوان

الحرج والأزمة. ويزداد هذا الأمر خطرا بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين، حيث يقوم كيانها أساسا على الأخوة والترابط، حتى إن اسم الجماعة نفسه ليدل على ذلك بجلاء (الإخوان المسلمون).

وكان مؤسس الجماعة الأستاذ البنا حريصا كل الحرص على توثيق روابط الجماعة: فكريا وعاطفيا وتنظيميا، وكان يقول: دعوتنا تقوم على: الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق. وكان في كل ثلاثاء يلقى فيه الإخوان يبدأ حديثه إليهم بما سماه (عاطفة الثلاثاء) وهي كلمات يحيي فيها المشاعر الإيمانية، ويلهب فيها العواطف الأخوية، بأحاديث الحب في الله، والتجالس في الله، والتزاور في الله.

ولقد كان عبد الناصر حريصا على أن يقسم صفوف الإخوان، ليضرب بعضهم ببعض، ويستفيد من خلافهم فيما بينهم. ولطالما حاول ذلك وباءت محاولاته بالإخفاق.

واليوم وقد وجدت محاولته الجو الملائم، والمحضن الذي تفرخ فيه وسوساته للجماعة ولقياداتها المختلفة، وساعد على هذا اختفاء المرشد عن ساحة الأحداث، ولجوءه إلى مخبأ غير معروف، يأوي فيه إلى أمد غير معلوم.

ولقد احتدم الصراع بين الإخوان وحكومة الثورة، وكل يوم يمر يتطاير الشرر، ويتزايد الضرر، ويتفاقم الخطر.

وكان كثير من الإخوان القدامى يتوجسون شرا من استمرار الصراع بين الإخوان والثورة، ويرون ضرورة العمل على رأب الصدع، ورتق الفتق بين الفريقين، والصلح دائما خير، والخلاف أبدا شر.

وكان شيوخنا في الدعوة: البهي الخولي، وعبد المعز عبد الستار، ومحمد الغزالي، وغيرهم من قدامى الإخوان، وممن لهم قدم راسخة في الدعوة على هذا الرأي. وكانت عواطفي في أول الأمر أنا وأخي أحمد العسال معهم، إشفاقا على الجماعة. أو هكذا كنا نتصور. وقد قيل: العاقل من يتقن فن الخروج من المضيق، وأعقل منه من لا يدخل المضيق أصلا.

محاولة إخوانية للإنقاذ

وكان الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم عضو الهيئة التأسيسية والحائز على رضا الطرفين، وغير المحسوب على أي منهما، قد اتخذ مبادرة إيجابية، واتصل بعبد الناصر عن طريق رجُلَيْه إبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة، وكتب مذكرة في التقريب

والمصالحة بين الطرفين. قبلها في الجملة عبد الناصر بشروط، وعرضها الأستاذ محمود على حشد إخواني كبير في منزل الأستاذ محمد جودة عضو الهيئة التأسيسية والتاجر المعروف، وصديق عبد الناصر... وتبنى الحشد الإخواني هذه المذكرة، وإن كان للأستاذ البهي رأي ذكره ودافع عنه أمام هذا الحشد، وهو اقتراح خلع المرشد الأستاذ الهضيبي، والاستعاضة عنه بلجنة تدير

الجماعة، حتى تختار مرشدا آخر، ورأى أن هذا هو الذي ينقذ الموقف. وعارضه الأستاذ محمود في هذا، وأنه ليس من الصواب ولا الحكمة أن نعرِّض الجماعة في مثل هذا الوقت لهذه الأزمة، وأن هذا سيحدث فتنة كبيرة، وفتقا قد لا يستطاع رتقه في الظروف الحالكة الحاضرة.

واختار الحاضرون وفدا يمثل الإخوان للقاء عبد الناصر مكونا من: خميس حميدة، وعمر التلمساني، ود. عثمان نجاتي، محمد حلمي نور الدين، والشيخ أحمد شريت، ومحمود عبد الحليم. والتقوا مع عبد الناصر في بيته.

وعرض عبد الناصر موقفه من الإخوان، وموقف الإخوان منه منذ قامت الثورة في حديث طويل سرده في الجلسة المشتركة بينه وبين محمود عبد الحليم وعدد من الإخوان، مما دل على قوة ذاكرة الرجل، واستحضاره للأحداث، وتماسك شخصيته، كما يقول الأستاذ محمود، الذي يحسب أن العوامل النفسية كانت من أسباب هذه الأزمات، وأن الإخوان لم يفهموا نفسية عبد الناصر كما ينبغي. ولم يتعاملوا معه بالطريقة التي يمكن بها كسبه إلى صف الجماعة، ولا تؤلبه وتثير حقده عليهم.

القرارات التي اتخذت

وأود أن أذكر هنا ما كتبه الأخ محمود عبد الحليم عن هذه الجلسة التاريخية وما تم فيها. قال رحمه الله:

في نهاية هذه الجلسة الطويلة المضنية كان لا بد لنا من الوصول إلى اتفاق محدد، وكان أملنا جميعا ـ نحن الإخوان ـ أن يكون اقتراحي الذي ذيلت به مذكرتي هو الذي يتم عليه الاتفاق. وتكون مهمتنا ـ نحن المجتمعين ـ أن نبحث تفاصيل تنفيذه ـ ولكن جمال فاجأنا في نهاية الجلسة برفضه هذا الاقتراح بل برفضه أي اقتراح للصلح قائلا:

" إن الدعوة إلى إجراء صلح بيني وبينكم فات أوانها. ولم تعد الثقة التي هي أساس الصلح موجودة ". وتناقشنا معه حول هذه النقطة نقاشا طويلا غير أنه أصر على الرفض.. وما كنا نملك شيئا بعد أن صار هو يملك كل أوراق اللعب في يده ونحن لا نكاد نملك منها شيئا.

قلنا: إذن لم كان هذا الاجتماع؟ ولو علمنا أنك ترفض الصلح لما أتعبنا أنفسنا. ولكن الأستاذ الطحاوي والأستاذ طعيمة أبلغانا أنك قرأت المذكرة ووافقت على ما جاء بها.. وعلى هذا حضرنا، فقال: أنا وافقت على المذكرة كمبدأ. فالصلح هدف، ولكنه الآن ليس الهدف المباشر. لكن الهدف المباشر الآن سيكون مقدمة للصلح؛ وإذا استطعتم أن تقوموا بأعباء الهدف المباشر انتقلنا إلى الصلح.

قلنا: وما هو الهدف المباشر؟

قال: كل الذي أستطيع أن أبذله لكم الآن: أن أعقد معكم هدنة؛ فإذا نجحتم فيها كان لكم أن تطالبوا بصلح.

قلنا: وما شروط هذه الهدنة؟

قال: هما شرطان:

1- أن توقفوا حملتكم على اتفاقية الجلاء.

2- أن توقفوا إصدار النشرات.

قلنا: ولنا شرطان مقابلان هما:

1- أن توقف الاعتقالات والتشريد.

2- أن توقف الحملة الصحفية.

قال: أنا موافق على شروطكم إذا وافقتم على شروطي.

قلنا: إننا موافقون.

قال: إذا نفذتم الشروط فلنا اجتماع آخر بعد اجتماع الهيئة التأسيسية، أما إذا لم تستطيعوا تنفيذ الشروط فلا اجتماع، ولا تلوموني بعد ذلك.

وهنا ختمت الجلسة وخرجنا وكلنا أمل في الوفاء بما اشترط علينا لنخرج بالدعوة من هذا المأزق الخطير الذي وضعت فيه.

يقول محمود عبد الحليم:

كان مبيتي عادة حين أكون في القاهرة: أن أبيت عند الأخ الحبيب ـ رحمه الله ـ الدكتور جمال عامر زميلي القديم في الدعوة وعضو الهيئة التأسيسية وصاحب صيدلية الصليبة بالقاهرة.. فلما ذهبنا في تلك الليلة إلى البيت وجدنا في انتظارنا الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل؛ الذي ابتدرني قائلا: إنني كنت في انتظارك على أحر من الجمر، لأنني أقدر أهمية هذه الجلسة، وأؤمل فيها خيرا للدعوة، وقد قدمت لأعرف منك ما تم فيها، وأعرف رأيك شخصيا في جمال عبد الناصر.. فحدثته بكل ما تم في الجلسة، كما شرحت له وجهة نظري في شخصية جمال عبد الناصر على الوجه الذي أجملته في هذه المذكرات، ولكنني أقرر أن ما حدثت به الأخ عبد العزيز، لا بد أنه كان أوفى وأشمل، لا سيما وأنا أثبت ما أثبته في هذه المذكرات بعد مرور اثنين وعشرين عاما على هذه الأحداث.. وأذكر أنني أنهيت حديثي إلى الأخ عبد العزيز بقولي: إنني أرى أن شخصية جمال عبد الناصر كانت تستحق منا دراسة أكثر، وعناية في التعامل معها أكثر مما كنا نوليها.ا.هـ

ويبدو من سير الأحداث أن الأمور جرت في مسار آخر غير المسار الذي كان ينشده الأخ محمود عبد الحليم ومن وافقه من الإخوان فيما سماه (محاولة للإنقاذ). فقد كان الجو في داخل الإخوان متوترا ومشحونا ضد الثورة وعبد الناصر، ولهذا باءت

هذه المحاولة للتقريب أو المصالحة أو الهدنة ـ التي قد تؤدي إلى مصالحة ـ بالإخفاق والفشل، نتيجة لتصلب القيادات في مواقفها، وتغليب التشدد على المرونة، والمواجهة على المقاربة. لأمر قدره العزيز العليم.

وقد عرضت مذكرة الأخ محمود عبد الحليم على الهيئة التأسيسية، ولكن جرت الأمور على غير ما أراد صاحب المذكرة، فقد أخذ رأي الهيئة بالتصويت: أتعرض المذكرة عليها أم لا؟ فكانت الأغلبية مع عدم عرضها!

كان هذا الانقسام في الصفوف العليا للإخوان، أما قواعد الإخوان بصفة عامة، فكانت مع المرشد، وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أنها لا تدري شيئا عما يدور وراء الكواليس، ولا تعرف عن العلاقات الخاصة بين الإخوان والثورة، ما يمكنها من الحكم، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

والثاني: أن النشرات السرية التي كانت تصدر في تلك الأيام كانت تعبئ الإخوان تعبئة شعورية عدائية للثورة ورجالها، ولا تسمح بأي تقارب أو مهادنة.

والثالث: ما كانت تقوم به الثورة ضد الإخوان على المستوى الإعلامي التحريضي، وعلى المستوى الأمني التضييقي.

اعتقال مفاجئ ليلة الامتحان

وقد كنت في هذه الأيام الساخنة المتوترة، أتهيأ للامتحان في الفصل الثاني والنهائي في تخصص التدريس.

وقبل أول أيام امتحاني في تخصص التدريس، حدث حادث مهم بالنسبة لي. فقد فتشت المباحث شقتنا التي نسكن فيها، بشارع راتب باشا بشبرا، واعتقل زميلي الذي يعيش معي في حجرتي، وهو الأخ محمود نعمان الأنصاري، الطالب بكلية الآداب، والذي ضبط بحوزته كمية من المنشورات المحظورة، وكانت الشقة تتكون من أربع حجرات كل حجرة يسكن بها شخصان. وكان محمود زميلي في الحجرة فلما قبض عليه وسألوه: لمن هذا السرير في حجرتك؟ فقال: هو لفلان.

فانتظروني حتى عدت في المساء، ليسوقوني إلى قسم روض الفرج الذي نتبعه. وأنا لا أعلم شيئا عن المنشورات التي ضبطت عند زميلي محمود. وهذه الأيام في غاية الأهمية عندي، لأنها أيام الامتحان النهائي لإجازة التدريس، بعد دراسة سنتين.

وقد أوصيت بعض زملائي في الشقة أن يتصلوا بأستاذنا البهي الخولي ليتوسط في الإفراج عني لأداء الامتحان، وأن يتم ذلك على وجه السرعة، فالامتحان في الساعة الثامنة صباحا.

وقضيت هذه الليلة الليلاء ساهرا، لم يغمض لي جفن، لا من أجل عشق ليلى وسُعدى، كما قرأنا للشعراء العشاق، ولكن خوفا على الامتحان، الذي لو ضاع، فربما لا أعوضه إلا بعد سنين أو ربما لا أعوضه أبدا، فقد كنا مهددين بالاعتقال ما بين حين وآخر. وإن كنت في ذلك الوقت محسوبا على جناح المعارضة الذي يمثله الأستاذ البهي ومن معه، ولكن أجهزة المباحث تعرف جيدا أن ولاءنا إنما هو للدعوة قبل كل شيء، بغض النظر عما يحدث بين قادتها من خلاف. وهذا ما كان يخيفني ألا تنجح وساطة أستاذنا البهي في الإفراج عني، ولكن القوم كانوا أذكى وأدهى، ويريدون للخلاف أن يتعمق وتمتد جذوره في الجماعة، فقبلوا الوساطة، ولا سيما مع إلحاح الأستاذ البهي.

وحوالي الساعة السابعة والنصف صباحا نودي علي بالإفراج، ولم أكد أغادر باب القسم، حتى ركضت ركض الفرس، لأصل إلى شارع شبرا، لآخذ أول سيارة أجرة (تاكسي)، لأصل بها إلى مقر الامتحان في (الدَّرَّاسة)، وقد دق الجرس، فظللت أعدو، حتى دخلت الفصل وأنا ألهث وأتصبب عرقا، وسمح لي بالدخول بعد مرور عدة دقائق. وأديت الامتحان على ما يرام، وقد شعرت بتوفيق الله تعالى لي في إجابتي عن الأسئلة، رغم أرقي الطويل تلك الليلة.

وربما كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كسبته من وراء الخلاف الذي حدث بين الإخوان، وإن كان الخلاف كما قال ابن مسعود شرا، ولكن كما قال تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) البقرة

فترة قاسية علينا

كانت تلك الأيام من أشق الأيام علينا، أنا وأخي أحمد العسال، وبعض شباب الدعوة، المتأثرين بالأستاذ البهي وشيوخ الدعوة المعروفين أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ سيد سابق وأمثالهم، وقد كانت عواطفنا معهم من ناحية، يؤكدها عاطفة الإشفاق على الدعوة ومستقبلها: أن تدخل معركة غير متكافئة مع ثورة عسكرية متجبرة، معركة لا يعلم مصيرها إلا الله. فلو أمكن الصلح بين الجماعة والثورة، واللقاء في منتصف الطريق، بدل الصدام المجهول النتائج ربما كان ذلك خيرا.

وقد حاول الإمام الشهيد حسن البنا بعد حل الإخوان سنة 1948م أن يسلك كل السبل ليجنب الإخوان الصدام الدامي مع الحكومة، ولو تنازل عن بعض الأشياء في سبيل هذا الهدف، حتى إنه قبل أن يترك السياسة في تلك الفترة، ويتفرغ للتربية ونشر الدعوة.

وكان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غزوة الحديبية: والله لا تدعوني قريش إلى خطة فيها صلة رحم وحقن للدماء إلا أجبتهم إليها.

وكان عمر رضي الله عنه قبل أن يتهيأ لفتح بلاد الروم، يغريه القواد بما وراءها من مغانم ومكاسب،

فيقول: والله لمسلم واحد، أحب إلي من الروم وما حوت.

كان الحرص على حقن دماء الإخوان، والضن بهم أن يدخلوا معركة غير معروفة المصير، هو الذي يسيطر علينا في تلك الفترة العصيبة.

وإن كانت عقولنا تقول لنا: هل صحيح أن الثورة تريد صلحا وتقاربا مع الإخوان؟ أو هي تريد شق صفهم وتمزيق جماعتهم؟ وضرب بعضهم ببعض؟

إن الذي يبدو من ظواهر الأمور أن الثورة تريد أن تنفرد بالسيطرة على مصر، وألا يشاركها في ذلك أحد، وأنها لا تقبل أن يكون للإخوان ولا غيرهم وجود مؤثر، إلا أن يصدِّقوا دعواهم، ويؤمِّنوا على دعائهم، ويمشوا في ركابهم، وهذا ما لا يرضاه أبناء الدعوة جميعا

الحملة على القرضاوي والعسال

ومن الذكريات المؤلمة التي لا أنساها: أن الإخوان كان لهم نشرة سرية تصدر في هذا الوقت تحت عنوان (الإخوان في المعركة) تهاجم الثورة ورجالها بعنف، وتتضمن المنشورات الثورية التي تصدر عن قيادة الإخوان مثل منشور عنوانه: هذه الاتفاقية لن تمر (يعني: الاتفاقية التي عقدت مع الإنجليز) وآخر بعنوان: (خمسة وعشرون مليونا يباعون في سوق الرقيق). وكان ينسب إلى الأستاذ سيد قطب أنه محرر هذه المنشورات الثورية بقلمه.

وقد أذاعت هذه النشرة نبأ قالت فيه: إن القرضاوي والعسال قد مرقا من الدعوة، وانضما إلى ركب الخونة، وعلى الإخوان أن يحذروا منهما! وقد استجاب الإخوان لذلك حتى قابلني بعض الإخوة الذين كانوا يعتبرون من تلاميذي، فأعرضوا عني، ونأوا بجانبهم: وبعضهم قال لي: لم يعد بيننا وبينك رباط.

وهذا أمر شائع في الإخوان، أذكر أنه حين صدر أمر بفصل الشيخ الغزالي والأستاذ صالح عشماوي، والدكتور محمد سليمان، والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وكنا في معتقل العامرية، وكنت أتحدث مع أحد وعاظ الإخوان المعروفين، وجاء ذكر الأخ الشيخ الغزالي، فقال: الغزالي لم يعد أخا لنا، لا هو ولا إخوانه المفصولون من الجماعة.

قلت: لم يعد أخا لنا في الجماعة، ولكنه بقي أخا لنا في الإسلام.

قال: إن عمله فصل ما بيننا وبينه.

قلت: هل يهدم تاريخ الشخص وجهاده كله بزلة واحدة يزلها؟ إن الله سبحانه لو عامل الناس بهذه الطريقة لدخلوا جميعا جهنم.

إن الرسول الكريم علمنا أن الإنسان تشفع له سوابقه، وتغتفر له بعض سيئات حاضره من أجل مآثر ماضية، وقد قال لعمر في شأن

حاطب بن أبي بلتعة، وقد ارتكب ما يشبه الخيانة للرسول وجيشه: " ما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فإني قد غفرت لكم "

من أجل جهاده في بدر غفر له ما اقترفه في فتح مكة!

وأقول بأسف: لقد كان رجال المباحث أصدق في الحكم علينا من إخواننا الذين عرفونا وعرفناهم، وعايشونا وعايشناهم، فلم تخدعهم هذه المعارضة الظاهرة عن قراءة ما تكنه صدورنا من ولاء وعداء، أو حب وكره. ولهذا لم يترددوا في القبض علينا في أول فرصة، وتقديمي للمحاكمة.

وهذا ما يعاب على الإخوان: أنهم إذا أحبوا شخصا رفعوه إلى السماء السابعة، وإذا كرهوه هبطوا به إلى الأرض السفلى. والمفروض في الإنسان المؤمن ـ ولا سيما الداعية ـ الوسطية والاعتدال في الحكم على الناس، في الرضا والغضب، والمحبة والعداوة، فإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا أحب لم يحاب من يحب بالكذب، وإذا عادى لم تبعده عداوته عن الصدق، كما قال تعالى: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) الأنعام: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) النساء: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) المائدة:

وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم " وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ".

على أن الكراهية هنا لا ينبغي أن يكون لها مورد، فإن اختلاف الناس في السياسات والمواقف، كاختلافهم في الأحكام والفقه، والواجب هنا: أن تختلف الآراء ولا تختلف القلوب، وأن يعذر الإخوة بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه.

والمختلفون هنا يقال فيهم: مصيب ومخطئ، لا مؤمن ومنافق، أو صالح وفاسق، إذا حسنت النيات، وصفت القلوب، وهذا ما يظن بأهل الدعوة إلى الإسلام، وإن اختلف بعضهم مع بعض. فالمصيب منهم مأجور، والمخطئ معذور. بل المصيب مأجور أجرين، والمخطئ مأجور أجرا واحدا، إذا كان خطؤه ناشئا عن اجتهاد.

ولقد نهى السلف رضي الله عنهم عن الإسراف في الحب والبغض، وقالوا: لا يكن حبك كلفا، ولا يكن بعضا تلفا.

وفي الأثر: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

وفي القرآن الكريم: (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم) الممتحنة: وهذه وردت في شأن المشركين المعادين، فما بالك بالمسلمين الموالين؟!

ولقد بينت الأيام فيما بعد: أن لله حكمة في فصل الغزالي من الإخوان، فقد قدر الله تعالى له بهذا أن ينجو من المحنة التي أصابت الإخوان في سنة 1954م وما بعدها، وأن يبقى حرا طليقا يتجول في أنحاء مصر داعيا إلى الله وإلى دينه القويم.

وظل الغزالي طوال سنوات المحنة لسان الدعوة الناطق بالصدق، الصادع بالحق، المقاوم لأباطيل الماركسيين والعلمانيين. ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتهمه بمعاداة الثورة، أو بموالاة الإخوان، وقد فصلوه رسميا من جماعتهم. وقديما قالوا: رب ضارة نافعة. وقال تعالى: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) النساء

حادث المنشية

ذكرت ما كنت أعانيه من قلق وحيرة وأسى، نتيجة الانقسام الحاد في صفوف الجماعة التي عشنا فيها شبابنا، ونذرنا لها حياتنا، وقد علمنا من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن وقائع التاريخ: أن شر ما تصاب به الجماعات هو انقسامها على أنفسها، وتفرق أبنائها فيما بينهم.

قرأنا في القرآن قوله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) الأنفال: وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) آل عمران: أي بعد

وحدتكم متفرقين، وبعد أخوتكم متعادين، كما تبين أسباب النزول للآيات.

وقرأنا قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: "لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا" وقرأنا في التاريخ أن معظم ما أصاب المسلمين من هزائم وانكسارات كان سببها افتراق أمرائهم وملوكهم فيما بينهم.

وطالما ذكرّنا الإخوان بقول إمامهم الشهيد: أنا لا أخاف عليكم من الإنجليز ولا من الأمريكان ولا من غيرهم، إنما أخاف عليكم من أنفسكم: أن تعصوا الله فيتخلى عنكم، أو أن تتفرقوا فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة.

وشاء القدر الأعلى أن يخرجنا من هذه الحيرة والأسى الذي أرق جفوننا؛ حادث خطير، اهتزت له أركان مصر عند إذاعته على الهواء، وقدر لنا أن نسمعه أول ما أذيع، ألا وهو (حادث المنشية) الشهير، ومحاولة اغتيال عبد الناصر أثناء خطابه في ميدان المنشية الشهير بمدينة الإسكندرية، وأذيع أن الذي حاول الاغتيال من أعضاء الجهاز السري للإخوان المسلمين.

وهنا دخلنا في مرحلة جديدة، فقد أصبح الإخوان ـ وبخاصة من كان له منهم نشاط معروف ـ مطلوبين للثورة، وقد ذكرت أني اعتقلت من قبل في ليلة الامتحان، ولولا شفاعة الأستاذ البهي ما

خرجت، والآن لم تعد تنفعنا شفاعة الشافعين، ولا عاد في مقدور أحد أن يشفع لأحد، والرحى دائرة، والوطيس حام.

وقد منح هذا الحادث كل الفرصة لعبد الناصر، ليضرب بيد من حديد، ويأخذ الإخوان كلهم بجريرة هذا الحادث الذي اتهم جماعة الإخوان وقيادتهم بتدبيره.

أما كيف تم هذا الحادث؟ ومن المسؤول عنه؟ وما مدى مسؤولية الجماعة وقيادتها ومرشدهم العام عن هذا الحادث؟

فيلزمنا أن نقف هنا قليلا ـ بل طويلا ـ لننظر في تسلسل الأحداث، وكيف مضت في تسارعها، قبل أن نسارع بتصديق الاتهام أو تكذيبه.

ولا نزاع أن الجو كان مكهربا، والعلاقة كانت متوترة، بل مشتعلة بين الإخوان والثورة منذ مدة، وزادها اشتعالا وتوترا اختفاء المرشد العام الذي طال نسبيا، وإصدار النشرات السرية، التي كانت باستمرار تنتقد الثورة، أو قل تهاجمها بعنف في سياستها، وتتهمها بأشياء يصعب على الثورة أن تسكت عنها، وقد فشلت كل الجهود التي حاولت التقريب والمصالحة بين الطرفين، مثل محاولة الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم التي قدم فيها مذكرة، وحكاها بتفصيل في كتابه: "الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ" الجزء الثالث ـ وقد أشرنا إليها من قبل

تسلسل الأحداث

ونذكر هنا ما رواه د.ريتشارد ميتشل في كتابه عن (الإخوان) حيث يقول عن تلك الفترة:

(في 4 اكتوبر زار "يوسف طلعت" الهضيبي في الإسكندرية، وأخبره بوجود الكثير من البلبلة واللبس

الفكري في الصفوف حول أفضلية ما يجب عمله ونوع ذلك العمل، وطلب من المرشد أن يخرج على الناس، حتى يوضح الأمر، ويرفع من الروح المعنوية المتدهورة للجمعية، وقد أجاب الهضيبي أن مكتب الإرشاد يرغب في أن يبقى مختفيا، كما أخبره أنه أحس بالقلق في الأيام القليلة الماضية من خشية احتمال وقوع عنف واغتيال، وأضاف: " إذا أردتم القيام بمظاهرة تؤيدها جميع طبقات الشعب، فذلك هو الصواب "، ومع ذلك فيجب أن تقتصر المظاهرة على المطالبة " بحرية الصحافة، وبمجلس نيابي، وبعرض اتفاقية الجلاء على الشعب " كما يجب أن تكون "مظاهرة شعبية" وأكد: أنه يرفض قبول أي "عمل إجرامي" مؤكدا أنه يعتبر نفسه "بريئا من دم أي شخص كان".

بهذا الوضوح الذي يضاهي شمس الضحى في الظهور، كان جواب المرشد العام الأستاذ الهضيبي عليه رحمة الله، وكان رجلا مستقيم الفكر والسلوك لا يعرف الالتواء، ولا اللعب بالألفاظ، فلا يمكن أن ينسب إليه أحد من المفترين أنه وافق على أي خطة فيها اغتيال. وقد وضح الصبح لذي عينيين.

في هذا الوقت كان هناك شخص واحد، يفكر وحده في علاج هذه القضية ـ قضية علاقة الإخوان بالثورة ـ بطريقته الخاصة. هذا الشخص هو هنداوي دوير المحامي.

وأنا أعرف هنداوي دوير وأعرف نوع تفكيره، فقد لقيته عدة مرات بالمحلة الكبرى، إذ كان يعمل في مصنعها قديما قبل أن يحصل على ليسانس الحقوق، وينتقل إلى القاهرة، ومن عرف دوير عرف أنه رجل ذكي، ورجل مغرور، ورجل متحمس عجول. كما أنه رجل مخلص للدعوة لا يمكن أن يتهم بخيانة أو عمالة للخصوم.

تفكير هنداوي دوير يقوم على أن هذا النظام يعتمد في بقائه على شخص واحد، هو سنده وعموده الأساسي، فإذا سقط هذا الشخص سقط النظام كله، هذا الشخص هو جمال عبد الناصر، وكيف يذهب أو يسقط عبد الناصر عمود النظام الثوري؟ إنه أمر في غاية السهولة: رصاصات يطلقها رام ماهر في صدره، فيخر صريعا، ويخر معه نظامه أيضا.

فهل عجزت جماعة كبرى كالإخوان أن يكون فيها رام ماهر؟ كلا. بل هو موجود، بل هو أقرب ما يكون إليه. إنه في شعبته نفسها. إنه الشاب الرامي الحاذق (النشانجي) محمود عبد اللطيف السباك أو السمكري المعروف.

ما أبسطه من حل، وما أسهله من علاج، لا يحتاج إلى جماعات مسلحة، ولا إلى تدبير انقلاب على نظام الحكم، وما يحتاج إليه من

إمكانات وتدبيرات، وما يحوط به من محذورات وتخوفات. بخلاف هذا الحل الذي يقوم على مجرد يد رامية ماهرة وعدة رصاصات!!

ولم يفكر المحامي الذكي المعجب بنفسه: ما العمل إذا أخفق هذا الحل، وفشلت هذه الخطة؟ لم يسمح لنفسه أن يفكر في الوجه المقابل؟ بل افترض النجاح أبدا.

اختار هنداوي دوير محمود عبد اللطيف، وأوهمه أنه مكلف من قيادة الإخوان باغتيال عبد الناصر. ودوير هو رئيسه في شعبة امبابه، وله عليه حق السمع والطاعة. وكما يقول ريتشارد .ن- ميشل: أمهله ثلاثة أيام ليتخذ قراره.

وفي 19 أكتوبر ـ وهو اليوم الذي أمضى فيه عبد الناصر المعاهدة مع بريطانيا ـ قبل عبد اللطيف مهمة اغتياله بسبب "ارتكابه الخيانة" بإمضاء المعاهدة التي "ضيعت حقوق البلاد"، ووضعت الخطط للقيام بهذا العمل في نفس اليوم، إلا أن الظروف التي أحاطت بعبد الناصر في الاجتماعات العامة لم تساعد على تنفيذ الخطة بنجاح، وبناء على ذلك فقد أجل تنفيذها لوقت أكثر ملاءمة.

وفي 24 أكتوبر قام كمال خليفة وكان من أكثر أعضاء مكتب الإرشاد احتراما بزيارة لجمال سالم نائب رئيس الوزراء، وقدم التهنئة للحكومة على إكمالها المفاوضات وإمضائها للمعاهدة، وشاع من مصادر يعتد بها أن الهضيبي قرر إصدار بيان جديد

يبين فيه انطباعه الحسن عن المعاهدة، على خلاف انطباعه عن الخطوط الرئيسية السابقة للاتفاق، واستمرت "لجنة الاتصال مع الحكومة" في جهودها لرأب الصدع. وفي عصر يوم 26 أكتوبر كان أحد أعضاء مكتب الإرشاد، في مكتب أنور السادات ليطلب تحديد موعد مع رئيس الوزراء لحل بعض المشاكل القائمة، وفي نفس الوقت زار عبد العزيز كامل أحد الأعضاء البارزين في الجماعة ورئيس قسم الأسر منزل صديقه هنداوي دوير الذي كان زميلا له في شعبة امبابه بقسم القاهرة، ولم يذكر دوير لعبد العزيز كامل آنئذ أنه عمل على إرسال عبد اللطيف إلى الإسكندرية في صباح ذلك اليوم كجزء من المؤامرة الإرهابية.

وفي المساء حيث وقف عبد الناصر أمام جموع حاشدة، ليذكر مصر وجهوده الوطنية الشخصية، وليحتفل بنتائجها التي تجلت في اتفاقية الجلاء، أطلقت عليه النار ثماني مرات، وتوقف رئيس الوزراء لحظة ستظل ذكراها الحزينة باقية لأمد طويل، وقطع خطابه حينما دوت الطلقات النارية، ثم استأنف الكلام، وقد تمكن وحده من حفظ النظام حينما اخترق أثر هذه الرصاصات نفوس الجماهير، ولم تمض ساعات حتى أذيعت كلمات عبد الناصر في تلك اللحظة وتكررت إذاعتها في القاهرة ومنها إلى سائر العالم العربي. قال عبد الناصر:

"أيها الشعب ... أيها الرجال الأحرار... جمال عبد الناصر من دمكم، ودمي لكم، سأعيش من أجلكم، وسأموت في خدمتكم، سأعيش لأناضل من أجل حريتكم وكرامتكم. أيها الرجال الأحرار... أيها الرجال... حتى لو قتلوني فقد وضعت فيكم العزة،

فدعوهم ليقتلوني الآن، فقد غرست في هذه الأمة الحرية والعزة والكرامة، في سبيل مصر وفي سبيل حرية مصر سأحيا، وفي خدمة مصر سأموت" .

لم يصب رئيس الوزراء، فأتم خطابه، واستأذن من الجماهير منصرفا. لقد أمده هذا الحادث بفرصة العمر الوحيدة التي تمتع بها ذلك الوقت في صراعه العدائي الذي تميزت به علاقته مع الشعب الذي حاول أن يحكمه، كما أمده دون جدال بفرصة الإجهاز على الإخوان المسلمين. وفي 9 من ديسمبر اللاحق شنق ستة من الإخوان وكان قد اعتقل آلاف منهم، وقضي على الجماعة قضاء مبرما. وبهذه الأحداث ينتهي هذا الفصل.ا هـ.

أما القضاء المبرم على الجماعة، فهو أمر توهمه عبد الناصر ومن معه يوما، ثم تبين لهم أنهم واهمون، وأن الإخوان أرسخ جذورا، وأعمق امتدادا مما ظن الظانون، ورغم ما حشده عبد الناصر ورجاله من كل أدوات التعذيب البدني والنفسي، فإن الدعوات الربانية لا يقضى عليها بالسجون تفتح، ولا بالمشانق تنصب، ولا بالسياط تلهب، ولا بالأموال تصادر، بل ربما زادها ذلك يقينا وثباتا

وقفه عند حادث المنشية

1- من الواضح الجلي، ومن المؤكد المستيقن: أن قيادة الإخوان لا تتحمل وزر هذا الحادث، عند كل دارس أو مراقب عنده ذرة من عقل أو إنصاف.

فقد أكدت كل المصادر: أن المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي كان ضد فكرة الاغتيالات بكل قوة ووضوح، وأعلن هذا بصريح العبارة لرئيس الجهاز السري: إنه برئ من دم أي شخص كان، وهذا ما شهد به الخاص والعام، وأن النظام الخاص أو الجهاز السري للجماعة، لم يكن هو المدبّر لها ولا المسؤول عنها. إنها في رقبة هنداوي دوير رحمه الله، الذي أراد أن يقوم عن الجماعة بتنفيذ ما فرطت فيه في نظره! ومن يدري ربما لو نجحت خطته لأصبح من الأبطال، وعدّ منقذا للدعوة.

وبقدر اندفاعه في التدبير والتنفيذ، كان اندفاعه وانهياره السريع عند فشل الخطة، ويظهر أنه أيقن أن كل شيء قد ضاع، ولم يبق إلا أن يقر ويعترف بكل شيء، فسارع إلى تسليم نفسه طوعا واختيارا، كما يبدو أنه ساومهم أو ساوموه على أن يكون (شاهد ملك) كما يقولون، وفي مقابل اعترافه يعفى من العقوبة أو تكون مع إيقاف التنفيذ أو نحو ذلك، ولكنهم لم يفوا له بما وعدوه، وربما كان هذا هو السبب في صياحه ساعة ساقوه إلى حبل المشنقة: ضحكوا عليَّ .. خدعوني.. ضحكوا عليّ، مش دا اتفاقنا ... الخ.

وبعض الإخوان اتهموا هنداوي ـ أو كادوا ـ بأنه كان عميلا للثورة في ذلك الحادث، وأنا أستبعد هذا كل الاستبعاد على الرجل، وإن كان هناك علامات استفهام في القضية لم نجد لها حتى الآن جوابا مقنعا.

ولكن يبدو أن هنداوي ـ رحمه الله ـ كان ثرثارا، ولم يكن كتوما كما ينبغي، حتى ذكر الأستاذ فريد عبد الخالق: أنه قال في المركز العام أمام عدد من الناس: لازم نقتل جمال، وأن محمد الجزار، رجل البوليس السياسي في عهد الملكية سمعه، وربما أبلغ ذلك إلى الجهات المسؤولة.

كما أن هنداوي طلب من محمود الحواتكي رئيس الجهاز السري في محافظة الجيزة مسدسا لمحمود عبد اللطيف لينفذ به مهمة الاغتيال، فرفض إعطاءه، قائلا: إن المرشد يرفض فكرة الاغتيال مطلقا. وربما كان هذا أو غيره سبب تسرب الخبر، لا يستطيع أحد الجزم.

2ـ وهكذا يبدو من سير الحوادث: أن سر هذه المؤامرة لاغتيال عبد الناصر قد انكشف قبل أن تقع الواقعة، وأن عبد الناصر علم بها، وعلم من المكلف باغتياله، ولكنه لم يقبض على الشخص، ويودعه السجن، كما يتوقع في مثل هذه الحالات، بل أراد أن يستفيد من الحادثة بعد أن انكشف قناعها

أما كيف انكشفت مؤامرة اغتيال جمال عبد الناصر فعلم ذلك عند الله تعالى. ولكن سمعت من بعض الإخوان: أن أحد رجال الأمن ـ نسي اسمه ـ قال في مقابلة تليفزيونية في القاهرة: إن الأستاذ عبد العزيز كامل ـ وكان يسكن في إمبابة مع هنداوي دوير في بناية واحدة ـ علم بتدبيره عملية اغتيال عبد الناصر، فأفهمه خطورة هذا العمل، وسوء أثره على الجماعة، وحاول أن يثنيه عن عزمه، فلم ينثن، فلما رأى تصميمه على التنفيذ، أراد أن يبلغ قيادة الجماعة، لتمنع هنداوي من تصرفه المنفرد، ولما لم يستطع الوصول إلى قيادة الجماعة لاختفاء المرشد: اتصل بمن يعرف من رجال الأمن، وأبلغهم بنية هنداوي، ليبرئ ذمة الجماعة، وكان غرضه أن يقبضوا عليه وعلى محمود عبد اللطيف، قبل أن يحدث أي شيء. وأبلغ مسؤول الأمن عبد الناصر، ولكنه لم يقبض على المدبِّر، ولا على المكلف بالاغتيال، لأمر أراده، كما تدل على ذلك الشواهد التي نأخذها من تعليقات الأستاذ صالح أبو رقيِّق أكثر من اهتم بهذه القضية والتعليق عليها. من ذلك:

1ـ استبعاد أن يخفق مثل محمود عبد اللطيف في إصابة هدفه، وهو أمهر رام عرفه إخوانه في حرب فلسطين. والمسافة قريبة، وقد أطلق ـ كما قالوا ـ ثماني رصاصات. ولم تصب عبد الناصر ولا أحدا ممن كان في المنصة.

2ـ وقع الحادث في مساء 26 أكتوبر، وظهرت صحف الصباح ـ صباح 27 أكتوبر 1954 تحمل في صدر صفحاتها الأولى نبأ القبض على الجاني الأثيم بدون نشر صورته.. قالت جريدة الأهرام:

" لم يكد الجاني الأثيم يطلق رصاصاته الغادرة، حتى كان الجمهور قد هجم عليه، وعلى ثلاثة أشخاص يقفون على مقربة منه، ودخان الرصاص يتصاعد من حولهم، وكاد يفتك بهم، لولا أن بادر رجال البوليس والمخابرات بالقبض عليهم، وضبط السلاح في يد الجاني. (هكذا نشرت جميع الصحف، كما أنه لم ينشر شيء بعد ذلك عن الثلاثة الآخرين الذين قيل أنهم ضبطوا مع الجاني) وقد اقتيد الأربعة إلى نقطة بوليس شريف.. ويدعى الجاني محمود عبد اللطيف، ويعمل سباكا في شارع السلام بامبابه.

(وهنا سؤال: لماذا لم تنشر صورة الجاني في الحال؟).

3- وقد عثر في المكان الذي كان يقف فيه الجاني على أربعة أظرف فارغة من عيار 36 ملليمتر، وهي تختلف عن طلقات المسدس الذي ضبط مع المتهم، إذ أن المسدس الذي عثر عليه مع المتهم من نوع المشط الذي لا يلفظ الأظرف الفارغة"!!

وكان هذا ما نشرته جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم 27 أكتوبر 1954. وأثار ذلك التساؤل عن سر اختلاف الأظرف الفارغة عن طلقات المسدس المضبوط في يد الجاني.. وبدأت همسات: هل هناك شخص آخر؟!.

وفي نفس العدد نشرت الصحف أن الجاني ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين..

وتوالى في الأيام التالية نشر اعترافات محمود عبد اللطيف، وأنه من الجهاز السري للإخوان المسلمين.. وكان مكلفا باغتيال عبد الناصر، لتبدأ حركة اغتيالات لبقية أعضاء مجلس الثورة و 160 ضابطا من الضباط الأحرار، والقيام بثورة، وأن الجهاز السري كان سيقف أمام أي تحركات مضادة.

ومع الاعترافات بدأ نشر أنباء اكتشاف مخازن أسلحة للجهاز السري، والقبض على أفراده، ومخازن في جميع محافظات الجمهورية.. ومتهمين من مختلف الفئات والمهن..طلاب بالجامعات ومحامين ومدرسين وعمال وفلاحين وضباط بالجيش وضباط بوليس وتجار..أي من فئات الشعب جميعها: العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية.

4- وكان الناس في لهفة شديدة لمعرفة شكل الجاني الأثيم.. ومضت خمسة أيام كاملة دون أن تنشر له صورة واحدة.. وأخيرا نشرت صورته، وآثار التعذيب واضحة تماما على وجهه.. ونشر تحتها أنها صورة للجاني، ويبدو فيها آثار اعتداء المواطنين عليه وقت القبض عليه!!

ظلت أحاديث الناس تتناول في كل المجالات ما كان يعتزمه الإخوان المسلمون من خراب للبلاد.. كانت الناس تستقي معلوماتها مما تنشره الصحف.. وكان بعض المفكرين يراودهم الشك في حقيقة الحادث من ضبط الجاني والمسدس في يده، والعثور على

طلقات رصاص من عيار لا يطابق رصاص المسدس ولا يريدون أن يصدقوا أن الحادث من تدبير الإخوان.

5- وفجأة وبلا أي مقدمات - يوم 2 نوفمبر 1954 أي بعد الحادث بستة أيام نشرت جميع الصحف الصباحية صورة الرئيس السابق جمال عبد الناصر وأمامه عامل بناء ممسكا بمسدس. ومع الصورة حكاية مثيرة.. تقول الحكاية إن عامل البناء خديوي آدم.. وهذا اسمه.. كان يستقل الترام يوم الحادث عائدا إلى منزله.. عند ميدان المنشية شاهد جماهير من الناس مجتمعة وسأل عن سر تجمعهم، ولما علم أن عبد الناصر سيلقي خطابا نزل من الترام واندس وسط الجماهير.

وعندما دوى صوت طلقات الرصاص وساد الهرج الآلاف المجتمعة سقط فوق الأرض، وشعر بشيء

حسن التهامي

يلسعه في ساقه.. وتحسسه فوجده مسدسا وكانت ماسورة المسدس لا تزال ساخنة.. وأيقن في الحال أنه المسدس الذي استخدمه الجاني في إطلاق الرصاص على زعيم البلاد!! ووضع المسدس في جيبه واعتزم بينه وبين نفسه أن لا يسلم المسدس إلا لعبد الناصر شخصيا.

وتستطرد القصة في استكمال حبكة خيوطها، وحتى لا يتساءل القارئ عن السر في عدم تسليمه المسدس في نفس الليلة وانتظاره خمسة أيام.. فتقول القصة:

إن العامل خديوي آدم رجل فقير جدا يوميته 25 قرشا.. ولم يكن يملك ثمن تذكرة قطار أو أوتوبيس يحمله إلى القاهرة.. فسار على قدميه المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة.. فوصلها يوم أول نوفمبر، وتوجه في الحال إلى مجلس قيادة الثورة، وطلب مقابلة جمال عبد الناصر.. وأعطاه المسدس فكافأه عبد الناصر بمائة جنيه!!.

وهكذا ظهر سلاح جديد في الجريمة طلقاته من عيار 36 ملليمتر لتكون من نفس أظرف الطلقات التي عثر عليها.. واختفت تماما سيرة المسدس الذي ضبط في يد الجاني لحظة القبض عليه..

هكذا أراد الحاكم ورجال التحقيق...

وفي اليوم الثاني مباشرة نشرت الصحف أن الجاني تعرف على المسدس الذي عثر عليه خديوي آدم، وقرر أنه نفس المسدس الذي استخدمه لاغتيال عبد الناصر، وأنه تسلمه من رئيسه في الجهاز السري المحامي هنداوي دوير. وتعرف هنداوي هو الآخر على المسدس وقرر أنه نفس المسدس الذي أعطاه للجاني، وكان رئيسه

في الجهاز السري المحامي إبراهيم الطيب أعطاه له ليسلمه للجاني!

هكذا تعرف الاثنان على سلاح الجريمة.. وهكذا اختفت تماما سيرة المسدس الأول الذي ضبط مع الجاني لحظة القبض عليه.. واحد فقط أنكر أن المسدس الذي عثر عليه خديوي آدم يتعلق بالجهاز السري.. هذا الشخص هو إبراهيم الطيب نفسه.. وجاء إنكاره أمام محكمة الشعب عندما عرض عليه رئيسها جمال سالم المسدس فقرر أنه ليس نفس المسدس الذي أعطاه لهنداوي .. إنما هو مسدس آخر.

6- ولم يحقق جمال سالم هذه النقطة الهامة.. أغفلها تماما.. كما أغفل أثناء المحاكمة تكليف الادعاء بتقديم شهود الإثبات الذين ضبطوا الجاني لحظة ارتكاب الجريمة .. وكانوا.. وبالمصادفة: من العاملين بمديرية التحرير التي أنشأها مجدي حسنين أقرب الضباط الأحرار إلى قلب جمال عبد الناصر، وهؤلاء الشهود معروفون بأسمائهم ووظائفهم.

ولعل الادعاء خشي أن يقدمهم، ويقدم خديوي آدم العامل الذي عثر على المسدس، حتى لا تتخبط أقوالهم، ويظهر شيء محظور كانوا يسعون لإخفائه..إن أي طالب بالسنة الأولى حقوق يعلم أن أول شهود يستمع إليهم هم شهود الإثبات الذين لهم صلة بضبط الجاني أو مشاهدة الجريمة أو اكتشاف سلاح الجريمة..

ولكن هؤلاء الأربعة لم يدلوا بشهادتهم عند محاكمة الجاني .

7ـ وذكر صالح أبو رقيق بعد ذلك ما حدث في أثناء المحاكمة برئاسة جمال سالم من مهازل ومآسي، انتهت بصراخ هنداوي دوير: ضحكوا علينا .. خدعونا..

8ـ ثم ما ذكره حسن التهامي من قصة (القميص الواقي من الرصاص) الذي كان يعد لعبد الناصر تلك الليلة، وما حوله من وقائع وتفاصيل لا أذكرها الآن، ولكنها تزيد الأمر غموضا، وإن شئت قلت: تزيده وضوحا: أن تدبير دوير ومن معه قد كشف، وأن عبد اللطيف لم يطلق الرصاصات الثماني، وإنما أطلقها غيره.

وقال أبو رقيق: أن الشخص الذي كان بجوار محمود عبد اللطيف، والذي أطلق الرصاصات في الهواء، وترك دون أن يمسك به أحد، موجود على قيد الحياة، وكل مظاهره تدل على أنه تاب وأناب. وكان أبو رقيق يرجو أن يكمل توبته بإظهار الحقيقة التي ظلم بسببها أناس كثيرون، بل جماعة بأسرها.

وذكر الأستاذ حسن العشماوي أنه فوجئ بالحادث، وفوجئ بإسناده إلى الإخوان، وقد سأل في ذلك يوسف طلعت رئيس الجهاز السري، فأكد: أنه لا يعرف شيئا عن ذلك، والمفروض أنه المسؤول عن الحركات السرية. ووضح يوسف طلعت: أن الخطة

الموضوعة كانت تقتضي أن تجتمع الهيئة التأسيسية بعد غد، وأنه ستعقبها مظاهرة لإعلان قراراتها، كما أكد يوسف طلعت: أنه أيقن أن الأستاذ إبراهيم الطيب المسؤول عن الجهاز السري في القاهرة: لم يكلف الأستاذ هنداوي دوير بأن يعمل لاغتيال جمال عبد الناصر، ويستنتج الأستاذ حسن عشماوي من ذلك كله: أن الحادث على هذا النحو فردي يحاسب عليه فاعله.

ثم يعود ليذكر: أنه يؤيد اتجاه الأستاذ يوسف طلعت، الذي كان إيمانه يصل إلى أن الحادث ملفق.. لأن المسافة بين مُطْلِق النار وموقف عبد الناصر 300 متر، وللميل الشديد في الاتجاه، إذ كان عبد الناصر يقف على منصة عالية، ثم لوقوف عبد الناصر وراء حاجز من البشر، وذهاب المتهم وحده دون شريك يسنده، واستعمال مسدس، وهو أداة ضعيفة في مثل هذه الحال، وعدم إصابة الهدف من شخص معروف جيدا بالمهارة الفائقة، ومعروف كذلك بأنه لا يطلق النار بغير تأكد من الإصابة... كل ذلك يوحي أن الحادث غير معقول.

ويوسف طلعت كان دائما يتساءل: أمن الممكن أن يرسل هنداوي دوير شخصا واحدا لهذا الحادث، مع أنه يستطيع أن يرسل عدة أشخاص؟ وهل يمكن أن يرسل مسدسا واحدا بدلا من عدة مسدسات وعدة قنابل؟

ويذكر الأستاذ حسن العشماوي أنه سمع من موظف عاين مكان الحادث رسميا أن الحائط المواجه لإطلاق النار ليس به أي أثر

للرصاص، وأنه يعتقد أن المسدس الذي سُمعت طلقاته كان محشوا بالبارود فقط دون رصاص، وأن عبد الناصر كان يعلم سلفا لحظة الإطلاق.

رأي الدكتور أحمد شلبي

وأود أن أسجل هنا رأي أستاذ جامعي مؤرخ متابع لأحداث العصر، وليس من الإخوان وهو المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد شلبي أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية (دار العلوم) يقول في الجزء التاسع من (موسوعة التاريخ الإسلامي):

رأيي الذي أدين به والذي كونته من دراسات وتفكير خلال ربع قرن منذ وقع الحادث حتى كتابة هذه السطور، هذا الرأي يتخذ دعامته من الأحداث والأقوال التالية:

أولا: الدقة الشاملة في إعداد السرادق وتنظيم الذين يحتلون مقاعده، وقد سبق أن اقتبسنا كلمات إبراهيم الطحاوي الذي يقرر أن هيئات ثلاثا كانت مكلفة باحتلال مقاعد السرادق، هي هيئة التحرير، وعمال مديرية التحرير، والحرس الوطني، وهذا يوضح أنه لم يكن هناك مقعد يمكن أن يتسلل إليه مغامرا ليعتدي على جمال عبد الناصر، فما كان الوصول إلى المقاعد أمرا ميسورا، ولم يترك للجماهير إلا المقاعد الخلفية النائية.

ثانيا: قضية الجنيهين اللذين تحدثت عنهما الصحف المصرية وقالت: إنها أعطيا لمحمود عبد اللطيف لينفق منهما على أولاده وأسرته هي في تقديري أسطورة لم يُجَدْ حبكها، فالمبلغ الذي يقدم لمن هو فقير ويطلب منه أن يقدم على هذه المغامرة لا بد أن يكون مبلغا ضخما، يغري بالإقدام على هذا الجرم.

ثالثا: ثماني رصاصات تنطلق من مسدس يمسك به رجل مشهود له بالدقة في إصابة الهدف، ولا تنجح واحدة من هذه الرصاصات في إصابة الهدف أو إصابة أي شخص من الذين يحيطون بجمال عبد الناصر، أو إصابة أي إنسان على الإطلاق. هذا في تقديري مستحيل.

ثم إن المشرفين على السرادق سرعان ما طمأنوا الناس ودفعوهم للهدوء، ولو كانت هناك مؤامرة فعلا لانفض الحفل مخافة أن يكون هناك مزيد من الرصاص.

ومما يتصل بالإصابات نذكر أن الإصابات القليلة التي حدثت كانت من زجاج انكسر، ربما من الزحام والجموع التي تحركت عقب الحادث، ولم تكن هناك إصابات من المسدس على الإطلاق.

رابعا: كانت المسافة بين المكان الذي قيل: إن محمود عبد اللطيف أطلق منه النار وبين جمال عبد الناصر 300 متر، وكان عبد الناصر على منصة عالية، وهذه المسافة وارتفاع الهدف يجعلان

من المستحيل نجاح الخطة وإصابة الهدف، وبالتالي لا يقدم على هذا العمل جماعة لهم خبرات بالتخطيط والأمور العسكرية.

خامسا: من المعروف أن الإخوان المسلمين كانت عندهم ذخائر ومدمرات هائلة، ولو اتجهوا للاغتيال لكان هناك وسائل أخرى لتحقيق هدفهم، ومن المستحيل أن يقدموا على هذا العمل بمسدس لا يستعمل عادة إلا عند المسافات التي لا تتجاوز أصابع اليدين من الأمتار، وقد تحدثت الصحف آنذاك عن أسلحة ومفرقعات ضبطت لدى بعض الإخوان بالإسكندرية كانت تكفي لنسف المدينة كلها.

سادسا: حكاية النوبي الذي حمل المسدس سيرا على الأقدام من الإسكندرية إلى القاهرة حكاية ساذجة ننقدها من النقاط التالية:

1- كيف اتُّهم محمود عبد اللطيف قبل العثور على المسدس؟ مع ملاحظة أن المسدس الذي قيل: إنه وجد معه لم يستعمل ذاك المساء.

2- كيف أفلت المسدس المستعمل من الذين قبضوا على محمود عبد اللطيف؟

3- لماذا لم يسلم النوبي المسدس لنيابة الإسكندرية؟

4ـ لماذا جاء هذا الرجل سيرا على الأقدام طيلة هذا المسافة التي لا تقطع عادة سيرا على الأقدام؟

سابعا: يروي صلاح الشاهد أنه كان يقود سيارته مساء يوم 16 وسمع جزءا من خطاب الرئيس من مذياع بالسيارة ثم سمع الطلقات، فأسرع نحو بيت الرئيس ليكون مع أولاده في هذه الأزمة، ولم يجد صلاح الشاهد بالبيت اضطرابا أو ذعرا وأخذ يداعب أولاد الرئيس الذين كانوا يلعبون، وهذا يوحي لي بأن أسرة الرئيس كانت تعلم سلفا بما سيجري، وقد شاهد هذا الاطمئنان قبل أن يتصل بهم عبد الناصر من الإسكندرية.

كل هذا يؤكد ما قلته، وأنا مطمئن تمام الاطمئنان: أن قيادة الإخوان ـ العلنية والسرية ـ ليس لها أدنى علاقة بهذا الحادث، وأن الذي فكر فيه ودبر خطته أولا، هو هنداوي دوير، وأن خطته كشفت لعبد الناصر يقينا، وإن كنا لا نعلم كيف تم ذلك على وجه القطع.

وأن عبد الناصر استغل هذا الأمر، وأخرجه ـ مع رجاله ـ على الطريقة التي تم بها، والتي تدل كل خطواتها ووقائعها على أن محمود عبد اللطيف ليس هو الذي أطلق الرصاص، وليس مسدسه الذي انطلق منه الرصاص.

لقد أطلت الوقوف عند (حادث المنشية) وحق لي أن أفعل، فإن هذا الحادث كان هو السبب الظاهر فيما حلّ بي وبإخواني من تنكيل وتعذيب وتشريد، استمر عدة سنوات، حتى قضى بعضهم عشرين

عاما في الأشغال الشاقة، ولا تزال له آثاره في سير الجماعة حتى اليوم. فليس كثيرا أن نطيل عنده الوقوف والتأمل والمقارنة والتحليل.

محكمة الشعب

وفي هذه الفترة ـ ما بين حادثة المنشية واعتقالي ـ كانت المحكمة التي شكلها عبد الناصر لمحاكمة الأستاذ الهضيبي وقادة الإخوان، والتي سماها "محكمة الشعب" فهل الشعب هو المحاكِم أو المحاكَم؟ الحق أنها كانت محاكمة للشعب المقهور الذين يمثله الإخوان، أو يمثلون طلائعه التي تعيش همومه وآلامه وآماله. وكانت هذه المحكمة الغريبة الأطوار، العجيبة الأدوار، تعقد جلساتها لمحاكمة الإخوان، وكانت تذاع مساء على الهواء من إذاعة القاهرة، فلم يكن أنشئ التلفزيون بعد. وكنت أسمعها كلما أتيحت لي الفرصة، فكنت أجد فيها العجب العجاب من رئيس المحكمة قائد الجناح جمال سالم، الذي لا يصلح أن يكون قاضيا مدنيا ولا عسكريا، فهو يتصرف في المحاكمة تصرفات لا تصدر عن إنسان عاقل سوي، ناهيك بقاض

يحاكم مستشارا من أكبر مستشاري مصر مثل حسن الهضيبي، وقاضيا فقيها من أفقه قضاة مصر والعرب مثل عبد القادر عودة، وأديبا وداعية ومفكرا من أعظم دعاة العصر مثل سيد قطب، وغيرهم.

لقد سمعته يقول للأخ المؤمن الصادق يوسف طلعت: تقدر تقرأ الفاتحة بالمقلوب؟

أهذا يقوله امرؤ عاقل؟

ويطلب منه أن يفسر سورة الزيتون، كنوع من السخرية، وما دخل هذا بموضوع المحاكمة؟

لقد كان بعض رفقاء جمال سالم يسمونه (المجنون). ويبدو أن هذا الوصف صحيح إلى حد كبير.

يقول أنور السادات: كان جمال سالم رحمه الله حاد المزاج عصبيا إلى حد غير طبيعي، غير متزن في جميع نواحي شخصيته، فلما وجد الناس منصرفة عنه لسوء معاملته بدأ يثير المعارك هنا وهناك وفي كل مجال.

وكان السادات هو عضو اليمين في محكمة الشعب، وكان لا يتكلم، المتكلم الوحيد هو جمال سالم.

وقال رفاقه: كان جمال سالم لا يهاب الدم ويهدد بالقتل ويحث عليه، وقد اندفع مرة متأثرا بجمال عبد الناصر ضد نجيب، فأعلن جمال سالم: أنه سيقوم بقتل محمد نجيب، وتخليص المجلس منه، وعلى المجلس أن يقوم بمحاكمته على فعلته. وعندما اعترض ضباط

المدفعية على تصرفات مجلس الثورة في يناير سنة 1953 اقترح جمال سالم أن يحاكموا محاكمة صورية ويتم إعدامهم فورا.

ولقد شهد بمهزلة هذه المحاكمات أو مأساتها كل من شاهدها أو حتى قرأها، مع أنهم ربما حذفوا من المكتوب شيئا، أو أشياء.

ومن هؤلاء الكاتب الأمريكي، دكتور ريتشار. د. ميتشل، الأستاذ بجامعة متشجان – آن آربر، والذي ألف كتاب (الإخوان المسلمون) وترجمه إلى العربية الدكتور محمود أبو السعود، وعلق عليه الأستاذ صالح أبو رقيق.

يقول ميتشل:

"أما المحاكمات نفسها فكانت نموذجا لا ينسى لما تملكه الحكومة الثورية وما تضفيه على نفسها من حقوق تتعلق أصلا بحكم القانون، إذ اتضح منذ البداية أن آخر شيء ترمي إليه الحكومة هو إيضاح القضية، وتقدير مدى إدانة كل فرد فيها، بل إنه في الحالات التي عينت فيها المحكمة المحامين، طرح هؤلاء أسئلة وأبدوا ملاحظات كان من الأخلق أن تترك لممثل الإتهام، أما رئيس المحكمة، جمال سالم ـ فقد كان تصرفه أقرب إلى تصرف المدعي العام: كان يقاطع دون تحرج إجابات الشهود إذا لم تعجبه الإجابة، وكان يضع الكلمات في أفواههم، فيتقول عليهم ما لم يقولوا، وكان أحيانا يستعمل التهديد ليفرض عليهم الإجابة التي يريدها، وكانت

الأسئلة تصاغ بحيث تستبعد أي رد إلا ما تريده المحكمة، وكان يوقف كل محاول للتخفيف من توتر الموقف، بل إنه كان يتبادل مع الشهود في بعض الأحايين الشتائم الوضيعة، وفي غالبية هذه الحالات كانت الشتائم تنهال من جانب المحكمة وحدها. وكانت تواجه شاهدا بآخر، وقد زيفت شهادة أحدهما لتثير الشاهد الآخر، وسمح للحضور أن يشاركوا في الضحك على الشهود والهزء والسخرية بهم وسبِّهم، وكانت أكثر الأسئلة في مثل هذه المواقف غير متعلقة بالجريمة، وتضمنت فيما تضمنته أسئلة تتعلق بإعراب القرآن وتفسيره، بقصد إحراج الشهود وإرباكهم.

أما الشهود أنفسهم فقد كانوا مشوشين، وبطبيعة الحال خائفين، وفي أغلبية الأحوال غير صريحين ولا صادقين، وطفحت الأدلة بالتناقض، وذلك لأن المحكمة من ناحية كانت توجه الشهود ولأن الشهود أنفسهم كانوا غير راغبين في الكلام من ناحية أخرى .

فترة ما قبيل الاعتقال

تركت الشقة التي كنت أسكن فيها بشارع راتب باشا في حدائق شبرا، حين عرفت أنهم يسألونني، لأنها أمست مصيدة لرجال المباحث، فمن دخل إليها فقد ذهب إلى المعتقل برجله، وكنت حريصا على ألا أعتقل في ذلك الوقت حتى تظهر نتيجة امتحان تخصص التدريس، وأعين مدرسا بالمعاهد الدينية، وأثبت حقي في ذلك، ثم لا مانع أن أعتقل بعدها.

هكذا كنت أتصور الأمر، وقد ظهرت النتيجة بالفعل، وكان ترتيبي الأول بفضل الله تعالى وتوفيقه على طلاب الكليات الثلاث: أصول الدين والشريعة واللغة العربية، وعددهم في تلك السنة خمسمائة طالب. وبقي انتظار التعيين.

وكنت في هذه الفترة أبيت عند الأصدقاء من الإخوان الذين أحسب أنهم غير مطلوبين للاعتقال، وأقيم في بيت أحدهم عدة ليال ثم أغادره، ولا أكاد أغادره حتى يداهمه البوليس ويقبض على من فيه. وضاقت القاهرة عليَّ بما رحبت، وفكرت في الاختباء بعيدا عن القاهرة حتى يتم التعيين من ناحية، وحتى تخف وطأة الإيذاء والتعذيب، حيث تكون على أشدها في الفترة الأولى، ثم يحدث الاسترخاء شيئا فشيئا.

إلى منزل خالتي في طنطا

ولهذا فكرت أن أدع القاهرة وأذهب إلى منزل خالتي بطنطا لمدة من الزمن، على أن أقبع داخل البيت ولا أخرج منه، حتى لا ينتشر خبر وجودي هناك. وهذا ما حدث، رغم ما في ذلك من خطر على خالتي وعلى زوجها، فإن إيواء أي مطلوب للاعتقال جريمة يعاقب عليها بكذا وكذا سنة، بتهمة التستر على مجرم! ولكن خالتي رحمها الله، لم تبال بالعقوبة لا هي ولا زوجها، فقد كانت تعتبرني بمثابة ابنها، وهل رأيت أمًّا تغلق بابها في وجه ابنها؟

والحقيقة أن فكرة الاختباء لم تكن موفقة، وقد جربتها من قبل سنة 1949 في عهد الملكية، حين اختبأت أنا وأخي وصديقي محمد الدمرداش، ثم اضطررنا لتسليم أنفسنا حينما أخذوا والدته، والوضع الآن أشد وأقسى بما لا يوصف من ذلك العهد، فلماذا أعرض خالتي للأذى والبلاء؟

على أني في الواقع كنت معتقلا، أعتقلت أنا نفسي في المنزل، مع الخوف والقلق على نفسي وعلى من حولي، وقديما قالوا: وقوع البلاء ولا انتظاره.

ولكني كنت أنتظر التعيين بالأزهر الذي أعتبره باب مستقبلي، وقد عرفت من الأخ الصديق الشيخ مصباح عبده الذي كان يعرف مكاني وزارني فيه، أني عينت بالفعل في معهد بنها الديني، وأنه مكتوب أمام اسمي: إذا حضر ليتسلم العمل يسلم إلى المباحث!

كما اقترح الشيخ مصباح عليَّ أن أحلق لحيتي، وكنت أطلقتها منذ مدة، وقال: إنه سمع أن زبانية التعذيب في السجن الحربي أجبروا بعض المشايخ أن ينتفوا لحاهم بأيديهم، من باب التنكيل والإهانة وشدة الإيلام والعذاب.

وفعلا طلبنا حلاقا مأمونا، وحلق لحيتي بالموسي.

كما أن بعض أقاربي في القرية ـ صفط تراب ـ بدأوا يزوروني عند خالتي، زارني خالي وابن عمي، وخالتان لي، وآخرون من أقاربي يذهبون إلى محطة القرية، يوما بعد آخر، فهذا مما يثير الانتباه. ولا سيما عند السلطة المحلية المكلفة بتبليغ أي شيء يتعلق بي.

ولهذا سرعان ما تنبه شيخ خفراء القرية للحركة غير العادية لأقاربي، وعرف أنهم يذهبون إلى خالتي في طنطا، فأبلغ رجال المباحث بالأمر.

وفي إحدى الليالي وجدنا من يقرع باب المنزل الخارجي بشدة، وينادي: يا بدوية، وهو اسم خالتي، الذي يعرفه أهل قريتنا، أما أهل طنطا فينادونها: أم عبده، على اسم خالي عبد الحميد شقيقها. وهذا عرفني أن دليل الحملة التي جاءت في جنح الليل، كان من صفط.

فكان الناس يسمون هؤلاء (زوار الفجر) وأنا أضن عليهم أن ينسبوا إلى الفجر والنور، بل ينبغي أن يسموا زوار الظلام.

اعتقالي وتسليمي إلى مباحث المحلة الكبرى

كان الذين جاؤوا للقبض عليَّ هم مباحث المحلة الكبرى، وسرعان ما استاقوني إلى تفتيش المباحث العامة بالمحلة، وكان على رأسه ضابط شرس، كأنه وحش مفترس، اسمه محمد شديد، وكان له من

لقبه نصيب أي نصيب، فهو شديد فظ غليظ، ولكن على أهل الإيمان والدين، وليس كما وصف الله أصحاب محمد بقوله: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) الفتح:

وكان يعيش في المحلة، ويعرف نشاطي بها، ورصيدي فيها، وإقبال الناس علي من كل الطبقات، وهو ما يغيظه ويضيق به صدره، وآن الأوان ليشفي غليله مني، وقد أصبحت سجينا لديه، وهو الآمر الناهي، وعنده من السلطات ما لا حد له، فلا يسأل عما يفعل.

وقد استقبلني بالحفاوة اللائقة بمثلي: التعليق في الفلكة، والضرب بالسياط، قبل أن يسألني سؤالا واحدا، ولكنه التشفي.

ثم بدأ يحقق معي بتهمة الانضمام إلى الجهاز السري، وليس عنده من الوقائع أو الأدلة ما يثبت عضويتي في هذا الجهاز، إلا دعوى رئيس الجهاز بالمحلة عبد الحميد الرفاعي، واتخذ من أساليب الإيذاء والتهديد كل ما في وسعه، فيجعل مني عنصرا فعالا في هذا الجهاز، ولم أكن كذلك.

بل بلغ هذا الرجل من سوء الأدب والجبروت أن طلب مني أن أضع حذائي فوق عمامتي، فلما قلت له: إن العمامة رمز العلم الإسلامي، وإهانتها إهانة للإسلام، سخر مني وقال كلاما أستحي أن أذكره، وأمر أحد مخبريه أن يضع حذائي فوق عمامتي.

قلت له: أكنت تصنع ذلك لو كانت عمامة سوداء؟! فلم يرد عليَّ.

وكان معي في حجز المباحث الأخ الداعية الكريم الأستاذ محمد كمال إبراهيم من إخوان زفتى، وكان يعمل في نيابة سمنود، ولما رآني أظهر الاعتزاز والشموخ، قال لي: هؤلاء إذا رأوك شامخا معتزا بنفسك، افترسوك، وحاولوا أن يذلوك ما استطاعوا، وأن يقهروك بكل ما يقدرون عليه، وأحسن طريقه معهم أن تظهر (التمسكن) حتى يكفوا عنك.

وقال: هذا ما حاولت أن أفعله معهم، قلت لهم: أنا رجل مقرئ، صوتي جميل بالقرآن، وكانت كل مهمتي في الإخوان أن أفتتح حفلاتهم بقراءة القرآن بصوتي.

قلت للأخ كمال: ألم نكن ننكر على الناس قولهم: إذا كان لك عند الكلب حاجة قل له: يا سيدي! وقولهم: دارهم ما دمت في دارهم، وأرضهم ما دمت في أرضهم، ونسمي هذه: أخلاق العبيد؟ فكيف تنصحني اليوم أن أتخلق بأخلاق العبيد؟

قال: كلامك صحيح في الظروف العادية، أما في الظروف الاستثنائية فلها سلوكها الخاص بها. ألم تحدثونا أنتم علماء الشرع عن أحكام الضرورات، وأنها تبيح المحظورات، وعن أحكام الإكراه وما يترتب عليه، وأن من الصحابة الأخيار من اضطرته الظروف الاستثنائية أن ينطق بكلمة الكفر مكرها، وظل خائفا

مشفقا على نفسه ودينه من هذه الكلمة حتى نزل قوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئنا بالإيمان) النحل: وقال تعالى في موالاة الكفار من دون المؤمنين (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة) آل عمران:

قلت: صدقت، ولكن هناك خيوط دقيقة بين المشروع والممنوع في هذا التعامل، فالعلماء قالوا: المداراة للسفهاء ونحوهم مشروعة، أما المداهنة فمحظورة.

قال: وأنت لا يطلب منك أكثر من المداراة لهؤلاء السفهاء القساة، لا المداهنة لهم. كل ما أطلبه منك أن تتظاهر بالضعف وإن كنت قويا، حتى لا يتجبروا عليك، ويحاولوا أن يكسروا أنفك بما لديهم من وسائل إيذاء.

قلت: وهذه محنة أخرى داخل المحنة، أسأل الله تعالى أن يعيننا عليها.

وتذكرت قول حكيم الشعراء أبي الطيب:

يقضي على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن!

واجتهدت أن أنتصح بنصيحة الأخ كمال، وإن كانت صعبة على نفسي. وعلى المرء في زمن كهذا أن يروض نفسه على تحمل الصعاب، مادية كانت أو نفسية، وقد قلت في النونية:

هون عليك الأمر لا تعبأ به إن الصعاب تهون بالتهوين!

ويبدو أن نصيحة الأخ كمال قد آتت أكلها، فكفوا الأذى عني، أو لعلهم ملوا من كثرة ما صدر منهم من أذى، أليس يمل المؤذي كما يمل غيره من الناس؟ إن العقارب لا تلدغ إلا في ظرف معين، والأفاعي لا تعض إلا لسبب خاص؟ والوحوش لا تفترس إلا لحاجة تدعوها. فلماذا نرى الإنسان يؤذي أخاه الإنسان في الإصباح والإمساء، وبسبب وبغير سبب وكأنما يتلذذ بهذا الإيذاء؟

إن الإنسان إذا تجرد عن الإيمان أمسى شرا من السبع الضاري، لأن السبع لا يبحث عن فريسته إلا إذا جاع، وإذا وجد الفريسة لم يبحث عن غيرها حتى يجوع، ولكن الإنسان ـ إذا حرم من الإيمان ـ لا يشبعه فريسة ولا فرائس، فقد يقتل الألوف، بل الملايين وهو لا يشبع ولا يرتوي، بل هو أشبه بجهنم التي يقول الله لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

على أن بعض هؤلاء المتجبرين الذين رأيتهم يمدون أيديهم إلي بالأذى، ليسوا أشرارا في حقيقتهم، ولكنهم قهروا على الشر قهرا،

بحكم عملهم ووظيفتهم، والعامة في مصر يقولون: أكل العيش مر. وأكل عيشهم يضطرهم أن يفعلوا ما لا يحبون، وأن ينفذوا ما يؤمرون، وأن يسارعوا إلى تنفيذه، ويظهروا تجاوبهم معه، وتلذذهم به، حتى لا تلحق بهم تهمة قد تحرمهم من عملهم.

وقد عرض أخونا الشاعر المبدع هاشم الرفاعي في رائعته الشهيرة (رسالة في ليلة التنفيذ) للسجان الذي يحرسه وما يدور بخاطره، عرضا يتضمن لمسة إنسانية، يقول فيها:

هو طيب الأخلاق مثلك يا أبي   لم يبد في ظمأ إلى العدوان

لكنه إن نام عني لحظة   ذاق العيال مرارة الحرمان

أنا لا أحس بأي حقد نحوه   ماذا جنى فتمسه أضغاني؟

على أية حال، بقيت في حجز المحلة أياما لا أذكر عددها، لم يستطع أحد من الأهل والأقارب أن يصل إلي أو يعرف عني شيئا، رغم أنهم يمرون على تفتيش المباحث غادين ورائحين، ولكنهم لا يدرون ما يدور فيه، فهو أشبه بما وصفه ابن الرومي من قبر ابنه القريب منه، والذي أصبح كما قال:

بعيدا على قرب، قريبا على بعد!

ثم انتهت مهمتنا في مباحث المحلة، بعد أن انتهى التحقيق معنا، وآن الأوان، لنرحل إلى طنطا، ومنها إلى القاهرة، لندخل مع إخواننا هناك، في الأتون الكبير الذي ينتظرنا، وهو (السجن الحربي) وما أدراك ما الحربي؟



قضية خالتي التي آوتني

وقبل أن أحدثك قارئي عن الحربي وما فيه، أحب أن أذكر لك ما جرى لخالتي التي آوتني في بيتها تلك الأيام، ما طلع النهار، حتى قبضوا عليها هي وزوجها، ثم أفرجوا عن زوجها، لأن البيت بيتها هي، وبقيت هي حبيسة على ذمة قضية إيواء مجرم مطلوب للاعتقال، ووقفت أمام القاضي، الذي سألها: كيف فعلت ذلك، وأنت تعلمين ما في هذا الفعل من عقوبة قاسية.

قالت له: يا سيادة القاضي، إنه ليس شخصا غريبا آويته. إنه ابني، ماتت أمه وتركته لي، أفتطرد الأم ابنها إذا أوى إليها؟

وتأثر القاضي بكلامها، ولكن الجو كان مشحونا ضدها، وضد أمثالها، فما كان من القاضي إلا أن أجل القضية، وظل يؤجلها حتى هدأ الجو، وبدا الإفراج عن بعض المعتقلين، ثم حكم لها في النهاية بالبراءة.

مع كل قدَرٍ لطف

يقول ابن عطاء الله في حكمه الشهيرة متحدثا عن لطائف أقدار الله: من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره (إن ربي لطيف لما يشاء) يوسف:

يعني أن في كل محنة منحة، وفي كل قدر لطفا، علمه من علمه، وجهله من جهله، وكثيرا ما لا يعلمه الناس بعد مدة. كما في محنة يوسف وبيعه لعزيز مصر، واتهامه ودخوله السجن، لأن الله تعالى يدخره ليقوم بمهمة فيها إنقاذ مصر وما حولها من مجاعة مهلكة لولا ما هيأه الله له ليقوم به من تخطيط زراعي لمدة خمسة عشر عاما.

لقد كنت ضيق الصدر، شديد التأذي بما جرى لي في مباحث المحلة من إيذاء وإيلام وتعذيب، ولكن بعد ذلك تبين لي أن هذا كان فيه خير كثير لي من حيث لا أدري.

أولا: أعفاني التحقيق الذي حدث في المحلة من إعادة التحقيق معي مرة أخرى في السجن الحربي، حيث تسلموا الملف كاملا مستوفًى، والتحقيق في المحلة على ما فيه لا يداني ما يجري في السجن الحربي من أهوال تشيب لها الولدان، وتقشعر من ذكرها الأبدان.

ثانيا: التحقيق الذي جرى في المحلة كان محصورا في قضية واحدة: قضية الجهاز السري في المحلة، فلم يسألني عن نشاطي الآخر في القاهرة وهو متعدد النواحي، ولهذا لم يسألني عن نشاطي في قسم نشر الدعوة ورحلاتي في الصعيد والوجه البحري، ولا عن نشاطي في قسم الطلاب، وخصوصا طلاب جامعة الأزهر بكلياتها المختلفة، وقد كنت المسؤول الإخواني عنهم، ولم يسألني عن نشاطي في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي ورحلاتي إلى لبنان وسورية والأردن، وصلاتي بطلاب البعوث الإسلامية وغيرهم ممن يدرسون في مصر.

من لطف الله أنه كان هناك انفصال بين الجهات المختلفة، فكل جهة تبحث فيما يخصها، ولا صلة لها بغيرها.

أذكر أنا كنا في إحدى الخرجات التي يخرجوننا فيها نركض أمام السجن، وقد فوجئت بالأخ الأستاذ أحمد عادل كمال، ينتقل من مكان إلى مكان، حتى وصل إلى جواري، وقال لي: هل سألوك عن رحلة سورية؟ قلت: لا، لم يذكروا لي أي شيء عنها. قال: لو سئلت عنها لا تذكر عني شيئا. قلت: إن شاء الله. وقد كنا التقينا

هناك في مدينة حماة. ولكن من رحمة الله أني لم أسأل على الإطلاق عن أيٍّ شيء حول هذه الرحلة.

إلى السجن الحربي

عرفت السجن الحربي في اعتقال يناير سنة 1954، وكان اعتقالنا في عنبر رقم (4)، وكان سجنا انفراديا، كل معتقل في زنزانة، ولكن السجن في تلك الفترة خلا من الإيذاء والتعذيب، حتى كتبت قصيدة أتغزل فيها بـ (زنزانتي) نشرتها مجلة السجن التي كان يشرف عليها الأخ الأستاذ عز الدين إبراهيم.

أما السجن الحربي الذي رحلنا إليه اليوم، فشيء آخر تماما، لا يمكن وصفه ولا تصويره بالكلمات والحروف، نثرا أو شعرا.

لقد عرف الناس من قديم الزمن السجون، وما يجري فيها من فنون الأذى، وألوان العذاب، سمعنا عن سجن (الباستيل) في فرنسا، وعن سجون الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وغيرهم، وقرأنا قول الشاعر العربي يصف سجنه بقوله:

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها فلسنا من الموتى نعدّ ولا الأحيا

إذا دخـل السجان يومـا لحاجة فرحنا وقلنا: جـاء هـذا مـن الدنيا

ونفرح بالـرؤيا، فجل حـديثنا إذا نحن أصبحنا: الحديث عن الرؤيا!

ولكن السجن الحربي أعطى صورة عن السجن لا نظير لها فيما أعلم. وقد تجمع في هذا السجن: الطرائق القديمة للتعذيب، والطرائق الحديثة، المستوردة من النازية والفاشية والشيوعية، التي تفننت في أساليب تعذيب البشر وإذلالهم، ومحاولة التأثير على أفكارهم وسلوكهم، عن طريق ما يسمونه (غسيل المخ) وهو ما ذكره صلاح نصر مدير المخابرات المصرية ورجل عبد الناصر في كتابه عن(الحرب النفسية)، وهو ما اجتهدوا أن يطبقوا نظرياته على الإخوان بجلافة البدوي أو الصعيدي القح في هذا الأتون الكبير الملتهب المسمَّى (السجن الحربي).

والسجن الحربي في مصر بناه الإنجليز أيام الاحتلال، ليعاقب فيه العساكر الذين يخالفون القانون، وقد قسم على أساس أن يكون لكل سجين زنزانة يسجن فيها انفراديا.

والزنزانة هي حجرة صغيرة نحو مترين في متر ونصف تقريبا، فيها نافذة صغيرة عالية قريبة من السقف، مسورة بالحديد، مفتوحة باستمرار لإدخال الهواء، حيطانها وأرضيتها أقرب إلى اللون الأسود، لها باب أسود أيضا يغلق بقفل من الخارج.

وكنت أنا ومعظم المعتقلين في السجن الكبير، وهو مبنى مربع مكون من ثلاثة أدوار، كل دور مكون من أربعة أضلاع، كل ضلع فيه خمسة وعشرين زنزانة أو أكثر، وأمام الزنازين في الدورين الثاني والثالث (فراندة) يحوطها سور يطل على ساحة السجن، وللسجن سلّمان، لكل ضلعين سلم ينزلان منه إلى الساحة (أو الحوش) وفيه دورتان للمياه، في كل دورة تسعة مراحيض على ما أذكر، وقد أنشئتا لتكفي نزلاء السجن كله إذا امتلأ، أي نحو ثلاثمائة شخص، وهيهات أن يمتلئ. فكيف يكفي الآن أكثر من ألفين؟ إذ كل زنزانة فيها سبعة أو ثمانية. لهذا كان من أسباب العذاب في السجن الحربي كيف يمكن الإنسان أن يقضي حاجته البشرية في دورة المياه؟

الاستقبال في السجن الحربي

وصلت السجن الحربي في مساء اليوم الذي صدر الحكم فيه على الأستاذ الهضيبي والإخوة الستة معه بالإعدام، وهم: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وإبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، وهنداوي دوير، ومحمود عبد اللطيف، وحولوا من السجن الحربي إلى سجن آخر. ولهذا لم يقدر لي أن ألتقي بهم، أو أراهم ولو من بعيد، كما رآهم الكثيرون، وهم صفوف أمام السجن، في خطوات عسكرية على أنغام أغنية أم كلثوم، وهي تغني: يا جمال يا مثال الوطنية، أجمل أعيادنا المصرية، بنجاتك يوم المنشية! وهي نفس الأغنية التي تحولت بعد ذلك وصارت: أجمل أعيادنا المصرية، برئاستك للجمهورية!

عندما دخلت باب السجن الحربي كان جنود السجن يرقبوننا على أحر من الجمر، ليستقبلونا بالتحية اللازمة لأمثالنا: بالكرابيج تلهب ظهورنا، وبالشتائم تخرق أسماعنا، وبالمشاهد الرديئة تؤذي أبصارنا.

كان الوطيس لا يزال حاميا، والرحى الطحون تدور بقوة، لا تطحن الحب، بل تطحن البشر تحت حجريها: التعذيب البدني، والإهانة النفسية. إذ المقصود أن يسلخ الناس من آدميتهم، وأن يعاملوا كأنهم مواشٍ في حظائر، لا حرمة لهم ولا كرامة ولا حقوق. على أن المواشي في الحظائر يجب الرحمة بها والعناية بها، وإلا احتجت لأجلها جماعات الرفق بالحيوان في العالم. أما نحن فلم نر ولم نسمع ولم نقرأ أن أحدا احتج لما نلقاه من عذاب وهوان.

حمزة البسيوني

الناس كل الناس هنا خانعون خاضعون، لا يملكون أن يقولوا: لم؟ بله أن يقولوا: لا. فقد أعاشوهم في رعب رعيب، أخرس الألسنة، وزلزل القلوب، وشل الأيدي.

هنا واحد فقط هو الحاكم بأمره، الذي لا يحاسب على ما يقول، ولا يجازي على ما يقترف، بل لا يسأل عما يفعل، فله كل سلطة الإله!
إنه (الباشا) قائد السجن حمزة البسيوني، الذي يتحدى القانون، ويتحدى النظام، ويتحدى الدين، ويتحدى كل شيء، حتى الله تعالى

في عرشه، فقد رد على بعض الإخوة حين قالوا: يا رب، يا رب، قال: هاتوا لي ربكم وأنا أحطه في زنزانة!! لعنه الله وأخزاه، وكلما رأيته تذكرت قول الله تعالى: (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار) غافر:

وينوب عن حمزة البسيوني في حكم السجن عسكري برتبة رقيب أول أو (باش جاويش) اسمه أمين السيد، الذي يستطيع بصفير صفارته أن يدخل المعتقلين إلى الزنازين، وأن يخرجهم منها، وأن يقيمهم ويقعدهم كما أراد، وكلما أراد، وكيفما أراد. وهو شاب نحيف نحيل، ولكنه منتفخ بالغرور والعجب والزهو بنفسه. إنه يعتبر نفسه كأنه عضو في مجلس الثورة، قال لنا يوما: تسعون إلى الحكم، ها نحن معنا الحكم أخذنا إيه؟

بقينا في ساحة السجن الكبير، وكل من يمر بنا من العساكر يجرب سوطه فينا، وقد سجلوا أسماءنا وبياناتنا المختلفة، وغدا لكل منا ملفه عندهم، ثم حولونا إلى سجن رقم (4) الذي يستقبل المتهمين الجدد، حتى يصفى التحقيق معهم، ثم ينتقلون عادة إلى السجن الكبير. وهذا ما حدث لي. فقد عدت إلى السجن الكبير ووضعت في زنزانة في الدور الثالث أظنها رقم (242) مع عدد من إخوان المحلة المتهمين معي. وكان في كل زنزانة عادة سبعة أو ثمانية.

وقد صورت في قصيدتي النونية لحظات دخولي إلى السجن الحربي، واستقبالي فيه، وما شاهدت من أهوال الاستقبال في أبيات يحسن بي أن أذكرها هنا.

قصص من الأهوال ذات شجون

وتول عن دنياك حتى حين

تسمو على التصوير والتبيين

بل خطب هذا المشرق المسكين

فزعت من نومي لصوت رنين

وتحوطني عن يسرة ويمين

فرحا بصيد للطغاة سمين

وقذفت في قفص العذاب الهون

من باعث للرعب قد طرحوني

عيناي ما لم تحتسبه ظنوني

يندى لها ـ والله ـ كل جبين

للنهش طوع القائد المفتون

يعدو عليك بسوطه المسنون

مما لقيت بهن بضع سنين

لا زلت حيا أم لقيت منوني؟

برزت كواسرها جياع بطون؟

جبارة للمؤمنين طحون؟

أم تلك دار خيالة وفتون؟!

أأشك في ذاتي وعين يقيني؟!

تحوي الفصول السود من مضمون؟!

يا سائلي عن قصتي اسمع، إنها

أمسك بقلبك أن يطير مفزعا

فالهول عات والحقائق مرة

والخطب ليس بخطب مصر وحدها

في ليلة ليلاء من نوفمبر

فإذا (كلاب الصيد) تهجم بغتة

فتخطفوني من ذوي وأقبلوا

وعزلت عن بصر الحياة وسمعها

في ساحة (الحربي) حسبك باسمه

ما كدت أدخل بابه حتى رأت

في كل شبر للعذاب مناظر

فترى العساكر والكلاب معدة

هذي تعض بنابها وزميلها

ومضت علي دقائق وكأنها

يا ليت شعري ما دهان؟ وما جرى؟

عجبا!! أسجن ذاك أم هو غابة

أأرى بناء أم أرى شقي رحى

واها!! أفي حلم أنا أم يقظة

لا .. لا أشك.. هي الحقيقة حية

هذي مقدمة الكتاب، فكيف ما

فنون التعذيب وأدواته في السجن الحربي

وكان من أدوات التعذيب التي استخدمها زبانية السجن الحربي: الكلاب المتوحشة، يسلطونها على المعتقل، لتنهش من لحمه، وقد دربوها على ذلك، حتى أصبحت مسخرة لهم في مهمتهم.

بيد أن هذه الكلاب لا ذنب لها فيما تفعل، فهي مسخرة للإنسان، إنما ذنب الإنسان الذي سلطها على أخيه الإنسان لتؤذيه وترهبه بغير حق.

ومع هذا كثيرا ما رأينا هذه الجوارح من الكلاب تخذل أصحابها ومعلميها فيما أرادوه منها، ولا تستجيب لهم في إنفاذ ما طلبوه منها من شر وإيذاء.

وقد جرى هذا مع أكثر من أخ من الإخوان الذين أغروا بهم الكلاب، فكانت الكلاب خيرا منهم وأرق وأرقى. منهم الأخ الفاضل الدكتور مصطفى عبد الله، وكان من خير الأطباء، ومن خيرة

الناس دينا وخلقا وفضلا، وقد عرفته حين كان طبيبا في طنطا، وكان رئيسا لإخوان مديرية الغربية.

جئ بالدكتور مصطفى من القاهرة، وأدخلوه في زنزانة انفرادية، وأدخلوا معه الكلب بعد أن جوعوه، ولكن يبدو أن الكلاب بفطرتها تحس بالإنسان الطيب، وتأنس به، وترق له، وبعد مدة فتحوا الزنزانة لينظروا مدى الجراح التي أصيب بها الدكتور، فوجدوا أن الكلب يجلس أمام الدكتور في وداعة وسكون، وينظر إليه في ود وحنان، والدكتور مشغول بالذكر والتسبيح والاستغفار.

أجل، لقد كانت الكلاب أرفق وأحن من هؤلاء الذين ينتسبون إلى بني الإنسان!

وفي النهاية لم يجد البسيوني المتجبر ـ أو (الباشا) كما يسمونه ـ أمامه إلا الإفراج عن الدكتور مصطفى من السجن الانفرادي مع الكلب.



تعذيب حتى الموت

كل من يدخل السجن الحربي لا بد أن يمسه بعض ألوان العذاب، ماديا ومعنويا، جسديا ونفسيا، إيجابيا وسلبيا، وإن كان المعتقلون يتفاوتون في ذلك تفاوتا كبيرا.

على أن أقسى صنوف العذاب كان مع المتهمين الذين يحقق معهم للحصول على اعترافات معينة، على اعتبار أن لديهم أسرارا يكتمونها عن التحقيق، فلا ينطقهم إلا التعذيب الذي يحل عقدة ألسنتهم بالرغم عنهم.

وكان بعض المعذبين لا يوجد لديه أسرار أو معلومات، كما توهموا، ولكن لا بد أن يعترف، فأحيانا يعترف لهم بوقائع وهمية من صنع خياله، حتى يرفعوا أيديهم عنه، ويا ويله ثم يا ويله لو اكتشفوا كذبه.

وبعضهم لديه أسرار ومعلومات، ولكنه يريد أن يحمي إخوانه من السجن والتعذيب والعقوبة المرتقبة.

الشيخ محمد الصوابي الديب

وبعضهم يحمي شخصيات يخاف أن تمس بأذى، وسنها ووضعها الصحي ومنزلتها، لا تجعلها تحتمل ذلك. وهذا ما حدث لأخينا وزميلنا الشيخ محمد الصوابي الديب خريج كلية الشريعة، ورفيقنا في كتيبة الأزهر في معركة القناة، وقد كان مطلوبا للاعتقال، فهداه تفكيره إلى أن يختفي في منزل العلامة الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، وقد حكى للشيخ قصته ، فرحب به، وآواه في بيته، على رغم خطورة هذا الأمر، ولكن أخانا محمد استجار بالشيخ فأجاره وأكرم مثواه، فخلق المسلم يأبى عليه ألا يجير من استجار به. وبقي في بيته مدة من الزمن باسم صادق أفندي، ثم هيئ للأخ محمد جواز سفر باسم آخر، وسافر إلى جده، وقد كشفت السفارة المصرية في جده شخصيته، وقبضت عليه بطريقة لا أعرف تفاصيلها، وأعادته إلى القاهرة وأدخل السجن الحربي، وبدأ التحقيق معه بسؤاله عمن عمل له الجواز، ومن ساعده على السفر، وبعد مواصلة التعذيب اعترف بمن ساعدوه على السفر، ولكن بقي سؤال مهم لم يجب عنه محمد الديب، وهو: أين كان يقيم طوال المدة التي اختفي فيها قبل سفره؟

وهنا خشي الأخ محمد أن يضار الشيخ مخلوف بسببه، وأن يناله أدنى شيء من أذى أو إهانة،ولهذا رفض أن يجيب عن هذا السؤال، وكلما رأوه صامتا بالغوا في تعذيبه، وهو مصر على السكوت. ومن المعروف: أن الإنسان قد يصبر على الضرب الأول وإن اشتد وطال. ولكن أقسى الضرب وأوجعه هو الضرب الثاني، أي الضرب والجسم مجروح ومشَرّح من آثار الضرب السابق، فهنا يكون الضرب شيئا لا يطاق. وهذا ما حدث لأخينا الديب، ولكثير من إخوانه المعذبين. حتى قال الإخوة الذين شاهدوه: إن

جسمه قد بات كتلة من الجراح والدم والقيح والصديد، وكانوا إذا أرادوا أن يأخذوه من الزنزانة إلى مكاتب التحقيق، يتحيرون في توصيله، لأنه لا يستطيع أن يمشي، ولا يستطيعون هم أن يحملوه، لأنه كومة من الجراح، وأخيرا لم يجدوا إلا (عربة القمامة) يوضع فيها، وينقل عليها.

وما هي إلا أيام، حتى تفاقمت جراحه، وتضاعفت آلامه، وفاضت روحه إلى بارئها، تشكو إلى الله ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والمصري لأخيه المصري!

وكان الذين يموتون تحت التعذيب، يلفون عادة في بطانية من بطاطين السجن، ويحمله بعض الجنود، ثم يذهبون في صحراء العباسية ليحفروا له حفرة، ثم يواروه التراب، لم يغسل، ولم يكفن، ولم يصل عليه أحد. ثم يكتب أمامه: أفرج عنه يوم كذا!! وبذا يبرأ السجن من عهدته. ومن ذا سيحاسبهم؟

ولقد شهدنا أيامنا الأولى في السجن الحربي، وكنا في سجن رقم (4) واحدا من هؤلاء الذين قضوا نحبهم تحت التعذيب، ملفوفا في البطانية السوداء،ومحمولا على عاتق بعضهم، شهدنا ذلك بأعيننا، إذ كانت الأبواب مفتحة دون أن يشعروا، ثم سرعان ما أغلقوها بعصبية وانفعال.

ولقد قتل عدد من الإخوان بهذه الطريقة البشعة، منهم الأخ محمود يونس من عرب جهينة، والأخ علي الخولي الموظف بأخبار اليوم، وآخرون.

ومما أذكره: أن أحد الشباب جيء به إلى السجن بعد فترات التحقيق والتعذيب الأولى، وكان جو السجن هادئا نسبيا، ولكنهم حققوا معه بشيء من القسوة الزائدة، وكان الشاب قويا أبيًّا مفتول الذراعين،

صبورا على التعذيب، واثقا بنفسه، مؤمنا بربه، وهذا النوع من الرجال يغيظهم ويثيرهم، ويبدو أنهم ضربوه ضربة كانت قاتلة، أذكر أن اسمه فاروق أبو الخير، وأنهم مزقوا الصفحة التي كتب فيها، واعتبر كأن لم يدخل السجن الحربي، ولم يمر بعتبته قط.

هل كان التعذيب بعلم عبد الناصر؟

أعتذر بعض الناس عن عبد الناصر، وقال: إنه لم يكن يعلم بما يجري داخل السجون الحربية وغيرها من

مآسي وأهوال، ونقول: إنه راع، ومسؤول عن رعيته، ونحن هنا ننشد قول الشاعر العربي:

إذا كنت لا تدري، فتلك مصيبة   وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم!

ولو لم يكن حمزة البسيوني يعلم علم اليقين أن ظهره مسنود من عبد الناصر وقادة الثورة، ما أقدم على ما أقدم عليه من مذابح وفظائع بقلب جسور، ولسان عقور، ولو لم يعلموا فيه هذه الضراوة وهذه الوحشية، ما وضعوه في هذا الموضع، ولا كلفوه هذه المهمة.

ومن المعروف من سيرة عبد الناصر: أنه كانت ترفع إليه تقارير وافية عن سياسة مصر في جوانبها المختلفة، وأنه كان يقرأ هذه

التقارير. حتى إن السادات بعد، لم يكن يقرأ هذه التقارير، قائلا: إنها هي التي قتلت عبد الناصر!

ولهذا لا يتصور أن تحدث هذه الوقائع الهائلة داخل السجون الحربية، ويخر الناس فيها صرعى من التعذيب، ولا ينقل أحد إلى عبد الناصر بعض ما يجري في ملكه. وطبيعة هذا النظام أنه لا يأمن لأحد قط، ولهذا كان بعضهم يشك في بعض، وبعضهم يتجسس على بعض، فكيف يزعم زاعم أن عبد الناصر كان في غيبة أو غفلة عن الوقائع الهائلة التي تقع في السجن الحربي؟

ومن الناس من قال: إن ما حدث من تعذيب للإخوان ولغيرهم في السجن الحربي وغيره، لم يكن بإذن عبد الناصر، ولا بعلمه. إنما هو بفعل مراكز القوى، التي أصبحت لها القدرة على أن تفعل ما تريد وإن لم يأتها أمر من عبد الناصر.

وأقول هنا: إن مراكز القوى ـ التي تحدثوا عنها بعد ذلك ـ لم تكن قد تكونت بعد، إنما كان تكوينها بعد ذلك بسنوات. أما في سنة 1954 فقد كان عبد الناصر هو المسيطر، وهو الطاغوت الأكبر، ولا سيما بعد انقضاضه على محمد نجيب.

ولقد حكى الثقات أنهم رأوا عبد الناصر، وهو يشهد التعذيب بعيني رأسه، ويتلذذ به، كأنما يشاهد فيلما سينمائيا للتسلية والترفيه!

يقول الرائد المجاهد الصادق معروف الحضري: أشهد الله أن جمال عبد الناصر كانيحضر شخصيا إلى السجن الحربي! وكذلك جمال سالم، وعلي صبري، ليتلذذوا بالتعذيب الذي يقع على الإخوان.

ويقول المستشار علي جريشة: إنه شاهد الطاغوت (ناصر) ونائبه (عامر) يشهدان صور التعذيب في غرفة حمزة البسيوني.

على أن القرآن الكريم يحمل فرعون وهامان وجنودهما المسؤولية جميعا، كما قال تعالى: (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) القصص: ففرعون يحمل التبعة بما يصدر من أوامر، وما يولي من مناصب، وهامان بما ينفذ من تعليمات الفرعون، والجنود بما يباشرون من الإيذاء والمظالم.

وقال تعالى: (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) القصص:

فإذا كان جنود فرعون يتحملون المسؤولية، فكيف بفرعون نفسه؟

وقد حكوا أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، عندما أُخذ إلى السجن، ونزل به من الأذى ما نزل في فتنة خلق القرآن الشهيرة في تاريخنا، سأله سجانه يوما عن الأحاديث التي وردت في أعوان الظلمة: أهي صحيحة؟

قال له: نعم هي صحيحة.

قال السجان: فهل تراني من أعوان الظلمة؟

قال الإمام: لا، لست من أعوان الظلمة. أعوان الظلمة من يخيط لك ثوبك، ومن يطهو لك طعامك.. الخ. أما أنت فمن الظلمة أنفسهم!!

وقد سألني كثيرون عن رأيي في عبد الناصر، وتقويمي لشخصه، ومبادئه التي عرفت باسم (الناصرية) ومرحلة حكمه، فإن الناس قد ذهبوا فيه مذاهب شتى، ما بين مقدس له، حتى قال نزار قباني في رثائه له: قتلناك يا آخر الأنبياء، ومتهم له بالعمالة والخيانة والردة.. وأنا أحتفظ برأيي الآن، لأقوله بصراحة عند الوصول إلى أحداث سنة 1970م، وفيها مات عبد الناصر، وهناك سأقول كلمتي

فيه، إن شاء الله. وأرجو أن يوفقني الله لقولة الحق بين المقدسين والمتهمين.

الحكم بالإعدام على سبعة من قادة الإخوان

في 4 ديسمبر - يوم وصولي إلى السجن الحربي - أصدرت محكمة الشعب أول أحكامها ضد الذين اشتركوا في محاولة القتل ورؤساء كل من الجهاز السري والجمعية العلنية، فحكم على سبعة من أعضاء مكتب الإرشاد كلهم من مستشاري الهضيبي بالسجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة، وهم: كمال خليفة، ومحمد خميس حميدة، وأحمد عبد العزيز عطية، وحسين كمال الدين، ومنير الدلة، وحامد أبو ا لنصر، وصالح أبو رقيق، كما حكم على عضوين آخرين من أعضاء المكتب بالسجن خمسة عشر عاما وهما: عمر التلمساني، وأحمد شريت. وبرئت ساحة ثلاثة أعضاء من المكتب كلهم من أصدقاء الحكومة وهم: عبد الرحمن البنا، وعبد المعز عبد الستار،

والبهي الخولي. وحكم بالإعدام بالشنق على سبعة من أعضاء الجمعية وهم: حسن الهضيبي ومحمود عبد اللطيف وهنداوي دوير وإبراهيم الطيب ويوسف طلعت والشيخ محمد فرغلي وعبد القادر عودة، ثم خفف مجلس الثورة الحكم على الهضيبي إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة بحجة أنه ربما وقع تحت تأثير من حوله، وهو رأي يعززه " ضعف صحته وكبر سنه ". ورفضت الحكومة التماسا لعبد القادر عودة بإعادة النظر في القضية.

وفي اليوم التاسع من ديسمبر، بعد وصولي إلى السجن بخمسة أيام، شعرنا داخل السجن بجو غير عادي، وكان هناك قلق وهلع لدى

قيادة السجن: أن يحدث شيء من المعتقلين،ولذا شددوا القبضة أكثر من أي يوم مضى، ولم نعلم نحن ما السر وراء هذا؟ ثم علمنا أنه في هذا اليوم قدم إلى حبل المشنقة كبار إخواننا الذين حكم عليهم بالإعدام، ما عدا المرشد.

وفي ذلك يقول ميتشل:

(وفي 9ديسمبر نفذت أحكام الإعدام في جو من الذهول وعدم التصديق ساد مصر، وعلى الرغم من احتجاجات العالم العربي. وقد سجل عدد من الذين حضروا الشنق كلمات المتهمين. كان عبد اللطيف ودوير يتلوان آيات من القرآن، وقد عراهما خوف شديد، وصاح الطيب مغاضبا: " لقد كانت المحاكمة مهزلة، إذ كان أعداؤنا قضاتنا "! أما طلعت فقد طلب في هدوء الصفح من الشيخ فرغلي الذي أحس بأنه قد خانه، ثم أضاف " عسى أن يغفر لي ولأولئك الذين أساؤوا إلي". أما فرغلي قد ظهرت عليه السكينة ولم يزد على قوله: " إني مستعد للموت وإني أرحب بلقاء الله " وختم عودة حياته منتعشا مرفوع الرأس قائلا: " الحمد لله الذي جعلني شهيدا، ألا فليجعل دمي لعنة على رجال الثورة ".

قوبلت أخبار الإعدام في مصر بذهول وسكون مروع، وكانت الحكومة قد أخذت احتياطها، فعززت دوريات الجيش والحاميات العسكرية حول المدينة. أما خارج البلاد فقد قامت مظاهرات احتجاج في الأردن وسورية وباكستان، وفي دمشق وقف مصطفى السباعي بعد الصلاة على الشهداء مطالبا الجمهور أن يعاهدوه على " الانتقام للشهداء " وقد استجابوا له، وعادت العلاقات مرة أخرى بين سورية ومصر إلى حد القطيعة.

سارت الأحداث مائعة بعد تنفيذ الإعدام، وعهد بأعمال محكمة الثورة إلى ثلاثة محاكم فرعية يرأسها ضباط أقل رتبة، حتى إذا

أغلقت المحاكم أبوابها في أوائل فبراير كان حوالي ألف من الإخوان قد قدموا إلى المحاكمة. وبلغ مجموع من حكم عليهم بالإعدام خمسة عشر خفف عنهم الحكم جميعا باستثناء الأولين، وحكم بالبراءة أو بالعقوبة مع إيقاف التنفيذ على أكثر من نصف من قدم إلى المحاكمة، كما قدم غالبية أعضاء الهيئة التأسيسية إلى المحاكمة، ولكنهم إما برئوا أو حكم عليهم بإيقاف التنفيذ، وبقي عدد لا حصر له من الإخوان الذين لم يقدموا إلى محاكمة أو الذين برئوا بعد محاكمتهم في السجون على مدى الشهور. وجدير بالملاحظة أن من بين جميع الإخوان الذين قدموا للمحاكمة لم يكن هناك إلا تسعة وعشرون من القوات المسلحة، غالبهم من جنود الصف، وأن الأحكام الخفيفة نسبيا التي صدرت على معظمهم ومحاكمتهم فعلا أمام محاكم قانونية، توحي في منطوق هذا الموقف أن جريمتهم الكبرى كانت جمعهم بين عضوية الجمعية وخدمة الدولة، وأعظم من ذلك أهمية هو نتيجة محاكمتهم إذ كان وجود " خلايا " في الجيش تقوم بتدبير أعمال مخربة كان ضمن الوسائل الرئيسية التي جعلت الحكومة منها محل جدل مع الهضيبي الذي دأب على نفي هذا الزعم.

على أنه صدرت أحكام لها وزن آخر على ضابطين ظلا هاربين من العدالة، إذ حكم على كل من أبي المكارم عبد الحي، وعبد المنعم عبد الرؤوف غيابيا بالإعدام رميا بالرصاص.

محاكمتي

بعد أن مكثنا أياما في السجن الحربي لا أذكر عددها، ولكنها ليست كثيرة، نودي علينا للذهاب إلى المحكمة، فحشرنا في (لوريات عسكرية) ونزلنا منها محلوقة رؤوسنا جميعا بالموسي، وكان المحاكمون في هذا اليوم من إخوان المحلة، وإخوان بسيون، وإخوان بين السرايات بالقاهرة.

وكانت الأعداد كبيرة، والمحاكمات سريعة، قد لا تستغرق محاكمة الفرد أكثر من ثلاث دقائق أو خمس على الأكثر. وربما كانت محاكمتي من أطول المحاكمات نسبيا، لما جرى فيها من نقاش لم يكن معتادا، وإن كانت لم تلبث أكثر من دقائق معدودات.

تلا ممثل الادعاء التهمة الموجهة إليّ وإلينا جميعا، هي:

1- الاشتراك مع آخرين في اتفاق جنائي لقلب نظام الحكم عن طريق إحداث فتنة دامية، والقيام باغتيالات واسعة النطاق وارتكاب عمليات تدمير بالغة الخطورة للمرافق العامة، وتخريب شامل في جميع أنحاء البلاد، تمهيدا لاستيلاء الجماعة التي ينتمي إليها على مقاليد الحكم بالقوة.

2- والاشتراك في جهاز سري مسلح مناهض للدولة ومخالف لقوانينها، بهدف قلب نظام الحكم بالقوة.

قال ممثل الادعاء كلاما كثيرا يطلب فيه لي ولإخواني أقصى العقوبات، وقال عني أكثر مما قال عن غيري من المتهمين، وأني كنت أهيئ الإخوان لعلميات الاغتيال والتخريب، وأعدّهم لليوم

الموعود، وأعدهم على ذلك بجنة الفردوس، إلى آخر ما قال مما لم أعد أذكره.

وقال رئيس المحكمة: مذنب أو غير مذنب؟

قلت: غير مذنب.

سألني رئيس المحكمة ـ وقد نسيت اسمه ـ: ألم تكن عضوا في الجهاز السري للإخوان؟

قلت: أنا من الإخوان منذ سنة 1943م أخطب وأحاضر وأدرس، وأنظم القصائد، وأجوب البلاد، في وضح النهار، وتحت الأسماع والأبصار.

قال: حضرتك حتخطب لي خطبة؟

قلت: لا، ولكني أشرح لسيادتك أن عملي في الإخوان عمل علني بطبيعته.

قال: ولكن عبد الحميد الرفاعي رئيس الجهاز في المحلة قال: إنك عضو في الجهاز، وإن رئيس الجهاز في الغربية قال له: إنك الموجه الروحي للجهاز في الغربية.

قلت له: يا سيادة الرئيس، أنا الموجه الروحي للإخوان كلهم في الغربية، ولكني لم أبايع أحدا للانضمام إلى الجهاز السري.

قال: هل تعرف يوسف طلعت؟

قلت: ومن في الإخوان لا يعرف يوسف طلعت؟ لقد عرفته في المعتقل سنة 1949م في جبل الطور.

قال: وهل عملت معه بعد أن تولى رئاسة الجهاز السري؟

قلت: لا. لا معه ولا مع غيره.

وصدر الحكم علي بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ.

وكان الذي يأخذ حكما مع إيقاف التنفيذ، أو الذي يأخذ حكما بالبراءة، يبقى في السجن، لا يغادره، حتى سئل أحد الإخوة الظرفاء بعد الحكم: بماذا حكم عليك؟ فأجاب: براءة مع إيقاف التنفيذ!

بل هذا شأن الذين لم يقدموا إلى للمحاكمة أصلا. بل هو شأن أناس أخذوا خطأ، وليس له أي صلة بالإخوان من قريب ولا من بعيد، ولكنهم حشروا في زمرتهم فجرى عليهم ما جرى على الإخوان. وكثير منهم خرج من السجن وقد أصبح من الإخوان.

البسيوني يحاكمنا بعد المحاكمة

وعدنا إلى السجن، ودخلنا زنازيننا، وأخلدنا إلى النوم قليلا، وإذا بالزنازين تفتح علينا فجأة، وقلنا: يا ستار استر، اللهم إنا نعوذ بك من شر هذه الليلة، وشر ما فيها. فتح الزنازين في هذا الوقت قبل منتصف الليل لا يكون إلا لشر.

وما هي إلا ثوان حتى نودي علينا بالنزول إلى صحن السجن، فوجدنا قائد السجن حمزة البسيوني ينتظرنا في ساحة السجن، وحوله زبانيته وعساكره، وعلى رأسهم (صول) السجن أمين السيد، وصدر إلينا الأمر أن نركض ونعدو بأسرع ما يمكننا في صورة دائرة أو حلقة مفرغة في ساحة السجن، والعساكر بالكرابيج من حولنا يضربوننا لنسرع أكثر وأكثر. وإذا سقط أحد منا انهالوا

عليه بالكرابيج حتى يقوم، ولا أدري كم مضى علينا من الوقت، ونحن نلهث تحت السياط؟

ولكني كنت شابا قوي الجسم، في الثامنة والعشرين من عمري، فلم يزعجني هذا الركض كثيرا، فقد كنا نمارس المشي والجري من قبل، ولكن قلبي كان يتقطع إشفاقا على إخوة لي بعضهم كبار في السن، أو بعضهم يشكون من السمنة وثقل الجسم، مثل الأخ محمد كمال إبراهيم من إخوان زفتى، ممن لا يستطيعون مواصلة هذا العَدْو، ولا سيما بعد أن طالت مدته، فكانوا يخرون من الإعياء، وعساكر البسيوني لا يرحمونهم، ولا يشفقون عليهم، بل يزيدونهم عذابا على عذابهم بمضاعفة الضرب عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أوقف هذا الطابور، وهم يسمونه (طابور تكدير) وأمرنا أن نقف صفوفا، لنأخذ حظوظنا مما يقسمه أو (يصرفه) لنا القائد البسيوني من الكرابيج، فمنا من كان حظه (عشرة كرابيج) وهذا نصيب الأغلبية، ومنا من نصيبه خمسون كرباجا، منهم الأخ خليل دبايح من بين السرايات، والفقير إليه تعالى.

وأصحاب العشرة عليهم أن يقعدوا في الأرض ويمدوا أرجلهم ليضربهم الجنود، واحدا بعد الآخر.

أما أصحاب الخمسين، فتنصب لهم (الفلكة) وتقيد فيها أرجلهم، ويجلدون بإشراف حمزة نفسه.

وقد جاء دوري، ووضعتُ في الفلكة، واستمر الضارب يضرب، ولا أدري هل أكمل الخمسين أو وقف دونها، ولا أذكر أنها آلمتني كثيرا، إلا أني رأيت الدم يسيل من ساقي بغزارة.

ووقف حمزة يخطب فينا: نحن الذين حوكمنا في ذلك اليوم من إخوان الغربية وبين السرايات، والذين سيحاكمون غدا، فقد أحضرهم حمزة ليشهدوا بأعينهم ما نزل بنا، ليتخذوا منا عبرة.

يقول البسيوني:

تريدون أن تجعلوا من أنفسكم أبطالا بالإنكار أمام المحكمة.أنا سأحاكمكم هنا، وأصدر عليكم ما شئت من أحكام، حتى الإعدام، ولن يحاسبني أحد. أنا هنا القانون، لا قانون غيري**!**

ثم التفت إليَّ وقال: حضرتك رايح تخطب لي أمام المحكمة وتنكر ما نسب إليك؟

قلت: من حق كل إنسان أن يدافع عن نفسه.

قال: فاخطب لنا الآن خطبة من خطبك التي كنت تخطبها في المحلة أو في الأزهر.

قلت: المجال ليس مجال خطابة.

قال: اختر لك واحدة من اثنتين: إما أن تخطب لنا خطبة، وإما أن تغني لنا أغنية**!!**

قلت: لست من أهل الغناء حتى أغني.

قال: فأسمعنا خطبة من خطبك.

قلت: لا بأس، وماذا تملك إذا سلط عليك متكبر جبار، مطبوع على قلبه، لا يخشى خالقا، ولا يرحم مخلوقا، جنوده من حوله مطيعون له كأدوات في يديه، وأنت أسير عنده، وهو يقول عن نفسه: أنا القانون. وهو كذلك فعلا، فلا رقابة عليه، ولا أحد يحاسبه، وكم من شاب قضى نحبه في زنازين التعذيب، وشطب من سجلات

السجن، ولم يسائله أحد. فهل تملك أمام جبروته وتألهه إلا أن تؤمر فتطيع؟!

لهذا لم أملك حين أصر أن أخطب أو أغني، إلا أن أختار الخطبة. وحمدت الله تعالى وأثنيت عليه، وصليت على نبيه ثم قلت مخاطبا الإخوان الموجودين في ساحة السجن، وبالقرب منا إخوان داخل الزنازين يسمعون ما يجري:

قال العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة. وإن أحوج ما يكون المؤمن إلى التوبة والاستغفار إذا نزلت به الشدة، وحل به الكرب، فعليه أن يقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف: وقد قص علينا القرآن قصة نبي الله يونس ذي النون، حين التقمه الحوت، فنادى في الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت: (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) قال تعالى: (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) الأنبياء:

وقال صلى الله عليه وسلم: " دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ".

فتضمنت هذه الكلمة: التوحيد بقوله: (لا إله إلا أنت) والتنزيه عن كل نقص بقوله: (سبحانك) والاعتراف بالذنب بقوله: (إني كنت من الظالمين).

ولا أدري أكان البسيوني يسمع ما أقول أم لا؟ وإذا سمع هل فهم أم لا؟ على كل حال لقد أرضى غروره بإرغامي على الخطابة.

وربما فهم من كلمتي أنها اعتراف منا نحن الإخوان بأننا كنا من الظالمين، فسكت عني.

وعدنا إلى زنازيننا بجراحاتنا، وحاول إخواني أن يخففوا عني ما نزل بي من ضراء وآلام، وقلت لهم: أنا والله في غاية السكينة والطمأنينة القلبية، ولا أشعر بأي ألم، ولا أقول إلا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد جرحت أصبعه:

وهل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت!

ولكني أشفقت على كثير من إخواننا الضعفاء والشيوخ والمرضى الذين أرهقهم هذا التكدير. أدعو الله تعالى أن يشد أزرهم، وييسر أمرهم، ويقوي عضدهم، ويجعل ذلك في ميزانهم.

وكان للسجن الحربي طبيب يفترض أن يأتي كل يوم ليشرف على صحة المساجين، يعالج مرضاهم، ويداوي جرحاهم، ويجبر كسراهم. ولكنه لم يكن يأتي كل يوم، كما هو المعتاد والمطلوب، وخصوصا مع كثرة الجرحى والمصابين من جراء التعذيب، ولكن إهمال المصابين والمجروحين كان من جملة التعذيب المفروض علينا.

وهذا جعل الجرح في ساقي اليمنى يشتد ويتفاقم ويتقيح، وينذر بعواقب خطيرة، وأخيرا وصلت إلى طبيب السجن، وأعطاني بعض المراهم والبودرة ونحوها مما ساعد على التئام الجرح، وكنت أراجع الطبيب كل عدة أيام، وأغيِّر على الجرح، حتى التأم، والحمد لله، وإن بقيت آثاره معي بعد ذلك غائرة، وظل موضعه

حساسا لأي لمسة أو حركة غير محسوبة، فسرعان ما تؤثر فيه، وربما سال منه شيء من الدم. والحمد لله على كل حال.

ومما أذكره في تلك الأيام: أني كنت يوما مع مجموعة كبيرة من الإخوة ننتظر الطبيب لنراجعه، في طابور طويل، وكنا نزلنا من زنازيننا قبل العصر، وأوشكت الشمس أن تغرب ولم يجئ دورنا، وخفنا على العصر أن يضيع، فقلت للإخوة: ننتهز هذه الفرصة ونصلي العصر في جماعة، وكنا ننتظر في أحد العنابر، وصليت إماما بالإخوة، ورآنا أحد العساكر القساة المشهورين بالجبروت وشدة الأذى، واسمه (دياب) فلما نظر إلينا من النافذة قال: يا أولاد الكلب، أنتم قلبتموها جامع!

وانتظرنا دياب حتى خرجنا من الصلاة، ويعتبر هذا فضلا منه، حيث لم يجبرنا على الخروج من الصلاة، ثم أمرنا نحن المصلين أن نصطف صفين، كل صف في مقابل الآخر، وكل معتقل في مواجهة معتقل آخر. وقال: سأصفّر بصفارتي ليضرب كل معتقل صاحبه على وجهه، ثم أصفر أخرى، ليرد عليه من يقابله بمثلها. وكانت لعبة مسلية لهذا الذئب أو الذياب، أن يتفرج علينا، ونحن يصفع بعضنا بعضا، ومن رآه تهاون في أداء واجبه زاده نكالا وعذابا. كل هذا لأننا صلينا جماعة، وما كان لنا أن نصلي، فلسنا في جامع!

ولا أدري هل سنَّ هذا (الدياب) هذا السنة السيئة في السجن: أن يضرب الإخوان بعضهم بعضا، وهو أمر يسوء كل مؤمن، ويحز في نفسه، أن يمد يده إلى أخيه بالأذى، وهو الذي يفترض فيه أن يرد عنه الأذى. أو أن هذا (الدياب) قد تعلم ذلك من أساتذته في التعذيب من قبل؟

وقفة مع جريمتي التي حوكمت عليها

كانت تهمتي التي قدمت بها للمحاكمة تتمثل في جريمتين:

الأولى: أنه اشترك مع آخرين في إعداد خطة تقوم على تخريب البلاد، واغتيال العباد، وقائمة طويلة من التهديم والتقتيل والإفساد.

والثانية: أنه اشترك مع آخرين في إنشاء جهاز سري مسلح مخالف لقوانين الدولة.

أما الجريمة الأولى فلا علم لي بها، ولا أعرف عنها شيئا من أي مصدر، ولا أعلم ـ وما علمت بعد ذلك ـ أن أحدا في الإخوان قد أعد مثل هذه الجريمة الكبرى من التخريب والاغتيالات والإفساد في الأرض. وأعتقد أن الأستاذ الهضيبي ـ وقد أصبح المهيمن على شؤون الجماعة، بعد عزل السندي ومجموعته ـ لا يوافق على مثل هذه الأعمال، وهو رجل صدق واستقامة، لا يعرف العوج ولا الالتواء، وقد عمل طول عمره قاضيا حتى وصل إلى أعلى درجات القضاء، محافظا على النظام والقانون، فلا يستجيز ضميره مثل هذه الأعمال؟

على أية حال هذه الجريمة التي اتهمت بها مع كثيرين من إخواني، لم يكن لي فيها ناقة ولا جمل، ولا شاة ولا دجاجة ولا حتى بيضة**!**

أنا والجهاز السري (النظام الخاص)

أما تهمة الاشتراك في الجهاز السري أو النظام الخاص، فأذكر علاقتي به كيف كانت، ومتى كانت.

في يوم من الأيام، وأنا في مدينة المحلة الكبرى، أظن ذلك كان بعد أن خرجت من الاعتقال الأول في مارس 1954م، جاءني أحد

الإخوان القدامى المعروفين في المحلة، وهو الأخ سليمان مطاوع، وقال لي: إن أخا مهما هنا يريد أن يلقاك على انفراد.

قلت له: هل جاء من طنطا أو من القاهرة؟

قال: لا، بل هو يعمل في المحلة ذاتها.

قلت له: هل هو من الإخوة الذين أعرفهم؟

قال: لا، إن ظروفه تحتم عليه ألا يظهر مع الإخوان.

قلت له: لا بأس ولا حرج أن ألقاه.

وذهب بي الأخ مطاوع إلى منزل أخ يعمل في شركة المحلة، وعرفت أن اسمه: عبد الحميد الرفاعي، وأن أصله من الشرقية. وقال: إنه يرقب نشاطي من بعيد، ويحضر خطبة الجمعة، وغيرها من الأنشطة البعيدة عن شعبة الإخوان. وعلمت منه أنه المكلف برئاسة التنظيم الخاص في المحلة، والإشراف عليه، وأنهم يطلبون عوني في أداء مهمتهم.

قلت له: وهل يعرف الأستاذ محمد عبد العال ـ رئيس الإخوان بالمحلة ـ بهذا الأمر؟

قال: لا، لأن الأوضاع من حولنا تقتضي أن يكون عملنا سريا؟

قلت له: لا مانع أن يكون العمل سريا في بعض الأحيان، وقد قال سيدنا يعقوب لابنه يوسف: (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك) يوسف: ولكن ألا يعلم المسؤول في الإخوان ما يجري في منطقته؟

قال: في بعض المناطق يكون المسؤول عن المنطقة هو المسؤول عن التنظيم الخاص، ولكن ليس في كل منطقة.

قلت له: وما هو المطلوب مني؟

قال: العناية الثقافية والروحية بأعضاء التنظيم.

قلت: هذا ما أقوم به بالنسبة لجميع الإخوان.

قال: نريد جرعات أقوى، وعناية أكبر للشباب المنتظمين معنا. وقد قال لي الحاج: إنك الموجه الروحي للنظام في مديرية الغربية.

قلت: من الحاج؟

قال: الحاج أحمد البس.

فعرفت منه أن الحاج أحمد هو المسوؤل عن النظام الخاص في الغربية، وبتعبير الإخوان: مكتب إداري الغربية. ولم يطلب مني الرجل أن أبايعه كما يفعل مع غيري، لعله استكثر أن يبايع مثلي مثله.

وانتهت المقابلة الأولى والأخيرة مع عبد الحميد الرفاعي مسؤول التنظيم في المحلة، وظللت أضرب أخماسا في أسداس، وأفكر فيما سمعت، وأقلب وجهة النظر فيه. لقد كنت أسمع عن النظام الخاص من قديم، ولكن لم يعرض علي أحد قبل ذلك الانضمام إليه. حتى أستاذنا البهي الخولي قالوا عنه: إنه كان ممن يبايعه الإخوان على الدخول في هذا النظام، ولكنه لم يحدثنا يوما عنه، ولم يطلب إلينا صراحة الانخراط فيه، حتى أيام (كتيبة الذبيح).

وفكرت في نفسي: هل أصلح لنظام خاص، وأنا بطبيعتي رجل عام؟ وهل أصلح في تنظيم سري، وعملي كله علني؟ ثم إنه يفترض الطاعة العمياء من أفراده، وأنا لا ألتزم إلا بطاعة مبصرة، ولا أفعل شيئا لا أفهمه، ولا أعرف فحواه ولا مشروعيته؟

ثم ما هذا النظام الذي يجعل في المنطقة الواحدة مسؤولا سريا، ومسؤولا علنيا لا يعلم عن المسؤول الآخر شيئا، وهل يجيز الإسلام هذه الازدواجية؟ وما الحكم لو صدر أمران متعارضان للأخ: أحدهما من الرئيس العلني، والآخر من القائد السري؟؟

ثم كيف يفرض على الناس مسؤول لا يعرفون عنه شيئا، لأنه لا يحضر إلى دار الإخوان، ولا يسمع محاضرة ولا درسا، ولا يشارك في نشاط عام، ولا نستطيع أن نحكم له أو عليه، لأنه يعيش في مخبأ سري كالإمام الغائب، لا نعرف عنه كثيرا ولا قليلا؟!

على أن هنا خللا واضحا، إذ كان يجب أن يكلمني الحاج أحمد البس في ذلك أولا، فأنا أعرفه وأعرف تاريخه، وأعرف منزلته في الدعوة، أما أن يكلمني رجل مجهول غير معلوم، فهذا ما ينبغي أن ينكر ولا يستساغ.

كان هذا ما يدور في خلدي وما يجول بفكري في تلك الفترة، ولكن لم أتخذ موقفا حاسما، إذ لم يكن مطلوبا مني شيء غير عادي أفعله، وكنت أنتهز الفرصة لأناقش الأمر في القضية مع الحاج أحمد البس مسؤول الغربية، أو مع الإخوة في القاهرة، ولا سيما مع المرشد العام نفسه، عندما تسمح الظروف، ولكن الظروف كانت تتغير بسرعة هائلة.

ولم يطلب مني أي شيء في تلك الفترة يختص بالتنظيم، غير أن الأخ سليمان مطاوع جمعني مرة بعدد من الإخوة في لقاء خاص عرفت من سياقه أنهم أعضاء في التنظيم، وكنت أعرف أكثر هؤلاء الإخوة في شعبة الإخوان. وهم لا يمتازون عن غيرهم، إلا أنهم أقل كلاما، وأقل نشاطا عاما من غيرهم! وربما اختبروا فوجدوا أقدر على الكتمان والطاعة المطلقة.

وقد جمعني السجن الحربي بعد ذلك بهؤلاء الإخوة الطيبين المخلصين. وقد حوكموا معي، وصدر علينا جميعا الحكم من المحكمة العسكرية بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ. وكان الدليل الوحيد علينا جميعا، هو اعتراف عبد الحميد الرفاعي مسؤول التنظيم، الذي اندفع عندما مسه التعذيب إلى الاعتراف بكل شيء. هذا مع أني لم أبايعه لا هو ولا غيره، والبيعة من شروط الانضمام إلى التنظيم. كما لم أقل له أي كلمة تفيد قبولي الانضمام إليه، ولم أشارك في أي عمل خاص ينفرد به النظام، ولا طلب مني ذلك. وكانت الفترة تلك حافلة بالأحداث والتغيرات المتلاحقة، ولكن يظهر أن الرفاعي اعتبر سكوتي عند مقابلته كسكوت البكر حينما يعرض عليها الزواج، فإذنها صماتها، وسكوتها يعبر عن رضاها!

وكذلك الإخوة من أبناء المحلة الذين حوكموا معي لم يصدر منهم أي عمل محظور، ولم يكلفوا بأي شيء مخالف للقانون.

أما الرفاعي فقد حكم عليه بعشرين سنة على ما أذكر، باعتباره أحد المسؤولين في إحدى المناطق الكبيرة.

هذه هي علاقتي بالتنظيم الخاص أو بالجهاز السري، كما سمته السلطات الحكومية، وهي علاقة ـ كما ترى ـ لا تجعلني منه في عير ولا نفير.

وقفة لتقويم النظام الخاص

في سنة 1940 أنشأ الأستاذ البنا جهازا داخل الجماعة، سماه (النظام الخاص) يضم إليه من أفراد الجماعة الإخوة الذين عرفوا بإخلاصهم للدعوة، وثباتهم عليها، والتزامهم بتعاليمها وتوجيهاتها، كما يتميزون باللياقة البدنية، والقدرة على الاحتمال، والصبر على المكاره، وكتمان الأسرار، والسمع والطاعة في المنشط والمكره، والاستعداد للتضحية والبذل، ولو بالنفس والنفيس.

وكلف الأستاذ البنا خمسة من الإخوان بالإشراف على هذا النظام واختيار جنوده، وتدريبهم على متطلبات للجهاد، وإعدادهم لليوم الموعود.

وكان وراء تكوين هذا النظام عدة أهداف يسعى إلى تحقيقها:

1- أولها: مقاومة الإنجليز، الذين يحتلون مصر والسودان وغيرهما من بلاد العرب والمسلمين، فمن المعروف أن الحرية والسيادة والاستقلال للأوطان لا تنال بالخطب ولا بالمفاوضات، ما لم تسندها مقاومة شعبية مسلحة، ترغم المحتل على الرحيل من أرض لم يعد يجد فيها الأمان.

وأكد ضرورة هذا التنظيم: أن التجنيد في ذلك الوقت لم يكن إجباريا، وكان من يملك عشرين جنيها يستطيع أن يعفي نفسه من الخدمة العسكرية.

2- وثانيها: مقاومة المشروع الصهيوني، الذي غزا المنطقة بمكر ودهاء، وأقام مستعمرات شتى في أرض فلسطين، ولا تزال الهجرات الجماعية تتوالى على أرض الإسراء والمعراج، تفرضها العصابات الإرهابية الصهيونية، وتؤيدها الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين، والتي وعدت اليهود من قبل على لسان

وزير خارجيتها (بلفور) بإقامة وطن قومي لهم. وقد تركت لليهود الحبل على الغارب يسلحون أنفسهم بما يقدرون عليه، وساعدتهم سرا وجهرا، على حين حرمت على أهل البلد الفلسطينيين أن يملكوا أي سلاح.

ولا يقاوم المشروع الصهيوني المدجج بالسلاح، المستبيح للدماء، بالأماني الفارغة، ولا بالأقوال المعسولة، بل ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، والشر بالشر يحسم، والبادئ أظلم.

والشر إن تلقه بالخير ضقت به   ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

فلا بد من إعداد جيل مجاهد، ليقف في وجه أطماع بني صهيون، ويواجه القوة بالقوة المستطاع إعدادها، ليرهب بها عدو الله وعدوه.

3ـ ثالثها: حماية الدعوة من أعدائها الذين قد يحاولون اقتلاع جذورها، وإيقاف مسيرتها، وتعويق حركتها، بقانون القوة، أو بقوة القانون، عن طريق الأحكام العرفية أو الطوارئ العسكرية. وقد يتم ذلك عن طريق المحتلين الأجانب مباشرة، وقد يكون عن طريق عملائهم من الحكام الذين يأتمرون بأمرهم، ويدورون في فلكهم، وينفذون لهم مطالبهم.

وهنا يجب أن تدافع الدعوة عن نفسها ووجودها، إذا اعتدي عليها، وعلى حرماتها، وحرمت من حقها في إبلاغ كلمة الإسلام إلى

الناس، وجمعهم عليه، وتربيتهم على منهجه. وقد قال تعالى: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) الشورى:

4- رابعها: غرس روح الجهاد في الشباب المسلم، هذا الجهاد الذي طمست معالمه، وخنقت أنفاسه في مجتمعات المسلمين، وحل محله روح الميوعة والطراوة، والإخلاد إلى الراحة والدعة ونعومة العيش. والأمم التي ديست حقوقها، وانتهكت حرماتها، واحتلت أرضها، يجب عليها أن تعد أبناءها للجهاد لتحرير أرضها، واستعادة حقها، وطرد غاصبيها. ولا سيما الأمة الإسلامية التي أمرها الله بالجهاد في سبيله، واشترى من أبنائها أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

ولقد جعلت دعوة الإخوان من شعاراتها منذ ارتفعت رايتها: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا. فلا بد أن يكون لهذا الشعار مدلول عملي في تكوين أبنائها. وكان النظام الخاص هو الذي يوفر ذلك بقوة وجلاء، ويدرب الشباب على الأعمال الجهادية والعسكرية اللازمة لكل من يهيئ نفسه للدخول في معركة مع أعداء الأمة.

5- خامسها: السعي إلى تغيير الحكم العلماني الذي لا يحكم بما أنزل الله، ولا يحتكم إلى شريعة الإسلام وقيمه في تشريعه وتقنينه، ولا في اقتصاده وسياسته، ولا في تربيته وتعليمه، ولا في ثقافته وإعلامه، ولا في تقاليده وآدابه، عن طريق (انقلاب عسكري) تكون طلائعه من أبناء النظام الخاص. بعد أن ثبت أن الديمقراطية في بلادنا ليست ديمقراطية حقيقية، فالانتخابات تزوّر، وحتى لو لم تزور، فإنها تؤثر فيها قوى مختلفة، تجعلها غير معبرة بحق عن إرادة الشعب وتوجهاته الحقيقية.

هذه هي الأهداف الخمسة التي كان يرجى من النظام الخاص أن يحققها أو يساهم في تحقيقها، وكلها أهداف مشروعة ومقبولة، ولا يسع أي مسلم أو وطني حر إلا أن يرحب بها، وخصوصا في تلك المرحلة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية عامة، والعربية خاصة، والمصرية على وجه أخص.

ولكن ماذا كان موقف النظام الخاص من هذه الأهداف؟ وهل استطاع أن يحقق شيئا منها؟ وهل ظلت هذه الأهداف باقية في برنامجه أو تغيرت؟ أو فقدت مصداقيتها؟

أما الهدفان الأولان ـ مقاومة الاحتلال البريطاني والاستعمار الصهيوني ـ فلا ينكر أن النظام قد قام ببعض الأعمال ضدها، وضرب بعض المؤسسات التابعة لكل منهما، ولكن لم يكن وجود النظام الخاص شرطا لتحقيق ذلك، فقد يمكن ذلك عن طريق تنظيم المقاومة الوطنية الشعبية، كما حدث في كثير من الشعوب والأوطان، وإن كان العمل السري في حالات مقاومة العدو المحتل أكثر جدوى.

وعندما فتح باب التطوع لجهاد العدو الصهيوني في فلسطين سنة 1948م، والعدو البريطاني في سنة 1951م، كان الذين تقدموا لجهاد الأعداء من الإخوان عامة، ومن الشعب كافة، أكثرهم من غير أعضاء النظام الخاص.

كما تبين أن النظام بكل ما لدية من قوة بشرية ومادية، لم يمكنه حماية الدعوة من الضربات التي وجهت إليها، سواء سنة 1948 في عهد الملكية المصرية، أم سنة 1954م في عهد الثورة، لأن سيف الحكومة أقطع، وقوة الحكومة أغلب.

بل كان النظام الخاص في كلا العهدين من أسباب اضطهاد الإخوان من خصومهم، واتهامهم بالعمل على قلب نظام الحكم، وإنشاء جهاز سري مسلح مخالفا قوانين الدولة، واتخذوا من بعض الأعمال التي حدثت من النظام ضد الإنجليز أو الصهاينة ذريعة لضرب الإخوان وحل جماعتهم.

وإذا قارنا بين جماعة الإخوان في مصر والجماعة الإسلامية في باكستان التي أسسها الإمام أبو الأعلى المودودي، نجد كلتا الجماعتين تحارب من السلطات الحاكمة، ولكن الجماعة الإسلامية، سرعان ما يقف القضاء في محاكمه العليا بجانبها، ويحكم لها بالعودة إلى ممارسة نشاطها، وإلغاء الحظر المفروض عليها، إذ لم يكن لديها نظام سري خاص، يستخدم القوة في تنفيذ أغراضه.

أما إعداد الشباب للجهاد وتدريبه على متطلباته، فإنه لم يعد محتاجا إليه، بعد أن أصبح التجنيد إجباريا، وغدا كل مواطن يعرف كيف يستخدم البندقية والمدفع. وأما أعمال الخشونة والتربية البدنية، فلا تحتاج إلى نظام سري خاص لمزاولتها. بل يمكن أن تمارس في العراء وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

بقي ما يقال عن تغيير الحكم بانقلاب عسكري، هذا الأمر ناقشته بتفصيل في الجزء الثاني من سلسلة حتمية الحل الإسلامي (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) وبينت خطر الانقلابات العسكرية وأضرارها على الشعوب، حتى لو كانت إسلامية.. فهي لا تستعمل إلا للضرورة، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، وبشروطها وضوابطها. والدكتور حسن الترابي مدبر ومخطط الانقلاب العسكري الذي أتى بثورة الإنقاذ في السودان، يقول اليوم: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أقدمت عليه. ويقول: احذروا

من العسكريين، فمصيركم معهم هو نفس مصيري! هذا مع تميز (ثورة

الإنقاذ) بأنها كانت ثورة بيضاء لم ترق فيها قطرة دم، وأنها تبنت الإسلام وشريعته من أول يوم، ولم تتخل عنه إلى الآن.

هذا مع صعوبة نجاح الانقلابات العسكرية الشعبية في مواجهة الجيوش الحكومية والقوات المسلحة. وقد ضربت مثلا لذلك ما أصاب منظمة التحرير في عمَّان على أيدي الجيش الأردني فيما عرف بكارثة (أيلول الأسود) وكيف قضى الجيش على هذه القوة العسكرية الشعبية في ثلاثة أيام!

كان النظام الخاص يشكل جماعة داخل الجماعة، أو كما يقولون: دولة داخل الدولة، بل كان يعتبر نفسه هو الجماعة الحقة، وما الآخرون إلا (ديكور) وزينة، أو كثرة كغثاء السيل.

وهذا أمر له خطورته في التربية: الإعجاب بالنفس، فهو أحد المهلكات كما جاء في الحديث: " ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهو متبع، وإعجاب المرء بنفسه ".

ويترتب على هذا احتقاره لغيره، واعتقاده أنه هو اللب، ومن عداه قشر، وأنه هو الجوهر، والآخرون عرض وشكل. وفي الصحيح: " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ".

وأذكر أن الأستاذ عبد العزيز كامل رحمه الله كتب في مجلة الإخوان في حياة الإمام البنا مقالة تحدث فيها عن (مهندسي القاع) و(مهندسي السطح) الأولون يعملون في (الورشة) والآخرون يعملون في قاعات العرض (الفترينات) وكأنه يشير إلى رجال النظام الخاص وإلى غيرهم من الإخوان العاديين، ورد عليه الكاتب

الشاب المتألق محمد فتحي عثمان، منكرا عليه هذه التفرقة، وأن المدار على صدق النية وصلاح العمل، سواء كان يعمل في السطح أم في القاع.

وفي صحيح البخاري: " طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله.. إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة " يعني: أنه يؤدي مهمته حيث وضع.

وهذا الغرور لدى أعضاء الجهاز الخاص في أنفسهم، مع وجود القوة المادية في أيديهم، جعلهم يستخفون بالقيادة الشرعية للجماعة، ويفتون لأنفسهم بما يجوز وما لا يجوز، حتى إنهم خرجوا على طاعة إمامهم ومرشدهم الأول نفسه، ونفذوا بعض العمليات الخطيرة بغير إذنه، كما في مقتل الخازندار، قبل حل الإخوان، وحادث نسف محكمة الاستئناف بعد حل الإخوان، وهو الذي اضطر الإمام البنا أن يصدر بيانه الخطير والشهير الذي قال فيه: (هؤلاء ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين)!!

وأذكر أن الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان، بعد أن بويع مرشدا، وعلم بوجود النظام الخاص في الجماعة، أنكر ذلك، وقال كلمته الشهيرة: لا سرية في الإسلام!

ويبدو أن بعض مستشاريه أشاروا عليه أن من المصلحة الإبقاء على النظام الخاص في الوقت الحاضر، وقد اقتنع الرجل بذلك، ولكنه أصر على أن يغير قيادة النظام، بعد أن استبدت بالأمر، وخالفت القيادة الشرعية للجماعة، وغدت تتصرف وكأنها السلطة الشرعية وحدها.

وحين علمت قيادة النظام بما صمم عليه المرشد، رفضت الانصياع لأمره، وقررت عمل انقلاب داخلي في الجماعة عن طريق النظام، يفرض ما يريد بحق القوة، لا بقوة الحق.

وكان ما كان مما ذكرناه من قبل، من احتلال المركز العام، واقتحام منزل المرشد، ومحاولة فرض الاستقالة عليه، وتكليف لجنة لإدارة الجماعة.. الخ.. وقد باءت هذه المحاولة كلها بالإخفاق، ولم يحالفها التوفيق، ولم تتجاوب معها الجماعة، وكانت الشرعية المجردة من السلاح، المؤيدة بالجماعة: أصلب وأقدر وأثبت من القوة الفاشية المؤيدة بالسلاح، وقد اعترف كثير من الشبان المخلصين الذين شاركوا في هذه الفتنة العمياء بخطئهم، وتابوا إلى الله تعالى، وطلبوا من المرشد السماح والعفو عنهم، وكان الرجل كريما فعفا عنهم، وقال: (عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه).

وكلف المرشد الهضيبي شخصية محببة مرموقة مزكّاة لدى الإخوان، عريقة في النظام، عارفة بقيادته، خبيرة بمداخله ومخارجه، هي شخصية المهندس سيد فايز، ليتولى إعادة صياغة النظام من جديد على قيم ومفاهيم ترضاها الجماعة وقيادتها. وربما كان المراد ادماج النظام في الجماعة، والخروج به شيئا فشيئا إلى الظهور والعلنية بالتدريج.

ولكن قيادة النظام لم تمهل سيد فايز، ولم تمنحه الفرصة ليحقق ما أراد أو ما أريد منه، فعاجلته بتدبير مصرعه بسرعة، حين أرسلت له في منزله بمناسبة المولد النبوي (علبة حلوى) وكان غائبا عن المنزل، فلما عاد وفتح العلبة كانت حلوى المولد (قنبلة) انفجرت فيه وقضت عليه وعلى شقيقته الصغرى التي كانت موجودة عند فتح العلبة.

ولا أدري بأي كتاب أم بأية سنة، استحل هؤلاء قتل أخيهم في الله وفي الدين وفي الدعوة؟ وكيف هان عليهم سفك دم بغير حق؟ ألم يقرأوا في القرآن قصة ابني آدم، حين قال ابن آدم الشرير لأخيه الخيّر: (لأقتلنك قال: إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) المائدة: وما عقب به القرآن على هذه القضية بقوله: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) المائدة:

لم يحقق النظام الخاص ـ أو الجهاز السري ـ إذن ما أنشئ لأجله من أهداف، بل أصبح وجوده في الجماعة ـ بطبيعته السرية المنغلقة ـ خطرا على الجماعة من الداخل، وخطرا عليها من الخارج. وأصبح إثمه أكبر من نفعه. ولهذا تحررت الجماعة منه، ومن فكرة (العنف) أو (المواجهة المسلحة) مع الدولة، كما دلت على ذلك الوقائع، وشهدت بذلك الأحداث.



هذه القسوة والوحشية ما تفسيرها؟

هذه القسوة الوحشية التي رأيناها ولمسناها وعايشناها في السجن الحربي، وعلى أيدي جنود من أبناء مصر كيف تفسرها؟ وهذا الشعب معروف بالطيبة والدماثة والرقة، فكيف تصدر من أبنائه هذه التصرفات التي تدل على فقدان الرحمة من القلب، والحياة من الضمير؟

وأود أن أؤكد هنا عدة حقائق أحسب أنها مسلمة، وتساعدنا في تفسير هذا السلوك الإجرامي:

أولا: إن أي شعب من الشعوب مهما بلغ من طيبة قلبه، ورقة أفراده، لا يخلو من أشرار قساة فرغت قلوبهم من الرحمة، وغلبت عليهم الشقوة. وقد قص علينا القرآن أن البشر حين كانوا أسرة واحدة، أبناء لأب واحد، وأم واحدة، وجد منهم الشرير القاسي، الذي قتل أخاه بغير ذنب ولا جريرة: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال: لأقتلنك، قال: إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين....) إلى أن قال: (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) المائدة:

فلا غرو أن تجد في الشعب المصري ـ على طيبته ورقته وأصالته ـ أناسا تدفعهم دوافع مختلفة إلى سفك دم الآخرين بغير حق، كما تقرأ في الصحف: مَن قتل أولاده، أو من قتل أمه وأباه، أو أخته وأخاه، أو عمته أو خالته، ومن قتل زوجته، ومن قتلت زوجها ومزقته إلى قطع ووضعتها في أكياس من (البلاستيك).

لا غرو أن تجد في مصر مثل حمزة البسيوني الذي جعله عبد الناصر قائدا للسجن الحربي، وهو رجل يتفجر الشر من جميع جوانبه، فلا يفكر إلا في الشر، ولا ينوي إلا الشر، ولا يتكلم إلا بالشر، ولا يفعل إلا شرا، إنه من نوع قابيل الشرير الذي قتل أخاه، بلا ذنب جناه. فهو رجل فارغ الرأس من الفكر والثقافة، فارغ القلب من الإيمان والعاطفة، فارغ النفس من الطموح إلى المعالي، حرم الخشية من الله، والحياء من الناس، فلا يخاف الله، ولا يرحم عباده، ونظرا لشعوره بالنقص الكامن في ذاته أراد أن يكمله بادعاء القوة، والظهور بمظهر الجبروت، وعلى من؟ على من لا حول له ولا قوة، على أسراء سجناء لديه: جردوا من كل سلاح، ومن كل قوة، والتجبر على من لا حول له ولا قوة شأن الضعفاء المهازيل الأخسّاء.

ولو أن حمزة هذا خلع بزته العسكرية، وخرج من دائرة نفوذه، وتعامل مع الناس بشخصه وملكاته، فكم يساوي في الناس؟ إنه لا يساوي صفرا.

ومن نكد الدنيا على الأحرار الشرفاء، أن يتحكم في مصيرهم مثل هذا الأحمق الفاجر، المستكبر في الأرض بغير الحق، بل المتأله، الذي أعطى لنفسه سلطان الألوهية، حتى قال ما قال نمرود من قبل لإبراهيم حين حاجه في ربه: أنا أحيي وأميت!

ثانيا: بالنسبة لقسوة الجنود في السجن، فيجب أن نلاحظ: أن الجيوش ـ بصفة عامة ـ مظنة الشدة والقسوة، لأنها تعد لمواجهة الأعداء، مواجهة مسلحة، إذا اقتضت الظروف إعلان الحرب عليهم، والحرب لا تعرف الرقة والرحمة المطلقة، بل تقتضي قدرا من الغلظة والشدة.

كما أن الجيوش تخلو من العناصر التي تجلب الرقة والرأفة، فليس فيها أطفال، ولا نساء ولا شيوخ، وهم الذين يشيعون الرحمة في المجتمع.

ثالثا: إن الذين قادوا حملة التعذيب للإخوان، كانوا يختارون الجنود المعروفين بالقسوة والخشونة، وربما وضعوا لهم اختبارات تكشف عن ذلك، وترشحهم للقيام بهذه المهمة دون أن يخفق لهم قلب.

رابعا: إنهم كانوا يلقون عليهم دروسا وتوجيهات معينة تفهمهم أن هؤلاء الذين سيذهبون للتعامل معهم أناس أشرار، وهم خطر على أمن الوطن واستقراره ووحدته، وأنهم لوترك لهم ما أرادوا لدمروا الوطن تدميرا.

ومعظم هؤلاء العساكر أميُّون لا يعرفون شيئا، وليست عندهم أي ثقافة تمنعهم من تصديق ما يقال لهم عن الإخوان.

ولا عجب أن سمعت أحد الجنود يقول لأحد الإخوان: يا مختلس الوطن! ومعنى هذا: أنهم أفهموه أن تهمة هؤلاء ليست اختلاس خزينة أو متجر، بل اختلاس الوطن كله.

ومما يدل على جهل هؤلاء: تعليقاتهم الغريبة على بعض الوقائع، فأخونا الدكتور عبد الله رشوان سألوه: بتشتغل إيه؟ قال لهم: أنا محام، قالوا: يعني بتشتغل شغلتين في وقت واحد: دكتور ومحام.

وأخونا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي من علماء الهند، كان يدرس في الأزهر العالمية مع إجازة التدريس، وأخذوه مع الأخوان، وكان يلبس زي إخواننا الهنود من البالطو الأسود، والقلنسوة السوداء، واللحية السوداء، فحينما رأوه حسبوه قسيسا! فقالوا: يا ولاد الـ ... حتى القسس دخلوا فيكم!

ومن دلائل الجهل المطبق عند هؤلاء العساكر: أن أحدهم ممن كان يشرف على الإخوان في دورة المياه، يجد تسعة منهم يدخلون المراحيض، والباقين ينتظرونهم حتى يخرجوا، فقال لهم: يا بهايم، بدل وقوفكم بلا عمل، تنتظرون الذين في المراحيض، استغلوا هذا الوقت في الوضوء، حتى إذا جاء عليكم الدور في الدخول، تكونون قد كسبتم الوضوء، بدل انتظاركم من غير لازمة، لتدخلوا ثم تتوضأوا!!

لا يعرف المسكين أن دخول المرحاض لقضاء الحاجة ينقض الوضوء، مع أن هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، يعرفه الخاص والعام.

خامسا: إنهم كانوا يغرونهم بعلاوات خاصة تدفع لمن كان منهم أشد قسوة، وأكثر وحشية، تسمى هذه العلاوة (علاوة إجرام)، فهذه رشوة مادية تقوي من ضعف منهم، وتزيده خشونة على خشونته، وجمهور هؤلاء ـ بل كلهم ـ من الفقراء ممن يغريه القليل من المال لفعل ما يراد منه.

سادسا: إنهم ـ برغم هذا كله ـ كثيرا ما رأيناهم يتغيرون تماما في معاملتهم للإخوان 180 درجة، حينما يعاشرونهم ويخالطونهم بالفعل، ويرون بأعينهم، ويلمسون بأيديهم أن هؤلاء ليسوا كما قيل لهم، بل هم أناس حريصون على إقامة الصلاة وتلاوة القرآن، وإيثار بعضهم لبعض، والتعامل معهم بمنتهى اللطف وحسن الخلق، مع أن منهم الأطباء والمهندسين والمحامين والمدرسين وأساتذة الجامعات والتجار وغيرهم.

وقد رأيت بنفسي كثيرا من الجنود الذين كانوا في غاية الفظاظة والغلظة أول أمرهم، سرعان ما تحولوا إلى أصدقاء متعاطفين مع الإخوان، متعاونين معهم، مثل العسكري (متولي) الذي كان يبكي

ويطلب من الإخوان بحرارة أن يسامحوه على ما آذاهم به أولا، حتى أصبحنا نخاف عليه أن ينكشف أمره لدى رؤسائه، ويصيبه من وراء ذلك أذى، ولكنه لم يكن يبالي بما يصيبه إذا كان في ذلك تبرئة ذمته وعفو الإخوان عنه.

ولهذا كانت السياسة المتّبعة: أن يغيروا هؤلاء العساكر كل عدة أشهر، حتى لا يتأثروا بالإخوان، ويتآلفوا معهم.

حادثة غريبة وقعت لي

وأنا أذكر هنا حادثة غريبة وقعت لي في السجن الحربي، فقد كنا في فترة من فترات الهدوء التي كانت تمر بنا في السجن، من لطف الله بنا وتخفيفه عنا، فلا جهاز جديدا ضبط لتمويل الأسر، ولا حوادث تعكر الصفو، ومع هذا فوجئت بأن نودي على اسمي منفردا، وكان أي واحد منا ينادى عليه لا يتوقع خيرا، إذ لا يسمح لنا بزيارات، ولا ترسل إلينا رسائل، فماذا وراء هذا النداء إلا شر، نعوذ بالله منه، فنزلت وأنا أقرأ (المعوّذات) حتى وصلت إلى (أمين السيد) باش جاويش السجن، الذي كان صوته يزلزل السجن كله لشراسته وعنفه وعدوانه، ولكني وجدت أمينا هذا على غير ما توقعته، فقد سألني بأدب: هل حصل منك شيء؟ قلت: وهل يحصل من أحد هنا شيء ولا تعلمه؟

قال: إن القائد (صرف لك) خمسة عشر كرباجا، ولا أدري سبب هذا؟!

ثم أغلق الحجرة وقال لي: اسمع، أنا سأضرب بالكرباج على الأرض، وأنت قل: آه بصوت عال، ثم احمل حذاءك في يديك، واخرج في هيئة المضروب المتألم.

وقد كان، ونفذ الرجل ما اقترحه، ولم يمسسني بأذى.

ولما صعدت إلى الزنزانة، ورآني إخواني أمسك بنعلي في صورة المضروب، أحبوا أن يواسوني ويهونوا علي، فقصصت عليهم الحكاية، فعجبوا منها، من صرف الكرابيح الخمسة عشر لي بغير مناسبة، ومن موقف أمين السيد، الذي لم يكن يتوقعه أحد، وذكرت هذا لبعض الإخوة عندما كنا ننزل لدورة المياه، قال لي أحدهم: سبحان مغير القلوب! وقال آخر: الذي حدث من أمين معك يعد من الكرامات، لأنه أمر خارق للعادة! وأحب أن أذكر هنا أن أمينا هذا لا يعرف عني شيئا، ولا من أكون، هل أنا عالم أو جاهل؟ تعاطف معي إنسانيا لا أكثر.

وهذا دليل على أن الإنسان وإن بلغ من الشر ما بلغ، تبقى في أعماقه رواسب خير، تظهر في بعض الأحيان، تنزع به إلى جهة الخير والرحمة.

أما سبب هذا الأمر الغريب، فقد تحيرت فيه، وقلت لإخواني: عندي تفسير يحتمل أن يكون هو السبب، فقد كان شقيق حمزة البسيوني طبيبا يعمل في هيئة التحرير بالمحلة، واسمه الدكتور عمر البسيوني، فربما جاء يزوره، وجاء ذكر المحلة ونشاطها، ولا بد أن يذكر اسمي في تلك الحالة، فلا يبعد أن يقول له حمزة: يمكننا أن نكرمه بهذه الهدية بمناسبة زيارتك، فنصرف له من عندنا خمسة عشر كرباجا.

هذا ما ترجح لي، والعلم عند الله تعالى.

عيشتنا في السجن

كان المعتاد أن ننزل لدورة المياه مرتين كل يوم: مرة قبل الفجر، ومرة بعد العصر، ويا ويل من يصيبه إسهال أو يغلبه البول لسبب من الأسباب.

وكان من فضل الله علينا أن معظمنا شباب، فكانت تكفينا المرتان، ولكن كان فينا شيوخ أيضا، من المبتلين بالبورستاتا وغيرها، على أن الشباب لا يخلو من وعكات تنزل به، فكل إنسان معرض للآفات والنزلات.

وكان من لطف الله بنا: أن أكلهم كان قليلا جدا، كما كان رديئا جدا، وكانت قلته هذه من رحمة الله لنا، حتى لا نحتاج إلى دورة المياه كثيرا.

على أن مشكلة البول كانت محلولة عند الضرورة، فقد كان في كل زنزانة إناء للبول نستعمله عند اللزوم، وإن كان قلما يستعمل من أجل سوء الرائحة، ولكن المشكلة تكمن في الغائط، وخصوصا عند الإسهال. على أن إناء البول ـ أو قصعة البول وكانت من الجلد ـ كانت تستعمل بالليل، وتغسل في الصباح، لتملأ بالماء الذي نشرب منه طول النهار!

ومما لا أنساه أني أصبت يوما بإسهال مصحوب بمغص شديد، ودققت على الزنزانة أطلب منهم أن يسمحوا لي بالنزول إلى الدورة لهذا المغص الطارئ، فلم ينلني منهم إلا السب والشتم الذي هو ديدنهم، فقلت لهم: ماذا أفعل؟ فقالوا: تصرف في أي شيء عندك، المبولة أو غيرها، وقال الإخوة: لا تعذب نفسك أكثر من هذا، نحن نواري عليك بالبطانية، وأنت تقضي حاجتك في هذه المَبْوَلة، قلت لهم: وتبقى بجوارنا حتى المساء! قالوا: للضرورة

أحكام، ألم تعلمنا أن الله أباح لنا أكل الميتة ولحم الخنزير عند الضرورة؟

وعلى الرغم مني قضيت حاجتي بهذه الصورة الكريهة، وأنا أتصبب عرقا، وأتمزق خجلا، ولا سيما أن الحياء من أبرز الخصال عندي، فطرة فطرني الله عليها، لم أتكلفها، ولكن المكره له عذره، والمضطر يركب الصعب، والشاعر العربي يقول:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب   فما حيلة المضطر إلا ركوبها!

وبقي الإناء بما فيه نحو ساعتين حتى فتحوا لنا، وأبى الأخ رضوان من إخوان المحلة إلا أن يحمله هو ويصبه في الدورة ويغسل الإناء بالماء والرمل، تكريما لي أن أحمله بنفسي وأنا أولى به، وحلف على ذلك، جزاه الله خيرا إن كان حيا، ورحمه الله وغفر له إن كان قد لقي ربه.

والمفروض أن الزنزانة مبنية ليسجن فيها شخص واحد، فكيف تسع سبعة أو ثمانية؟ لقد كنا أحيانا ننام ـ كما يقولون ـ خلف خلاف، بعضنا رأسه في ناحية ورجله في الأخرى، ورفيقه على عكسه، بهذا نأخذ مساحة أقل، وكان هذا مهما في الشتاء، لأنه يدفئنا من شدة البرد الذي نعانيه، فقد كان البرد في فصل الشتاء قارصا، وكنا ننتفض انتفاضا، ولا سيما مع خفة الثياب التي معنا، وعدم كفاية الأغطية، وبرودة الأسفلت الذي ننام عليه.

وكلنا عانينا من أمر آخر هو حشرة (البَقْ) التي تختفي في الخشب، وتظهر في الليل، فتقرص القرصة المؤلمة، فتذهب النوم من عين

مقروصها، وكان هذا البق معششا ومفرخا في الألواح الخشبية التي فرشوا بها الزنازين، فأجمع المعتقلون أن ارحمونا من هذه الألواح وما فيها من خلق الله المستور، وكان من كرمهم أن استجابوا لطلبنا، وأراحونا منها، وإن كان هذا جعلنا نقاسي من لذعة الأسمنت وبرده في الشتاء، ولكنه أخف من لذعة البق.

أخذ الكتب التي معنا

وكان حمزة البسيوني وزبانيته يتفننون في تعذيبنا بكل وسيلة يقدرون عليها، ويبحثون عن كل ما يكدر خواطرنا، ويزعج سرائرنا.

من ذلك أن عددا منا كان يحمل معه بعض الكتب ليشغل الوقت بقراءتها، وينفع نفسه، ويسلي وقته، وكان بعضنا يعير لإخوانه ما لديه من كتب ويستعير منهم، وكان معي كتابان حرصت على اصطحابهما، لأقرأهما بإمعان وأناة، وهما: الموافقات للشاطبي، وإعلام الموقعين لابن القيم، رحمهما الله، فلما عرفوا ذلك حرصوا على أن يحرمونا من هذه المتعة العقلية التي لا تكلفهم شيئا، ولا ترهقهم عسرا.

والذين جربوا هذه السجون، يعلمون أن الوقت فيها يمر بطيئا بطيئا، ولا بطء السلحفاة، وكدنا نصدق ما يقوله الشعراء العاشقون: أن ساعته شهر، وليلته دهر.

وهذا أمر جربه الناس في حياتهم وعبروا عنه في نثرهم وشعرهم، حتى قال الشاعر:

وأيام الهموم مقصّصات　　　وأيام السرور تطير طيرا

إحراق المصاحف

ولما أخذوا منا الكتب بقيت معنا المصاحف، فيكاد كل واحد من الإخوان يحمل معه مصحفا، يقرأ فيه ورده اليومي وما تيسر من كتاب الله.

ولهذا لما أخذوا منا الكتب وضعنا همنا في تلاوة القرآن وحفظه، ولا تكاد تخلو زنزانة من أخ يحسن التلاوة، ويعرف أحكام التجويد، يتقرب إلى الله تعالى بتعليم إخوانه ما تعلمه، وفي حديث البخاري عن عثمان مرفوعا: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ولكن البسيوني وجنده انتبهوا لهذا الأمر، ووجدوا الزنازين تدوي بالقرآن كدوي النحل، وأن القرآن أصبح للإخوان أنيس وحشتهم، وربيع قلوبهم، ونور صدورهم، وجلاء أحزانهم، فغاظ ذلك البسيوني كل الغيظ، وكان ممن قال الله في مثله: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الزمر:

فأمر حمزة جنوده أن يجمعوا المصاحف ـ كل المصاحف ـ من المعتقلين، ودخلوا الزنازين يفتشوها خشية أن يكون أحدهم خبأ مصحفا، ثم جمع القائد الهمام عددا كبيرا من هذه المصاحف في ساحة السجن، وصب عليها البترول وأشعل فيها النار قائلا: حتى يبطّلوا زنّ!!

(قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلونه بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) البروج:

وقد قلت في النونية:

آسى على الإغلاق و(التأمين)

كتبي، فلي في الكتب خير خَدين

أتلوه بالترتيل والتلحين

قلبا بنور يقينه يهديني

أفيستطيعُ الخلق أن يُشْقُوني؟!

يا عصبة (الباستيل) دونكمو، فلن

سدُّوا عليَّ البابَ كي أخلو إلى

وخذوا الكتاب، فإن أنسيَ مصحفٌ

وخذوا المصاحف، إن بين جوانحي

الله أسعدني بظِلِّ عقيدتي.

تكديرات مستمرة

وفي بعض الأوقات فرضوا على المعتقلين إذا فتحوا عليهم الزنازين: أن يقوموا وقوفا، يديروا وجوههم إلى الحائط، ويرفعوا أيديهم، ويلصقوها بالجدار، وأي معتقل تلكأ في ذلك فجزاؤه أن يضرب على يديه بما في أيدي الجنود من عصي هي في حقيقتها خشب غليظ، وقد أخذت حظي من هذا الضرب في أحد الأيام.

وكنا نصلي جماعة، ونقرأ القرآن داخل الزنزانة، ولكن بصوت لا يخرج من الزنزانة، حتى لا يسمعونا، ونحن نتلو القرآن، وإلا فالويل لنا جميعا.

وكانوا يمرون أحيانا، ويقولون: تمام، فيرد النزلاء، قائلين: تمام يا افندم. وكانوا إذا مروا ونحن في الصلاة وقالوا: تمام، رد واحد منا أو أكثر فقال: تمام يا افندم.

وكانوا يتصيدون أي غلطة لأي معتقل، لينزلوا به أشد العقوبة. وهي في الحقيقة ليست غلطة إلا في نظرهم ومذهبهم، فقد ضبطوا واحد من المعتقلين يستحم داخل المرحاض، حيث أصابته جنابة، فانهالوا عليه ضربا، وعادة الإخوان في مثل هذه الحالة أن يأخذوا برخصة التيمم.

ونزل أحدهم من الدور الثالث، وهو يحمل (قصرية البول) التي يبول فيها المعتقلون ليلا، ثم يغسلونها في النهار ليملأوها ماء يشربون منه إذ كانت قصرية البول مليئة، فتساقط منها شيء من البول على السلم، فما كان من العسكري إلا أن أمر الأخ أن يلحس السلم حتى ينظفه!

وكان من وسائل التكدير والإيذاء: أن يجمع المعتقلون في ساحة السجن، فيوقفوا قياما على أرجلهم مدة طويلة في هجير الصيف، دون أن يسمح لهم بالتحرك يمنة أو يسرة، فيسقط بعضهم إعياء، ويسقط غيرهم إغماء. ويظلون هكذا ربما ساعتين أو ثلاثا حتى يتفضلوا عليهم، فيصرفوهم إلى زنازينهم.

وأحيانا يؤمر المعتقلون بالقيام والقعود ثلاثين أو أربعين مرة، وهذه تحتاج إلى ركب قوية، والحمد لله، فقد كنا شبابا، وكنا متمرنين على هذه الحركات في شعب الإخوان وفي رحلاتهم، فكنت أؤديها بيسر وسهولة، ولكني كنت أجدني في غاية الإشفاق على الإخوة كبار السن والمرضى، والذين يشكون من البدانة والسمن، ممن لا يستطيعون القيام بهذه الحركات، ولا يقدرون عليها، والجنود

بكرابيجهم لا يرحمون شيخا ولا ضعيفا ولا مريضا. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصايا بسيونية باستمرار الإيذاء

وكانت وصايا حمزة البسيوني لزبانيته: ألا يدعونا ننعم بالهدوء، وراحة البال، وطيب الخاطر، وأن يجتهدوا في التفتيش عن أسباب (التكدير) والإيذاء لنا، فإن لم يجدوا سببا اختلقوه اختلاقا، على طريقة الذئب مع الحمل، حين قال له: قد عكرت علي الماء، والذئب في الأعلى، والحمل في الأسفل!

من ذلك أن بعض الإخوة احتاجوا إلى الماء لضرورة الشرب، فقرعوا باب الزنزانة ليسمعهم الحراس، ويطلبوا منهم أن يمدوهم بقليل من الماء، الذي جعل الله فيه كل شيء حي.

وكان هذا سببا كافيا لإشعال معركة مع هؤلاء الإخوة، ومع الدور الذي كانوا فيه، وقد كانوا في الدور الأرضي.

ولا أنسى المعركة التي نصبت للأخ الصبور البطل محمد حلمي مؤمن من إخوان دمياط.

الضرب الوحشي للأخ محمد حلمي مؤمن

وأنا أنقل هذه الواقعة من كتاب (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) للأستاذ محمود عبد الحليم الجزء الثالث حيث قال:

نعرض هنا لأخ كريم كان إذ ذاك في مقتبل شبابه، وقد هاله ما يلقاه كرام الإخوان على يد هؤلاء الوحوش الآدمية التي تسمى

عساكر.. رأى الأخ محمد مؤمن وهو من إخوان دمياط منظرا حز في نفسه، ولذع كبده .. وكثر تكرر هذا المنظر أمامه، فهانت عليه الحياة، وأسر في نفسه أن يمنع تكرار هذا المنظر، أو يموت دونه.

والمنظر المثير يتلخص في أن يأمر العساكر أن يصفع الإخوان بعضهم وجوه بعض وبطريقة قاسية، وإلا أذاقهم هؤلاء العساكر ألوان العذاب.

وطوى الأخ محمد جوانحه على هذا العزم. وطرأ طارئ جديد زاد نار هذا العزم اشتعالا، ذلك أن إدارة السجن منعت الماء عن الإخوان، واتخذت من الإجراءات التعسفية ما يكاد يصل إلى حد منعهم من قضاء حاجتهم في دورة المياه..

وفي خلال هذه المأساة استطاع أحد الإخوان ـ وهو الأخ حسن عبد الفتاح من إخوان كرداسة وأحد زملاء الأخ محمد مؤمن في الزنزانة ـ أن يحصل على قليل من الماء، وبينما هو في دورة المياه ضبطه أحد العساكر فأخذ منه الماء، وأخرج زملاءه في الزنزانة، وأمرهم بصفعه في وجهه. وتصادف أن كان الأخ محمد هو أول الصف، فامتنع عن تنفيذ الأمر.. فهجم عليه العسكري ليصفعه ويضربه كالمعتاد، فقاومه الأخ محمد مقاومة شديدة، انتهت بوقوع العسكري على الأرض .. وكان في نية الأخ محمد أن يقتل العسكري دفاعا عن كرامة الإنسانية أو حتى الآدمية، ولكن الإخوان حالوا بينه وبين العسكري.. فما كان من العساكر الآخرين إلا أن اجتمعوا على الأخ محمد لينتقموا منه؛ فجاءوا به إلى السارية، وأردوا أن يربطوه إليها بحبل، فرفض الأخ محمد، وقال لهم: إنني سأحتضن السارية دون حبل، واضربوني كما تشاءون.

واحتضن الأخ محمد مؤمن السارية، وجاء كل عسكري بكل ما يضرب به من كرابيج وقطع من الخشب وعصي، وظلوا يضربونه

حتى تعبوا جميعا.. فألقوا ما بأيديهم متعجبين ذاهلين.. والذي أذهلهم وأدخل اليأس في نفوسهم، هو: أن الأخ محمد ـ مع كل هذا الضرب القاتل ـ لم يتأوه، ولم ينبس ببنت شفة، وهو أمر لا عهد لهم به.. بل إننا نحن الإخوان كنا في دهشة من هذا الصبر العجيب.. حتى إننا سألنا الأخ محمد بعد ذلك كيف استطاع أن يصبر على هذا الضرب المميت دون أن يصرخ أو يتأوه؟ فقال: إن الذي أقدم على ما أقدم عليه وهو ينتظر الموت؛ فإذا جاء ما هو دون الموت، فإنه لا يكاد يحس له بألم.

واعتقد هؤلاء العساكر ـ بسذاجتهم ـ أن الأخ محمد وليّ من أولياء الله؛ ولهذا لم يحس بألم الضرب، واعتقدوا أنهم إذا لم يعتذروا إليه، ويطلبوا منه الصفح عنهم، فسيصيبهم شر مستطير. فذهبوا إليه في الزنزانة التي كان ملقي بها يتشحط في دمه، واعتذروا إليه، وأحضروا له الأخوين: الدكتور أحمد الملط والدكتور كامل سليم، فضمدا جروحه..اهـ

وأود أن أعلق على كلام الأخ محمود عبد الحليم على اعتقاد الجنود في الأخ محمد حلمي مؤمن ـ لسذاجتهم ـ أنه ولي من أولياء الله الصالحين، فأقول: بل هو بالعقل ولي من أولياء الله بالمعنى القرآني، لا بالمعنى الخرافي، الشائع لدى المسلمين، وهو: أن الولي هو أو الكرامات أو الخوارق، والذي تكشف له أستار الغيوب، فما هكذا كان الصحابة، وهم خيار أولياء الله، وقد قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس: فكل مؤمن تقي هو ولي من أولياء الله، فلم لا يكون الأخ مؤمن من أولياء الله تعالى، وقد رضي بمثوبة الله غاية، وبالقرآن دستورا ومنهاجا، وبالرسول قدوة وزعيما، وبالجهاد سبيلا، وثبت على ذلك، وصبر على ما يلقاه في سبيل الله؟!

وهكذا كلما مرت فترة هدوء وحمدنا الله فيها على السلامة، سرعان ما يخترعون لنا من الأسباب، ما يبقي النار حية متأججة، وهم أبدا يلقون عليها بالوقود، حتى لا تخبو وتستحيل إلى رماد.

أجهزة تمويل الأسر

وكان مما ينفخ في الجمر فيتوقد: القبض على بعض الإخوة الذين يساعدون أسر المعتقلين، ويطلقون على كل مجموعة منهم اسم (جهاز التمويل) أي تمويل الأسر، حتى لا تموت من الجوع والعري والمرض والحاجة.

فقد رسموا سياستهم على إذلال هذه الأسر، حتى تقهرها الحاجة، ويكسر أنفها الجوع، والجوع كافر، ويتعرض الأطفال للضياع، والنساء لمد الأيدي، وكاد الفقر أن يكون كفرا.

ولا عجب أن كان يزعجهم كل الإزعاج أن يجدوا من شباب الإخوان من نذر نفسه ليأخذ المساعدات من أهل الخير من الإخوان، ويوصلها لهذه الأسر المتعففة، فكانوا يأخذون المحسنين إذا عرفوهم، والمحصلين للمال من الشباب، ومعظمهم من طلاب الجامعات.

وفي كل عدة أشهر نستقبل فوجا من هؤلاء، الذين كنا نسمع صراخهم وهم يعذبون، في مكاتب التحقيق، وصوت أم كلثوم يغطي على صيحات العذاب والآلام بأغنية يذيعها ميكروفون السجن، وتتكرر كل ليلة، وهي أغنية (شمس الأصيل ذهبت روس النخيل يا نيل. تحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل) .

ولقد كرهت هذه الأغنية لكثرة ما كرروها في السجن، وكلما سمعتها ـ حتى اليوم ـ تذكرت آهات المعذبين هناك.

صورة عبد الناصر في ساحة السجن

ومن غرائب الطرائف: أن يكلف أحد الإخوان الرسامين البارعين في رسم الصور الشخصية: أن يرسم بيده صورة زيتية كبيرة على جدار السجن الحربي بأمر حمزة البسيوني، وأن يكتب تحت هذه الصورة عبارة عبد الناصر الشهيرة: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد!

وكانت هذه الكلمة موضع السخرية والتنكيت من الإخوان، فهذا يقول: كان الواجب أن يكتبوا تحت الصورة: ارفع رجلك يا أخي فأنت في عهد الكرباج! وأخر يقول: ارفع رأسك يا أخي لنقطعها، فنحن في عهد الإطاحة بالرءوس! إلى آخر هذه التعليقات التي يتقنها المصريون، فهم شعب الفكاهة والنكتة حقا.

حتى إني اقترحت يوما أن يتتبع أحد الباحثين النكات السياسية التي قيلت منذ أول عهد الثورة حتى اليوم، منذ عهد عبد الناصر والسادات ومبارك، فسيجد كما هائلا، يمكن أن يكون مجالا لدراسات أدبية وفلكلورية ونفسية وسياسية واجتماعية.

وقد بلغني أن بعضهم جمع شيئا غير قليل في ذلك.

طعام السجن

كان طعامنا في السجن ـ كما أشرت من قبل ـ قليلا من حيث الكمية، رديئا من حيث الكيفية. كان فطورنا غالبا من العدس المليء بالحصى والرمل، ولا أدري: أذلك لرداءة نوع العدس أم هم يتعمدون إلقاء الرمل فيه، ليحرمونا لذة الطعام؟

وأحيانا يأتون لنا بالفول بدل العدس، ولا أسوأ من هذا إلا هذا. فالسوس يطفو على سطحه بكثرة تلفت النظر، حتى قال بعض الظرفاء من إخواننا: هذا لا يقال له: فول مسوِّس، بل سوس مفوِّل! فصارت مثلا.

وفي الغَداء كانت الفاصوليا الجافة مع الأرز، هي الطعام اليومي المقرر إجباريا علينا. وقد كانت الفاصوليا هي طعامنا اليومي حينما اعتقلنا في الطور سنة 1949 في عهد الملكية.

ومن الطريف هنا: أني حينما تزوجت قلت لامرأتي: هناك طعام عندي مخزون منه يكفيني لنصف قرن، فلا أريد أن تطبخيه أبدا؟ قالت: ما هو؟ قلت لها: الفاصوليا الناشفة.

وفعلا، نفذت ما اتفقنا عليه، ولا أحسب أننا طبخنا هذه الفاصولية أو دخلت بيتنا إلى يومنا هذا!

وفي العشاء كانوا يأتوننا بطعام لعله من بعض الخضار المطهو، أو من شيء لا نعلمه.

وكل زنزانة يغرف لها نصيبها في صحن متوسط الحجم، أو قل: في صحنين، صحن للفاصوليا أو الخضار، وصحن للأرز.

أما خبزهم فكان عجيبا حقا، لا ندري من أي مادة عجنوه وخبزوه، حتى نحسبه أحيانا كأنما صنع من مادة الأسمنت.

ومع هذا، كان هذا الطعام يؤكل ولا يبقى منه شيء، لأن قلته وعدم كفايته جعلته مرغوبا، ومن أكل أي طعام وهو جائع شعر بلذته، وإن لم يكن من الطيبات المستلذات. وقد قيل لبضعهم: أي الطعام أطيب؟ قال: الجوع أعلم.

وأكل أعرابي يوما على مائدة الحجاج فقال له الحجاج: كل، إنه طعام طيب. قال: والله ما طيبه خبازك ولا طاهيك، ولكن طيبه الجوع والعافية!

ولقد مر علينا شهر رمضان ـ وكان في عز الصيف ـ ونحن على هذا الحال من التقشف والإقلال، وقد مر بنا ـ بحمد الله ـ خفيفا ظريفا، رقيقا كنسمات الفجر، لا أذكر أننا شكونا فيه جوعا أو عطشا، رغم ما هو معلوم من طول أيام الصيف وشدتها، ولم نشعر بأنَّا فقدنا شيئا كبيرا حين مر علينا رمضان بلا تمر ولا زبيب ولا تين، ولا قمر الدين، ولا كنافة ولا قطائف. وأشد من هذا كله وأقسى: أننا قضيناه بعيدا عن أسرنا وأهلينا، ولا نستطيع أن نصلي التراويح جماعة في زنازيننا، فهذا محظور.

واستعضنا عن طيب المأكولات بطيب الأذكار والدعوات، وبتلاوة ما نحفظ من القرآن بعد أن أخذوا منا المصاحف.

ومن الذكريات الأليمة في هذا الرمضان: مرور حمزة البسيوني علينا فيه، بوجهه الأغبر، وشعره الأشعث، وجبينه المقطب، وخده المشجوج، وشاربه المتهدل، ولسانه الذي يسيل بالكلمات البذيئة سيلا، كأنما لا يعرف من اللغة غير السباب والشتم وسوء الأدب، وقد كان يوم مروره ـ كما هو دائما ـ يوما أسود، لأنه لا يصدر عنه إلا الأذى، كما لا يصدر عن العقرب إلا أن تلدغ وتؤذي، ولا عن الأفعى إلا أن تعض وتنفث السم، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

ونحمد الله تعالى أننا لم نر وجهه في رمضان كله إلا هذا اليوم، لا أرانا الله وجهه!

وقد عرضت لطعامنا في السجن في النونية، فكان مما قلت في ذلك:

إن الحَصَى فرض على (التعيين)

من عينه أو داله والسين

نفسي، فرؤية صَحْنها تؤذيني

وكأنما صنعوه من غِسْلين

يحلو لنا من قلة التموين

وعليَّ أن أرضى وقد ظلموني

فطورنا عدس مزين بالحَصَى

قد عفته حتى اسمه وحروفه

وغداؤنا (فاصولية) ضاقت بها

وعشاؤنا شيءٌ يحيِّرك اسمه

لا طعم فيه ولا غذاء، وإنما

طبقٌ يُكال لسبعة أو نصفُه

الماء والنظافة في السجن

كان الماء في السجن إحدى المشكلات العويصة، فالسجن ـ كما ذكرنا ـ لم يهيأ ليستقبل هذا العدد الضخم من النزلاء، الذي يزيد على عشرة أضعاف طاقته العددية.

فلا يكفي الماء الواصل إلى السجن للشرب والطبخ والطهارة، وغسل الثياب، وغيرها. مهما قتر المقترون في استخدام المياه إلى الحد الأدنى.

وكنا نقضي مددا طويلة دون استحمام، كما تبقى ثيابنا كذلك دون غسل وتنظيف، وكانوا في أول الأمر يتلذذون بإبقائنا دون نظافة في أجسامنا وثيابنا، تشفيا فينا، وانتقاما منا.

وبخاصة أن ظروف السجن في أشهره الأولى لم تكن تسمح لنا بذلك، فكان كل معتقل لا يكاد يحصل على خمس دقائق لدخوله المرحاض ووضوئه، وكانوا يدخلون على من اضطرته ظروفه أن يتأخر قليلا في المرحاض ليخرجوه منه بالكرباج، قائلين له: إنك لست في بيت أبيك وأمك، حتى تأخذ راحتك! وذلك ليخرج من أضلاع السجن، ليفسح المجال لنزلاء الضلع الآخر. على أنه لا يوجد من الماء ما يكفي لأن تأخذ راحتك في الطهارة والوضوء.

وفي يوم من الأيام كان بعض المعتقلين يحفرون في ساحة السجن، لا أدري لأي سبب، وإذا بالماء يتفجر من تحت أقدامهم، حتى فوجئ السجانون بهذه العين الثرة التي ساقها الله إلى المعتقلين وهم أحوج ما يكونون إليها، حتى قال أمين جاويش السجن: يا أولاد الـ ... رزقكم تحت رجليكم. واتخذت الإجراءات للإفادة منها.

وكانت هذه البئر أو هذه العين مِنَّة من الله تعالى على المعتقلين، ليستطيعوا أن يشربوا ويرتووا، وأن يتطهروا ويغتسلوا، وأن يغسلوا ثيابهم ويتنظفوا.

وكانوا يسمحون لنا في كل أسبوع مرة لمدة قليلة للنزول لغسيل الملابس والاستحمام إن أمكن ذلك. وكانوا يعطوننا قطعا رديئة من الصابون مصنوعة خصيصا لعساكر الجيش، قلما تصدر منها رغوة.

تمزق الملابس

وكان الكثير منا لم يحمل معه ملابس كافية، فلم نكن نقدر أن الزمن سيطول بنا، ولم نكن نحسب أننا سنمنع من زيارة أهلينا وأقاربنا، وبعضنا أخذ من عمله أو منزله أو من الطريق، على أساس أنه مطلوب لخمس دقائق، ولم يصدُقوه فينبئوه بما نووه وصمموا عليه من سجن طويل. ولهذا بدأت ثياب الإخوان تنخرق وتبلى، وطفق الإخوان يرقعون ما معهم من ملابس، وهذا يحتاج إلى إبرة وخيط ورقعة وصنعة أيضا، فليس كلنا يحسن ترقيع ملابسه، وأنا من هؤلاء، ولم يعد منظرا غريبا أو شاذا أن تجد أخا يلبس جلبابا مرقوعا، كما كان سيدنا عمر رضي الله عنه.

بل ذكر الأخ محمود عبد الحليم أنه كان في منامته (بيجامته) أكثر من ثلاثين رقعة.

كنت شخصيا ممن حمل معه من الملابس ما يكفي لسنة على الأكثر، وكانت من الملابس المستعملة لا الجديدة، وبعد سنة بدأ البلى يظهر على الثياب، وخصوصا مع بدء الشتاء الثاني في السجن، وقد رآني بعض الإخوة الأصدقاء من جيران زنزانتنا

أنتفض من البرد، فأسعفني وأتحفني بجلباب من عنده من الكستور المصري المحلاوي، ذلكم هو الأخ محمد كمال إبراهيم، وكان الأخ كمال أسمن مني بكثير، فكان ثوبه فضفاضا علي، ولكن المطلوب في تلك الفترة هو الستر لا التجميل.

روح معنوية عالية

ومع هذا كله وما هو أكثر منه ما لم تذكر، كانت روح الإخوان عالية، ومعنوياتهم قوية، وإيمانهم راسخا، وثقتهم بالله لم تضعف أبدا، وأملهم في فرج الله ونصره لم تنقطع خيوطه من قلوبهم يوما.

كانوا يؤمنون بأن هذه سنة أصحاب الدعوات، وحملة الرسالات، وأن الطريق إلى النصر في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، مفروشة بالأشواك، مضرجة بالدماء، مليئة بجثث الشهداء، وأن الأمر كما قال ابن القيم:

يا مخنث العزم! الطريق تعب فيه آدم، وناح نوح، وألقي في النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل، وأوذي فيه موسى، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح فيه السيد الحصور يحيى... إلى آخر ما قال.

وحسبنا ما ذكره القرآن: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا أن نصر الله قريب) البقرة:

كان عامة الإخوان يقابلون هذه الأهوال بصدور منشرحة، وقلوب منفتحة، وثغور مبتسمة، فتراهم داخل الزنازين يضحكون

وينكتون، ويرددون المُلَحَ والطرائف، ويتفنون في ذلك مما لا يخطر على بال.

فهناك الشعراء الذين ينشئون القصائد، مثل قصيدتي (النونية).

وهناك الزجالون الذين يؤلفون الأزجال، مثل زجل أحد الإخوة:

اللي ما شافش السجن الحربي   مهما اتربّى ما تربّاش

وهناك الذين يقلبون الأغنيات المشهورة لتصبح لأمته بالحال، ويتغنون بها، مثل أحد الإخوة الذي كان يقلد أغنية أم كلثوم الشهيرة: يا ظالمني. وكان يغير عباراتها وينشدها بصوته العذب، فيقول:

وتضربني وتؤذيني   وتنفخني وتكويني

وتزعل لما أقول لك   يوم: يا ظالمني

وكان قليل من الإخوة هم الذين قصرت طاقتهم عن احتمال هذه الألوان من الأذى والعذاب البدني والنفس. وهم في هذا معذورون، لأن هذا فوق طاقتهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. والشاعر يقول:

ما كلف الله نفسا فوق طاقتها   ولا تجود يد إلا بما تجد

حكى لي الأخ الشيخ عبد التواب هيكل وكان رفيقنا في السجن، كما كان زميلي في كلية أصول الدين: أن أحد الإخوان في زنزانتهم كان رجلا رقيقا جدا، مرهف الإحساس، لا يتحمل الضرب بحال من الأحوال، إذا وقع له، ويرتعد خوفا منه قبل أن يقع. وكان رفقاؤه من الإخوان في زنزانة يحاولون تصبيره وتسكينه والتخفيف عنه، فيستجيب لهم، ولكن طبيعته تغلبه، حتى إنه نذر على نفسه نذرا لله تعالى إذا خرج من السجن حيا: أن يضرب أبناءه بالسياط حتى يتعودوا الضرب، ويتحملوا ألمه، ولا يشق عليهم، كما شق عليه، إذا ابتلوا بمثل ما ابتلي أبوهم.

وكالة (أبشروا)

من المعروف أن السجون من قديم مظنة لكثرة الرؤى والأحلام من نزلاء السجن، كما أنهم يهتمون بها وبالحديث عنها، وبتعبيرها ومعرفة ما تؤول إليه من خير أو شر، وقد ذكرنا فيما سبق قول الشاعر عن المسجون معبرا عن نفسيته ونفسية رفقائه من المساجين:

ونفرح بالرؤيا، فجل حديثنا   إذا نحن أصبحنا: الحديث عن الرؤيا

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في قصة يوسف حكاية الفتيين اللذين دخلا مع السجن ورأى كل منهما رؤيا، قصها على يوسف، ونشداه تأويلها لهما، لما لمسا من فضله وإحسانه ومكارم أخلاقه. يقول

تعالى: (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما: إني أراني أعصر خمرا، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) يوسف: وقد نبأهما بتأويل ما رآياه، ولكن بعد أن أراهما من فضل الله عليه، ثم دعاهما إلى توحيد الله تعالى والإيمان به، ونبذ الشرك.

ولهذا لا نعجب إذا وجدنا في إخواننا من نزلاء السجن الحربي فئة مشغولة أبدا بالأحلام والرؤى، وفي كل صباح عند النزول إلى دورات المياه، تسأل الإخوان عما رأوا في تلك الليلة، وقد سماهم الأستاذ عبد العزيز كامل جماعة القسم الليلي، لأن كل عملهم في الليل. وقد وجدوا كثيرا من الإخوة الذين لا تكاد تخلو لياليهم من منامات. ومن المعلوم شرعا: أن ما يراه الإنسان في نومه بعضها حديث نفس، كما قيل: الجوعان يحلم أنه في سوسق العيش، وبعضها رؤى صادقة، وبعضها من الشيطان.

وبعض الرؤى الصادقة يكون صريحا ناطقا، وهو قليل، وأكثرها يكون رموزا تحتاج إلى تأويل، كرؤيا صاحبي يوسف، ورؤيا ملك مصر في عهد يوسف عليه السلام.

وصدق الرؤيا لا يدل على إيمان صاحبها ولا تقواه، فقد صدقت رؤيا الفتيين صاحبي يوسف، وكانا مشركين، وصدقت رؤيا الملك في البقرات السمان، والبقرات العجاف، وكان الملك مشركا.

المهم أن هذه المجموعة من الإخوان ـ وعلى رأسهم الأخ عبد الفتاح الشريف من إخوان دمنهور ـ يرصدون في كل صباح الرؤى من الإخوان، ويؤولونها على ما يحبون دائما، تأويلا يبشر بالنصر، ويؤذن بالفرج القريب، وبهلاك الظالمين، وذهاب سلطانهم.

فإذا رأى أحدهم في المنام شمسا تبزغ وتشرق، كان تأويلها أن شمس الإسلام ـ أو شمس الإخوان ـ قادمة، وستملأ الدنيا نورا، وإذا رأى أحدهم في منامه شمسا تغرب، قالوا: هذه شمس الأعداء، أو شمس الثورة، يوشك أن تغرب وتغيب.

وإذا رأوا أرضا خضراء نضرة قالوا: أبشروا، هذه أرضنا نحن الإخوان، وإذا رأوا أرضا أصبح نباتها هشيما تذروه الرياح، قالوا: أبشروا هذه أرض عبد الناصر وجماعته.

ولهذا أطلق الإخوان على هؤلاء الإخوة: وكالة (أبشروا) فإذا كانت وكالات الأنباء تذيع الأخبار، فهذه الوكالة تذيع الأحلام المبشرات.

وإذا كانت جماعة (أبشروا) مهمتها نشر الأمل بين الإخوان عن طريق الرؤى والمنامات، فقد وجدت جماعة بين الإخوان تشيع الرضا وسكينة النفس بين الإخوان عن طريق نشر النكت والفكاهات والمداعبات الإخوانية، حتى لا يغلب جو الكآبة على السجن.

مثل نكتة أن بعضهم ضبطه شرطي، وهو يقول: الله يخرب بيتك يا عبد الجبار، فقبض عليه وقدمه إلى الضابط، فسأله: ماذا فعل؟ قال: يا سيادة الضابط، أخطأ في اسم رئيس الجمهورية!

ومثل نكتة أن بعضهم قبض عليه وهو يشتم الحكومة الظالمة، فلما سئل عن ذلك قال: أنا أقصد حكومة المجر، فقال له: تريد أن تضحك علينا، وهل فيه حكومة ظالمة إلا حكومتنا؟!

ومثل نكتة أن الحكومة كانت تقبض على الجمال، فوجد حمار يعدو ليختبئ من رجال الحكومة، فقيل له: لماذا تختبئ وإنما تأخذ الحكومة صنف الجمال، وأنت من صنف الحمير؟ فقال: حتى أثبت لهم أني حمار ولست جملا، يكون قد ضاع نصف عمري!

كانت إشاعة هذه النكات وأمثالها من عمل جماعة من الإخوان كنت منهم، سميناها: (جماعة الفرفشة).

وكان قد ظهرت شائعة بين المعتقلين: أن ما نزل بالإخوان من أهوال ومحن شداد، قد أفقدتهم القدرة على الإنجاب، وأنهم لن يقدروا على متطلبات الزواج، وإذا تزوجوا فلن يقدروا على إنجاب الأولاد، فاتخذت جماعة الفرفشة شعارات لها هي: تشجيع العزاب على الزواج، والمتزوجين على كثرة الإنتاج، والفرفشة حتى الإفراج!

الملحمة النونية

كان الإخوة قد علموا من قبل أني أقول الشعر، وأن المحن تفجر الطاقة الشعرية عندي، وقد سمع منهم من سمع بعض شعري في معتقل الطور، مثل (مناجاة ليلة القدر) ومنهم من سمع قصيدتي في ميدان السيدة زينب في القاهرة.

ولهذا كان بعضهم يلقاني في دورة المياه ويسألني: ألم تقل شيئا في هذه المحنة؟ فأقول لهم: لا، لم يفض علي بشي.

وكانت السنة الأولى من الاعتقال جد قاسية، لا يكاد يجد المرء فيها فرصة، ليخلو إلى نفسه، ويناجي خواطره، والهول شديد، والسكين حامية، والنار موقدة، والمعركة منصوبة، فمن أين يصفو الفكر، ويفيض الخاطر، ويتدفق الشعر؟

ولكن في أواخر سنة 1955، وبعد أن استقر بنا المقام في السجن، وهدأت الأحوال نسبيا، بدأت خواطر الشعر تفيض علي فيضا، وكان المشكل أني في حاجة إلى أن أكتبها حتى لا تتفلت مني،

ولكن أنى لي أن أكتب ولا قرطاس عندي ولا قلم؟ فقد أخذوا منا الأوراق والأقلام، وكل ما له علاقة بالعلم والثقافة والفكر.

ولهذا كان علي أن أقول الأبيات، وأرددها على من حولي حتى أحفظها، ثم إذا نزلنا إلى دورة المياه، رويتها للإخوة المشهورين بالحفظ، الذين يحفظون الأبيات من مرة أو مرتين، وفي مقدمتهم الأخ عبد الشفوق عبد الباري الشحات من طلبة المعهد الديني بدمياط، رحمه الله. وكذلك الأخ علي... من إخوان المحلة من طلاب الأزهر، من قرية منية شتنا غياش بجوار قريتنا، والأخ فؤاد قنديل، والأخ مسعد زين العابدين سلامة، وكلاهما من طلبة الإخوان بطنطا. وآخرين من الإخوان.

وفي كل يوم أنشئ نحو عشرين أو ثلاثين بيتا، وأعتمد في تثبيتها على الرواية الشفهية، كما كان يفعل العرب في الجاهلية غالبا، فلم يكتب فيهم إلا القليل، بل النادر، وكانوا يختزنون الأشعار في ذواكرهم.

ولم أزل كذلك حتى اكتملت القصيدة، وزادت أبياتها على الثلاثمائة. وكان الإخوان يحفّظها بعضهم لبعض، فغدا رواتها عددا يبلغ التواتر كما يقول العلماء، وإن كان أكثرهم كل منهم يحفظ جزءا منها لا كلها.

ونظرا لاختلاف وقت التلقي، فربما اختلفت الرواية، واختلف الرواة في بعض الألفاظ، تبدأ القصيدة بهذه الفقرة التي تصور كيف بدأت أنشئ القصيدة:

أُفْضِي لكم بفجائعي وشُجوني

والشعر عُودي عند عَزْف لُحوني

تُشْجِي القلوب بلحنها المحزون؟

تُتلى على الأجيال بعد قرون

ما دمت أبغيه ولا يبغيني؟!

طربا إلى الإنشاد والتلحين

ويمدها قلبي وماء عيوني

أبدا فكدت يقال لي: (ذو النون)

وتركت للأيام ما يعييني

بغرائب الأحداث ما يغنيني

مصر بلا خلق ولا قانون

حتى ترحمنا على (نيرون)!

قد نوموه بخطبة وطنين

وتقوم بالتسجيل والتدوين

في لوحه وكتابه المكنون

ثار القريض بخاطري فدعوني

فالشعر دمعي حين يعصرني الأسى

كم قال صحبي: أين غَرّ قصائد

وتخلد الذكرى الأليمة للورى

ما حيلتي والشعر فَيْض خواطر

واليوم عاودني الملاك فهزني

ألهمتها عصماء تنبع من دمي

نونية والنون تحلو في فمي

صورت فيها ما استطعت بريشتي

ما همت فيها بالخيال فإن لي

أحداث عهد عصابة حكموا بني

أنست مظالمهم مظالم من خلوا

حسبوا الزمان أصم أعمى عنهم

ويراعة التاريخ تسخر منهمو

وكفى بربك للخليقة محصيا

التنقل بين الزنازين

وكان من أشد المحرمات علينا في السجن: أن يزور بعضنا بعضا، ولو ضبط أحدنا يفعل ذلك لعوقب هو وزنزانته، والزنزانة الأخرى عقوبة بليغة، فكنا لا نلتقي إلا في دورة المياه، ولكن دورة المياه لا يلتقي فيها إلا نزلاء ضلع واحد من الأضلاع الإثنى عشر في السجن. فلا نلتقي بشكل جماعي إلا في تكدير عام، ينادى على الجميع لينزلوا في الساحة، ويقفوا في الشمس قياما على أقدامهم مددا طويلة، فيسقط منهم من يسقط إغماء من طول الوقوف، وضعف الجسم من قلة الغذاء، أو من ضربة الشمس. ومع هذا كنا

نجد في هذا التكدير العام فسحة يرى فيها بعضنا بعضا. فكثيرا ما يوجد عدد من الإخوة في السجن أو من الأقارب، أو من الأصدقاء المقربين، ولا يرى بعضهم بعضا.

وعلى الرغم من هذا التضييق والتشديد، كنا ننتهز بعض الفرص، ليزور بعضنا بعضا، وكنت أنا من أكثر الناس تنقلا بين الزنازين، مع ما في ذلك من خطورة، لأن الإخوان كانوا يطلبونني ليسألوني في بعض النواحي الشرعية، وكانت الفرصة المناسبة للتنقل ما بين النزول إلى الدورة قبل الفجر، وما بين توزيع الفطور عند شروق الشمس، فيمكن لأحدنا أن ينتقل خلسة إلى الزنزانة الأخرى، وكلما كانت في الدور نفسه، وفي الضلع نفسه كان الأمر أسهل.

وأذكر أني كدت أكشف مرة، ولكن الله سلم، وذلك حين دخل أحد العساكر يطلب شيئا معينا، وهنا وقفت مع أهل الزنزانة كأني واحد منهم، ولم يلتفت العسكري للعدد.

وكان مما يطلبه مني الإخوة: أن أنشدهم ما تيسر من (النونية) فقد انتشر خبرها بين المعتقلين.

نزح بئر الصرف الصحي

ومما لا أنساه: أن فتحت الزنزانة في صباح يوم، وكان يوم جمعة، وأشار العسكري إلي، وقال: تعال أنت، فسأله الإخوة: ماذا تريدون منه؟ قال: تنظيف (البكابورت). قالوا له: إنه لا يصلح لهذه المهمة، خذ أحدنا مكانه، فهذا شيخنا وعالمنا. قال: لا، لا أريد غيره.

وذهبت معه إلى هذا البئر الذي سدته بعض الأوساخ والقاذورات، وكان لا بد من تسليكه، وقد وجدت هناك عددا من الإخوة كأنهم

انتقوهم انتقاء، كلهم من الأطباء والمهندسين والمحامين، أذكر منهم الأخ أحمد حشاد (الدكتور العالم أحمد حشاد بعد ذلك).

وكنا نؤدي عملنا بهمة ونشاط، ونحن نضحك ونمزح، وماذا جرى؟ ذهبت وأنا يوسف القرضاوي، ورجعت وأنا يوسف القرضاوي! وشكر الله لإخواني الذين حرصوا على أن يعفوني من هذه المهمة الكريهة في نظرهم، فأجروا بنيتهم، وإنما لكل امرئ ما نوى.

مرض الصدر

وكنت في السجن أدعو الله تعالى دائما أن يعافيني وإخواني من الأمراض كلها، وأن يمنحنا من فضله العفو والعافية، وهذا شأن المسلم في كل حين وكل حال: أن يسأل ربه العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.

ومن الأدعية المأثورة التي أرددها ولا أمل من ترديدها أبدا: " اللهم إني أسألك العفو والعافية: في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي. واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوفي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي ".

ومن الأدعية المأثورة بين السجدتين في الصلاة: " اللهم اجبرني وارزقني وعافني.. ".

وفي القنوت الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم للحسن: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت .. ".

ومن المأثور أيضا: " اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي. اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت ".

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من أمراض شتى مثل الجذام والبرص ويستعيذ " من سيئ الأسقام ".

وإذا كان هذا هو شأني ـ وشأن كل مسلم ـ في الأحوال العادية، ففي السجن الحربي يكون المرء أحوج إلى العافية وسلامة البدن من الأسقام، لعدم توافر الدواء، وقد لا يوجد الطبيب المختص، وإذا وجد من الإخوة المعتقلين الطبيب المتخصص، فقد لا يمكنك الوصول إليه.

وقد أصيب أحد إخواني في الزنزانة ـ الأخ محمد الشافعي ـ بمغص كُلوي حاد، عافانا الله وإياكم منه، وكان الأخ يتلوى ويصرخ من شدة الألم، ويقوم ويقعد، ويبكي ويصيح، ولا من مجير ولا من سميع، وكان ذلك بعد منتصف الليل، واستيقظنا كلنا على ألمه وصراخه الذي يحاول أن يكتمه ويكبته حتى لا يقلقنا، ولكن طفح الكيل، وطغى السيل، فاجتهدنا أن نخفف من آلامه بالدعاء والرقية الشرعية: اللهم رب الناس، أذهب الباس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما "

لم نجرؤ أن نقرع باب الزنزانة، حتى لا تحدث مأساة كمأساة الذين قرعوا الباب لطلب الماء. وصبرنا حتى فتح الباب قبل الفجر للنزول إلى دورة المياه، وسألنا بعض الإخوة الذين دلونا على من أعطانا بعض المسكنات للأخ، وقد تناوله وسكت عنه الألم، ولله الحمد والمنة.

وأنا لم أنس ما حدث لي حين أصابني الإسهال، وهو مرض خفيف إذا قيس إلى غيره من الأمراض.

على كل حال مرت معظم المدة بخير، وحمدنا الله على السلامة رغم موجبات المرض.

ولكن شاء الله سبحانه في الأشهر الأخيرة أن أصاب بمرض في صدري، ولم أعرف له سببا، حيث ابتليت بنوع من السعال أمسى يقلقني في ليلي،ويكدر علي نهاري، أشبه بالربْو، وما هو بربو.

وكان الجو قد هدأ كثيرا، وأضحى بإمكاننا أن نذهب إلى الأطباء من الإخوان في السجن ليفحصونا، كما كان بالإمكان الإرسال إلى الخارج لشراء بعض الأدوية الضرورية.

وكان في السجن عدد من الأطباء المهرة في عدد من الاختصاصات مثل الدكتور أحمد الملط، والدكتور يوسف جعفر، والدكتور كمال العشماوي.

وكان معالجي هو الدكتور العشماوي، الذي أخذ الأمر بعين الجد، وقال لي: الحمد لله الذي أتاح لنا كشف المرض قبل أن يستفحل، وطلب عددا من الإبر، فأحضرت من الخارج، ودفع ثمنها بعض الموسرين من الإخوان، وظللت آخذ إبرة لا أذكر كل يوم أو كل يومين. وما هي إلا مدة لم تطل، حتى بشرني الدكتور ـ جزاه الله خيرا ـ بأني شفيت تماما، وفي وقت قياسي، وقال لي: إن هذا المرض عادة يحتاج على الأقل إلى شهرين كاملين، مع الراحة التامة، والغذاء الجيد، بحيث يطلب من المريض أن يأكل في كل يوم فرخة!

وأوصاني أن أتابع الفحص بعد خروجي من المعتقل، حتى أطمئن تماما إلى كمال الشفاء واستقراره. وفعلا بعد الإفراج ذهبت إلى الدكتور فتحي قداح طبيب الصدر بالمحلة، وفحصني فحصا كاملا، وزادني اطمئنانا إلى أني سليم الصدر تماما. نسأل الله جل وعلا

سلامة الصدر من الأمراض المادية، ومن الأمراض المعنوية جميعا.

توعية المعتقلين

كان المعتقل أيام الملكية في جبل الطور، يعد فرصة للإخوان لتنمية إيمانهم بدعوتهم، وتقوية صلتهم بربهم، وتوثيق ترابطهم فيما بينهم، وتعميق ثقافتهم الإسلامية، حتى اعتبرنا معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان لسنة 1949م وأن نفقات السفر والإقامة على حساب الحكومة المصرية!

أما معتقل سنة 1954 - 1956 فكان شيئا آخر، فقد استفاد رجال الثورة من تجربة العهد السابق، ولهذا رأوا أن يحرموا الإخوان من أي فرصة للتجمع، ووضعوهم في زنازين مغلقة، وسحبوا منهم الكتب حتى لا يقرأوا، والمصاحف حتى لا يأنسوا بها، وفرضوا عليهم ألوانا من الأذى والتكدير الدائم، حتى يكرهوا أنفسهم، ويكرهوا دعوتهم التي جلبت عليهم ما جلبت.

ومع هذا كله لم يكفهم ذلك، فأرادوا أن يهيئوا للإخون لونا من (غسيل المخ) تستخدم فيه الأساليب العلمية، بعد ما جربوا الأساليب الوحشية. فخصصوا محاضرات لتوعية الإخوان، لمحاولة التأثير عليهم، وإقناعهم بتغيير أفكارهم، وإخراج هذا (التعصب) الأعمى! وهذا الهوس المجنون من صدورهم، وأن يعيشوا في المجتمع كما يعيش الناس.

وانتقوا لهذه التوعية المنشودة عددا من الأساتذة النفسيين والاجتماعيين والوعاظ الدينيين، ليلقوا بعض المحاضرات على الإخوان.

ولا زلت أذكر من علماء النفس الذين حاضرونا. أ. د. ملاك جرجس.

كما أذكر من الوعاظ فضيلة الشيخ محمد عثمان مفتش الوعظ، الذي كان يأتينا مرة أو مرتين في كل أسبوع، وكان رجلا عاقلا، يعلم من هم الذين يخاطبهم، فكان يبتعد عن الأمور الشائكة، والقضايا المحرجة، ويتناول في أحاديثه (الرقائق) المتفق عليها، والتي تنشرح بها الصدور، وتطمئن بها القلوب. وأذكر مما كان يستشهد به كثيرا هذين البيتين:

اللهُ قل، وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمالِ

فالكون دون الله ـ إن حققته ـ عدم على التفصيل والإجمال

يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: (قل: الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) الآية: والآية لا تدل على المعنى الذي يشير إلى وحدة الوجود كما يفهم من الشعر المذكور، وأنه لا يوجد سوى الله، إن أخذ الكلام على حقيقته، بل الآية لا بد أن تفهم في سياقها، فقد قال تعالى: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس؟ ... قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أي قل: الله هو الذي أنزل الكتاب النور الذي جاء به موسى فلا دلالة فيها على نفي ثنائية الوجود، بل إن كناك كونا ومكونا، وخالقا ومخلوقا.

وقد استمرت دروس الشيخ عثمان فترة ثم انقطع. ربما لأن التقارير عنه أثبتت أن دروسه لم تؤثر في تفكير الإخوان، وربما لغير ذلك.

الشيخ مختار الهايج

بعد هذه الأحداث الجسام، وضرب الإخوة الذين اجترأوا على دق باب الزنزانة لاستسقاء الماء ليشربوا، ثم ضرب الأخ الصبور البطل حلمي مؤمن وغير ذلك من الأحداث التي تراكمت، ظهرت بادرة غريبة من إدارة السجن لم تكن معهودة ولا متوقعة. فقد أراد باشجاويش السجن أمين السيد وأعوانه يتقربوا من الإخوان، ويعتذروا إليهم عما حدث في المدة الماضية، ويسألوهم العفو والصفح، فهم أهل للعفو والسماح، وأن يبدأوا معهم صفحة جديدة، وعفا الله عما سلف.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هذه البادرة كانت مقدمة لسياسة جديدة، يريدون أن يداووا بها بعض جراح نفوس الإخوان، حين بدأوا يفكرون في الإفراج عنهم بالتدريج. وقد قيل: أن هذا الانفتاح كان بناء على وساطة من الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية.

على كل حال نودي على الإخوان بعد أن فتحت الزنازين، ونزل الإخوان من الدورين الثاني والثالث، وانضموا إلى إخوانهم من نزلاء الدور الأول في ساحة السجن الفسيحة. وجلس الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وطلب من أحدهم أن يبتدئ هذا الجمع بتلاوة من القرآن الكريم، فقرأ أحد الإخوة آيات كريمة من سورة آل عمران مما نزل في محنة غزوة أحد، ابتداء من قول الله تعالى: (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا

وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا ومنكم ويعلم الصابرين...) إلى قوله تعالى: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) إلى قوله: (فآتهاهم الله ثواب الدنيا والآخرة والله يحب المحسنين) آل عمران:

وكانت هذه الآيات بردا وسلاما على قلوب الإخوان.

ثم طلب من الإخوان أن يتكلم واحد منهم، ليعلن عن عفو الإخوان عما أصابهم، وصفحهم عمن أساء إليهم، فتطوع بالكلام عنهم فضيلة الأخ الواعظ الجليل الشيخ مختار الهايج ـ وكان له من اسمه نصيب ـ قائلا بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله: إني لا يسعني إلا أن أزف خالص تهنئتي إلى جنود مصر البواسل حرس السجن على انتصاراتهم في معاركهم المتواصلة ضد نزلاء السجن من مواطنيهم الذين لم يقترفوا جرما إلا أن يقولوا: ربنا الله.. أهنئهم بهذه الانتصارات الساحقة التي حققوها وأخضعوا بها رقاب المسجونين، وأتمنى لهم من كل قلبي انتصارات مماثلة على اليهود المغتصبين في أرض فلسطين**!!**

وما كاد الشيخ مختار يتم كلمته حتى تكهرب الجو، وتطاير الشرر، وهيج الشيخ الهايج عش الدبابير، وعادت ريمة لعادتها القديمة، ورد الإخوان إلى الزنازين، وأخذ الشيخ الهايج إلى زنزانة انفرادية، عقوبة له على سخريته بالسجانين.

حتى أذن بالانفراج مرة أخرى. وقد قال الشاعر:

صلاة المغرب جماعة بالسجن

ومن الوقائع التي أذكرها ولا أنساها، ويذكرها معي كثير من الإخوة، ويذكرونني بها كلما لقوني: صلاة المغرب الوحيدة التي سمح لنا أن نؤديها كلنا جماعة في السجن الحربي، بعد أن بدأت الغيوم تتكشف، والأحوال تتحسن، وكان باكورة ذلك أن نودي علينا لنقيم الجماعة في ساحة السجن، ودوى الأذان في ساحة السجن: الله أكبر، الله أكبر، وتجمع كل الإخوان من أدوار السجن الثلاثة، ونحن لا نكاد نصدق ما يجري: أحلم هذا أم حقيقة؟

وقدمني الإخوان لأؤمهم في صلاة المغرب، واعترتني حالة من الرقة والخشوع لا أنسى حلاوتها، وتلوت القرآن بصوت مؤثر يكاد يهز أركان السجن الأربعة، قرأت في الركعتين الربع الأخير من سورة آل عمران: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) ومررت بالآيات التي تتضمن دعاء أولي الألباب (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار).

وكان من هذه الأدعية (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا

من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب).

كنت أشعر كأني لا أقف على الأرض، ولكني أحلق في أفق عال، وكنت كأنما أسمع رجفات قلوب الإخوان من خلفي، وأنا أتلو الآيات من خواتيم سورة آل عمران. وكأنما أجد في الآيات معاني جديدة ما كنت أجدها من قبل، حتى انتهيت إلى ختام السورة (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).

وقد وجدتني أقرأها هكذا

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).

وسلمت وسلم الإخوان، ووجدت الدموع على الخدود، لا أدري أهي دموع الخشية أم دموع الرحمة أم دموع الفرحة؟

يا سبحان الله، كيف أصبحت ساحة السجن التي طالما كانت ساحة للتعذيب والتكدير، والتي عوقبنا فيها ليلة المحاكمة المشهودة، والتي كم نصبت فيها (العروسة) لعقاب المتمردين والتي شهدنا فيها الضرب الوحشي للأخ حلمي مؤمن، والتي جمعت فيها المصاحف وحرقت، وغيرها وغيرها، كيف تحولت إلى جامع كبير لمثل هذه الصلاة التاريخية؟! لا نقول إلا: سبحان مغير الأحوال.

ووقف جنود السجن مشدوهين متأثرين من هذه الصلاة.

وطلب إليّ الإخوان بعد الصلاة أن ألقي كلمة، فاعتذرت، فلم تكن عندي رغبة في الكلام بعد هذه الصلاة. فتقد الأخ الأستاذ فريد عبد الخالق فقال: إنها والله فرصة تغتنم، وإنما لكل امرئ ما نوى. وألقى كلمة توجيهية، بعث بها الأمل في النفوس، وأن الفجر قريب، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

ولكن هذه الصلاة الحلوة التي قرت بها الأعين، واطمأنت بها القلوب، لم تتكرر بعد ذلك، فكانت هي الأولى والأخيرة، ويبدو أنهم شاهدوا بأعينهم أثر هذه الصلاة الجماعية في تثبيت الأفئدة، وشد العزائم، فلم يسمحوا لنا بصلاة أخرى على غرارها، حتى حين فتحت الزنازين، وأذن لنا بالاختلاط، والزيارات، عند بداية الإفراجات، سمحوا لنا بصلاة الجماعة داخل كل زنزانة، أو لا مانع أن يجتمع أكثر من أفراد زنزانة للصلاة، ولكن داخل الزنازين.

وظل الإخوة يذكرون هذه الصلاة بعد مرور السنين، ويذكرونني بها إذا لقوني.

أذكر أني أول ما لقيت الأخ يوسف ندا في سويسرا في السبعينيات قال لي: هل تذكر صلاة المغرب التي أممتنا فيها في السجن الحربي؟

قلت: وهل مثل هذه الصلاة تنسى؟ إني لم أشعر في حياتي بحلاوة صلاة تساوي أو تداني هذه الصلاة التي أحسست وتذوقت فيها قول رسولنا الحبيب: "وجعلت قرة عيني في الصلاة "!!

بين رمضانين

وصمنا رمضان آخر في السجن، ولكن ما أعظم الفرق بين الرمضانين! كان رمضان الأول في عهد شدة ومجاعة وتضييق في كل شيء، وجاء رمضان الآخر ونحن في حالة يسر وشبع وتوسعة في كل شيء.

لم نعرف في رمضان الماضي أكل (الخشاف) من الزبيب والتين، ولا شرب قمر الدين، وفي رمضان هذا كان لدى الإخوة الموسرين من هذا الكثير، وكانوا يجودون على إخوانهم الفقراء من أمثالنا، بل كانوا يقاسمونهم كل ما عندهم ولا يستأثرون عليهم بشيء.

كنا في رمضان الماضي نخاف أن نجهر في الزنازين بقراءة القرآن أو بصلاة التراويح، فهذا من الممنوعات، فأمسينا اليوم نتلو القرآن جهارا، ونصلي التراويح علنا، دون أن يلومنا أحد، فسبحان مغير الأحوال.

كان الإخوة يقدمونني لأصلي بهم في إحدى زنازين الركن، وهي عادة أوسع من غيرها، وكان يصلي ورائي عدد من الإخوة الكبار: عبد العزيز كامل، وتوفيق الشاوي، وفريد عبد الخالق، وأحمد الملط، وأحمد العسال، ويوسف توبة، وكامل سليم، والحاج عبد الحكيم شاهين، وآخرون لا أذكرهم.

السماح بزيارة أقارب المعتقلين لهم

ومما سمح به أخيرا للمعتقلين: زيارة أقاربهم لهم، وقبول الرسائل والطرود الواصلة من ذويهم إليهم، وكان هذا محظورا تماما.

وكان جل الذين انتفعوا بهذه الزيارات ـ وخصوصا في مناسبات معينة مثل عيد الفطر وعيد الأضحى، وما سمي عيد الأم في 21مارس ـ إخوان القاهرة والجيزة، فهم الذين علموا بهذا الإذن وأبلغ بعضهم بعضا بذلك.

أما أبناء الأقاليم، فقلما يعرفون بذلك إلا بعد أن يفوت الأوان.

وقد التقت في هذه الزيارات الوجوه بالوجوه، وتصافحت الأيدي، وتعانقت الأبدان، وذرفت الأعين الدموع، دموع الفرح باللقاء بعد الشوق والحرمان الطويل على نحو ما قال القائل:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه سيزورني فاستعرت أجفاني
غلب السرور علي حتى إنه من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين في فرح وفي أحزان

وفي أيام الزيارات حدثت مفاجآت مهذهلة، ومفارقات عجيبة، خليقة أن تفتت الأكباد، وتقطع نياط الفؤاد.

فكم من إخوة جاءوا ليزوروا أخاهم الذي اعتقل من بينهم فلم يجدوه، وكم من أم اختطف وحيدها من بين أحضانها، فلم تجد له أثرا، ولم تسمع عنه خبرا، ولم يجرؤ أحد أن يفضي إليها بسره، فقد خر شهيدا في أتون العذاب، ووري جسده التراب، وهذه الحالة هي التي عبرت عنها في قصيدتي: أم زائرة ولا مزور!

فرح اللقاء ببدرها الموعود عدت بعمر في الزمان مديد
ذاقت عذاب البعد والتشريد ممزوجة الخفقات بالتنهيد!

فرحا بلقيا ابن وضم حفيد   أولم يزل في القيد والتصفيد؟!

بالنفس! أسئلة بغير ردود!   يئست، فليس الصبر دون حدود

لم قد تأخر فارسي ووحيدي؟ أين الرجاء، الحلم؟ أين عمودي؟!

والدمع خير معبر وشهيد!   لا، لا! أعيدوا لي بني وليدي!

نبأ يزلزل ركن أي مشيد!   من بعد ليلة خطفه المشهود

بثبات أطواد وقلب أسود   فأبى إباء الفارس الصنديد

دنيا، ولم يحفل بهول وعيد   صنع الجبان الخائن الرعديد

بأكف سفاح وقلب حقود   متغنيا بشهادة التوحيد

قتلوه قتلة مؤمني الأخدود   وغدت تصيح بحسرة وشرود!

مدت إليك بقسوة وجحود!   في الناس غير الطاهر المحمود؟!

والبر عنك، لكن خير شهود! وعففت عن ورد لهم مورود؟!

لا للمجون ولا ابنة العنقود؟! لا نهج فرعون ولا نمرود؟!

كسرت جحافلها أمام يهود!   إلا بسعد تراثنا وسعيد!

تتلوه بالترتيل والتجويد من صائمين وركع وسجود

يوما لغير الواحد المعبود   نحو القوي ورفده المرفود

للأجنبي وماله الممدود حكموا، ولم يك حكمهم برشيد

قتل الألى قتلوك للتوحيد!   أبنائها في غلظة وكنود!

ما عاش عيش الفاجر العربيد!   أمسيت ترسف في دم وصديد

ففجعتني، لا كنت يوم العيد   ورجعت بالعبرات فوق خدودي

ووريت قبل اليوم بطن لحود! بزخارف العمران والتشييد!

أنيابها بملابس وبرود! ما أضيق الدنيا بدون شهيدي!

قدمت إلى السجن الكبير يهزها وقفت مع الزوار ترقت لحظة

هي لحظة اللقيا الحبيبة بعد ما طال انتظار الأم أصعب برهة

رأت النساء مزغردات حولها إلا فتاها! ياترى ما عاقه؟!

أم يا ترى يشكو السقام؟ فديته فرغ الفؤاد من التصبر، بعد ما

صاحت مزمجرة كنمرة غابة: ما بالكم لا تنطقون؟ هبلتموا!!

خرس الجميع سوى دموع أحبة صرخت، وقد وعت الحقيقة مرة

خرت من الإغماء، هد بناءهاقتل الفتى، والأم لا تدري به

كم عذبوه وهو يحتمل الأذى راموه معترفا بما لم يأته

لم يغره وعد بما منوه من فتكالبوا مثل السباع لنهشه

صبوا عليه عذابهم ونكالهم حتى قضى نحبا، وأسلم روحه

لم ينهزم، والله، بل هزم الألى رحمى الله وقد استردت وعيها

قتلوك يا ولدي! ألا شلت يد ما كان جرمك يا بني، ولم تكن

لو أنهم سألوا المكارم والتقى هل كان جرمك أن عزفت عن الخنا

هل كان جرمك أن تعيش لفكرة تدعو لنهج الله، نهج محمد

كم أرقتك هموم أمتك التي هام الشبيبة في سعاد، ولم تهم

عشقوا ملاهيهم، وعشقك مصحف ما كنت تصحب غير أرباب التقى

لم تحن رأسك للطغاة، ولم تدن   ووقفت في صف الضعيف، ولم تمل

لم ترض يوما أن تباع بضاعة   وأبيت تركع للجبابرة الألى

ورفعت بالتوحيد رأسك عاليايا ويل أرض تقتل الأطهار من

ويبيت فيها الفرد حرا آمنا   كم كنت آمل أن أراك وإن تكن

يا يوم عيد قد رجوت صباحهورجعت بالحسرات تأكل مهجتي

أضناني الثكل الحزين، فليتني   ما الأرض إلا غابة قد موهت

ما أهلها إلا وحوش غطيت   ضاقت علي الأرض وهي فسيحة

إعادة الكتب إلينا (قراءات مشتركة)

ومن دلائل الانفراج، وبشائر الإفراج: عودة الكتب التي كانوا قد صادروها منا، وقد فرحنا برجوعها إلينا كما تفرح الأم بوحيدها إذا عاد إليها بعد سفر وطول اغتراب. وشرعنا ننظم القراءة فيها، ويتبادلها بعضنا من بعض. وأذكر أننا قرأنا في تلك الفترة بعض الفصول من كتاب (نيل الأوطار) للشوكاني، وخصوصا في أبواب البيوع وما يتعلق بها، وكنت أقرأها أنا والأخ أحمد العسال، والأخ يوسف علي يوسف نوبة، الذي كان له وقفات وتعليقات جيدة من وجهة النظر الاقتصادية التي درسها، وقد عرفت في هذا أن تكامل الاختصاصات وتلاقحها في الدراسة يمكن أن يكون له ثمرات طيبة، تفيد الطرفين جميعا، بخلاف العزلة الثقافية، فإنها لا تثمر إلا الجمود والانغلاق.

دروس توجيهية

وفي فترة الحرية والبحبحة لم يضيعها الإخوان سدى، بل اجتهدوا أن يستغلوها استغلالا حسنا، ولا سيما بعد المدة الطويلة التي أرادوا أن يمحوا فيها معارفنا، وينسونا كل ما تعلمنا، حتى حرمونا من الكتب والمصاحف.

ولهذا نظم الإخوة بعض الدروس العلمية المنهجية للارتفاع بمستوى الإخوان الثقافي والعلمي، فكنت أشارك في هذه الدروس بإلقاء أضواء على علوم القرآن وضوابط فهمه وتفسيره، وأضواء أخرى على علوم الحديث أو علم مصطلح الحديث.

وكانت هذه الدروس تشمل الإخوان عموما، والشباب والطلبة خصوصا، وكان معظم الطلبة من الجامعات، ولكن كان بعضهم من المدارس أو المعاهد الثانوية، مثل الأخ سعد زين العابدين سلامة، الطالب بمدرسة طنطا الثانوية، وأحسبه كان أصغر طالب في المعتقل، ومثل الأخ عبد الشفوق الشحات من طلبة معهد دمياط الثانوي، وكان كلاهما من رواة قصيدتي النونية.

وكان الأخ وائل شاهين ـ شقيق الشهيد عمر شاهين ـ من الإخوة الحريصين على تنظيم هذه الدروس، وتحديد أوقاتها وموضوعاتها، وإحضار المستفيدين منها.

كما كنت أشرح للإخوان بعض المفاهيم الإسلامية، وخصوصا ما كان منها حول (الأصول العشرين) للإمام البنا، وكنت معنيا بها من قديم.

جلسات فقهية

كما طلب منا الإخوان: أن يجتمع الإخوة من علماء الشريعة ورجال الدعوة لمناقشة بعض القضايا الكبيرة والوصول إلى رأي فيها.

وكان من أولى القضايا التي بحثناها: قضية المرأة، لما فيها من إشكالات شتى، واختلافات كثيرة بين المضيقين والموسعين.

وكان مؤسس الجماعة الأستاذ البنا من المضيقين في قضية المرأة، ولكن الظروف الآن تغيرت، وهذا يقتضي منها اجتهادا جديدا.

ولم نكن نحن الشرعيين على نهج واحد، فمنا من يميل إلى التضييق، ويكاد يحبس المرأة في بيتها، لترعى زوجها، وتربي أطفالها.

وكان أكثر المشاركين من دعاة التوسعة، وبخاصة أخونا العالم البحاثة الحاج محمود عبية، الذي كان له اطلاع واسع على (المحلى) لابن حزم، كما كان شديد الإعجاب بآرائه، وهو ظاهري النزعة مثله، وقد تبنى آراءه في كثير من المسائل، وأضاف إليها اجتهادات من عنده، أحدثت ضجة في المعتقل، مثل قوله: إن تناول الدخان في الصيام لا يفطر، لأنه ليس أكلا ولا شربا، مع إجماع المسلمين في أقطار الأرض على أنه من المفطرات، لأنه من الشهوات المرغوبة، التي ينبغي للصائم أن يدعها من أجل الله " يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي". على أنه ينبغي أن يفطّر باعتباره معصية، والمعاصي تفطّر عند ابن حزم.

ومثل قوله: إن تناول حبة إسبرين للصائم ـ بدون ماء ـ لا يفطره، لأن هذا لا يعتبر أكلا لغة ولا عرفا.

وكان من حظ الحاج محمود عبية: أن ابن حزم في قضية المرأة كان تقدميا جدا، حتى إنه ذهب في كتابه (الفصل في الملل والنحل) أن المرأة تكون نبيه، واعتبر مريم وأم موسى نبيتين.

كما أجاز للمرأة أن تكون قاضية في كل المجالات، حتى في الحدود والجنايات، وأنها يمكن أن تتولى الولايات المختلفة، ما عدا الخلافة أو الإمامة العظمى، التي جاء في مثلها الحديث الصحيح " لن يفلح قوم ولوا أمراهم امراة ".

كما رأى ابن حزم أن المرأة مشروع لها أن تصلي الصلوات كلها في المسجد، وإذا طلبت ذلك لا يجوز لزوجها ولا لوليها أن يمنعها، كما في الحديث المتفق عليه " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ".

وضعف ابن حزم الحديث الذي يجعل صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، ضعفه من جهة السند، ومن جهة المعنى، إذ كيف ترك الرسول نساء الصحابة الذهاب إلى المسجد في الصلوات كلها حتى العشاء والفجر، وهو يعلم أن الصلاة في بيوتهن أفضل لهن.

ويرى ابن حزم إباحة كشف المرأة لوجهها وكفيها، ويذكر قول الله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) النور: قال: فلو كان ستر الوجه واجبا لقال: (وليضربن بخمرهن على وجوههن).

إلى غير ذلك من القضايا التي أشرت في بعض كتبي إلى أنها تصلح أن تكون أطروحة ماجستير في الدراسات الشرعية.

المهم أن ابن حزم كان معنا، ونحن نبحث قضية المرأة: مكانتها، وأثرها في البيت والمجتمع، ومرتبتها، ونشاطها الاجتماعي والسياسي.

وأعددنا بذلك ورقة جيدة تتضمن عدة أحكام وتوجيهات تتعلق بالمرأة، وقلنا: ينبغي أن يواصل الإخوة البحث في هذا الجانب ويوسعوه ويعمقوه، مؤيدا بالأدلة من الكتاب والسنة، وموثقا بأقوال الأئمة والعلماء الثقات، وقد بقيت هذه الورقة معي بعد الإفراج مدة من الزمن، ثم عدت عليها العوادي، فذهبت فيما ذهب من أوراق.

جلسات أدبية

وكان بجوار هذه الجلسات الفقهية جلسات أخرى أدبية، نتحدث فيها عن الأدب والأدباء، وعن الشعر والشعراء، ونتناول فيها الملح والطرائف الأدبية، ويلقي فيها الشعراء ما لديهم من قصائد جديدة، ولدتها أحداث الساعة، وأجواء المحنة.

وكان يشارك في هذه الجلسات عدد من الإخوان المهتمين بالأدب، منهم الأستاذ عبد العزيز كامل، والأستاذ فريد عبد الخالق، والأستاذ محمود الفوال، والأستاذ سعد غزال، والأستاذ عبد الحكيم شاهين، وغيرهم ممن لم أعد أذكره.

وكنت أنشدهم بعض ما أنشأته في السجن من قصائد، منها: النونية، ومنها قصيدة (السعادة). ومنها قصيدة (فلسفة الموت) التي ضاعت مني تماما.

وكان للأخ سعد غزال قصيدة نونية أيضا جميلة من بحر الرمل، أذكر منها بيتا واحدا يقول:

كيف يقضي الأمر فينا ضابط عسكري العقل مطموس الجبين؟

ولأول مرة أعرف أن الأستاذ فريدا يقول الشعر، وقد أنشدنا قصيدة قافية، أذكر عجز بيت منها تقول:

مناقشة أسباب المحنة

وكان هناك جلسات لمناقشة أسباب المحنة، وإن كانت قليلة جدا، فلم يتعود الإخوان أن يبحثوا في مثل ذلك. فهم يعتبرون أن أسباب المحنة ظلم الآخرين لهم واستكبارهم في الأرض، شأنهم شأن المؤمنين مع أصحاب الأخدود (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) البروج:

لذلك كان من غير المعتاد أن يناقش الإخوان بعد كل محنة تصيبهم: لماذا أصابتهم؟ وهل يتحملون أي جزء من المسؤولية عما حدث؟

هذا مع أن القرآن الكريم علمهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم، وذلك في تعقيب القرآن على ما وقع للمسلمين في أحد كيف فقدوا سبعين من رجالهم اتخذهم الله شهداء، في حين أصابوا في معركة بدر من قبل سبعين من صناديد قريش قتلى، وسبعين آخرين أسرى. وقال القرآن في ذلك: (أو لما أصابتكم مصيبة (في أحد) قد أصبتم مثليها (أي في بدر) قلتم: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم) آل عمران:

هكذا قال الله تعالى لصحابة محمد صلى الله عليه وسلم، وقائدهم رسول الله وقال في آية أخرى: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم، ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين) آل عمران:

لقد أشارت الآية إلى سبب ما أصابهم في أحد، وهو فشلهم وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم لتوجيه قائدهم رسول الله، وأن فيهم من أراد الدنيا وغلب عليه حب الغنيمة، ثم ذكر في النهاية أنه عفا عنهم، لأن هذا الخطأ والخلل لم يكن خطًا ثابتا في حياتهم، بل هو خلل عارض، ومثله يعفو الله تعالى عنه، كما قال تعالى في نفس السياق: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) آل عمران:

كنا نتناقش فيما أصاب الإخوان مع الأستاذ عبد العزيز كامل، الذي كشف لنا أن كثيرا مما نحسبه أمجادا لنا إنما ساقنا أعداؤنا إليه، وجرونا إليه جرا، ونحن لا ندري، مثل دخول حرب فلسطين.

كما ناقشنا في هذه القضية: محن الإخوان المتتابعة، وماذا وراءها؟ وهل هناك خلل أو لا؟ وكان يعز علينا نحن الإخوان أن نقر يوما بأن فينا قصورا أو تقصيرا، فنحن ـ في نظر أنفسنا ـ نمثل الكمال البشري، وهذا خطأ جوهري.

وكان الأخ فتحي عثمان من السباقين إلى النقد الذاتي، ودعوتننا إلى أن نسأل أنفسنا: لماذا؟ وما العلاج؟

وأذكر أني زرته في زنزانته في الدور الثاني، وكان من رفقائه في الزنزانة الأخ الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، وكان سؤاله: ما الذي تحتاج إليه جماعة الإخوان في المستقبل، والذي يجب أن نركز عليه؟ وأذكر أنا اتفقنا على وجوب الاهتمام بالجانب العلمي والفكري، وتعميقه في أفراد الجماعة الذين تغلب عليهم السطحية والعاطفية والتعميمية، وأن من الضروري أن تخطط الجماعة لمستقبلها، بناء على معرفة حاضرها، معرفة علمية قائمة على الإحصاء والأرقام والدراسة والمقارنة والتحليل. ومن ذلك: أن

تحدد مواقفها وعلاقتها بالآخرين ـ ومنهم الحكومة ـ تحديدا قائما على أسس شرعية وموضوعية، لا أن تترك الأمور تسيرها عواطف الرضا أو الغضب، وردود الأفعال. وهذا لا يعني إغفال الجانب الرباني في التربية، فهو ضروري للدعوة، وهو الذي يحقق شعارها الأول: الله غايتنا.

عبد العزيز كامل

وبالنسبة لتكرر ذكر الأستاذ عبد العزيز كامل، أولا أن أقف عنده وقفة، رحمه الله.

عرفت عبد العزيز كامل أول ما عرفته من قراءتي لمقالاته في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، وكنت من المعجبين بهذه المقالات، والمداومين لقراءتها، هي ومقالة الشيخ الغزالي، وإن كان لكل منهما طابعة المتميز، ومذاقه الخاص.

فقد كان الشيخ الغزالي يكتب ـ عادة ـ للمسلمين عامة، وكان عبد العزيز كامل يكتب للإخوان خاصة، بل كثيرا ما يكتب للإخوان العاملين منهم.

كان الغزالي يركز على التوعية العامة، وكامل يركز على التربية الخاصة، بغرس الجانب الرباني في تكوين الشخصية المسلمة، وكانت له سلسلة مقالات تحت عنوان: (كونوا ربانيين). كما كتب سلسلة مقالات عن (البناء والهدم في الدعوات) وعن (المحن في الدعوات) كان لها تأثيرها في إضاءة العقول بالمعرفة، وإنارة القلوب بالإيمان.

والعجيب أن هذه المقالات التي كتبها عبد العزيز كامل لعدة سنين لم يسع أحد لجمعها ونشرها، ليستفيد الناس منها، فالأفكار لا تموت بموت أصحابها. بل يموت العلماء وتبقى آثارهم حية.

وعندما قدر لي أن ألتقي بالأستاذ عبد العزيز ازداد إعجابي به، وحبي له، وقد كان أول لقاء لي به حينما زارنا في طنطا قبل حل الإخوان بقليل وألقى محاضرة مؤثرة في دار الإخوان بطنطا، وكان في ذلك الوقت معلما بمعهد شبين الكوم العالي للتربية، ولم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد.

ثم زادت معرفتي به، حين لقيته في معتقل الطور، واستمعنا بشغف إلى أحاديثه العميقة، وكنا نسمع من إخوان القاهرة: أن الأستاذ البنا كان يعدّه ليكون (المرشد) من بعده. وبعد الإفراج عن الإخوان، زرته أكثر من مرة في بيته أنا والأخ أحمد العسال. وتوثقت هذه الصلة أكثر حين كان مسؤولا عن (قسم الأسر) بالمركز العام للإخوان، وقد اجتهد أن يرقى بهذا القسم، وأن يقيمه على دعائم راسخة من العلم الشرعي، والثقافة التربوية، وكان معنيا بالتأصيل أكثر من اهتمامه بالتفريع، ولا سيما فكرة المحاسبة للنفس أو النقد الذاتي للجماعة، فإن الله لم يجعل العصمة إلا لمجموع الأمة. أما أي جماعة فيمكن أن تخطئ، كما يمكن أن تصيب. وبدأ بنشر سلسلة تنويرية للإخوان سماها: (نحو جيل مسلم) لا تستنكف أن تضمن النقد لبعض للأفكار، وبعض السلوكيات السائدة في الجماعة.

ثم توثقت العلاقة أكثر حين جمعنا اسجن الحربي، والمحن بطبيعتها تجمع ولا تفرق، وبعد خروجنا من السجن كنت أتردد عليه أنا وأخي العسال، للاقتباس منه، والاقتطاف من ثمار معرفته وخبرته.

وهذا الاتصال به كان سببا في اعقتالي أنا والعسال في صيف سنة 1962 بعد إعارتنا إلى دولة قطر من الأزهر، وبعد وصولنا من قطر إلى مصر بعد عدة أيام، ولم نعرف سبب اعتقالنا إلا بعد الإفراج عنا، فقد كان عبد العزيز كامل وحسن عباس زكي وعمر مرعي وآخرون متهمين مع بعض الضباط في الجيش المصري بعمل انقلاب ضد عبد الناصر. وأننا ـ باعتبارنا في الخليج ـ كنا همزة الوصل لتمويل هذا الانقلاب المزعوم الذي لم نعلم عنه شيئا إلا بعد خروجنا من سجن المخابرات! مع أني لم يكن لي في الخليج إلا بضعة أشهر.

ومن عرف عبد العزيز كامل، واقترب منه: وجده من أوسع الناس ثقافة، فرغم أنه خريج الجامعة المصرية من قسم الجغرافيا بكلية الآداب، تجد ثقافته العربية والإسلامية مؤسسة تأسيسا قويا، وقد نشأ في الإسكندرية قريبا من جماعة أنصار السنة المحمدية، فاستفاد من مصادرها واهتماماتها السلفية، وتعرف على مدرسة ابن تيمية وابن القيم، كما كان على اطلاع على الفكر الغربي ومدارسه، وعني كذلك بالفكر التربوي وفلسفته وأصوله النظرية، وتطبيقاته العملية.

وكان كثير من الإخوان يرشحون الأستاذ عبد العزيز كامل، ليكون خليفة للمرشد العام الأول، الإمام حسن البنا، لما رأوا فيه من مواهب وفضائل، ربنا لا تتوافر في غيره، ولما رأوا قربه من الأستاذ البنا، بل قيل: إن الأستاذ البنا نفسه كان يرشحه لهذا المنصب في وقت من الأوقات.

وكان آخرون يعيبون على الأستاذ عبد العزيز: الغموض في موقفه من بعض القضايا الكبرى داخل الجماعة، ومحاولته أن يمسك العصا من الوسط، وأن يرضي جميع الأطراف، وربما كان هذا

ناشئا عن خلق الرفق واللين عنده، فهو لا يحسم الأمر، حيث ينبغي أن يحسم، ولا يعلن موقفه الصريح حين ينبغي أن يعلن.

وبعد ذلك غير أكثر الإخوان موقفهم منه، حين انضم إلى ركب الثورة، وقرر أن يسلك سبيل التعاون معهم لا المعارضة لهم. وقد عرفت من الأستاذ محمد فريد عبد الخالق أنه أخبره في أواخر أيامه في السجن الحربي: أنه سيعمل وحده بعيدا عن الإخوان، وكلفه أن يبلغ ذلك إلى الإخوان، وأنه استخار الله في ذلك وصمم عليه، ويبدو من هذا: أنه رأى أن يغير خطه بعد خروجه من السجن، وأنه لا فائدة من الصراع مع الثورة، وأن العمل معهم أجدى من الصراع ضدهم.

وكان هذا اجتهادا منه رحمه الله، رضيه منه رجال الثورة، وعين على أساسه وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر، ثم نائبا لرئيس الوزراء لهذه الشؤون الدينية. ولم يرض ذلك منه جمهور الإخوان، واعتبروه قد خان الدعوة، التي نشأ فيها، وسار في ركاب أعدائها، وأنه قد أحبط عمله، وضيع تاريخه، وختم حياته خاتمة سوء، وإنما الأعمال بالخواتيم.

والإخوان بهذا قساة في حكمهم على إخوانهم الذين يختلفون معهم، كما ذكرنا من قبل قسوتهم على صالح عشماوي والشيخ الغزالي، ورأيي أن الناس تتفاوت طاقاتهم في احتمال البلاء والصبر عليه، وهذا أمر مشاهد ومتفق عليه، وأن من ضعف احتماله عن السير في الطريق إلى نهايته، فمن حقه أن يستريح ويريح، ولا يكلف نفسه ما لا تطيق. وفي الحديث الشريف: " لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يحملها من البلاء ما لا تطيق" . والقرآن يقول: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) البقرة: 286.

والعمل الجماعي لخدمة الإسلام يقوم على الإرادة الطوعية الاختيارية، وهي منبية على اقتناع الإنسان بأهمية هذا العمل وقدرته على الإسهام فيه، فإذا تغير هذا الاقتناع، ورأى المرء المسلم أن وجوده في العمل الجماعي غير نافع له، بل ربما أضر به، أو أنه لم يعد قادرا على الإسهام فيه، فلا جناح عليه أن يعمل بما يقدر عليه من وسائل، وفقا لقوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) التغابن: وقوله عليه الصلاة والسلام: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ".

والأجدر بالمسلم أن يحسن الظن بالمسلمين عامة، ولا يظن بهم السوء، ويحمل تصرفاتهم على الوجه الحسن ما استطاع، فقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) الحجرات: وقال عليه الصلاة والسلام: " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " متفق عليه.

وهذا في المسلمين عامة، فكيف بإخوانك الذين عرفتهم وخبرتهم، ولم تعلم عنهم طوال تاريخهم إلا خيرا، فهم أولى بحسن ظنك بلا ريب، وقد قال بعض السلف: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرا آخر لا أعرفه! والمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق يبحث عن العثرات.

لا نملك إلا أن ندعو للأخ الكبير الدكتور عبد العزيز كالم ـ وإن اختلفنا معه في مواقفه الأخيرة ـ أن يغفر الله له ويرحمه ويتقبله في الصالحين من عباده، ويجزيه خيرا عما قدم لدينه وأمته، وألا يحرمه أجر المجتهد المخطئ فيما أخطأ فيه من مواقف، ويجعلنا وإياه من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حرب الله هم المفلحون.

تحول الذئب الكاسر إلى حمل وديع

وفي الأشهر الأخيرة لنا في السجن الحربي رأينا عجبا، رأينا حمزة البسيوني المتكبر الجبار، الذي كان يتحدى الله جل جلاله فوق عرشه، يحاول التودد إلى الإخوان، والتقرب منه، والظهور بمظهر الحمل الوديع، وهو الذي كان يحمل وجه خنزير، وقلب وحش، وأنياب كلب عقور.

فليت شعري ما هذه الوداعة التي هبطت فجأة عليه؟ وما هذا اللطف الذي يبديه لنا حين يمر يوما لزيارتنا؟ وكيف تحول الذئب الكاسر إلى هرٍّ أليف؟ وما تفسير ذلك يا أولي الألباب؟

يبدو أن حمزة البسيوني حين شعر بأن الأزمة قد بدأت تنفرج، وأن الإفراج عن المعتقلين قد بات وشيكا، وأن هذا الحصن الذي يختبئ فيه لن يدوم له، وأن دوام الحال من المحال، أن الليل مهما يطل فلا بد له من قمر، وكان يخشى هو هذا الفجر أن تشرق أنواره، وأن يزول الظلام الذي يحتمي به، ويختفي في مسوحه السوداء.

كان البسيوني يخاف مما اقترفت يداه من مظالم، وما ارتكبه وجنوده من مآثم، أن يحل به القصاص على أيدي من ظلمهم من الإخوان، ولا يلوم أحد المظلوم إذا اقتص من ظالمه، لذا حاول أن يسترضي الإخوان ليسامحوه ويعفوا عنه، ولا يفكروا في الانتقام منه.

ونسي البسيوني هنا أمورا هامة كان يجب أن يعلمها أو يتعلمها:

الأول: أن الإخوان لم يفكروا يوما أن ينتقموا من ظالميهم، فإنهم وهبوا ما أصابهم لله وفي سبيله، واحتسبوه عند الله، راجين منه تعالى أن يجعله كفارة لسيئاتهم، وزيادة في حسناتهم، ورفعة لدرجاتهم.

وقد أصيب الإخوان في عهد الملكية بما أصيبوا، فلم يثأروا من أحد، وتركوا ثأرهم للحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

الثاني: أن الإخوان لو عفوا وصفحوا في حق أنفسهم باعتبارهم أفرادا، وتنازلوا عن حقوقهم الفردية، فأين حق الله تعالى، وحق الدعوة، وحق الإسلام؟ ومن يملك أن يتنازل عن هذه الحقوق؟ وقد تطاول البسيوني على الله الواحد القهار، وعلى دينه وعلى دعوته.

الثالث: أن الإخوان قد اعتادوا ألا ينتقموا لأنفسهم، وإنما يدعون الانتقام للرب الأعلى الذي لا يظلم أحدا، ولا يحابي أحدا، وهو يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) هود:

ولقد ترك الإخوان البسيوني لسلطان القدر الأعلى، فماذا فعل به؟

لقد قتل شر قتلة بغير أيدي الإخوان. كان يسوق سيارته من الإسكندرية إلى القاهرة، وفي جنح الليل دخلت سيارته في سيارة كبيرة أمامها تحمل أسياخا من الحديد، فمزقت الرجل الجبار شر ممزق، وقطعت جسده أشلاء، وكان ذلك أمام قرية من قرى المنوفية، فلما عرف الناس صاحب السيارة أمطروه بلعناتهم (إن الله عزيز ذو انتقام).

آخر فوج يغادر السجن الحربي

ظلت أفواج الإفراج من السجن الحربي تتوالى، في كل أسبوعين يغادر فوج السجن الحربي، لا إلى قضاء الحرية مباشرة، ولكن إلى سجن آخر هو (سجن القلعة) الذي يقضي فيه المغادرون أسبوعين، قبل الإفراج النهائي عنه.

وسر ذلك: أن السجن الحربي يتبع الجيش ووزارة الحربية، أما سجن القلعة فهو تابع لوزارة الداخلية.. ولهذا أرادت الداخلية وجهاز (المباحث العامة) المسؤولة عن الأمن السياسي أو أمن الدولة، ويدخل في اختصاصها قضية الإخوان: أن تضع المفرج عنهم من المعتقلين تحت رقابتها فترة من الزمن، تشعرهم بأنها هي التي ستتولى زمام أمرهم فيما بعد، وتقوم بملاحقتهم في بيوتهم وأعمالهم، وتراقب كل تحركاتهم، وتحصي عليهم أنفاسهم إن استطاعت.

ومن هنا فتحت لكل معتقل ملفا، ووضعت فيه ما شاء من المعلومات، واستكملت بالأسئلة كل ما ينقصها.

وكان سجن القلعة سجنا قديما كريها ليس فيه من الشمس والهواء والفسحة خارج الزنازين، ما في السجن الحربي.

ولهذا كان أيام القلعة أياما كئيبة، هونها علينا علمنا بأن وراءها الإفراج المرتجى، كلنا نقول ما قال العرب من قديم: إن مع اليوم غدا، وإن غدا لناظره قريب.

وكنا نحن آخر مجموعة تغادر السجن الحربي في أوائل شهر يونيو (حزيران) 1956م، وبقينا في سجن القلعة أسبوعين، تم الإفراج عنا ـ على ما أذكر ـ يوم 16 يونيو 1956م.

ونقلنا من القاهرة إلى طنطا، ومنها إلى المحلة الكبرى، ومباحثها العامة، التي تسلمنا أولا، وبعد أن أخذ علينا تفتيش المباحث التعهد اللازم بأن أبتعد عن كل نشاط سياسي، فكوا أسري، وأطلقوا سراحي، وكان بعض الأهل والأقارب ينتظرونني، فانطلقت معهم إلى القرية، حامدا الله تعالى على ما حدث لي خلال تلك المدة، والمطلوب من المسلم أن يحمد الله في السراء والضراء، والنعماء

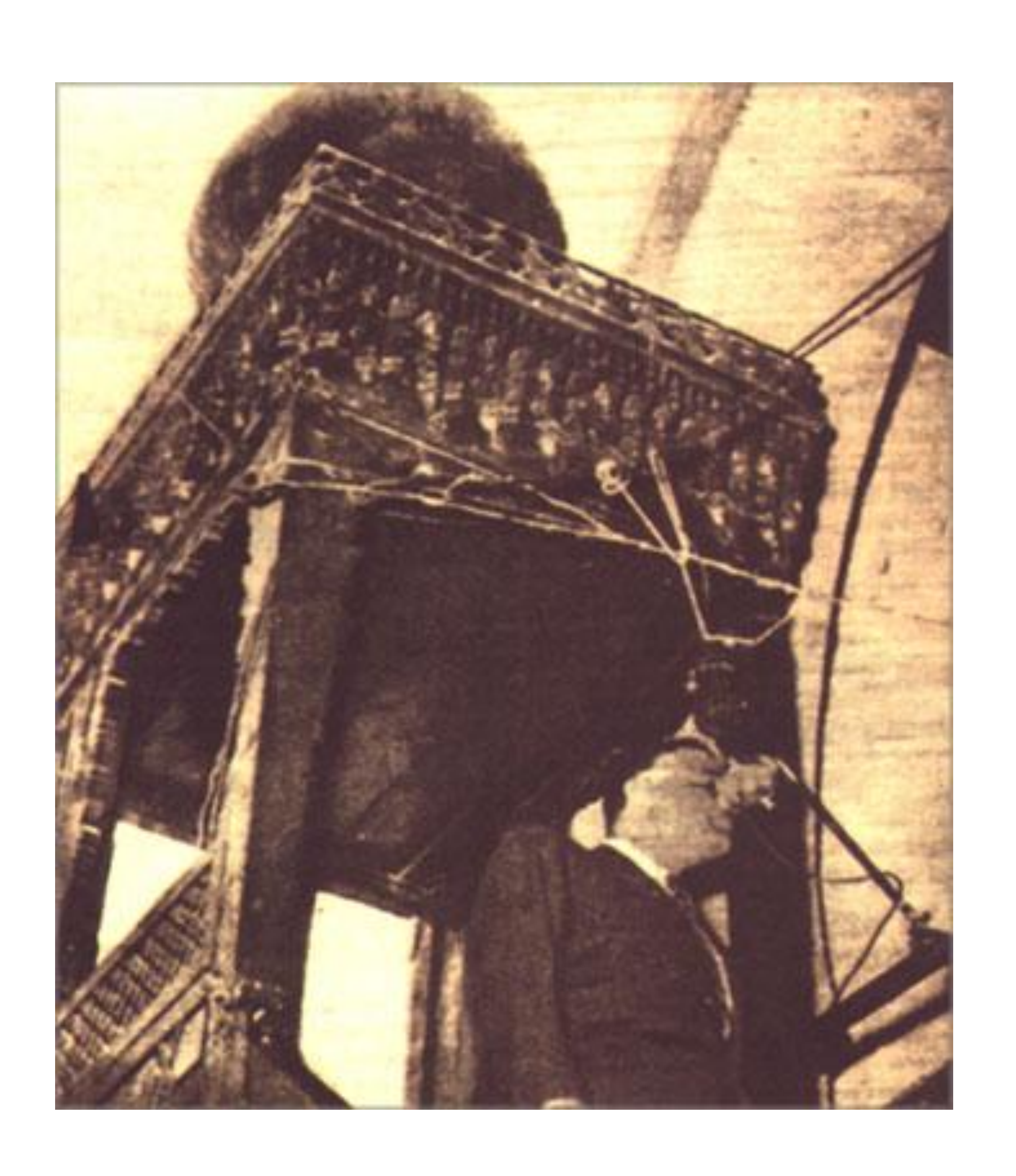
والبأساء، وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ".

لاحظ خالي رحمه الله أني لم أكن منشرحا ومنطلقا، مثل انشراحي وانطلاقي، حينا أفرج عني سنة 1949م، وسألني عن ذلك، فقلت له: هناك فرق كبير بين الإفراجين: في الإفراج الأول كانت الحكومة التي اعتقلتنا قد سقطت وذهبت مشيعة باللعنات. أما في هذا الإفراج فلا تزال الحكومة التي اعتقلتنا باقية ومتمكنة، ولن تدعنا في حالنا. ولكن الله أكبر منهم، وهو من ورائهم محيط (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) الأنفال: .

على كل حال، بخروجنا من السجن الحربي، انتهت مرحلة أليمة مريرة من حياتي، وإن كانت آثارها ستظل غائرة في الجسم وفي النفس إلى مد لا يعلمه إلا الله..

على أن من رحمة الله بالإنسان أنه رزقه نعمة النسيان للمصائب والآلام الماضية، واختلاف النهار والليل ينسي كما قال شوقي، كما منحه نعمة الأمل والرجاء في الغد، وقال له في كتابه (فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا) ولن يغلب عسر يسرين.وكما قال ابن مسعود: لو دخل العسر جحرا لتبعه اليسر حيث كان.

وعلى هذا الأمل في فضل الله ورحمته نعيش معتصمين بالله، متوكلين عليه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) الطلاق: 3.



فترة ما بعد الاعتقال

بعد صدور قرار الإفراج عنا ـ آخر فوج كان في السجن الحربي ـ وخروجنا من سجن القلعة، آخر محطة في اعتقالنا، نقل كل منا إلى بلده، فمن كان من أهل القاهرة سلم إلى مباحث القاهرة، ومن كان من أهل الأقاليم في الوجه البحري أو الصعيد، نقل إلى بلده، وتتسلمه المباحث العامة في هذا البلد.

ونظرا لأن الذي تسلمني من منزل خالتي في طنطا، وسلمني إلى السجن الحربي هو: تفتيش مباحث المحلة الكبرى، فقد سلمت إلى

طنطا أولا، ومنها إلى مباحث المحلة، ليؤخذ علينا التعهد اللازم بأن لا نمارس نشاطا سياسيا، ولم يكن محمد شديد مفتش مباحث المحلة موجودا ربما كان في إجازة، فأراحني الله من رؤية وجهه.

وفرغت من إجراءات المباحث، وكان بعض الأقارب ينتظرونني، فذهبت إلى قريتنا (صفط تراب) التي استقبلتني بالفرحة من الرجال، والزغاريد من النساء، وكان الناس ينظرون إليَّ كأنما ولدت من جديد. ألسنا راجعين من السجن الحربي، الذي قيل فيه: الذاهب إليه مفقود، والراجع منه مولود؟

وبقيت أياما في القرية، كل يوم في بيت من بيوت الأقارب والأحباب الذين أولموا لي كل يوم بما لذ وطاب، من الطعام والشراب، كأنما يريدون أن يعوضوني عن حرمان مدة الاعتقال.

معارك ـ أو رحلات بحث ـ يتحتم عليّ خوضها

وكان علي في تلك الفترة أن أخوض عدة معارك ضرورية لحياتي ومستقبلي، لا يسعني أن أدعها، ولعل تسميتها (رحلات بحث) أولى من تسميتها (معارك). فنحن في حاجة إلى أن نغير (لغة الصراع) إلى (لغة المسالمة).

وكانت الرحلة الأولى: رحلة البحث عن الدراسات العليا، فما ينبغي لمثلي أن يكتفى بالشهادة العالية وتخصص التدريس، وهو قادر على أن يرتقي إلى ما هو أعلى منها، وقد قال أبو الطيب:

ولم أر في عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام

وينبغي أن يكون المسلم طامحا إلى المعالي أبدا، ولا يرضى بالدون، وفي الحديث الصحيح: "إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس الأعلى".

ويقول المتنبي أيضا:

إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجـوم

فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم

وإن كان هناك رجال يعشقون المال والثروة، وآخرون يعشقون الجاه والمنصب، فأنا رجل أعشق العلم والفكر.

ربما يقال: ولماذا لا تحصّل العلم عن طريق القراءة الخاصة والاطلاع؟

وأنا أقول: لا بد للإنسان من القراءة الخاصة طوال حياته، ولكن الدراسة المنهجية مطلوبة أيضا لمن تيسرت له، لتعينه على تنظيم قراءته وتركيزها.

وكان عليّ رحلة أخرى تعتبر من (الضروريات) كما يقول الأصوليون في تقسيم المصالح التي جاء بها الشرع إلى ضروريات وحاجيات وتحسينات.

إنها رحلة البحث عن عمل أتعيش منه، فالله تعالى يقول: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) الأنبياء: وقال عز شأنه: (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) الفرقان:

وما دام الإنسان جسدا يأكل الطعام، فلا بد من السعي لإشباعه.

وإذا تم مقصود هذه الرحلة، فلا بد من رحلة بحث أخرى، وهي رحلة البحث عن بنت الحلال.

وهذا اقتضاني ألا أمكث في القرية طويلا، وإن كان المكث فيها مريحا ولذيذا، وبعيدا عن ضوضاء المدينة ومشكلاتها، فالإقامة فيها إقامة بين أهل وأقارب تحبهم ويحبونك.

لهذا توكلت على الله تعالى، وعدت إلى القاهرة، لأبحث فيها ـ أول ما أبحث ـ عن مسكن يؤويني، وإن لم يكن معي من المال ما أستأجر به هذا السكن، ولكن الثقة بالله قوية (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

وقد عشت فترة مع بعض إخواني وتلاميذي من أبناء المحلة: الأخ مدحت البسيوني وإخوانه وقد كانوا يسكنون في شبرا، فقد نزلت ضيفا عليهم حتى أجد السكن الملائم، وقد وجدته في حدائق شبرا، شقة في البلكونة الثالثة، ثلاث حجرات نوم وصالة، بها حجرة بحرية، تطل على ميدان.

وقد استأجرتها بمبلغ ستة جنيهات، ثم خفضت بعد، على أن يسكن معي فيها أخي العسال، الذي لم يسكن في شبرا من قبل، إذ كان يسكن بالقرب من كلية الشريعة بالدَّراسة.

مساءلة من المباحث حول النونية

وبعد نحو شهرين أو ثلاثة من خروجنا من المعتقل، استدعيت من المباحث العامة، والاستدعاء من المباحث العامة لا يحمل وراءه خيرا في العادة، ولذا كنا نتوقع الشر أبدا من هؤلاء كما عودونا،

وصدق الله إذ يقول: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) الأعراف:

لهذا حين استدعوني لم أملك إلا أن أقول: يا رب سلم.

وذهبت إلى وزارة الداخلية في (لاظوغلي) وهناك أوصلوني إلى إدارة المباحث العامة، وإلى الضابط المسؤول عن الإخوان، والمعروف لهم، وهو: أحمد صالح داود، والحق أنه كان رقيقا معي، وقابلني مقابلة فيها كثير من اللطف، وقال لي: لقد جاءتنا تقارير عنك تقول: إنك ألفت في السجن الحربي قصيدة طويلة تهاجم فيها الثورة، وتحرض عليها، وكنت تلقيها على الإخوان، وقد حفظوها أو حفظها الكثيرون منهم، وأن هذه القصيدة بمثابة (منشور ثوري) ضد الرئيس عبد الناصر ورجال الثورة، فما قولك في هذا يا شيخ يوسف؟

قلت له: وهل يعقل مثل هذا الكلام؟ وهل كان أمامنا في السجن الحربي فرصة لقول الشعر؟ وهل كان معنا أوراق أو أقلام نكتب بها وفيها هذا الشعر؟

إن أي شاعر ينشئ شعرا: يحتاج إلى قرطاس وقلم، حتى يقيد خواطره، قبل أن تتبخر، فكيف إذا كانت قصيدة طويلة كما تصفها؟ وأنت تعلم ماذا كانت عليه حالنا في السجن الحربي.

قال: لعل هذا كان في فترة البحبحة الأخيرة!

قلت له: هذه الفترة كنا فيها في غاية الاسترواح والانبساط، ولا توجد حوافز لأي شاعر في مثل هذه الحالة أن يكتب شعرا من النوع الذي تتحدث عنه.

قال: يعني: أنفي حدوث ذلك.

قلت له: انف، ولا حرج عليك.

وخرجت من عنده، وأنا أحمد الله على السلامة، ولكني ساءلت نفسي: هل ما رددت به على ضابط المباحث جائز شرعا أوْ لا؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم رخص في الكذب في مواضع معينة، لضرورات وحاجات خاصة، ومنها: الكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة.

ونحن في حالة أشبه ما نكون بحالة الحرب مع رجال الثورة، وإن كانت حربا من جانب واحد، فهم الذين يحاربوننا ويطاردوننا في كل مكان.

على أني لم أستعمل الكذب صراحة في ردي، ولكني استخدمت المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. فكل ردي كان بصيغة الاستفهام: هل يعقل كذا؟ وهل كان معنا ورق وقلم... الخ؟

وماذا يصنع الإنسان أمام هؤلاء الجبابرة المستكبرين إلا أن يلوذ بالإنكار؟ فإن كنت معذورا، فالحمد لله، وإن كنت مخطئا، فأستغفر الله.

وأود أن أقول هنا: إن النونية بدأت تنتشر بين المهتمين بهذا اللون من الشعر، والذي نشرها بعض الإخوة من رواة القصيدة، الذين أفرج عنهم، وكانوا يروّونها لمن يثقون به. حتى إن الأخ الصديق، الشاعر الأديب، ابن دار العلوم: عبد الحفيظ صقر، أخبرني أن الشاعر الذي ذاع صيته في الآفاق هاشم الرفاعي، وكان زميلا له، وقريبا منه: كان يحفظ كثيرا من أبياتها ويرددها. وممن كانوا يحفظونها ويستشهدون بها خطبهم من الخطباء المرموقين قبل نشرها في ديواني (نفحات ولفحات): الخطيب المفوه: الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله.

تأميم شركة قناة السويس

وكان أهم حدث وقع في هذه الفترة من صيف 1956م وهز أركان العالم هو: إعلان الرئيس عبد الناصر ـ في 23 يوليو ـ تأميم شركة قناة السويس، والاستيلاء على كل أملاكها، والبدء في تسيير قناة السويس بمرشدين مصريين بدل الفرنسيين والإنجليز وغيرهم، الذين تخلوا في الحال عن معاونة السفن وإرشادها، ولم يتعاون مع المصريين في ذلك غير اليونانيين.

لقد شد هذا الإعلان انتباه الشرق والغرب، وصفق المصريون والعرب طويلا لعبد الناصر، وكسب تأييدا ساحقا لموقفه هذا الشجاع، حتى الإخوان الذين خرجوا من المعتقلات منذ أسابيع قليلة، والذين لا يزال بعضهم قابعا في سجون الواحات وغيرها، أيدوا عبد الناصر.

وكنت أنا ممن أيده بصدق. وقد علمنا الله أن نكون عدولا حتى مع خصومنا، كما قال تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) المائدة:

وباتت مصر ـ وبات العرب معها ـ ينتظرون: ماذا سيفعل الغرب ممثلا في بريطانيا وفرنسا في مواجهة عبد الناصر؟

هذا ما ستكشف عنه الأيام المقبلة، وإن مع اليوم غدا، وإن غدا لناظره قريب.

رحلة البحث عن الدراسات العليا

كان من مطالبنا ـ نحن شباب الأزهر ـ ونحن طلاب في المعاهد الثانوية: أن يعاد فتح باب الدراسات العليا لطلاب الأزهر، ليجد المتفوقون والنوابغ فيها ما يحقق آمالهم، ويرضي طموحهم المتوثب، فليسوا أقل من غيرهم من زملائهم في الجامعات المصرية الأخرى من جامعات الدولة، مثل جامعتي القاهرة والإسكندرية.

وقد ازداد إصرارنا على هذا المطلب بعد أن انتظمنا في الدراسات الجامعية، وفي تخصص التدريس.

وقد كان الأزهر فتح باب هذه الدراسات من قديم أيام مشيخة الإمام المصلح الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، الذي ترك عهده بصمات في حياة الأزهر، وفي تطوير قانون الأحوال الشخصية.

فقد سنَّ نظام (تخصص المادة) في كليات الأزهر الثلاث: أصول الدين والشريعة واللغة العربية. وكانت الدراسة كلها مرحلة واحدة، يدرس الطالب دراسة منهجية على يد شيوخه، ثم يعد رسالة في موضوع من موضوعات التخصص يختاره، وتقره عليه الكلية.

وكان في كلية أصول الدين ثلاث شعب للتخصص: شعبة القرآن والسنة أو التفسير والحديث، وشعبة العقيدة والفلسفة وعلم الكلام، وشعبة التاريخ الإسلامي.

وكان في كلية الشريعة شعبتان: شعبة للفقه، وشعبة لأصول الفقه.

كما كان في كلية اللغة العربية ـ على ما أذكر ـ شعبتان: شعبة للأدب والنقد، وشعبة لعلوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة.

وكان الطالب يحصل بعد نجاحه على شهادة (العالمية من درجة أستاذ) أو (الأستاذية).

وكان قانون الأزهر يحتم أن يكون كل أساتذة الكليات في المستقبل من خريجي تخصص المادة، وأن يكون شيوخ المعاهد منها.

ودخل عدد كبير من أبناء الأزهر في كل الكليات هذا التخصص، وحصلوا على (الأستاذية) منها، بدرجات متفاوتة، بين الامتياز وما دونه.

ولكن للأسف لم يطبق معهم الأزهر ما قرره لهم القانون، فرأينا كثيرا منهم يعينون في المعاهد الدينية، وقد درس لنا بعضهم في معهد طنطا.

وهذا ما جعل الأزهر يوقف تخصص المادة، إذ أصبح خريجوه أكثر من الحاجة، ووقفت معه مسيرة الدراسات العليا تلك السنين الطويلة. وهو ما جعلنا نطلب ونلح في طلبنا: أن يعاد فتحها من جديد، تسوية بين أبناء الوطن الواحد.

وشاء الله ألا يستجاب لطلبنا، ويعاد فتح الدراسات العليا من جديد، إلا ونحن وراء الأسوار، في السجن الحربي. فقد افتتحت منذ بداية السنة الدراسية 1955، 1956م، فلما خرجنا في النصف الثاني من شهر يونيو سنة 1956، كان أول ما شغلني هو قضية الدراسات العليا، فما كدت أقضي أياما في القرية للسلام على الأهل والأقارب، حتى أسرعت الرحيل إلى القاهرة، لأبحث في إمكان لحاقي بركب الدارسين في تخصص المادة، وهل يمكن أن يسامحوني في تأخر التقديم نظرا لظروف الاعتقال؟

وكان عميد كلية أصول الدين الفقيه العلامة الشيخ محمد علي السايس رحمه الله، فذهبت إليه، ودخلت عليه، وعرفته بنفسي،

وشغفي من قديم بالدراسة العليا، وأني أستطيع أن ألتحق الآن بإخواني في السنة الأولى، وأن أدخل معهم الامتحان المقرر في سبتمبر أو أكتوبر. حتى لا تضيع عليّ سنة لا ذنب لي فيها.

فقال الشيخ برقة ولطف: يعلم الله يا ابني أني متعاطف معك غاية التعاطف، ولو كان الأمر بيدي لقبلتك منذ الساعة، ولكنا تحكمنا أنظمة حديدية لا تلين لأحد، ولا نملك إلا أن ننفذها ونخضع لحكمها، وهذه الأنظمة قد حددت مواعيد للقبول لا يجوز اختراقها، وقد انتهت منذ العام الماضي. فما عليك إلا أن تصبر الشهرين أو الثلاثة القادمة، وتقدم طلبك في الموعد المحدد أول السنة الدراسية القادمة. وتحتسب السنة التي ضاعت منك عند الله تعالى، الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، بجملة ما ضاع منك بسبب ما نزل بك من ابتلاء، وأنا مؤمن بأن الله تعالى سيعوضك خيرا عما فاتك، حسب سنته في خلقه.

وكانت كلمات الشيخ بردا وسلاما على صدري، وأزاحت عن نفسي همًّا كنت أشعر به من ضياع فرصتي بلا جرم مني.

وشاء الله ألا يمتحن طلاب السنة الأولى في الدراسات العليا بالأزهر في صيف سنة 1956م كما هو مقرر ومعتاد، بل أجِّل وامتد إلى صيف 1957م. ولا أدري لأي سبب حدث هذا، إلا التسيب الذي لا يبالي بمصالح الناس، واعتبار الأوقات أرخص من التراب في الطرقات. فما قيمة سنة تذهب في حياة الناس سدى، وتضيع هدرا، دون أن يحاسب عليها أحد؟

هذا مع أن سلفنا كانوا يقدرون قيمة الوقت، ويقولون: من علامة المقت: إضاعة الوقت... الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك. ويقولون: يا ابن آدم! إنما أنت أيام مجتمعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك! ويقول ابن عطاء في حكمه: حقوق في الأوقات يمكن

قضاؤها، وحقوق في الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد، إلا ولله فيه عليك حق جديد، وواجب أكيد.

وقالوا: الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل أنت فيهما!

وقيل لعمر بن عبد العزيز: يكفيك ما عملت اليوم، وأخر الباقي إلى الغد، فقال: لقد أعجزني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع عليّ عمل يومين؟!

هذه قيمة الوقت عند سلف الأمة، أما هؤلاء الخلَف ـ أو الخلْف ـ فهم يضيعون الأوقات بالسنة الكاملة على الناس، دون أن يشعروا أنهم اقترفوا عملا سيئا!

التقديم لمعهد الدراسات العربية العالية

وكان عليّ أن أستفيد من وقتي في دراسة أخرى متاحة، فعرفت من أخي وصديقي الجزائري محمد الأقصري: أن الجامعة العربية افتتحت معهدا للدراسات العالية، يعطي (دبلوما) عاليا في عدة شعب، ويمكن الحصول منه على الماجستير. وإنه قد قبل استثناء في قسم القانون والفقه الذي يرأسه القانوني الكبير الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري. وإن كان طلاب أصول الدين لا يقبلون أساسا فيه، لكن يقبلون في شعبة اللغة والأدب، أو في شعبة التاريخ.

وكنت حريصا على الالتحاق بقسم القانون، للاستفادة من علم الدكتور السنهوري ومنهجيته، ومقارنته بين الفقه والقانون، فقابلته، وأبديت له رغبتي في الالتحاق بالقسم، واهتمامي الكبير بدراسة الفقه وتضلعي فيه، برغم تخرجي في كلية أصول الدين، ورجوت

منه أن يستثنيني كما استثنى زميلي الجزائري: الأقصري. ولكن السنهوري اعتذر بلطف، وقال: إن القسم مفتوح لطلاب الحقوق، وطلاب الشريعة، وإنه اختار الأقصري لأنه جزائري، وأنه لا يستطيع أن يفتح هذا الباب للمصريين، خشية أن يجيئه آخرون لا يملكون ما أملك، فيطلبون منه قبولهم لديه كما قُبل فلان. وعبثا حاولت أن أقنعه فلم يقتنع. ولا سيما أنه لا يعرف عني شيئا. في حين قبل الأخوان: أحمد العسال، وأحمد حمد في هذا القسم بسهولة، لأنهما خريجا الشريعة.

وقلت: قدر الله وما شاء فعل، ولا بد أن أختار أحد القسمين: قسم التاريخ الذي يشرف عليه المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور شفيق غربال.. أو قسم الدراسات الأدبية واللغوية الذي يشرف عليه الناقد الكبير الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني، والذي عرفناه قبل من كتابه: (الإخوان المسلمون: كبرى الحركات الإسلامية الحديثة).

وبعد استخارة واستشارة ـ وما خاب من استخار، ولا ندم من استشار ـ اخترت قسم اللغة والأدب، ولي فيهما باع أي باع، وقديما طلب مني كثيرون أن ألتحق بكلية اللغة العربية في الأزهر، أو بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة، لما عرفت به من التعمق في في علوم اللغة، وفي الأدب والشعر.

وكانت الدراسة في هذا المعهد ممتعة، فتحت لي آفاقا جديدة في دراسة الأدب واللغة، لم تتح لنا في الأزهر.

كان يدرسنا مادة (القومية العربية) وهي مادة أساسية في المعهد: أبو القومية العربية المعروف: الأستاذ ساطع الحصري. الذي كان

هذا المعهد من ثمرة سعيه وجهده. الذي درس لنا نظريات القومية المختلفة لدى الأوربيين، وأهمها: النظرية التي تقوم على اللغة والتاريخ. كما درس لنا (البلاد العربية وعلاقتها بالدولة العثمانية). وكذلك الأمير مصطفى الشهابي الذي حاضرنا في الفصل الثاني عن (الاستعمار) وأهدافه وآثاره في البلاد العربية.

كما درس لنا الشيخ أمين الخولي (قضايا لغوية) وهو أزهري محافظ على جبته وعمامته، ولكنه يتميز بعقل ناقد، ولكنه كثيرا ما كان يبالغ في النقد، ويتحدى العلماء وإن أجمعوا. وقد ناقشته مرة واحتدت المناقشة حول ما قيل: إن أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا سبعة عشر حديثا، وقلت له: إن هذا كلام لا أصل له، وإن كتب الحنفية مليئة بالأحاديث، وإن لديهم محدثين كبارا مثل أبي جعفر الطحاوي المصري، وإن أعظم كتب التخريج لأحاديث الفقهاء، هو كتاب نصب الراية للزيلعي، وإن القول بأن أبا حنيفة لم يثبت عنده غير 17 حديثا ذكره ابن خلدون بصيغة التضعيف، ورد عليه ردا علميا قويا. ولكن يبدو أن الشيخ رحمه الله لم يعجبه مناقشتي، وحسبني ضمن المشايخ المغلقين.

وقد ناقشه زميلنا السوري عبد الكريم الأشتر حين استخف بابن جِنّي وأئمة اللغة الكبار، واصطدم به، حتى ترك الشيخ القاعة محتجا وغاضبا.

وكان من أساتذتنا الدكتور محمد مندور الذي درسنا طوال الفصول الأربعة التي قضيناها في المعهد: الشعر المصري بعد شوقي. وجماعة (أبولّو). ود. مندور أحد النقاد الأدبيين المعروفين، وله في ذلك أكثر من كتاب.

ومنهم: الأديب الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط، الذي درس لنا القصة المصرية، ابتداء من (زينب) قصة الدكتور محمد حسين هيكل.

ومنهم: الدكتور محمد محمد النويهي الذي درس لنا فلسفة النقد الأدبي، وعلاقة النقد بالقيم الأخلاقية، ومدى التزام الفنان بالأخلاق، كما درس لنا (الاتجاهات الشعرية في السودان) على ما أذكر.

ومنهم: الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، الذي درس لنا: الاتجاهات الأدبية في فلسطين والأردن.

ومنهم: الأستاذ جميل صليبا الذي درس لنا: الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام.

ومنهم: الأستاذ سامي الكيالي الذي درس لنا: النهضة الأدبية في حلب، على ما أذكر.

ونسيت من درس لنا (المذاهب الأدبية): الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية وغيرها، وكان من مراجعنا في ذلك: كتب الأستاذ غنيمي هلال من أساتذة دار العلوم.

وكان الدكتور الحسيني رئيس القسم نفسه يدرس لنا النهضة الأدبية في فلسطين، مركزا على علمين كانا متعاصرين من أعلام الأدب والنقد، وهما: إسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني. وكان أولها أميل إلى مخاطبة القلب، والآخر أميل إلى مخاطبة العقل.

كما حدثنا عن بداية النهضة الفكرية والأدبية في بلاد العرب، مفندا تلك الدعوى التي تقول: إن بداية النهضة بدأت بالحملة الفرنسية على مصر، مبطلا تلك المقولة بأدلة عدة، منها: أن النهضة بدأت

في تركيا من قبل منذ عهد الإصلاحات.. وأن هناك بدايات سبقت للنهضة في حلب وبيروت وغيرها من بلاد الشام.. وأن الاحتلال لا يمكن أن يبدأ نهضة في أي بلد، وأن الحملة الفرنسية لم تدم أكثر من ثلاث سنوات في مصر، كلها مقاومة من شعب مصر وعلمائه، انتهت بهزيمتها ورحيلها عن مصر.

وقد أكد هذه المعاني ما قدمه العلامة الأديب المحقق محمود محمد شاكر في كتابه (الطريق إلى ثقافتنا) وأن مصر كان فيها نهضة كبيرة على مستويات شتى، وفي أكثر من مجال في العلم واللغة والأدب والصناعة، وأن أعداء الأمة هم الذين أجهضوها.

على كل حال، أعتقد أني انتفعت بالدراسات المتنوعة التي قدمت إلينا في المعهد من كبار العلماء والنقاد والأدباء في العالم العربي.

وكان يدرس معي عدد من أبناء البلاد العربية النابهين المتميزين، بعضهم كانوا مبعوثين من بلدانهم، منهم: الأديب عبد الكريم الأشتر من سورية (الأستاذ الدكتور بعد ذلك). وكان هو الأول على دفعتنا. وزميله الأديب عمر الدقاق من سورية أيضا (الأستاذ الدكتور بعد ذلك) والشاب المتألق صالح الحصين في قسم القانون، وهو مبعوث من المملكة السعودية. (معالي الأستاذ صالح الحصين بعد ذلك). وكان الدكتور السنهوري معنيا به، راجيا أن يكون له شأن في المملكة، وقد كان.

وقد انتهيت من دبلوم المعهد بعد أن أكملت دراسة السنتين في أربعة فصول، واستدعاني الأستاذ الدكتور إسحاق الحسيني رئيس القسم، وحثني على أن أستمر في دراستي لنيل الماجستير، وقال: إن لديك استعدادا قويا لمواصلة المسيرة، بل اتفق معي على الموضوع الذي أكتب فيه، وهو (النقد اللغوي) في مقابل (النقد الأدبي). ويريد: أن أعالج ظاهرة الأخطاء اللغوية الشائعة، والتي

عالجها الأقدمون مثل ابن قتيبة، ومثل الحريري في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) وعالجها المحدثون في كتب نشرت، وفي المجلات مثل كتابات العلامة الشيخ محمد علي النجار في مجلة الأزهر تحت عنوان (لغويات).

واتفقت مع الأستاذ الحسيني على التفكير الجدي في الموضوع، ولكني بعد تقليب الأمر على وجوهه، وبعد أن أصبحت مرتبطا بالدراسات العليا في كلية أصول الدين، وما يتطلبه من جهد وتفرغ، رأيت ـ بعد استخارة الله تعالى واستشارة أقرب الناس إلي ـ أنه ليس من الحكمة ولا من المصلحة تشتيت الجهد في أكثر من جهة، بغير ثمرة تجتنى، إلا كثرة الشهادات! وأن الخير كل الخير في عودتي إلى دراستي الأصلية في الأزهر، وحسبي ما حصلت من معرفة نافعة باللغة وبالأدب وباتجاهاته في البلاد العربية. وكان الخير فيما اختاره الله. فاعتذرت للدكتور الحسيني بانشغالي الآن بدراستي في كلية أصول الدين، وقد يكون لنا عودة في المستقبل إذا أذن الله.

كامل سعفان

وفي المعهد التقيت زميلا قديما، وأخا كريما، وصديقا حميما، غاب عني ـ كما غبت عنه ـ سنوات عدة منذ أنهى دراسته في معهد طنطا الثانوي، وغادره إلى كلية اللغة العربية، وقد ضمنا قبل ذلك: سكن مشترك، في بيت واحد، وعمل مشترك من أجل قضية الأزهر، ومطالب الأزهريين، وتوجه مشترك حيث جمعنا الأدب والشعر. ذلكم الصديق هو الأديب الشاعر المطبوع: الأستاذ كامل سعفان (الدكتور بعد) الذي أسعدني القدر بلقائه في المعهد، ففرحت به، وفرح بي، وأصر على أن يعزمني على الغداء في بيته، وأن

يصحبني معه على الفور، وقد كان. وكانت جلسة طيبة، استعدنا فيها ذكريات الأمس، كما تحدثنا عن معاناة اليوم، ولم ننس آمال الغد، واستشرافات المستقبل.

وكان الأستاذ كامل قد تزوج فلسطينية، وجد فيها سكنه وأمنه، وجعل الله بينهما مودة ورحمة.

وقد ودعته وشكرته، ثم فرقت بيننا الأيام مرة أخرى، حيث أعرت إلى قطر، ثم انتهت الإعارة إلى إقامة، فتوطن وجنسية، وكنت أعرف أن الصديق كامل سعفان، قد انضم إلى ركب (جماعة الأمناء) وهي الجماعة الأدبية التي أسسها الأستاذ أمين الخولي، وكانت لها مجلتها وأدبها ورجالها، وكان للأستاذ سعفان إسهامه معهم.

وأخيرا عثرت على كتاب من أواخر ما أصدره، عنوانه (هجمة علمانية جديدة: محاكمة النص القرآني) وتحت هذا العنوان: محمد خلف الله 1947 ونصر أبو زيد 199.

وفي هذا الكتاب وجدت صديقي كالعهد به، وفاء لدينه، وغيرة على حرماته، وتوقيرا للعلم، واحتراما للمنهج. وجدته لسان صدق، وجندي حق، يحامي عن القرآن، ويدافع عن الإيمان، ويدفع بالحقائق أباطيل الزيف والبهتان.

مدارس (فاكس) لتعليم اللغات

وكان من الأهداف التي اتفقت عليها أنا وصديقي أحمد العسال: أن نعمق معرفتنا باللغة الإنجليزية، وقد كنا بدأنا دراستها معا في معتقل هايكستب على يد الأخ محمود عباس الطالب بكلية الهندسة،

وهو من حلوان، وقد بدأ معنا شوطا طيبا، ثم توقفنا عندما انتقلنا إلى معتقل الطور.

ثم بدأنا دراسة الإنجليزية مرة أخرى في الكلية، درسها في الشريعة، ودرستها في أصول الدين، وكنا نمتحن فيها تحريريا وشفهيا، وكنت أحصل فيها على عشرين من عشرين، وقد شهد الذين درسوني بأن لدي قدرة لغوية غير عادية، تتجلى في دراسة اللغة العربية، كما تتجلى في غيرها من اللغات، فالقدرة اللغوية لا تتجزأ.

ولكن اللغة إذا لم تنُمّ بالممارسة والاستعمال سرعان ما تنسى، وخصوصا عندما تعلَّم في الكبر، لهذا كنا ننادي في مؤتمراتنا لطلبة المعاهد بالأزهر: أن تعلم اللغة العربية منذ المرحلة الابتدائية حتى تثبت. وقد قال أحد الحكماء: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، يعني: إنه يثبت ولا يزول. قيل له: إن الكبير أوفر عقلا، قال: ولكنه أكثر شغلا.

ولهذا بادرنا بعد خروجنا من المعتقل أن نستفيد من وقتنا بالانتساب إلى (مدارس فاكس) لتعليم اللغات، وكان مقرها في شارع 26 يوليو، وقدمنا طلبنا وقبلتنا، وحددت لنا ثلاثة دروس في الأسبوع، وكان يدرسنا شاب أرمني متمكن حسن الطريقة: اسمه (هارولد) وأذكر أننا حين سألنا عن اسمه، فقال: هارولد (نوت ماكميلان) فقد كان رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت (هارولد ماكميلان).

وكان حرصي على تعلم الإنجليزية نابعا من شعوري بحاجة العالم والداعية المسلم إلى تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس بلغاتهم، فالإسلام رسالة عالمية، ولكن كتابه نزل بلسان عربي مبين، وحديث رسوله بالعربية الفصحى، ولا يمكن إيصاله إلى العالمين إلا بتعلم لغاتهم لنبين لهم بلسانهم عن طريق الترجمة، وهو ما

ذكره علماؤنا في قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) إبراهيم:.

وهو ما برع فيه غير المسلمين، حتى رأينا النصارى ترجموا الإنجيل إلى مئات اللغات وآلاف اللهجات.

على أن في تعلم اللغات إضافة فكر آخر، وثقافة أخرى، وتجارب أخر للإنسان، ومن أجل هذا حث حكماؤنا وآباؤنا من قديم على تعلم اللغات، وقال الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه فتلك له عند الملمات أعوان

فأقبل على حفظ اللغات ودرسها فكل لسان في الحقيقة إنسان!

وما أصدقها كلمة، وما أبلغها حكمة: كل لسان في الحقيقة إنسان، فكأن الإنسان الذي تعلم لغة، أصبح إنسانين، فإذا تعلم ثلاثا أصبح ثلاثة أناسي، وهكذا.

ونحن نحاول أن نعوض هذا عن طريق قراءة المترجمات، ولكن ليس كقراءتها في لغاتها.

واشتهر عند المسلمين حديث يقول: "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم" ولم أر له أصلا، حتى إن الكتب التي عنيت بما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس لم تذكره. على أن معناه غير صحيح، إلا إذا فسر بمثل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود، قائلا: فإني لا آمنهم على كتابي، أي أنه يخاف أن يحرفوا الترجمة، ويغيروا المعاني تبعا لأهوائهم ومصالحهم، فربما فسر أمن المكر بمثل هذا.

فهذا ما جعلني أحاول أكثر من مرة أن أتقن اللغة الإنجليزية، ولكني لم أوفق في كل محاولاتي، إذ لم أستمر فيها، وتشغلني عنها الشواغل. كما حدث في هذه المرة.

فبعد مدة ـ حين أتيح لنا القبول في الدراسات العليا بالأزهر ـ أضحى أمامنا: الدراسة بالأزهر، والدراسة بمعهد الجامعة العربية، والدراسة بمدارس (فاكس)، والعمل الصباحي بوزارة الأوقاف، فلم نجد الوقت الكافي لهذه الأعباء كلها، فاضطررنا أن نتوقف عن الاستمرار في مدارس (فاكس).

العودة إلى الدراسة العليا بالأزهر

بعد أن أجل امتحان طلبة السنة الأولى في الدراسة العليا بالأزهر إلى صيف 1957م، وضاعت عليهم ـ وعلي معهم ـ سنة كاملة، أجري لهم الامتحان، ونجح من نجح، ورسب من رسب، وأصح في مقدوري أن أتقدم بطلبي للالتحاق بالشعبة التي أريد.

أيّ الشعبتين أختار؟:

وقد كان بكلية أصول الدين شعبتان علي أن أختار إحداهما، لأقدم طلبي إليها: شعبة علوم القرآن والسنة (أو التفسير والحديث) وشعبة العقيدة والفلسفة.

فمن كانت درجاته أعلى في مواد التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، قدم أوراقه إلى هذه الشعبة، ومن كانت درجاته أعلى في التوحيد والفلسفة والمنطق، تقدم إلى الشعبة الأخرى. وهناك شرط: ألا تقل درجات الطالب في مواد الشعبة عن حد معين لا أذكره الآن

لعله 80%، ثمانون في المائة، وسبعون في المائة (70%) في التقدير العام.

وكانت كل هذه الشروط في كلتا الشعبتين عندي موفورة بأكثر من المطلوب، ولكني توقفت كثيرا في ترجيح اختيار إحدى الشعبتين.

أأختار شعبة القرآن والسنة، لأنها تصلني مباشرة بمصادر الإسلام الأصلية، وتتيح لي فرصة التعمق في دراستهما، وتصحيح ما طرأ على فهمهما من أغلاط، والرد على ما يثار حولهما من شبهات وافتراءات؟ ولا يمكن للعالم المسلم أن يكون عالما حقا إلا إذا أتقن علوم القرآن والحديث.

أم يا ترى أختار شعبة العقيدة والفلسفة، بما فيها من إغراء بدراسة الفكر الإنساني، وتتبع المذاهب الفكرية، والمدارس الفلسفية، ودراسة أغوارها، والإحاطة بتناقضاتها، وكيف ينقض بعضها بعضا، وتوظيف هذه المعرفة في خدمة الدعوة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، ومخاطبة الإنسان المعاصر باللغة التي يفهمها؟

الدكتور محمد يوسف موسى يحسم الأمر

كان الاختيار بين الشعبتين صعبا، وكان الأمر محيرا لي، ولم يحسم هذا الأمر عندي إلا باستشارة أهل الذكر والخبرة، كما قال تعالى: (فاسأل به خبيرا) الفرقان: وقال: (ولا ينبئك مثل خبير) فاطر:

لهذا توكلت على الله، وعزمت على زيارة أستاذنا الدكتور محمد يوسف موسى، وكان بيني وبينه مودة، رغم أني لم أدركه في كلية أصول الدين، ولم أسعد بتدريسه لي، وإن كنا سعدنا بتدريس كتبه،

درسها لنا غيره، وقد زرته قبل ذلك في منزله بالروضة، ورحب بي مع أنه لم يكن يقبل زيارة من لم يأخذ موعدا منه.

كان الدكتور موسى راهبا من رهبان العلم والفكر، لم يتزوج غير العلم والمكتبة، وكان ضليعا متمكنا في علوم الفقه والشريعة، وعلوم الفلسفة والعقيدة، وقد حصل على الدكتوراه من فرنسا، ومن ثم كان أهلا لأن يستشار في قضيتي.

ذهبت إليه، وطرقت عليه الباب، ففتح لي، ورحب بي. قلت له: سامحني أن جئتك بغير موعد سابق.

قال: ومتى جئت بموعد يا قرضاوي؟ بيتي بالنسبة لك مفتوح دائما.

قلت: جئت أستشيرك في قضية في غاية الأهمية بالنسبة لمستقبلي، ولم أجد غيرك يفتيني فيها!

قال: خير. ما هي؟

قلت: أمامي اختياران في الدراسة العليا بكلية أصول الدين: علوم القرآن والسنة أو علوم العقيدة والفلسفة. وأنا مستوف الشروط للدراسة في كلتا الشعبتين، وربما كانت درجاتي أعلى في شعبة الفلسفة، وقد احترت بينهما حيرة شديدة، فأيهما تختار لي يا أستاذ؟

فقال: اسمع يا يوسف، لقد عرفت أني عشت أكثر عمري في كلية أصول الدين أدرس الفلسفة ونظريات الأخلاق، وتاريخ الفلسفات، وما إلى ذلك، وألفت في ذلك ما ألفت من كتب، لعلك درست بعضها في الكلية.

قلت: نعم درسنا أكثر من كتاب منها حول فلسفة الأخلاق، وتاريخها.

قال: ثم انتهى بي المطاف الآن إلى تدريس الشريعة الإسلامية في كليات الحقوق، وأحمد الله قد ألفت فيها عددا من الكتب تلقاها أهل العلم والاختصاص بالقبول.

قلت: نعم، وقرأنا الكثير منها، وانتفعنا به.

قال: والآن أجد أن ما درسته من قبل في الفلسفة ومذاهبها ومدارسها الفكرية، كأنما كان تمهيدا أو مقدمة لدراسة الشريعة، فالشريعة هي الغاية، وهي اللب والجوهر، وكل ما عداها يجب أن يكون وسائل إليها.

وأعتقد أنك قد درست في كلية أصول الدين من مذاهب واتجاهات الفلسفة الشرقية واليونانية والإسلامية والحديثة ما أطلعك على أصول الفكر الإنساني والمذاهب الفلسفية الكبرى، والنظريات الأخلاقية المختلفة، وأن لديك الآن من الإمكانات المعرفية ما تستطيع أن تتابع به حركة الفكر الإنساني في تطورها. وإنما الذي يحتاج إلى خدمة حقا هو: الشريعة وفقهها وأصولها، ومصدر الشريعة القرآن والسنة، إذا تضلعت في علوم القرآن والسنة أمكنك أن تخدم رسالة الإسلام حقا، وأحسب أن لك دورا ـ إن شاء الله ـ في الاجتهاد والتجديد لهذا الدين، أرجو ألا يخيب ظني فيه.. إلى آخر ما قال رحمه الله رحمة واسعة.

وكانت كلمات الدكتور موسى أشعة من نور أزالت غياهب الشك والتردد والحيرة من ذهني ونفسي تماما، وأقنعتني أن لا أبتغي بالقرآن والسنة بدلا، ولا أبغي عنهما حولا.

وودعت الأستاذ الكبير وشكرت له، ودعوت له من كل قلبي، وخرجت من عنده منشرح الصدر، مطمئن الضمير، مسدد الوجهة، مستبين الغاية والطريق.

التقديم لشعبة القرآن والسنة

وقدمت إلى كلية أصول الدين في شعبة التفسير والحديث وعلومه.

وكان الذي يدرس لنا التفسير هو أستاذنا الشيخ أحمد علي أستاذنا في الكلية من قبل. والذي يدرسنا علوم القرآن هو أستاذنا الدكتور أبو شهبة، والذي يدرسنا الحديث هو شيخنا الشيخ محمد علي أحمدين، أستاذي في الكلية، والذي جرى بيني وبينه ما جرى في السنة الرابعة، ثم صالحني بعد امتحان التعيين في الشهادة العالمية، كما ذكرت ذلك من قبل. وكان الذي يدرسنا مصطلح الحديث هو أستاذنا الشيخ السماحي. وكان الكتاب المقرر هو تدريب الراوي على تقريب النواوي للحافظ السيوطي، وهو من خيرة الكتب في بابه.

وكنا نحو ثلاثين طالبا مسجلين في هذه الشعبة بعضنا من خريجي أصول الدين، وبعضنا من خريجي الشريعة.

وكانت شروط الدراسة والامتحان صعبة ومعقدة، فمن رسب في الامتحان التحريري أو الامتحان الشفهي، أو امتحان التعيين، فقد سقط في امتحان السنة كلها، وليس له فرصة أخرى، وسقط حقه في الدراسات العليا في هذه الشعبة. وفي هذا من التشديد والتعسير ما فيه.

وهذا ما دفع أكثر طلاب الشعبة ـ أكثر من عشرين منهم ـ أن يقدموا قبل الامتحان إجازات مرضية، لإعفائهم من دخول الامتحان، ولكن فضيلة الشيخ الأكبر عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر، قال: ليس معقولا أن يمرض هؤلاء جميعا في وقت واحد، واعتبر هذه الأجازات مفتعلة أو مزورة، ورفضها جميعا. والذي

دفعهم إلى ذلك هو خوفهم من النتيجة، فإن من لم ينجح ضاعت عليه السنة، بل ضاع حقه نهائيا في الدراسة العليا في الشعبة.

وبقي ستة طلاب فيما أذكر دخلوا الامتحانات التحريرية، والشفهية والتعيين، وكان الامتحان الشفهي في حفظ القرآن، وفي الحديث وعلومه، وكان التعيين في التفسير، وأذكر أن تعيين السنة الأولى كان في تفسير (آية الكرسي) سيدة آي القرآن.

ولا زلت أذكر الأسئلة التي حاصرتني حول مسألة التفاضل بين آي القرآن، وهل في القرآن فاضل ومفضول؟ وما معنى أن هذه الآية أو هذه السورة أفضل عن غيرها؟ وهل الفضل راجع إلى موضوع الآية أو السورة أو إلى أمر آخر؟

وكان التعيين ـ كالعادة ـ امتحانا لمدى معرفة الطالب بالعلوم الشرعية والعربية، فهي امتحان في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والفقه والحديث والمنطق والتوحيد. ويجب أن يكون الطالب مستعدا لأي سؤال يوجه إليه، مما يتصل بهذا العلوم كلها.

والحمد لله، فقد وفقت في إجاباتي في امتحان التعيين، والامتحان الشفهي، وكذلك في الامتحان التحريري، وظهرت النتيجة بنجاحي وحدي في الشعبة، وكل زملائي للأسف أخفقوا. إما في الامتحان التحريري، وإما في الامتحان الشفهي أو التعيين. ومعنى رسوبهم: أنهم (شطبوا) من هذه الشعبة إلى الأبد، ولم يعد لهم أي حق في استئناف الدراسة. وهذا تشديد وتعقيد لا ضرورة له فيما أرى، ولا أرى أي جامعة تعامل طلابها بمثل هذه القسوة، والحمد لله الذي نجاني بفضله من هذا البلاء، وهداني بنوره في هذه الظلماء، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

في السنة الثانية وحدي

وفي السنة الثانية، كنت وحدي في الشعبة، فإذا حضرت وُجِدت الشعبة، وإذا غبت فقدت. ولذا كان شيوخي يقولون لي: مر علينا ولو في كل أسبوع مرة (تحلة القسم) حتى نقول: حضرنا ودرسنا. وكنت أفعل ذلك كلما استطعت.

وفي هذه السنة مر علينا ـ وأنا أدرس الحديث عند الشيخ أحمدين ـ فضيلة شيخنا الشيخ صالح شرف، السكرتير العام للمعاهد الدينية، وهو الرجل الثالث في الأزهر بعد شيخ الأزهر ووكيل الأزهر، وقال له الشيخ أحمدين: هذا الشيخ يوسف القرضاوي الذي صفته كذا وكذا. ولو كان الأمر بيدي لأعطيته الأستاذية من اليوم. قال ذلك الشيخ أحمدين بحسن نية، وهو لا يعرف الأزمة التي حدثت لي معه أيام امتحان الشهادة العالمية. ولكن الشيخ صالح شرف، كان عالما فاضلا، لم يعتبر في هذا الكلام أي تحدٍّ له.

وكنت قد نقلت إلى الأزهر بعد مجيء الشيخ شلتوت شيخا للأزهر، محاولا أن أجمع بقدر الإمكان بين ما يطلبه مني الأزهر من أعباء كلفنا بها الدكتور محمد البهي الذي كنا نعمل معه في الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، وبين الحضور الممكن في شعبة القرآن والحديث في كلية أصول الدين.

وجاءت الامتحانات، وانتهت بسلام، وانتقلت إلى السنة الثالثة والأخيرة في الدراسات المنهجية المطلوبة للحصول على درجة الأستاذية أو (الدكتوراة).

السنة الأخيرة وبحث الشفاعة:

وفي السنة الأخيرة، كان علي ـ مع الامتحان التحريري والشفهي والتعيين ـ امتحان آخر، هو تحضير موضوع يحدد للطالب، يعدّ

مادته في ظرف أسبوع أو عشرة أيام على ما أذكر، ويلقيه في صورة محاضرة عامة أمام لجنة من كبار الشيوخ، تسأله في الموضوع، بعد إلقائه، ويدعى جمهور من الطلاب والدارسين لشهود المحاضرة، وهي عادة تكون في قاعة الشيخ محمد عبده.

وعندما جاء الموعد حدد لي موضوع في الحديث، هو (أحاديث الشفاعة في صحيح البخاري) وما قيل حولها من كلام بين أهل السنة والمعتزلة.

وقد قرأت الموضوع في شروح البخاري ومسلم، وفي كتب التفسير، وفي كتب علم الكلام، ولاسيما الموسعة منها، مثل شرح المقاصد للسعد التفتازاني، وشرح المواقف للشريف الجرجاني. وكتبت فيها كراسة كاملة. وألقيتها محاضرة مرتجلة أمام لجنة من أربعة من كبار شيوخ الأزهر على رأسهم فضيلة الشيخ محمد نور الحسن وكيل الأزهر، ومن أعضائها الشيخ أحمد علي أستاذ التفسير بالكلية، والشيخ السنوسي أستاذ علم التوحيد بالكلية، ونسيت الرابع.

وبعد أن انتهيت من إلقاء المحاضرة في قاعة الشيخ محمد عبده الشهيرة، وحضور جم غفير من الطلاب وغيرهم، صفق الحاضرون طويلا، دلالة على إعجابهم بما ألقي.. وبدأ أعضاء لجنة الامتحان يناقشونني، يسألونني وأجيبهم، وكان توفيق الله حليفي، ولله الفضل والمنة.

وكان بعض أساتذة جامعة القاهرة حاضرا، فقال: إن هذا البحث وحده يكفي الطالب للحصول على الماجستير.

وانتهت هذه السنة الأخيرة بالنجاح والتوفيق، ومع هذا العناء كله في السنوات الثلاث، لا تنتهي هذه المرحلة بشهادة (ماجستير) أو ما يعادلها، بل تسمى: (تمهيدي دراسات عليا)!

تسجيل رسالتي عن الزكاة

وكان عليّ بعدها أن أبدأ باختيار موضوع أسجله لرسالة الأستاذية أو (الدكتوراة). وكنت في أول الأمر متجها إلى أن أكتب في موضوع يتصل بالعقيدة، وهو: (براهين القرآن على نبوة محمد) وأعددت فيه مسوّدات لها قيمتها، لا تزال عندي حتى اليوم.

ثم تغير اتجاهي إلى موضوع آخر يتصل بالشريعة وفقهها، وهو موضوع حول الزكاة، الركن الثالث في الإسلام، وهو ما ترجح لي اختياره وتقديمه إلى الكلية بعنوان: (الزكاة في الإسلام وأثرها في حل المشاكل الاجتماعية).

وقد تقدمت بموضوعي إلى إدارة الكلية مشفوعا بخطة البحث، وعينت لي الكلية مشرفا هو شيخنا الشيخ أحمد علي. ولهذا الحديث بقية ستأتي في موضعها.

رحلة البحث عن عمل

كل كائن حي له مطالب وحاجات تتنوع وتكثر بمقدار رقي حياته، فحاجة النبات أقل من حاجة الحيوان، وحاجة الحيوان أقل من حاجة الإنسان، وحاجة الإنسان البدوي أقل من حاجة الإنسان الحضري، وحاجة الإنسان الأمي أقل من حاجة الإنسان المتعلم، والشاعر العربي قال من قديم:

نروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجات من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقي

لهذا كان كل إنسان في حاجة إلى العمل ليكسب منه رزقه، ويوفر حاجاته. صحيح أن الله تعالى قد ضمن لكل كائن حي رزقه، كما قال تعالى: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) هود: (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم) العنكبوت:

ولكن معنى ضمان الرزق: أنه هيأ موارده وأسبابه في هذه الأرض، فمنذ خلقها بارك فيها وقدر فيها أقواتها، وجعل لأهلها معايش تكفيهم، بيد أن سنته تعالى: أن رزقه المضمون لا ينال إلا بالسعي والكدح والمشي في مناكب الأرض، والتماس الرزق في خباياها، كما قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) الملك: فمن سعى ومشى في مناكب الأرض استحق أن يأكل من رزق الله فيها، ومن قعد وتكاسل، كان خليقا أن يحرم من رزقه.

وقد رأى الخليفة عمر بن الخطاب جماعة قاعدين في المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: متوكلون! فقال: بل متأكّلون! لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض. أما قرأتم قوله تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) الجمعة:

لهذا كان علي أن أسعى للحصول على ما يكفي حاجاتي في هذه المرحلة، وقد أصبحت حاجاتي اليوم أكثر منها عندما كنت طالبا. فقد كان يكفيني من قبل نصف حجرة وأنا أطلب الآن نصف شقة.

ولست ممن سموهم بعد الثورة (العاطلين بالوراثة) فلم أرث من أبي وجدي من الأرض الزراعية أو من العقارات أو الأموال السائلة في الخزائن الخاصة والبنوك العامة ما يلبي حاجاتي، ويغنيني عن طلب العمل. وحتى لو كان لي مثل هذا لكان علي أن أطلب العمل، لأن العمل في ذاته واجب على الإنسان كما أنه حق له، وهو كذلك شرف له. وما ينبغي للإنسان أن يأخذ من الحياة ولا يعطيها. والتوكل على الله لا يعني: إهمال الأسباب، والحديث الذي يتوكأ عليه المتبطلون يرد عليهم، حيث يقول: **"**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا**"** فهو لم يضمن لها الرواح والعودة بطانا أي ممتلئة البطون، إلا بعد غدوها وسعيها خماصا.

ومن ثم جئت من القرية إلى القاهرة، بحثا عن العمل، وأخذا بالأسباب رجاء في فضل الله، الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

التعيين في الأزهر ثم إلغاؤه

ثم كان أول ما اتجهت إليه: أن أقدم أوراقي إلى إدارة الأزهر، لأعين في معاهده مدرسا، فقد كنت عينت قبل الاعتقال، ولكني لم أتسلم العمل، فسقط حقي، على أني لو كنت تسلمته، لفصلت منه، كما فصل كثير من إخواني.

أما المسجد الذي كنت أخطب فيه في مدينة المحلة ـ وهو مسجد أهلي ضم إلى وزارة الأوقاف بعد ـ فقد فصلوني منه لغيابي.

وبعد تقديم أوراقي إلى الأزهر انتظرت نحو أسبوعين أو ثلاثة، وإذا إدارة الأزهر تعلق كشفا بالمقبولين للتعيين في معاهدها، وكان أول اسم في الكشف هو: اسمي. ومعي الأخ العسال. وقلت: الحمد لله، قد حقق الله الرجاء. فقال لي الموظفون المختصون: لقد كان اسمك أول الأسماء المرشحة، لأنك حاصل على أكبر مجموع في المتقدمين من الكليات الثلاث، سواء في سنة تخرجك أم في هذه السنة. (فقد كان ترتيبي الأول في العالمية، وفي تخصص التدريس) ولكن هناك عقبة يجب أن تجتازها. قلت: ما هي؟ قالوا: موافقة جهات الأمن (المباحث العامة). فقلت: وقعنا في الفخ. هذه هي العقدة، وعلى كل حال، يقضي الله ما يشاء، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

وبعد أيام جاء الرد من المباحث العامة بحذف اسمي واسم العسال من المعينين، ولاموا الأزهر على إعلانه النتيجة بالأسماء المقبولة، قبل مراجعة جهات الأمن المختصة في وزارة الداخلية. ولذا أضحى المعمول به بعد ذلك: إرسال أسماء المعينين أولا إلى الداخلية، فمن قبلته منهم أعلن عنه، وإلا فلا.

وقد أعلمونا أن أي عمل يتصل بالجماهير هو محظور علينا، فلا نطمع يوما أن تعيَّن مدرسين أو وعاظا في الأزهر، أو خطباء في وزارة الأوقاف، لأن هذه الأعمال لها تأثيرها في الجمهور، ونحن غير مأمونين عليها!

البحث عن المدارس الخاصة

وهنا لم يكن أمامنا باب مفتوح إلا المدارس الخاصة، التي تحتاج إلى مدرسين للغة العربية، فلم يكن الدين يحتاج إلى مدرس خاص

به، فإن حصصه محدودة جدا، يأخذها مدرس اللغة العربية مضافة إلى جدوله، وربما لم تكن إجبارية في بعض السنوات.

وظللت أنا وأخي العسال نقرأ الصحف كل يوم نفتش في (إعلاناتها المبوّبة) لأول مرة، عن مدرسة خاصة تطلب مدرسين للغة العربية، فإذا وجدنا مدرسة في أي مكان في القاهرة أو الجيزة، سارعنا للذهاب إليها، لنقدم إليها أوراقنا، وقد صورنا منها عدة نسخ على صعوبة التصوير في ذلك الوقت.

ولكنا كنا نرجع بخفي حنين، إذ تعتذر إدارات المدارس عن عدم قبولنا، بسبب واضح، وهو أنهم يحتاجون إلى مدرس للغة العربية، ولذا هم في حاجة إلى خريجي اللغة العربية من الأزهر، أو كلية دار العلوم من جامعة القاهرة، وأنا خريج أصول الدين، والأخ العسال خريج الشريعة!

وهذا ما جعلني أقول عبارة تناقلها الإخوة الزملاء بعد ذلك، وهي: أبأس الناس: الموظفون، وأبأس الموظفين: المدرسون، وأبأس المدرسين: مدرسو اللغة العربية، وأبأس مدرسي اللغة العربية: خريجو أصول الدين والشريعة!

مدارس الشرق الخاصة بالزمالك

ثم شاء الله تعالى أن أقرأ إعلانا عن حاجة مدارس الشرق الخاصة بالزمالك والمنيرة ـ التي يملكها الأستاذ يس سراج الدين العضو الوفدي المعروف، وشقيق فؤاد باشا سراج الدين ـ إلى مدرسين للغة العربية. وكان الأخ العسال يئس من كثرة تقديمنا لمثل هذه المدارس ورجوعنا منها بالرفض والاعتذار، ولكني توكلت على الله وقدمت الطلب لمدير المدرسة بالزمالك، وجلست أنتظر ماذا

يقول المدير بعد أن يقرأ الأوراق، ولم أكن أتوقع إلا أن يعتذر كما اعتذر إخوة له من قبل.

ولكني فوجئت بمن يناديني باسمي، ويقول لي: إن المدير يطلبك، وكان اسمه الأستاذ عبد الحليم بشير، من رجال التربية، ومن خريجي دار العلوم القدامى. وقد رحب بي، وقال لي: يا شيخ يوسف، نحن عادة لا نقبل خريجي أصول الدين في تدريس اللغة العربية، لأنهم في الغالب غير متخصصين، ويبدو ضعفهم في التدريس، ولكني حين نظرت في أوراقك وجدت أنك أول زملائك في الشهادة العالية من كلية أصول الدين، كما أنك أول زملائك في العالمية مع إجازة التدريس، وهذا يدل على أنك شخص متميز، ولست بالرجل العادي، ولهذا سأخرق القاعدة وأقبلك مدرسا بمدرستنا على مسؤوليتي.

قلت له: شكر الله لك حسن ثقتك بي، وأرجو أن أبيض وجهك وأكون عند حسن ظنك إن شاء الله.

وكان المدير الإداري والمالي للمدرسة موجودا ـ واسمه صلاح ذهني ـ فقال لي: لكني يا أستاذ يوسف أريد أن أسدي إليك نصيحة أريد ألا تفسرها خطأ، قلت: خيرا، ما هي؟ قال: تعلم أن هذه المدرسة في حي الزمالك، حي الأعيان والطبقات الراقية. وربما لم يكن زيك الأزهري هذا ـ الجبة والعمامة ـ مناسبا لهذه البيئة، ولذا أنصحك أن تغير زيك هذا، وتلبس (البذلة) الإفرنجية.

وقال الأستاذ عبد الحليم: وأنا أؤيد الأستاذ صلاح في هذا، ولعلك تحفظ قول الشاعر العربي قديما:

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بوسها!

قلت: نعم أحفظه، وأحفظ قول فقهائنا بمراعاة العرف، ما لم يكن مخالفا للشرع، وقول الناظم في الفقه:

والعرف في الشرع له اعتبار   لذا عليه الحكم قد يدار

وعدت إلى مسكننا في شبرا، لأخبر أخي العسال بما حدث معي، وبقبولي في مدارس الشرق الخاصة بالزمالك، وبطلبهم مني أن أغير زيي، فأصبح بدل (الشيخ يوسف) (يوسف أفندي)! وضحكنا على هذا التغيير المفاجئ. وقال الأخ العسال: أنت الآن تطبق نظرية ماركس في أن الحاجات الاقتصادية هي التي تغير سلوك الإنسان، فما كان أحد يظن أن الشيخ يوسف سيخلع يوما (كاكولته) وعمامته، لولا الضرورات الاقتصادية التي تفرض على الإنسان ما لا يحبه ولا يهواه.

وبالفعل اشتريت قطعتين من الصوف المحترم، ثم سألت بعض الإخوة (الطرزية) المعروفين بالتفنن والإتقان، فدلوني على الأخ عبد العزيز البقلي، وكان من الطراز المتميز في صنعته وفنه، وكان هو الذي خاط بدلة الضابط لعبد المجيد حسن قاتل النقراشي! فقلت لهم: ألا يوجد ترزي آخر؟! فقالوا: هذا هو الذي نعرفه. قلت: على بركة الله. وفصل لي أول بدلتين في حياتي. وسرعان ما خاطهما لشدة حاجتي إليهما، وتسلمتهما. وكان علي أن أتعلم كيف أستخدم رباط العنق (الكرافتة) فهي تحتاج إلى مهارة، سرعان ما أتقنتها.

وأول ما لبست هذه الحلة، شعرت كأني إنسان آخر، لم يعد هو الشيخ يوسف القديم، وخيّل إليّ أن الناس كلهم ينظرون إلي، ويقولون: هذا هو الرجل الذي غير زيه، وتزايد هذا الشعور عندي عندما ذهبت إلى قريتنا، ورآني أهلها لأول مرة بهذا الزي الجديد.

ولكن سرعان ما أمسى هذا أمرا مألوفا، وتعود الجميع علي بهذا الزي الجديد، وقال كثيرون: إنه لائق عليك، وملائم لك، ربما أكثر من الجبة والعمامة! ومهما يكن فالواقع يفرض نفسه. والمرء ليس بزيه وليس بشكله، بل بعلمه وعمله.

وعندما بدأ العام الدراسي، ذهبت إلى المدرسة بالزمالك، وكان مشوارها طويلا شاقا، إذ كان علي أن أركب من شبرا إلى ميدان التحرير، بعد أن أمشي على قدمي من المنزل إلى شارع شبرا لأمتطي الأوتوبيس، ثم أركب مرة أخرى من التحرير إلى الزمالك، ثم أمشي إلى المدرسة. ثم علي أن أحضر الدروس وأن أصحح الكراريس، كل هذا من أجل اثني عشر جنيها.

إلا أن ميزة هذه المدارس عند أكثر المدرسين: أنها فرصة للدروس الخصوصية، فطلابها من الأسر الثرية، وجلهم يحتاجون إلى الدروس لرفع مستواهم، ولا سيما إذا عرف المدرس بينهم بالتميز في تدريسه، وانتشر صيته بين التلاميذ.

وقد بدأ اسمي يظهر بين تلاميذ المدرسة وتلميذاتها، وهي مدرسة إعدادية، وهي مختلطة تجمع بين البنين والبنات. وطفق التلاميذ يطلبونني لأعطيهم دروسا خصوصية، ولكني لم أكن من النوع الذي يركض وراء هذه الدروس، لأنها تكسب النقود، وتأكل الأوقات، وأنا في حاجة إلى وقتي للاطلاع والقراءة، وهو أغلى عندي من بضعة جنيهات أضعها في جيبي. هذا مذهبي، وربما لا يعجب الكثيرين اليوم. ولكن الشاعر يقول:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب!

والحقيقة أني بعد مدة قليلة صعبت عليّ نفسي، فلم تكن هذه المدرسة تشبع مطامحي، وترضي آمالي، وكثيرا ما كنت أسائل نفسي: أهذا مصيرك يا يوسف؟

ولهذا لم أقبل من الدروس إلا درسا واحدا، كلفني به المدير لبنت صاحب المدرسة الأستاذ يس سراج الدين، وكانت في المرحلة الإعدادية، وهي كبرى بناته، وكانت صغيرة، وعلى غاية من الأدب. ولم أملك أن أقول: لا.

إلا أن بقائي في مدرسة الزمالك هذه لم يطل أكثر من شهر فيما أذكر، ثم حدث (العدوان الثلاثي) الشهير على مصر، انتقاما لتأميم قناة السويس. فقد هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل منطقة القناة، وخصوصا مدينة بور سعيد، وأمطرتها بوابل من القنابل.

وتغير الحال في مصر كلها، وباتت في حالة حرب في مواجهة هذه الدول، وتوقفت الجامعات والمدارس كلها، وذهب عبد الناصر إلى الأزهر ليعلن في الناس: سنقاتل، سنقاتل، ولن نستسلم.

وتكونت لجان المقاومة الشعبية في كل مكان، وتجاوب الشعب كله مع عبد الناصر، ورأيت الإخوان المسلمين الذين أصابهم من عذاب عبد الناصر ما أصابهم ينضمون إلى جبهات المقاومة، فمصر بلدهم، وليست بلد عبد الناصر، والشاعر يقول:

بلادي - وإن جارت عليّ - عزيزة   وأهلي - وإن ضنّوا عليّ كرام!

المهم أن مدارس الشرق الخاصة عطلت كما عطل غيرها من المدارس. ومعنى تعطيلها: أن لا راتب لنا نقبضه منها، كما يقبض مدارس الحكومة، وإن عطلت الدراسة، ولذا بقيت أياما في القاهرة، ثم رأيت أن الأصلح لي أن أدعها إلى القرية، فالمعيشة في القاهرة تكلفني وتتعبني، وفي القرية لا أتكلف شيئا، فأنا آكل مما تأكل العائلة.

وما هي إلا أيام حتى جاءتني برقية من وزارة الأوقاف تطلب إلي أن أحضر بسرعة إلى القاهرة لأتسلم منبر الأزهر، لرفع الروح المعنوية في الشعب في هذه المرحلة الخطيرة في تاريخ مصر، وكان هذا بتوجيه من شيوخنا: البهي الخولي ومحمد الغزالي وسيد سابق، الذين أشاروا على الشيخ الباقوري أن يستدعيني للأزهر.

بيد أني لم أتجاوب مع هذه البرقية، وقلت في نفسي: إنهم يستنجدون بي الآن، حتى إذا انكشفت الغمة طرحونا وراءهم ظهريا!

ولما لم أرد عليهم، كلفوا شيخنا الشيخ محمد الغزالي الذي اعتلى منبر الأزهر، وظل يخطب فيه عدة سنوات، وقد كان الشيخ الغزالي يخطب في جامع الزمالك الكبير، فخلا مكانه، فأرسلوا إلي في القرية أحد الإخوة ليبلغني بضرورة الاستجابة إلى طلب الأوقاف، وإلحاحهم في أن أحل محل الشيخ الغزالي في مسجد الزمالك، وكان الأخ الذي حمل إلي الرسالة هو الأخ إسماعيل حمد، شقيق زميلي وصديقي أحمد حمد.

واستجبت إلى رغبة شيوخنا، وسافرت إلى القاهرة، وتسلمت مسجد الزمالك لأخطب فيه، بمكافأة قدرها اثنا عشر جنيها، وعرف

الكثيرون ذلك فبدأ الناس يتوافدون على المسجد من أنحاء القاهرة وضواحيها، بل من خارج القاهرة أيضا، فقد كانت إذاعة القاهرة تذيع منه خطبة الجمعة كل عدة أسابيع. وكان الذي يضايقني من إذاعة الخطبة: أنهم يطلبونها مكتوبة قبل أن تذاع، ويريدونني أن أقرأها عند إذاعتها، وأنا لم أتعود أن أقرأ الخطبة من ورقة، ولهذا كنت أحيانا أخرج على النص، وأرتجل كلمات من عندي، وقد لاحظوا ذلك يوما فلفتوا نظري إلى ذلك.

وظللت أكثر من سنة أخطب الجمعة بمسجد الزمالك، حتى بعد أن انتهت الحرب، ولاحظ رجال المباحث العامة أن المسجد أصبح يمثل مدرسة دعوية متميزة بخطبه، وبالحلقات التي أعقدها بعد كل خطبة أجيب فيها عن أسئلة الناس، وأمسى الناس يفدون إليه من كل صوب وحدب. وكثيرا ما رأيت مخبري المباحث يلاحقون الناس ويسألونهم عن أسمائهم ووظائفهم. حتى إنهم مرة لاحقوا أحد الذين صلوا معي، ثم جاء يسلم علي في حجرة الإمام، وقلت للمخبر: هذا سعد الدين بك خضير عضو مجلس الشعب عن دائرة صفط تراب! فأسقط في يد الرجل.

وأخيرا ضاق صدرهم، ونفد صبرهم، فأجبروا الأوقاف أن تمنعني من الخطابة، فقد انتهت مهمتي بعد أن أصرت أمريكا على دول العدوان الثلاثي أن تجلو عن مصر. وهذا ما كنت أتوقعه منهم.

والعجيب أن المصلين في المسجد أرسلوا برقيات إلى وزير الداخلية، يطلبون إليه أن يعيد إليهم الخطيب المحبوب الذي يفد الناس إليه بالآلاف من القاهرة وما حولها.. وقلت لهم: إن قولكم هذا يضر القضية ولا ينفعها، فما تقولونه هو الذي يخيفهم ويفزعهم.

بقي أن أقول: إن تعييني في مسجد الزمالك بمكافأة: اثني عشر جنيها، جعلني أستغني عن العودة إلى مدارس الشرق الخاصة، بعد انتهاء أزمة العدوان الثلاثي، وقد كان يمكنني أن أجمع بين الوظيفتين، ولكني وجدت المدرسة تأخذ مني وقتا وجهدا وطاقة أنا في حاجة إليها فيما هيأت نفسي له، وهو العمل العلمي والفكري المتعمق الذي يتطلب مني أن أفرّغ له عقلي ونفسي ووقتي ما استطعت. أما المال فيكفيني منه القليل. وقد قال أبو فراس الشاعر الفارس:

إن الغني هـو الغني بنفسه ولو انه عاري المناكب حافي

ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فبعض شيء كافي

ومع تركي لمدارس الشرق الخاصة، وقبولهم استقالتي، فقد طلبوا مني أن أستمر في درسي الخاص مع ابنة يس سراج الدين، وقد بقيت معها لأكثر من عدة أشهر، ثم رشحتني الأوقاف للذهاب إلى مدينة العريش في بعثة وعظية بمناسبة شهر رمضان، ولم أكن قد قبضت من دروسي الخصوصية كثيرا ولا قليلا، وأنا أستحي أن أطلب، وهم لعلهم غافلون. ثم ضغطت على نفسي، وغالبت طبيعة الحياء عندي، وكتبت كلمات للأستاذ سراج الدين قلت فيها: لولا ما تعرف من غلاء المعيشة، وضغط تكاليف الحياة، لمنعني الحياء أن أذكرك بقول الشاعر:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب!

مع خالص تحياتي.

وأعطيت الورقة لتلميذتي لتسلمها إلى أبيها. وعندما حضرت الدرس التالي وجدت الرجل قد ترك لي عشرة جنيهات، مع ورقة تتضمن شكرا واعتذارا عن التأخير.

مذبحة طرة

مسابقة لتعيين وعاظ وخطباء

ومن المهم أنه في هذه الفترة عقدت مسابقة لتعيين وعاظ بالأزهر، وأئمة وخطباء بالأوقاف، وقدمت فيها أنا وعدد من الإخوان، ونحن نعلم أننا ممنوعون من الوظائف المتصلة بالجماهير، ومنها الخطابة والوعظ، ولكن قلنا: لن نخسر شيئا إذا قدمنا، فربما نجحنا وقبلنا.

ودخلنا الامتحان دخول من لا يعتقد أن وراءه جدوى، وسرعان ما ظهرت النتيجة، وقد نجح فيه عشرة من الإخوان: أنا والعسال وسليمان عطا، وعبد الرؤوف عامر، وعبد التواب هيكل، ومصباح عبده، وعبد الحميد شاهين الخ.

وكان ترتيبي هو الثاني في هذه المسابقة، فقد كان الأول هو زميلنا الأخ العالم الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي جلهوم خطيب مسجد السيدة زينب فيما بعد.

وبعد نجاحنا كان للشيخ الباقوري وزير الأوقاف موقف رجولة وإنسانية لا ننساه، وهو أنه عارض رجال الأمن، وقال: أنا سأعينهم على مسؤوليتي، في أعمال غير الخطابة والتدريس.

وفعلا كانت وظيفتنا الرسمية: الإمامة والخطابة، ووظيفتنا الفعلية التي انتدبنا لها ـ نحن العشرة ـ العمل بقسم النظار والأوقاف، ومقره سطوح وزارة الأوقاف.

وقد حضرت أنا وأخي العسال يوما واحدا في هذا القسم، ثم انتدبنا للعمل في مراقبة الشؤون الدينية، وكلفني المراقب العام للشؤون الدينية الأستاذ البهي الخولي بالإشراف على (معهد الأئمة) وكلف العسال بالإشراف على مكتبة إدارة الثقافة بمسجد عمر مكرم.

ومعهد الأئمة ليس له مبنى، ولكنه (فكرة) تقوم على أساس النهوض بمستوى الأئمة، والرقي بثقافتهم، على أساس تنظيم محاضرات لهم في موضوعات إسلامية وفكرية متنوعة: من علماء ومفكرين كبار، توسع من آفاقهم، وتنير من بصائرهم، في فقه حقيقة الدين، وحقيقة الواقع. وكان من هؤلاء الأعلام: الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد البهي، والشيخ محمد المدني، والدكتور علي عبد الواحد وافي، الذي كان يقرأ للأئمة فصولا من مقدمة ابن خلدون، ويعلق عليها. بالإضافة إلى محاضرات الأستاذ البهي الخولي والشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق.

الشيخ الباقوري

وبمناسبة موقف الشيخ الباقوري منا ـ نحن الإخوان العشرة، أو العشرة الطيبة كما سماها بعضهم ـ أود أن أقول كلمة هنا عن الشيخ رحمه الله.

كان الشيخ الباقوري طوال حياته من طلاب الأزهر النابهين، وكان خطيبا مفوها، وشاعرا مجيدا، وقد اختاره طلاب الأزهر قائدا

لثورتهم سنة 1940م. حين ثاروا على مشيختهم المفروضة عليهم من قبل الملك، الذي أقال شيخهم الأكبر، القريب منهم، والمحبب إليهم: الشيخ محمد مصطفى المراغي.

ثار الأزهر على الظلم الواقع عليه، فقد كان العالم من خريجي الأزهر في أي من كلياته يعين براتب قدره ثلاثة جنيهات في معاهد الأزهر، وكان معلم المدرسة الإلزامية خريج مدرسة المعلمين الابتدائية يعيّن بأربع جنيهات. ولم يجد الأزهريون شيخا يتبنى مطالبهم غير الشيخ المراغي ـ وهو من الشيوخ الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة ـ، فثاروا مطالبين بتحسين أوضاعهم، وإعادة شيخهم المراغي لقيادة سفينة الأزهر.

ومما ينسب إلى الباقوري من الشعر في هذه الثورة قوله:

ثورة الأزهر أرخصنا الدماء فكلي الأرض وثنّي بالسماء!

وانتصرت ثورة الأزهر، التي لمع فيها اسم الباقوري زعيم الثورة، حتى أطلقت إحدى الباحثات لقب (ثائر تحت العمامة) على الشيخ الباقوري، في دراسة لها عن الباقوري ومواقفه وحياته، فلم تجد عنوانا يعبر عن مواقفه إلا هذا العنوان. وأصهر الباقوري إلى أحد كبار علماء الأزهر، وهو الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، الذي تزوج ابنته، وأنجب منها ثلاث بنات.

كان الشيخ الباقوري إلى الأدباء أقرب منه إلى العلماء، لذا عرف بالخطابة والشعر أكثر مما عرف بالفقه والبحث العلمي.

وكان له شعر جميل كنا نحفظه أناشيد تثير فينا مشاعر الحب والحماس للإسلام، ومنها النشيد المعروف:

يا رسول الله هل يرضيك أنا إخوة في الله للإسلام قمنا

ننفض اليوم غبار النوم عنا لا نهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله في ساح الفداء

وهو النشيد الذي اعترض عليه بعض الإخوة السلفيين بأنه يخالف العقيدة الصحيحة، لأنه يوحي بأن العمل يكون لإرضاء رسول الله، لا لإرضاء الله.

ورأيي أن الشيخ لا يقصد ما ذهب إليه هؤلاء، وإنما يريد أن يقول: هل يسرك يا رسول الله ويفرحك ويقر عينك: أخوتنا في الله، وقيامنا لنصرة دينك، والدفاع عن دعوتك.. الخ.

ولا أعلم أن شعر الباقوري جمع إلى اليوم، وقد سمعته مرة وقد سئل عن شعره، فقال في تواضع: إنه من شعر العلماء، وشعر العلماء كعلم الشعراء.

وأحسب أن هذا من جميل أدبه وتواضعه، فكثيرا ما يكون للشعراء علم راسخ، كما يكون للعلماء شعر رائع.

ومن هذا شعر الإمام الشافعي الذي لا يشك دارس في قيمته الأدبية، وعلو مستواه الفني. ومن ذلك قوله:

أمطري لؤلؤا جبال سرنديـــــب، وفيضي آبار تبريز تبرا!

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا!

همتي همة الملوك، ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا!

وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أخاف زيدا وعمرا؟

على أننا إذا غلبنا الجانب الأدبي في حياة الباقوري العلمية، فمن الإنصاف أن يذكر أن له بعض مؤلفات جيدة، تحمل روح الداعية، وأسلوب الأديب، منها: كتابه (قطوف من أدب النبوة) الذي شرح فيه عددا من الأحاديث شرحا ميسرا سلسا، في متناول القراء العاديين، والكتاب يقع في جزأين صغيرين.

وله كذلك كتابه: (من أدب القرآن: تفسير سورة تبارك).

أما ما يدل على عقلية الباقوري البحثية، فهو كتابه الصغير الحجم، الكثير النفع، (أثر القرآن الكريم في اللغة العربية)، وهو كتاب شهد بغزارة علم مؤلفه، وجزالة أسلوبه، وقوة حجته: الأديب المعروف الدكتور طه حسين، حتى كتب مقدمة للكتاب، أثنى فيها على الباقوري وعلمه.

وكان الشيخ الباقوري قد انضم إلى دعوة الإخوان المسلمين من قديم، وبايع الإمام حسن البنا على العمل لنصرة الإسلام، واستعادة مجده، وتحرير أوطانه، والتمكين له عقيدة ونظاما في حياة المسلمين. وكان عضوا في الهيئة التأسيسية، ثم بعد ذلك في مكتب الإرشاد العام.

وقد ذكرت في الجزء الماضي أننا ـ نحن طلاب معهد طنطا ـ حين زرنا المركز العام في إحدى المرات، وطلبنا إلى الإمام البنا أن يلقانا لقاء خاصا، اعتذر البنا لارتباط عنده، ورشح لنا الشيخ الباقوري ليلتقينا.

وحين أصدر الأستاذ البنا (مجلة الشهاب) حياها بقصيدة جميلة من قصائده. كما حيا من قبل مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) ـ وهي أولى مجلات الإخوان ـ بقصيدة رائعة، عنوانها: (تحيتي).

وعندما حل النقراشي جماعة الإخوان في ديسمبر 1948م، بلغني أن الأستاذ البنا أوصى بأن يكون الباقوري مسؤولا عن الإخوان خارج المعتقل.

وبعد استشهاد الإمام البنا كان اسم الباقوري أحد الأسماء المرشحة لقيادة الجماعة.

وفي الانتخابات التي جرت بعد سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي وحزب السعديين: رشح الشيخ الباقوري نفسه في دائرة الخليفة بالقلعة، كما رشح عدد من الإخوان أنفسهم وقد شهدته وهو يدور على أماكن التجمعات في الدائرة، ويخطب فيها. وإن لم يحالفه النجاح في النهاية، شأنه شأن كل مرشحي الإخوان: مصطفى مؤمن، وفهمي أبو غدير، وطاهر الخشاب، والشيخ عبد المعز عبد الستار وغيرهم.

وأذكر أني لقيته في تلك الفترة ـ بعد خروج الإخوان من المعتقلات ـ في محطة القطار بمدينة طنطا، فهرعت إليه، وسلمت عليه، وعرفته بنفسي، وسألته عن حال الإخوان، فتنفس الصعداء، وشكا إلى الله من سوء الحال. وقال: خير للجماعة أن تكتفي بما أنجزت، وأن تقف عند هذا الحد، وتبقى على هذا التاريخ الناصع، بدل أن

تكدر صفاءه بما لا يلائم تراث الجماعة ومواقفها الشامخة في قضايا الوطن والإسلام.

وحين اختار الجماعة الأستاذ الهضيبي مرشدا عاما، كان الباقوري أول من بايعه، وكان الهضيبي يصطحب الباقوري كثيرا في رحلاته إلى محافظات مصر، ويقدمه للحديث إلى الجماهير، وقد صحبته في رحلتين كان الباقوري رفيقه في كلتيهما: إحداهما إلى مدينة السويس، والأخرى إلى كفر الشيخ.

وكان الباقوري عضوا في مكتب الإرشاد مع الأستاذ الهضيبي، حتى قامت ثورة 23 يوليو. وحين طلب جمال عبد الناصر ورجال الثورة من الإخوان أن يرشحوا أشخاصا للوزارة رشح الأستاذ الهضيبي لهم ثلاثة لم يكن الباقوري بينهم. واختار رجال الثورة الباقوري ليتولى وزارة الأوقاف معهم، وأبدى الباقوري للهضيبي أنه راغب في الاستجابة لهم، وأن لديه أفكارا وتطلعات في إصلاح المساجد والأوقاف، ولم يمانع الأستاذ الهضيبي في ذلك، ولكنه طلب إليه أن يدخل في الوزارة باسمه لا باسم الجماعة. وهذا يتطلب منه أن يقدم استقالته من الجماعة، وقد قبل. ومن مكارم الأستاذ الهضيبي أنه ذهب للباقوري في مكتبه يهنئه بمنصبه. وهذا يعني أنه لم يعتبر دخوله قطعا لصلة المودة له. وقال له الباقوري: عفوا يا مولانا. إنها شهوة نفس. فقال له الهضيبي: اشبع بها**!**

ومما يذكر للباقوري ما نشرته جريدة (المصري) في 1952/9/11، فقد سأل مندوبها الشيخ عن أسباب استقالته من الإخوان فكان جوابه: هي أسباب أحب أن أوثر نفسي بها. وليس من بينها سبب واحد يمس احترامي لإخواني، واعتزازي بهم، فكل واحد منهم ـ صغيرا كان أو كبيرا ـ في أعمق مكان في قلبي.

انسجم الباقوري مع الثورة، وانسجمت معه الثورة، وكان خطيبها ولسانها المتحدث باسم الدين، وهو رجل حسن المظهر، حصيف الرأي، حلو اللسان، يحسن استقبال الناس، ويحسن الحديث إليهم، ويعرف متى يمسك لسانه، ومتى يطلقه، وفيم يطلقه.

ومن حسناته: أنه ضم إليه مجموعة من الدعاة المعروفين، ووكل إليهم شؤون الدعوة والمساجد، والثقافة الدينية، وعلى رأس هؤلاء: أستاذنا البهي الخولي الذي ولاه منصب مراقبة الشؤون الدينية، وشيخنا الشيخ محمد الغزالي الذي تولى منصب مدير المساجد، وشيخنا الشيخ سيد سابق، الذي تولى منصب مدير الثقافة. كما شهد الكثيرون من الإخوان أن الباقوري ما ذهب إليه من أعضاء الجماعة يطلب منه عونا أو خدمة في قضية، إلا لبى طلبه، وقضى حاجته، ما دام يقدر عليها.

وظل عبد الناصر راضيا عن الباقوري سنين طويلة، حتى بلغه عنه شيء كرهه منه، قيل: إنه حديث جرى عنده من الأديب والمحقق الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر، وهو رجل معروف بأنه لا يبالي من أصاب بلسانه، لا يخاف لومة لائم، ولا نقمة ظالم، فيبدو أنه ـ على سجيته ـ صب جام غضبه على عبد الناصر، ولم يدافع الباقوري عن رئيسه وقائده كما ينبغي، ولم يعلم أن ذلك سيبلغ عبد الناصر، الذي له عيون وآذان في كل مكان، حتى عند وزرائه أنفسهم، وقد قيل: إن هذا الحديث سجل، وسمعه عبد الناصر. وقيل: إن الباقوري كان مشغولا حين تكلم شاكر مع صديق له في بيت الباقوري، وأن الباقوري لم يسمع كلام شاكر.

وغضب جمال على وزيره، ولم يشفع له ماضيه معه، وخرج الباقوري من الوزارة سنة 1959م، وجلس في بيته معتكفا أو كالمعتكف، خمس سنوات أو يزيد. واتخذ من بيته صومعة يخلو

فيها إلى التعبد وتلاوة القرآن، ومدارسة كتب العلم، ولا يكاد يقابل أحدا. ثم بدأ يلقى في بيته بعض الخاصة من الناس، من أهل العلم والفكر، يذهبون ويجلسون عنده، يتراجعون في بعض مسائل العلم، وقضايا الأدب والفكر، وقد يحتد النقاش بينهم، فيرجعون إلى مصدر من المصادر في مكتبة الشيخ.

وقد زرته في هذه الفترة أنا وأخي أحمد العسال، فكان عنده العالم الأزهري البحاثة المعروف: الشيخ عبد الجليل عيسى، مؤلف كتاب (صفوة صحيح البخاري) الذي كان مقررا علينا في المرحلة الثانوية، وكتاب (اجتهاد رسول الإسلام) وكتاب (ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين) و(تيسير التفسير) وغيرها. وكان من جلسائه الدائمين.

كما وجدنا عنده الأستاذ خالد محمد خالد الكاتب الشهير، الذي لم أكن أعرف وجهه، ولم أعلم أنه خالد إلا بعد انصرافه.

وبعد ذلك رضي عنه عبد الناصر، فأسند إليه في سنة 1964م منصب أول مدير لجامعة الأزهر بعد التطوير، واستمر فيه حتى وفاته رحمه الله (1985م).

كما كان مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية بالزمالك، الذي أسسه رحمه الله، حتى غدا يعرف (بمعهد الباقوري)، الذي كان يعطي درجة الماجستير في العلوم الإسلامية. وقد ناقشت فيه رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي قدمها الطالب النابه محمد عبد الحكيم زعير - المراقب الشرعي الآن لبنك دبي الإسلامي - وكنت مع أ.د عيسى عبده إبراهيم رئيس لجنة المناقشة، والزميل الكريم أ.د حسين حامد حسان.

لم تكن صلتي قوية بالشيخ الباقوري، كما كانت بالمشايخ: الخولي والغزالي وسابق. ولذلك لا أعرف الكثير عن سيرته وحياته، ولا عن إنتاجه العلمي والأدبي، والمعروف أنه كان قليل العطاء في هذه الناحية، وخصوصا بعد توليه الوزارة. وكل ما قرأته له كتاب أخرجه تحت عنوان (عروبة ودين) هو مجموعة مقالات وبحوث جيدة ومتنوعة في موضوعاتها. وأظن له أشياء أخرى لا أعرفها، ولكنها ليست كثيرة. ولكنه كان رجلا يحترم نفسه، ويعرف عصره.

غفر الله للباقوري ورحمه، وجزاه خيرا عما قدم لأمته، وما قدم إلينا حين تحمل تبعة تعييننا بوزارة الأوقاف.



كتاباتي بمجلة (منبر الإسلام)

كان من فضل أستاذنا البهي الخولي عليّ: أن طلب مني أن أكتب مقالات لمجلة وزارة الأوقاف، والتي تصدر عن مراقبة الشؤون الدينية بالوزارة، باسم (منبر الإسلام).

وقد بدأت أول مقالة للمجلة تحت عنوان (أمنيّة عُمَريّة).

ثم حثني الأستاذ البهي أن أكتب فتاوى للمجلة بلغة العصر، فإن الذين يكتبون الفتاوى في المجلة يكتبونها بلغة قديمة، كثيرا ما تحمل التشديد، ولا تلائم روح العصر. فشرعت أكتب تحت عنوان (يستفتونك؟) وهي البواكير التي تشير إلى اتجاهي الذي تبنيته وعرفت به بعد ذلك، وهو (التيسير في الفتوى) و(التبشير في الدعوة). وكان الشيخان: البهي والغزالي يعجبان بها، ويشجعانني عليها.

ولم أشأ أن أوقع باسمي الصريح، حتى لا أثير ثائرة رجال المباحث العامة، الذين يقفون لنا بالمرصاد، ويريدون أن يغلقوا في وجوهنا كل الأبواب، فوقعت المقال باسم (يوسف عبد الله) دون أن أذكر القرضاوي.

وكانت مكافأة المقالة في ذلك الوقت (خمسة جنيهات) وهي مبلغ جيد لمثلي. ومن الطريف: أن أحد موظفي إدارة الشؤون الدينية في الوزارة، وكان اسمه يوسف عبد الله، فلما رأى مقالتي موقعه بهذا الاسم: ظن أن الشيخ الغزالي قد كتب هذه المقالة باسمه، ليصرف مكافأتها له. وقد فعل ذلك مع بعض المتحاجين، فذهب أخونا يوسف أفندي عبد الله، ليتسلم المكافأة المخصصة لصاحب المقال، وكاد يقبض المبلغ، لولا أن بعض موظفي المجلة كان يعرف

القصة، فأنقذ الجنيهات الخمسة وصرفتها، وكانت أول مكافأة أتسلمها على شيء أكتبه. والحمد لله حمدا كثيرا.

يا أصحاب الفضيلة اقرأوا

ومما أذكره في هذه الفترة: أني كتبت مقالة لمجلة (منبر الإسلام) بعنوان: يا أصحاب الفضيلة، اقرأوا! وقد عرضتها على الأستاذ البهي قبل نشرها، فأعجب بها الأستاذ، ولكنه قال: إنها ساخنة، وستغضب علينا المشايخ! قلت: ولكنها كلمة حق! قال: لا أشك في ذلك، ولكن ليس كل حق يقال في كل وقت.

وكنت قد لاحظت أن المشايخ ـ إلا القليل جدا ـ لا يقرأون، كأنهم بالحصول على الشهادة العالمية قد سقط عنهم التكليف. وقد حفظنا عن سلفنا: اطلب العلم من المهد إلى اللحد، حتى ظنه الناس حديثا، وما هو بحديث.

وكان بعضهم يقول لأحد تلاميذه ـ وهو على فراش الموت ـ: اقرأ علي كذا من كتاب كذا، حتى يجيئه الموت وهو يطلب العلم.

وقد قيل لبعضهم: إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الممات.

ومما أثر عن الإمام أحمد قوله: مع المحبرة إلى المقبرة.

وقيل لأحدهم: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إذا كان الجهل يقبح منه، فإن التعلم يحسن به.

وسئل بعضهم نفس السؤال عن تعلم الشيخ؛ فقال: إن التعلم منه أوجب، لأن الخطأ منه أقبح.

ومن العجب أن أمة كان أول نص نزل في كتابها: (اقرأ): لا تقرأ!

حتى إن موشى دايان الصهيوني قال لقومه يوما، وقد لاموه على نشر شيء معين: اطمئنوا فإن العرب لا يقرأون!

هذا مع أن أولى الناس بالقراءة وتعميق الثقافة هم: المشايخ الذين يتصدون لتوجيه الناس، وخصوصا الدعاة وخطباء المساجد، الذين يواجهون الناس كل يوم جمعة، فعليهم أن يكون لديهم في كل أسبوع شيء جديد يقولونه للناس. ولم تعد تنفع الناس دواوين الخطب القديمة، والكلام المسجوع المملول. وقد انتشر التعليم، وارتفع مستوى الذين يشهدون الجمعة، ويسمعون الخطبة.

وقد عنيت بهذا الأمر بعد ذلك، وفصلته وعمقته في كتابي (ثقافة الداعية) الذي أعددته لأشارك به في (المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة) الذي عقد في المدينة المنورة في أواسط السبعينيات من القرن العشرين.

على كل حال، استجبت لرغبة أستاذنا البهي، ولم أقدم المقالة للمجلة، ولعلي لو قدمتها، لوقفت عند رئيس التحرير.

ولا أدري أين ذهبت هذه المقالة، فأنا لم أجدها في أوراقي حتى اليوم.

بعثة رمضانية إلى العريش

وكان لوزارة الأوقاف بعثات في شهر رمضان من كل سنة تبعث فيها عددا من المتميزين من أئمتها وخطبائها ومفتشيها إلى بعض البلاد العربية والإسلامية، وبعض الجاليات الأوربية والأمريكية، وتعطيهم مكافآت لا بأس بها، تنعشهم وتقضي بعض حاجاتهم.

ونظرا لظروفي الأمنية، لم يكن من الممكن أن يكون لنا حظ في هذه البعثات الخارجية أنا والعسال. ولكن كانت هناك بعثات داخلية داخل مصر إلى الصحراء الشرقية (سيناء) والصحراء الغربية (السلوم وما حولها). ورشحتني الوزارة للذهاب إلى سيناء وعاصمتها العريش، ورشحت العسال إلى الصحراء الشرقية.

وكانت بعثتي إلى العريش في رمضان تجربة فريدة، فهي أول مرة أتعرف فيها على جزيرة سيناء، هذا الجزء العزيز من أرض مصر، الذي فصله الإنجليز عن الوادي، حتى كأنه ليس من مصر. وعندما أردنا الذهاب إلى هناك كان علينا أن نحصل على تصريح خاص بدخول سيناء، فليس من حق أي مصري أن يذهب إلى هذه المنطقة.

وقد ذهبنا في صيف سنة 1957م، وكانت آثار العدوان الثلاثي لا تزال ظاهرة للعيان، نشاهد بقاياها ومخلفاتها في كل مكان.

ولقد تعرفت على أهل العريش، وهم عرب أصلاء، يتميزون بالكرم ودماثة الأخلاق، وخصوصا آل الرفاعي، وآل الشريف وغيرهما. وقد أكرموا وفادتنا، وكنا مجموعة من المشايخ المختارين، بعضنا من وعاظ الأزهر مثل الشيخ النشار، وبعضنا من خطباء الأوقاف مثل الشيخ عبد المطلب صلاح خطيب مسجد الحسين، والشيخ إبراهيم الدسوقي المفتش بالمساجد، والذي أصبح بعد ذلك وزيرا للأوقاف في عهد السادات. وقد كنت أصلي بالإخوة التراويح، وألقي الدروس في المساجد وفي المجالس، كما نخطب الجمعة في مساجدهم: المسجد العباسي، ومسجد السنة، ومسجد المالح، وغيرها مما نسيت اسمه لطول المدة.

ومما أذكره أني ذهبت إلى رفح، وقالوا لي: هذه رفح المصرية، وهذه رفح الفلسطينية، ونجد العائلة الواحدة بعضها في مصر

وبعضها في فلسطين، والفاصل بينهما (مزلقان) من الخشب، وقد وقفت عند هذا المزلقان، ووضعت رجلي اليمنى في مصر، ورجلي اليسرى في فلسطين، وقلت لهم: أنا الآن نصفي في مصر، ونصفي في فلسطين!

وقد زرت غزة لأول مرة أيضا، وألقيت فيها درسا، وأفطرنا عند الأخ الفاضل العالم الشيخ هاشم الخازندار، واشترينا من أسواقها بعض الأشياء، التي لا توجد في الأسواق المصرية، ثم عدنا إلى العريش، وكان هذا الرمضان من أخصب الرمضانات، وأكثرها بركة، وقد ترك في نفسي وفي أنفس أهالي العريش أثرا حسنا، وذكرى طيبة، وصلات عميقة بيني وبينهم.

وقد تكررت هذه الزيارة أو هذه البعثة في السنة التالية، فزادت الروابط عمقا، وامتد التواصل بيني وبين العرايشة الكرام. وما كان لله دام واتصل.

الوحدة بين مصر وسورية

في هذه الفترة عندما كنت أخطب في جامع الزمالك: حدثت تجربة من أهم التجارب السياسية، وأعظمها خطرا في العالم العربي الحديث، وإن أخفقت ـ مع الأسف ـ في النهاية، هي: تجربة الوحدة الاندماجية السورية المصرية، وإقامة (الجمهورية العربية المتحدة) بإقليميها: الشمالي في سورية، والجنوبي في مصر، وإقامة دستور موحد، ومجلس نواب موحد، ومجلس وزراء موحد.

فبعد أن صعد نجم عبد الناصر في البلاد العربية بعد تأميم قناة السويس، وبعد تحديه للغرب المدل بقوته وسلاحه، وبعد تحرره من أسر احتكار السلاح الغربي، وبعد عزمه على إقامة السد العالي

متحديا سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد أن مهد صوت العرب ـ بقيادة المذيع اللامع أحمد سعيد ـ الطريق إلى قلوب العرب في كل مكان: كانت سورية ـ بكل فئاتها وتوجهاتها العربية والإسلامية ـ أسرع العرب تجاوبا مع عبد الناصر، وجاؤوا إليه مختارين، ليسلموا إليه زمام وطنهم، لتقوم وحدة اندماجية كاملة بين البلدين، ويقنع رئيس الجمهورية السورية: شكري القوتلي: أن يكون (المواطن العربي الأول) في (الجمهورية العربية المتحدة) الجديدة، التي أعلن عنها عبد الناصر في خطاب تاريخي حرك مشاعر الأمة من المحيط إلى الخليج، ووصف عبد الناصر هذه الجمهورية الوليدة بأنها قامت: توحد ولا تفرق، تقوي ولا تضعف، تحمي ولا تهدد، تصون ولا تبدد، تشد أزر الصديق، ترد كيد العدو.. ورضي كل من البلدين: أن يتنازل عن اسمه الخاص، في سبيل الوحدة. فتكون سورية: الإقليم الشمالي، وتكون مصر: الإقليم الجنوبي. وتعالت الهتافات: من الخليج الثائر، إلى المحيط الهادر: لبيك عبد الناصر!

وصفق العرب لها في كل مكان، وأشهد أن الإخوان برغم جراحهم التي لا تزال تدمى من عبد الناصر، وأن عددا غير قليل منهم لا زال يقضي أحكاما بالسجن والأشغال الشاقة في سجون الواحات وغيرها: رحبوا بهذه الوحدة وأيدوها وآزروها، حتى إن إخوان سورية حلوا أنفسهم اختياريا ليندمجوا في ركب الوحدة.

وأذكر أني خطبت في مسجد الزمالك خطبة تاريخية في تأييد الوحدة، وبيان أهميتها لقوة الأمة ونمائها ورقيها، وتمكينها من الانتصار على عدوها، وقدرتها على مواجهة التحديات الصعبة والخطيرة، ولذا دعا الدين إلى الوحدة، وحذر من التفرق والعداوة والتشرذم، وأن يكون بأس الأمة بينها، ويذوق بعضها بأس بعض.

وما في هذا من خطر عليها على كل صعيد. كما بينت أن أول الوهن الذي أصاب الدولة الإسلامية الكبرى هو حركات الانفصال والتشرذم التي مزقت الأمة شر ممزق.

وكان ممن حضر هذه الخطبة الكاتب الإسلامي الإخواني الأستاذ أحمد أنس الحجاجي، وكان معه ضابط كبير من ضباط الثورة، لا أذكر اسمه، أعجب بالخطبة، وقال له: كان يجب أن نسجل هذه الخطبة، ونكرر إذاعتها على الناس. فقال له الأستاذ أنس: إنكم لن تجدوا أحدا مثل الإخوان يؤيدون هذه الخطوات الإيجابية بمنطقهم الإيماني، وفهمهم الإسلامي، وبوعيهم بالدين والواقع والتاريخ.

وانطلقت الأناشيد والأغاني القومية تعبئ المشاعر، وتوحد الأفكار، وتجمع الإرادات على هدف واحد. مثل أغنية (وحدة ما يغلبها غلاّب) وأغنية: من الموسكي لسوق الحميدية، أنا عارفه السكة لوحديَّة.. الخ.

ولكن مما يؤسف له: أن النظام المصري ارتكب خطأ فادحا، حين لم يدرك طبيعة الشعب السوري، الذي كان يعيش أجواء الحرية، فأراد أن يفرض عليه النظام الاستبدادي الذي كان يخنق به أنفاس الشعب المصري، وأن يجعل من (المكتب الثاني) الذي يمثل جهاز المباحث العامة والمخابرات هو الحاكم الفعلي في الإقليم السوري، وأن يصبح الضابط المعروف عبد الحميد السراج هو مخلب مصر في سورية، ووكل أمر الإقليم الشمالي إلى المشير عبد الحكيم عامر، فلم يحسن التعامل معه كما ينبغي.

ولهذا سرعان ما ضاق الشعب السوري الأبي ذرعا بعبد الناصر وزبانيته، ورجال أمنه، وأجهزة مخابراته، فثاروا على الوحدة وضحوا بها من أجل الحرية. ووصف شكري القوتلي نفسه الذي سلم الحكم لنظام عبد الناصر: أن هذا النظام له ألف عين، ولكنه لا

يرى بواحدة منها.. وحمله فشل تجربة الوحدة التي استحالت إلى سراب، كما قال.

ووقف رجال العلم والدين من أمثال الشيخ على الطنطاوي بما له من قبول لدى الشعب يعلن تأييده لحركة الانفصال.

وضاعت ثمرة هذه التجربة الفريدة، نتيجة حكم الجبروت والاستبداد الغاشم، وصدق الله إذ يقول: (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) إبراهيم:

ومن قبل ضيعوا الوحدة بين شطري وادي النيل: مصر والسودان، برغم قوة عوامل التوحيد بينهما. مع أن الشهيد حسن البنا كان يسمي مصر: السودان الشمالي، ويسمي السودان: مصر الجنوبية!

زيارة الشيخ ابن تركي لمصر

وفي أثناء هذه الفترة التي كنت أخطب فيها بمسجد الزمالك: زار مصر فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي السبيعي مفتش العلوم الشرعية بوزارة المعارف، والمسؤول عن التعاقد مع علماء الأزهر وغيرهم لتدريس العلوم الشرعية في مدارس قطر.

وكان يصحبه من أبناء الأزهر أخونا الشيخ يوسف عبد المقصود، الذي ذهب إلى قطر من قديم، وعمل في مدارسها، قبل أن يحصل على الشهادة العالمية. وقد اصطحب أخونا يوسف الشيخ ابن تركي ليصلي الجمعة في مسجد الزمالك، واستمع إلى خطبتي، وشاء الله أن يعجب بها، ثم صافحني بعد الصلاة، وعرفني به الأخ يوسف. وطلب مني أن أزوره في الفندق الذي يقيم فيه (جراند أوتيل) في وسط القاهرة. وقد زرت الشيخ، وتبادلنا الحديث في علوم الشرع،

وعلم الإمامين ابن تيمية وابن القيم، وغير ذلك، مما شد الشيخ إليّ، وزاده ثقة بي، واطمئنانا إليّ، وودعته وشكرت له وحييته.

ولما رجع الشيخ إلى قطر، أرسل كتابا إلى الشيخ الباقوري وزير الأوقاف يطلب منه إعارتي إلى قطر، ولم يعرف ابن تركي أن وزير الأوقاف لا يملك أن يعيرني إلى قطر، لأني لست موظفا عاديا كسائر الناس، بل أنا معين على مسؤولية الباقوري استثناء. وحتى لو كنت موظفا عاديا، فلا بد أن تمر عليّ ثلاث سنوات حتى أعار إلى خارج مصر. فاعتذر وزير الأوقاف إليه. ولكن اسمي ظل محفورا في ذاكرة الشيخ حتى آن الأوان بعد ذلك لإعارتي إلى قطر.

رحلة البحث عن بنت الحلال

انتهت رحلة البحث عن العمل الذي أكسب منه لقمة العيش الحلال، لأدخل في رحلة أخرى هي رحلة البحث عن بنت الحلال، شريكة الحياة.

ومن الطبيعي لشاب أزهري: أن يفكر في الزواج، ويبحث عنه، وقد أتم الثلاثين من عمره. وقد حث القرآن والسنة على الزواج، وجعله من سنن المرسلين (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) الرعد: واعتبر رسول الإسلام الزواج من سننه "فمن رغب عن سنتي فليس مني" متفق عليه.

ولم يشرع الإسلام الرهبانية، بل رغب عثمان بن مظعون في (التبتل) والانقطاع للعبادة، فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صحيح أن هناك بعض العلماء الكبار شغلهم العلم أو هموم الأمة عن الزواج، فعاشوا وماتوا عزابا مثل النووي وابن تيمية، وقد صنف صديقنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: كتابا عن العلماء العزاب، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة.

وقد كنت أرجو قديما أن أتزوج بعد تخرجي بسنة واحدة، ولكن الاعتقالات لاحقتني، فكم تمكني من تحقيق هذه الأمنية. وقد قال شوقي حديثا:

قدرت أشياء، وقدر غيرها قدر يخط مصاير الإنسان!

وقال غيره قديما:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

وكم للإنسان من أحلام وأماني يعيش بها، ويركض وراءها، وقد يحقق بعضها، وقد يخفق في تحقيق شيء منها، ويعود بخفي حنين كما قال العرب، أو بلا خف أصلا.

كان الجانب المالي يمثل أولى العقبات في سبيل الزواج، فلم تكن لدي الوظيفة المستقرة بعد خروجي من المعتقل، كما لم يكن لدي ما أدفعه مهرا وشبكة وأعد به بيتا صالحا لحياة زوجية مناسبة.

فلما هيأ الله لي التعيين في وزارة الأوقاف، أمست لي وظيفة معقولة، كما هيأ اله لي ظروفا جمعت فيها ما يقرب من مائتي

جنيه، وهذا مبلغ طيب يشجعني على التقدم إلى أسرة ملائمة لأخطب منها.

ويطيب لي أن أذكر من أين جاءني هذا المال، لقد جاءني من ابتعاثي سنتين خلال شهر رمضان إلى مدينة العريش عاصمة سيناء من قِبل وزارة الأوقاف، وكانت تعطيني في كل مرة حوالي سبعين جنيها.

كما كلفتني الوزارة أو مراقبة الشؤون الدينية فيها ـ أنا والأخ أحمد العسال ـ بالإشراف على طباعة تفسير لعالم هندي كبير (ثناء الله الأمر تستري) ويتضمن تفسير القرآن بالقرآن، وهو تفسير على هامش المصحف، وقد قمنا بالمهمة، ومنح كل منا مكافأة، أظنها كانت سبعين جنيها. هذه (السبعينيات) الثلاثة من الجنيهات المصرية، كانت هي رأس المال الذي ادخرته للزواج، ولم أنفق منه شيئا، ولا سيما أني ليس لي مصاريف شخصية، فأنا لا أجلس على مقهى، ولا أدخل سينما، ولا أدخن. ولا أكاد أنفق إلا في مأكلي ومشربي وملبسي، وشراء كتبي، وغالبا ما تكون من الكتب القديمة، بعضها من (سور الإزبكية) الشهير، الذي كان سوقا معروفة لبيع الكتب القديمة، ولا يوجد عالم أو أديب أو باحث، لم يذق لذة البحث عن الكتب حول هذا السور العتيد. وبعضها من مكتبة الشيخ علي خربوش صاحب مكتبة الآداب في درب الجماميز بحي السيدة أو باب الخلق، وهي مكتبة يعرفها طلاب ذلك النوع من الكتب، الذي قد لا يوجد في المكتبات الحديثة، ولكنه يوجد عنده.

فمن حقي الآن ـ بل من واجبي ـ أن أبحث عن النصف الآخر، الذي أسعد به دنياي، وأكمل به ديني.

فالمرء بفطرته يتطلع إلى الجنس الآخر، فكلا الجنسين لا يستغني أحدهما عن الآخر، لا يستغني الرجل عن المرأة، ولا المرأة عن الرجل، فهو يكملها، وهي تكمله، كما قال تعالى: (بعضكم من بعض) آل عمران: أي الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل.

ولما خلق الله آدم أبا البشر، وأسكنه الجنة، لم يدعه وحده، إذ لا معنى لجنة يعيش الإنسان فيها وحيدا مستوحشا، لهذا خلق الله له من نفسه ـ أي من جنسه ـ زوجا ليسكن إليها، وقال له: (واسكن أنت وزوجك الجنة) البقرة:

فالإنسان إذن يحتاج إلى سكنين: سكن مادي: يسكن فيه، وسكن معنوي: يسكن إليه. والمرأة للرجل هي السكن المعنوي النفسي الذي يحتاج إليه، ليجد الأنس والرّوْح إلى جانبه، كما قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم: 33.

ومن هنا كان دعاء عباد الرحمن الذين أثنى الله تعالى عليهم: أنهم يقولون: (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) الفرقان:

وبهذا يكون الزوج مكملا لدنيا الرجل، ومجملا لحياته، ومصدرا من مصادر سعادته، كما في الحديث: "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة" وكما في الحديث الآخر: "أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء".

كما أن الزواج مكمل لدين الرجل أيضا، حتى شاع بين جماهير المسلمين أن الزواج نصف الدين، وهو مقتبس من الحديث النبوي:

"من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي".

وبهذا يتبين أن مجرد الزواج ليس هو شطر الدين أو نصفه، بل الزواج من المرأة الصالحة، التي تعينه على أمر دينه، فتذكره إذا نسي بأمر ربه، وتنبهه إذا غفل عن واجبه، وتقويه إذا ضعف عن القيام بأعباء دعوته.

ورب زواج من امرأة قليلة الدين تكون سبب ضياع صاحبه. وقد كان الإخوان إذا سئلوا عن الأخ إذا تزوج من امرأة، فتقاعس عن الدعوة وتكاليفها، قالوا: رحمه الله، انتقل إلى جوار زوجته!

وفي الحديث المتفق عليه: "تنكح المرأة لأربع: لحسبها، ومالها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك".

وذات الدين هي المرأة الصالحة، وهي إحدى النعم التي من أوتيها فقد أوتي خير الدنيا والآخرة، مثل اللسان الذاكر، والقلب الشاكر، وهي من خير ما يكنزه المرء لدنياه وآخرته. وهي التي إذا نظر غليه سرته، وإذا أقسم عليها أبرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنه حفظته في نفسها وماله، كما قال تعالى: (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) النساء:

لا عجب أن أتطلع بجد للبحث عن تلك المرأة، فأين أجدها؟ وأين من يدلني عليها؟

لقد حاول خالي رحمه الله ـ وأنا طالب بكلية أصول الدين ـ أن يزوجني من إحدى قريباتنا من قرية شبشر الحصة بالقرب من قريتنا، وكان لا ينقصها الجمال ولا الدين ولا الخلق، ولا الحسب ولا المال، ولكن كان ينقصها شرط، وينقصني أنا شرط. أما شرطها، فهي أنها لم تتعلم أكثر من الابتدائية، وهذا القدر من التعلم

لا يكفيني. وأما الشرط الذي ينقصني أنا، فهو أني لم أزل طالبا، ومعنى زواجي منها: أن تنفق علي من مالها، وقد كان أهلها مرحبين غاية الترحيب بذلك، ولكن كرامتي لم تسمح لي أن أكون عالة على مال امرأتي.

شروط فيمن أريدها زوجة

بدأ إخواني وأصدقائي من حولي يسألونني عن شروطي في الفتاة التي أنشدها زوجا لي وأما لأولادي. فقلت لهم: إن لدي أربعة شروط لست مستعدا لأن أتنازل عن واحد منها:

الأول: أن تكون من أسرة طيبة، ذات معدن أصيل، وأن يظهر ذلك في دينها وسلوكها، فلا أريد (خضراء الدِّمَن) وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء. فلا بد أن تكون محافظة على الصلاة، فهذا أمر أساس.

قالوا: هل تشترط أن تكون محجبة؟ قلت: أستحسن هذا ولا أشترطه، لندرة المحجبات في ذلك الوقت، ولكن لا تكون متبرجة.

والثاني: ألا يقل تعليمها عن الشهادة الثانوية، ولو كانت جامعية، فهو أفضل، حتى تستطيع أن تتفاهم معي، وأتفاهم معها، وأن تساعد أولادها في المستقبل.

والثالث: أن تكون على قدر من الجمال يرضيني، فخير النساء من تسر إذا نظرت، وتطيع إذا أمرت، والجمال أمر نسبي، فما يعجبني قد لا يعجب غيري، وما يعجب الآخرين قد لا يعجبني. والناس في ذلك جد متفاوتين. المهم أن أراها فتدخل قلبي. والناس يقولون: الحب مستغن عن الجمال، يعنون: أن الرجل قد ينظر إلى امرأة

فتستهويه وتملك عليه قلبه من أول نظرة، وهي في عينه ملكة جمال، والآخرون ربما لا يرون فيها شيئا من الجمال.

والرابع: شرط غريب في نظر الكثيرين، وهو: أن يكون لها إخوة أشقاء من الذكور خاصة، وسر ذلك: أني وحيد أبي، فليس لي إخوة، ومعنى هذا: أن أولادي لن يكون لهم أعمام، فينبغي أن يكون لهم أخوال.

هذه شروطي الأربعة، التي أعلنتها وأشعتها بين الأصدقاء، وعلى أساسها يجب أن يكون بحثهم معي عن النصف الآخر، وقد طفقوا يبحثون، وطفقت أنا أبحث أيضا.

محاولات عدة لم يكتب لها التوفيق

وفي أثناء بحثي عثرت على فتاة رأيتها ضالتي التي أنشدها، كانت تدرس معي في معهد الدراسات العربية العالية، وفي قسم اللغة والأدب الذي أدرس فيه، وهي على قدر ملائم من الجمال يرضي تطلعي، وهي خريجة قسم اللغة الإنجليزية من كلية الآداب، ويمكن أن تساعدني في تعلم اللغة، وهي محجبة، وعلى غاية من الأدب والحياء وحسن السلوك، وهي تصغرني بنحو خمس أو ست سنوات، وسألت عنها، فعرفته أنها غير متزوجة، ثم عرفت أنها شقيقة أحد الإخوة الأفاضل، كان زميلا لي في معهد طنطا، وإن كان بعدي بسنتين، وكان من طلاب الإخوان، فاستبشرت بذلك، فهو يعرفني جيدا وأنا أعرفه، وبالفعل كتبت إليه أطلب التقدم لخطبة شقيقته إذا لم يكن هناك مانع. وسرعان ما جاءني جوابه يحمل كثيرا من الثناء علي، والترحيب بي، وأني نعم الزوج، ونعم الصهر.. لولا أن شقيقته مخطوبة لابن خالها من الصغر.

وقلت هنا ما يقوله الناس في هذا المقام: الزواج قسمة ونصيب.

وبدأ الأصدقاء يرشحون لي أسماء لفتيات من مدن وبلاد شتى، فأحيانا أرفض العرض، لنقص شرط من الشروط التي وضعتها.

من ذلك أن أحد إخواننا الوعاظ، وكان معنا في مدينة العريش في شهر رمضان، كان هو مبعوثا من الأزهر، وكنت أنا مبعوثا من وزارة الأوقاف، وقد رشح لي فتاة من قريته قريبا من دمياط، هي وحيدة أبويها، وترث من أبيها ستين فدانا، وهي ثروة تغري الكثيرين، ولكني أعرضت عنها لسببين:

السبب الأول: أنها وحيدة أبويها، وأنا أشترط أن يكون لزوجتي أشقاء.

السبب الثاني: أني عرفت أنها كانت مخطوبة لضابط بالجيش استشهد في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956م، فخشيت أن تكون معلقة القلب به، وهذا قد يسبب مشكلة نفسية في المستقبل.

ورشح لي أحد الإخوة في محلة أبو علي ابنة قريب له في قرية (الراهبين) بجوارهم، ولكنهم اعتذروا، ولعل وضعي المادي لم يقنعهم، فقد كنت موظفا في أول درجات السلم الوظيفي، وليس لي ميراث من أبي أو أمي، فما الذي يجعلهم يرضون بي على هذا الوضع، والرجال كثير؟

ورشح لي أحد الإخوة من المحلة ابنة قريب له من إحدى قرى مركز المحلة، كان معنا في السجن الحربي، وكان من خيرة من عرفت دينا وخلقا وفضلا، ولكنه من أسرة كبيرة من أعيان قريته، ولا غرو أن جاءني الرد بالاعتذار، وأعتقد أن هذا من حقه،

فالفرق الاجتماعي بيننا كبير، فأنا من أسرة صغيرة من الفلاحين أو من الأهالي، وهو من أعيان القوم.

وأعتقد أن هذا كان خطأ مني في تقدير الأمور، فالرجل ـ وإن كان من صفوة الإخوان ـ من عائلة كبيرة لها تقاليدها. ومثلي لا يصلح لها، وخصوصا مع وضعي المادي والوظيفي الناشئ، صحيح أن تراثنا يقول: العالم كفء لبنت السلطان، وكم من علماء تزوجوا من بنات الأمراء والوزراء. ولكن لا بد أن يكون العالم في وضع مادي يسند ظهره.

على أن تفسيري هذا ليس حتميا، فقد يكون الرجل نظر إلى الأمر نظرة أخرى، وهو أني رجل معرض للزلازل والمحن في حياتي بحكم عملي الدعوي، وهو لا يريد لابنته أن تبتلى بالمحنة التي ابتليت بها زوجته حين اعتقل، ومن حق كل أب أن يحرص على ما يراه ضروريا لسعادة ابنته.

وكذلك رشح لي بعض إخواني في المحلة ابنة شقيق أخ معروف منهم، وهو من أعز أصدقائي، وهي في السنة النهائية بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وتوشك نتيجتها أن تظهر، وأنها على قدر طيب من الجمال. وفعلا اتصلت بعم الفتاة، وأفضيت إليه برغبتي وطلبي، فاتصل بأخيه وأسرته وحددوا لي موعدا لأرى الفتاة وتراني، فإذا تمت موافقة كل منا على الآخر، شرعنا في الخطوات التالية.

وسافرت إلى المحلة في اليوم الموعود، ووجدت القوم ينتظرونني، وقد أعدوا ما يشبه أن يكون حفلا صغيرا، ورأيت الفتاة، والحمد لله قد أعجبتني، وحدثتها وحدثتني، وتجاوبنا معا، واتفقنا على أن نلتقي لقاء آخر بعد ظهور نتيجتها.

وعدت إلى القاهرة، وأنا قرير العين، سعيد الأحلام، لا تسعني الدنيا من الفرحة، صحيح أنها ليست محجبة، ولكنها محتشمة، ولا تمانع أن تتحجب في المستقبل كما يبدو لي.

وبقيت أياما على هذه الحالة من السرور والاستبشار، حتى جاءني من يخبرني بأن الجماعة في المحلة يعتذرون عن عدم إتمام المشوار الذي بدأناه لظروف طارئة، لم يفصحوا عنها، ولا أدري حتى الآن ما هي؟

وقلت مرة أخرى: الزواج قسمة ونصيب.

ثم رشح لي بعض الإخوة من طنطا فتاة من أسرة يعرفونها، ورتبوا لي لقاء في بيت أحدهم، وحضرت الفتاة مع بعض أهلها، وحضرت معهم، ورأيتها، كما رأتني، ولكنها لم تدخل قلبي، ولم ترق لي. وإن كانت هي قد استعجلت وأشاعت بين زميلاتها أن فلانا خطبني، مع أني لم أقل كلمة واحدة تفيد قبولي لها بالتصريح أو التلويح. وهذا آلمني كثيرا. فما أحب أن أجرح شعور أحد.

وكذلك رشح لي بعض أبناء قريتي ابنة أحد رجال القرية من موظفي شركة الغزل بالمحلة، وممن يقيمون بالمحلة منذ زمن، ودعاني والد الفتاة لأراها في منزله، وألقيت نظرة عليها، ولكنها للأسف لم تنل إعجابي، ولم ينفتح لها قلبي، وماذا أصنع في هذا القلب؟ إنني لا أملك أن أفتحه أو أغلقه، فإن الذي يفتحه ويغلقه هو الله.

ولقد تألمت من نفسي أشد الألم، واستبد بي شعور يكويني كيا، كلذع الجمر، حيث لم تقع الفتاة موقعها مني، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف أسمح لنفسي أن أؤذي مشاعر بنات الناس واحدة تلو الأخرى؟ وكأني وحيد دهري، وفريد عصري! ولماذا لا يكون

العيب فيّ أنا، وليس في هؤلاء الفتيات؟ ربما كنت معجبا بنفسي أو مغرورا أكثر من اللازم، والعجب والغرور من (المهلكات) كما سماها الإمام الغزلي في (الإحياء)، أخذا مما جاء في الحديث الشريف.

على كل حال، قد آليت على نفسي أن لا أرى الفتاة التي أريد خطبتها بهذه الطريقة الرسمية أبدا. وإنما أفعل ما كان يفعله سيدنا جابر بن عبد الله عندما أراد أن يتزوج، فقد قال: كنت أتخبأ لها تحت شجرة، حتى رأيت منها ما دعاني إلى زواجها.

وأخيرا وفق الله

وبعد هذا المشوار الشاق الحافل بالمحاولات الفاشلة: جاء الفرج والتيسير من الله الذي قضت سنته أن تجعل بعد العسر يسرا، وبعد الليل فجرا.

لقد رشح لي عدد من أصدقائي بمحلة أبو علي وسمنود: فتاة من عائلة طيبة الأصول، كريمة المعدن، والدها يعمل ناظرا بإحدى المدارس، في مركز سمنود، وخالها طبيب كبير مشهور، ولها ثلاثة أشقاء، أكبرهم خريج كلية الحقوق، وهو يقضي الآن مدة التجنيد الإجباري، وقالوا لي: نظنك تعرفه، فقد كان معتقلا معك في السجن الحربي، وهو الأخ سامي عبد الجواد الهرم. وقد حصلت على الشهادة الثانوية، ولم تسمح ظروفها العائلية بالسفر إلى القاهرة للدراسة بالجامعة، وهي الآن في العشرين من العمر أو فوق العشرين بقليل، وهي على قدر طيب من الجمال باعتراف الجميع. كما أنها على قدر أطيب من حسن السيرة والخلق يشهد به كل من خالطهم.

قلت للإخوة: أما الأخ سامي عبد الجواد، فأنا أعرفه جيدا، وهو مفتاح جيد لهذا الباب.

وقلت في نفسي: الحمد لله، هذه والله مناسبة من جميع الوجوه، وفيها توافرت الشروط الأربعة التي وضعتها لمن أختارها، وهي: العائلة والجمال والثقافة والأشقاء. لعل الله جل ثناؤه يكون قد كتبها لي.

ولكن بقي شيء مهم، وهو: أن أراها، فرأي الناس فيها لا يكفيني، وفي قضية الجمال تختلف أذواق الناس اختلافا كثيرا. وقد شرع لنا الإسلام أن يرى الرجل من يخطبها، كما يشرع ذلك للمرأة أيضا. وقد خطب المغيرة بن شعبة من الصحابة امرأة، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: هل نظرت إليها؟ قال: لا، قال: "اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما".

وقال الإخوة الكرام الوسطاء: محمد بدر عبد الباسط وعلي خلف من سمنود، ومصباح عبده ورمزي الدمنهوري من محلة أبو علي: نرتب لك لقاء، تراها وتراك. قلت لهم: لقد حلفت أن لا أفعل ذلك، لما سبَّبْته من أذى نفسي لبنات الناس. ولكن يجب أن تساعدوني في رؤيتها بدون علمها. وهذا جائز شرعا، ما دام القصد هو الارتباط الحلال وفق شرع الله.

وفعلا رتبوا ترتيبا حسنا، فقد كانت الفتاة المرشحة صديقة صدوقة لشقيقة الأخ محمد بدر عبد الباسط، وكانتا زميلتين في الدراسة، وبينهما تزاور وتلاق مستمر، وكانت الخطة: أن تذهب شقيقة الأخ محمد للعروس، وتصحبها من بيتها لزيارة أخرى، وأن أنتظر في مكان معين مناسب في الطريق، ومعي بعض هؤلاء الإخوة، ليعرفوني: من هي منهما؟ وقد تحقق ما اتفقنا عليه، ومرت الفتاتان في المكان المعهود عند مكان اسمه (سيدي محمد) وقيل لي: إنها

تلك صاحبة الفستان الأصفر، فقلت: الله أكبر. هذه هي العروس التي كنت أبحث عنها. لقد انفتح لها قلبي من أول نظرة. والعين رسول القلب، وسألت الله أن ييسر الأسباب لإتمام الأمر على ما يحب ويرضى.

وهنا قال الإخوة الأصدقاء الوسطاء: بقي عليك الآن أن تتحرك، وتبدأ الخطوة الأولى. وهي الاتصال بشقيقها الأستاذ سامي، الذي عرفته في السجن الحربي، وهو يعرفك من قديم كما نعرفك، وازداد معرفة بك داخل السجن قطعا، وهو يقضي فترة التجنيد في القاهرة، ويخرج كل يوم خميس ليقضي إجازته عند خالته في حلوان، وتستطيع أن تقابله هناك. وأعطوني العنوان، وأوصوني بسرعة التحرك.

ولقد عرفت الأخ سامي فعلا في السجن، واسترحت إليه، لما لمست فيه من ذكاء وإخلاص ونشاط وبشاشة وجه، وحسن خلق، وحضور شخصية، ولم أكن أحسب أن القدر سيربط بيننا بمصاهرة أبدية، وأنه سيصبح الخال الأكبر لأولادي.

لذا حين عدت إلى القاهرة بدأت أتهيأ للقاء الأخ سامي في أول مساء خميس يأتي. وذهبت إلى حلوان لأبحث عن العنوان الذي أعطاه لي الإخوة، ولم يكن لي معرفة ولا خبرة بحلوان، لهذا ضللت الطريق، وأخطأت العنوان في أول الأمر، وكلفني هذا مشيا طويلا على قدمي، وبخاصة أننا في الليل، ولكني لم أحس بطول المشوار، وهو مشوار محبب إلى نفسي، ولا بأس على المرء أن يجهد ويتعنى في تحقيق آماله، حتى يعرف قيمتها إذا تحققت.

ووصلت إلى منزل الخالة نجية خالة سامي وخالة العروس، ودققت الباب، فخرج الأخ سامي، وفوجئ بي، فقال: أهلا وسهلا، وتعانقنا، وجلسنا في حجرة الضيوف التي يسمونها (الصالون). ورحب بي

الأخ سامي الذي لم يرني منذ أيام الحربي، ولم يكن يتوقع هذه الزيارة التي لا يدري سببها. وقد كان يعرفني شيخا معمما، فها هو يراني قد غيرت زيي القديم، لأرتدي الحلة الإفرنجية (البذلة).

وبادرت أنا بالحديث لأقطع دهشة المفاجأة، وقلت: هل تعرف يوسف القرضاوي؟ قال: كيف لا أعرفه؟! أخونا الكبير وأستاذنا. قلت: وهل تعرف إسعاد عبد الجواد؟ قال: كيف لا أعرفها وهي أختي وشقيقتي؟ قلت: بلا مقدمات وتطويل، لقد جئت لأخطبها، فما قولك؟ وأنا الآن موظف في وزارة الأوقاف، ومستقر والحمد لله. قال: مبدئيا هذا يسعدني، ولكنك فاجأتني، ولا بد من تمهيد الأمر عند العائلة، وخصوصا الوالد، فأعطني فرصة حتى أرد عليك.. ثم دخل عند خالته ليحضر لنا الشاي، ولكنه انتهز الفرصة وكلمها فيما جئت من أجله. فقالت له: أتح لي فرصة لأراه و(لأخطبه) نيابة عن إسعاد ابنة أختي، فقال لها: يمكنك أن تريه من نافذة الحجرة إذا خرجت إلى الشارع. وقد علمت أنها رحمها الله خرجت إلى الشارع ونظرت وحدّقت، وقدمت تقريرا كان في صالحي.

سرتني هذه المقابلة الأولى، واستأذنت في الانصراف، منتظرا الرد من الأخ سامي، بعد أن يكتب إلى والده، ويشاور العائلة.

وكان سامي في صفي، واجتهد أن يقنع والده بقبولي خاطبا لابنته الوحيدة، وأن يضفي علي من الصفات و(المقبّلات) ما يروج عند والده رحمه الله.

ولم يكن لدى والده أي اعتراض علي إلا من جهة واحدة، وهي: أني من الإخوان، ومن دعاتهم الناشطين، وأن أي محنة تأتي سأكون في طليعة المعتقلين، وقد جرب ذلك في سامي. وقال لزوجه أم سامي: يعني في أي بلوى تصيب الإخوان، سيكون ابنك وزوج ابنتك كلاهما في المعتقل!

وكانت الحاجة أم سامي معي، فقالت له: لماذا نفترض البلاء قبل وقوعه؟ وهل نعرف نحن ما يخبئه المستقبل؟ كل الناس يمدحون هذا الرجل، فلماذا نخسره؟ لندع أمر المستقبل لله.

وكان ممن سألوه عني: الأستاذ مصطفى الحسني ابن عمة سامي والعروس، وهو أزهري يعمل في مهنة الصيرفة. وكان طالبا قبل ذلك في معهد طنطا، وقد عاصرني فيه، فلما سألوه عني أوسعني مدحا وثناء، بما يعرفه عني في العلم والخلق والسلوك وحسن السمعة، ثم قال لهم: إن ابن عمته ـ الأستاذ يوسف النجار ـ زميل لي يعمل في الصيرفة، وسأسأله عنه وآتيكم بالمزيد، وابن عمتي هذا هو الذي كنت أسكن معه في السنتين الأولى والثانية بالمعهد الديني، وهو يعرفني منذ الطفولة ويعرف مدخلي ومخرجي، فأعطى تقريرا عني، نقله مصطفى الحسني إلى خاله الأستاذ عبد الجواد، فزادهم ثقة واطمئنانا.

وكل الأزهريين في سمنود الذين سألوهم لم يجدوا بينهم أحدا قال عني كلمة سوء. جزى الله الجميع عني خيرا، وجعلني عند حسن ظنهم.

وأرسلت الخالة نجية من حلوان إلى أختها أم سامي تقول لها: إنها رأتني، وإنها تنوب عنها وعن إسعاد ابنتها، وتحب أن تطمئنهما إلى صورة (العريس) وشكله وطوله وعرضه.

وكانت حصيلة هذا كله: الموافقة من العائلة علي، وأبلغني الأخ سامي بذلك، على أن نلتقي لنتحدث في التفاصيل والإجراءات.

والتقينا في أقرب خميس في حلوان في منزل الخالة نجية، التي تعرفت عليها وعلى زوجها الأستاذ عبد المنعم جابر، وقالت لي:

إنها ساهمت في إنجاز الأمر بما قدمته من تقرير عني للعروس ولأمها، فهما رآياني بعينيها.

الرحلة إلى سمنود ثم المنصورة لشراء الشبكة

واتفقت مع الأستاذ سامي على المهر و(الشبكة) وعلى موعد عقد القران. وفي أواخر شهر يوليو ذهبت إلى منزل والد العروس في سمنود لأول مرة، ومعي: السكر والشربات وعلب الحلوى التي توزع على المدعوين ونحو ذلك. وعندما وصلت إلى المنزل قلت لهم: والعروس حاضرة، وقد رأوني لأول مرة: أما أنا فقد رأيت العروس من قبل رؤية خاطفة، ولكنها كافية، وهي لم ترني إلا الآن، ومن حقها ألا تتم الصفقة إذا لم تعجبها البضاعة عند المعاينة، والقاعدة الشرعية: أن من اشترى ما لم يره، فله الخيار إذا رآه. وضحكوا، وقالوا: يبدو أن العريس دمه خفيف. وقالوا: كيف نرجع في كلامنا بعد أن أحضرت الشربات ولوازم الفرح؟ قلت: ولكنا لا زلنا على البر.

وبت عندهم تلك الليلة، وجلست مع العروس في حضور أهلها، وتعرفت عليها، وتعرفت علي، واستراح كلانا إلى الآخر. أو (دخل قلبه). وفي الحديث الصحيح: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" ويبدو أن روحينا قد تعارفتا فائتلفنا، وهذا من فضل الله.

رأي فيما يسمى (الشبكة)

وفي الصباح تقرر أن نذهب إلى المنصورة لنشتري ما يسميه المصريون (الشبكة) ولا أدري بالضبط: من أي عهد أصبحت هذه الشبكة من الفرائض المقررة في الزواج؟ ولم يكن يعرفها المسلمون الأولون، بل هي لا تعرف في كثير من البلاد العربية والإسلامية. ولكن العرف أقرها وأمضاها، وللعرف اعتباره.

وقال الفقهاء في قواعدهم: (العادة محكمة). وقالوا: (المعروف عرفا كالمشروط شرطا).

على أن كثيرا من الأعراف دخلت على المسلمين في كثير من البلدان في دنيا الزواج، فعسرت على الناس ما يسر الله، وعقدت ما سهله الشرع. وخصوصا أنهم التزموها كأنها أساسيات أو أركان، مثل الشبكة وكثرة الأحفال، وغلاء المهور، وشهر العسل وغيرها.

على أني لا أجد مانعا من قبول فكرة (الشبكة) على اعتبار أنها نوع من الهدية يهديها الخاطب إلى مخطوبته، وقد جاء في الحديث: "تهادوا تحابوا" على ألا يبالغ الناس فيها بحيث نرهقهم من أمرهم عسرا، ونكلفهم شططا، فالخير في الاعتدال والوسط، لا في الغلو والشطط.

ذهبنا إلى المنصورة أنا والعروس بصحبة الحاجة رابعة أم الأخ محمد بدر عبد الباسط، وشقيقته مجيدة صدقة العروس، والتي رتبت فرصة رؤيتي الأولى لها، وهي صديقة أم العروس، وقد أنابتها عنها في شراء الشبكة، لأنها مشغولة بإعداد الطعام للضيوف، وعلى رأسهم (عريس) البنت الوحيدة، وكانت الحاجة رابعة سيدة من فضليات النساء، ولها خبرة بمحلات الذهب، وبائعيه، والثقات منهم، وتعرف ما المطلوب في هذه المناسبة.

ومشينا في شوارع المنصورة، وكانت خطواتي سريعة، فكنت أسبقهم بمسافة، فقالت لي الحاجة: يا أستاذ يوسف، لا بد أن تعود نفسك من الآن على المشي المناسب للنساء، فلا تسرع الخطوات كثيرا، وإلا تركت زوجتك تمشي وحدها!

وكانت نصيحة مهمة، فالمشي مع النساء لا تناسبه السرعة التي تعودتها في عهد العزوبة.

واشترينا شبكة محترمة على ذوق العروس، وكان الذهب رخيصا في ذلك الزمان، فكان ثمنها أقل من ستين جنيها فيما أذكر.

فكرة (الدِّبَل) فكرة دخيلة

وكان من ضمن الشبكة (دبلة) للعروس من الذهب يكتب عليها الحرف الأول من اسم (العريس) وتاريخ الزواج (عقد القران) ودبلة من الفضة للعريس يكتب عليها الحرف الأول من اسم العروس والتاريخ. وكان التاريخ هو: يوم 1958/7/31م. وهو اليوم الذي اتفقنا فيه على عقد القران.

وعندما تلبس الفتاة هذه (الدبلة) تعرف أنها مخطوبة، فإذا زفت إلى زوجها نقلت الدبلة من يد إلى الأخرى، من اليمنى إلى اليسرى.

وفي اعتقادي أن هذه العادة (تلبيس الدبل) دخيلة على المسلمين، ولعلها مأخوذة عن النصارى، فعندهم خاتم الزواج، وله قدسية خاصة.

على أية حال جاريت القوم في قضية الدبل هذه، ولكني اشترطت أن تكون من فضة لا من ذهب، كما يفعل أكثر الناس للأسف. وبعد مدة خلعت دبلتي الفضية وقلت لزوجتي: إني لا أجد لها أصلا، ولا

ينبغي لمثلي أن يقلد الناس في ذلك. فقبلت ذلك مني، وتفهمت الأمر، جزاها الله خيرا. فإن بعض النساء قد تتطير من ذلك، وتتوجس شرا من وراء خلع الدبلة.

وعدنا إلى سمنود لنأكل (الديك الرومي) الذي أعدته حماتي ترحيبا بالعريس، واحتفالا بشراء الشبكة.

عقد القران

وبعد يومين قضيتهما في سمنود ـ بالقرب من العروس ـ كانا من أسعد الأيام في حياتي، ذهبت إلى قريتي صفط تراب، لأدعو الأقارب والأحباب والمهمين من أهل القرية لحضور عقد القران في سمنود في عصر يوم 1958/7/31م.

وفي اليوم المحدد ذهبت مع الأهل والأقارب إلى سمنود لعقد العقد أو (الميثاق الغليظ) كما سماه القرآن الكريم، وقد أعد سرادق أمام منزل العروس، وعقد العقد على بركة الله تعالى، بحضور هذا الجمع الكريم من أهل سمنود، وأهل صفط ومحلة أبو علي، وفي الليل عاد المدعوون من أهل صفط وطنطا وغيرها إلى بلدانهم، وبقيت أنا في منزل الأصهار، وقد أصبحت واحدا منهم، فالمصاهرة أحد الرابطين اللذين يربط الله بهما بين الناس برباط طبيعي، وهما: النسب والصهر، كما قال تعالى: (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهر) الفرقان:

يا سبحان الله. إن هذه الكلمات القليلة: زوجتك ابنتي فلانة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله .. وقبلت الزواج منها.. بحضور الشهود، تحل للإنسان ما كان محرما، وتدخله في أسرة كان غريبا عنها، وتنشئ بيتا إسلاميا، يضم إلى بيوت المسلمين.

بقيت مع عروسي، بعد أن أمست زوجة شرعية لي، ولم يعد أهلها حريصين على أن يكون بيننا رقيب من إخوانها الصغار، كما كان ذلك قبل العقد. وتحدثت إليها، وتحدثت إلي، وطال الحديث الذي لم ينقطع إلى اليوم، والحمد لله.

كان أصهاري كرماء معي، فلم يطلبوا مني من الصداق ما يؤدد ظهري، وقالوا: ادفع ما تقدر عليه، فدفعت مائة جنيه مقدما، وسجلت علي خمسين مهرا مؤخرا.

ووفقا للتقاليد المصرية، كان على والد العروس أن يعد لها جهازا لائقا: ثلاث حجرات: للضيوف (الصالون) والطعام (السفرة) والنوم. وعلي السجاجيد والنجف والمطبخ.

وبعد يومين أو ثلاثة غادرت سمنود، بعد أن تعلق قلبي بعروسي، وتعلق قلبها بي، في انتظار أن يكمل تصنيع الجهاز، الذي يقوم به محل أثاث متخصص مشهور بالإتقان، يملكه أحد أقارب حماتي (ابن عمتها).

وسافرت من سمنود إلى مدينة (بور سعيد) لأقضي نحو عشرة أيام على شاطئها، مع ثلة من المشايخ والإخوان، على رأسهم شيخنا الشيخ محمد الغزالي، وقد تنازل بعض الإخوة عن شققهم على الشاطئ لننزل فيها، فكان مصيفنا بالمجان. وقد أعطيت عنواني لزوجتي، فسرعان ما جاءتني رسالة منها، كان لها وقع الماء البارد الزلال على الجوف الظامئ المحترق. وقد حاول بعض الأصدقاء أن يخطفوا الرسالة مني حين عرفوا أنها من سمنود، ليعرفوا ماذا قالت لي زوجتي، ولم يحدث بيننا لقاء إلا أياما معدودة، ولم أمكنهم من ذلك. ورددت عليها برسالة بثثتها ما في قلبي من شوق وحنين إلى لقاء قريب. وفي هذه الفترة حتى الدخول في 1958/12/14م، تبادلنا

جملة من الرسائل التي تحمل أصفى ألوان الحب والشوق والغرام، وهو نوع راق من الحب العميق النقي، الذي يبدأ بعد الزواج، بعد أن يعرف كل من الزوجين صاحبه، ويأنس به، ويسكن إليه، وتقترب روحه من روحه.

ولما انتهت رحلتنا إلى بورسعيد، عدت إلى سمنود، لأبقي بها يوما أو يومين، ثم أسافر إلى القاهرة، وأحيانا إلى قريتنا. وهكذا ما بين كل حين وآخر أخف إلى سمنود، لأطفئ بعض شوقي، وأروي بعض ظمئي، ولو كان لي أن أقيم هناك لأقمت، ولكن الظمآن يجزيه من الماء أيسره. ولا أريد أن أكون ثقيلا على أصهاري، كما لا أحب أن أخرج على الأعراف السائدة في زيارة الزوج لزوجه قبل الدخول. وحسبي أن أمر بين حين وآخر، لمناسبة وأخرى، كمناسبة ذكرى المولد وغيرها. والشاعر يقول:

كم جئت ليلى بأسباب ملفقة   ما كان أكثر أسبابي وعلاتي!

والحق أن هذه الأشهر ـ منذ عقد القران إلى الدخول ـ مرت بطيئة بطء السلحفاة، وخيل إلى أن الزمن لا يتحرك، وأن الفلك لا يدور، وبت أستعجل الأيام حتى تزف إليّ عروسي، ويجتمع شملي، ولا سيما أني أعيش وحدي في شقة لا يكاد يوجد بها شيء من أسباب الحياة، وأنا رجل لا أحسن خدمة نفسي، فأنا خائب في أعمال المنزل، لا أحسن الطبخ، ولا الغسل، ولا التنظيف، وكان إخواني طوال فترة دراستي هم الذين يقومون بهذه الأعباء عني تكرما منهم. وكان هذا من فضل الله تعالى علي، ورحمته بي.

والآن لم يعد معي أحد، كان الأخ العسال يسكن معي، ثم ترك لي الشقة ـ فضلا منه ـ لأتزوج فيها، فأصبحت وأمسيت وحيدا مستوحشا، أفتقر إلى من يؤنسني.

وليس هناك عائق يمنعني من البناء بزوجتي غير الأثاث الذي يصنعه أصهاري عند قريبهم، وهو رجل مشهور بمطله، ويمكن أن يصنع الأثاث لشخص، فإذا جاءه عميل يشتريه في الحال ويدفع له ثمنه، فلا مانع أن يبيعه له، ون هنا طلبت منهم أن يضغطوا عليه، وألححت في الطلب لمسيس حاجتي إلى من يقوم بشأني وشأن بيتي.

وقد استجابوا لرغبتي جزاهم الله خيرا، وشرعوا يهيئون الأثاث، ويجهزون العروس بما يلزم لها، وتقرر الزفاف ـ بحمد الله ـ في 1958/12/14م، ونقلنا الأثاث من سمنود إلى شقتي بالقاهرة، في حدائق شبرا شارع الشيخ عبد الرحمن قراعة رقم 15أ.

وفي الليلة السابقة على الزفاف، أقيم حفل عائلي محدود، جمع الأقارب وأخص الأصدقاء في منزل العروس. وفي اليوم التالي (12/14) أعارنا عمدة قريتنا سيّد بك خضر سيارته لأمتطيها أنا وعروسي ووالدتها إلى شقتنا المذكورة، وقد حملت معها من ألوان الطعام الفاخر ما يكفينا لعدة أيام، وخصوصا أننا في فصل الشتاء، فنعمنا بالرومي والبط والحمام.

وبعد أيام تركتني حماتي، وأوصتني بابنتها خيرا، وقالت: إنها أمانة عندك. فقلت لها: إنها في عيني، وأنا أولى من يصون الأمانة إن شاء الله. لقد باتت جزءا مني، كما أني جزء منها.

وهذه حقيقة فالزواج يقرب بين الزوجين حتى يجعل منهما كيانا واحدا، عبر عنه القرآن الكريم بقوله: (هن لباس لكم وأنتم لباس

لهن) البقرة: 187 بكل ما توحي به كلمة (لباس) من القرب واللصوق والستر والدفء والزينة.

والعرب تعبر عن الرجل في هذه الحالة بكلمة (زوج) وكذلك عن المرأة، فهي أيضا (زوج) كما قال تعالى لآدم: (اسكن أنت وزوجك الجنة) البقرة: وكلمة (زوج) معناها: اثنان، ومعنى هذا: أن كلا منهما ـ وإن كان فردا في الظاهر ـ هو زوج في الباطن أو في الحقيقة، لأنه يحتوي الطرف الآخر بمشاعره وعواطفه.

ابنتي البكر إلهام ثم شقيقتها سهام

وما هي إلا أسابيع حتى حملت زوجي بابنتي البكر (إلهام) والتي وضعتها عند أهلها في سمنود، لتكون تحت رعاية والدتها. وذلك في 1959/9/19م.

وملأت علينا الطفلة الصغيرة بيتنا بهجة وفرحة وحركة. والمصريون يقولون: الأطفال قناديل البيوت، أي أنهم ينيرونها ويملأونها حياة وحيوية بصراخهم وضحكهم وبكائهم. ولا سيما الطفل الأول، الذي يحذر علماء النفس والتربويون أن يرخي أهله له العنان ويدللوه أكثر مما ينبغي فيفسدونه.

والمصريون يقولون أيضا: خير النساء من بكرت بأنثى. وأحسب أنهم استنبطوا ذلك من قوله تعالى: (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير) الشورى: 49،50. فبدأ سبحانه في هذه الآية بهبة الإناث.

ولم يكد يمر شهران حتى حملت زوجتي بابنتي الثانية سهام التي ولدت بالقاهرة في 1960/9/5م، أي قبل أن تكمل إلهام سنتها الأولى، وقد كان لدي امتحان الدراسات العليا في ذلك اليوم، فخرجت من الصباح، ولا تشكو زوجتي من شيء، ثم جاءها المخاض، واشتد بها الطلق، وكان الأخ سامي صهري مع شقيقته ووالدته في شقتنا، فاضطر هو أن يقوم هو بإحضار المولدة، وما يلزم للولادة، وقال عني: أمه داعية له، خرج هو وحملني العبء! وقد أصبحت إلهام وسهام كأنهما توأمان، لتقاربهما في السن، وتعلق سهام أن تكون مع أختها حينما جاء سن المدرسة، ثم قدر الله تعالى أن تدخل الأختان المدرسة في عام واحد، وأن تحصلا على الثانوية معا، وأن تحصل كلتاهما على البكالوريوس بامتياز في سنة واحدة من كلية العلوم: إلهام في الفيزياء، وسهام في الكيمياء، وأن تعينا معيدتين كل واحدة في قسمها، وأن تتزوجا في أسبوعين متتاليين، وأن تحصل كل منهما على بعثة لدراسة الماجستير والدكتوراه، وأن تحصلا عليها من إنجلترا: إلهام في الفيزياء النووية، وسهام في الكيمياء الضوئية.

أما أولادي الخمسة الآخرون، (علا وأسماء ومحمد وعبد الرحمن وأسامة) فقد ولدوا في دولة قطر بعد إعارتي إليها بعد، وسيأتي الحديث عن ذلك في حينه.

أعتبر أن زواجي كان موفقا، فقد رزقت بزوجة كانت لي قرة عين، سعدت بها وسعدت بي، فهمتني وفهمتها، كان فيها جملة من الأخلاق الزكية، والفضائل المرضية، فهي مقتصدة في حياتها، مدبرة لأمر بيتها بالحكمة، لا تنظر إلى غيرها، وتقول: أريد أن أكون مثل فلانة، بل هي قانعة بعيشنا راضية به تماما. وشاركتني الحلوة والمرة بلا تذمر، وعاشت تصبر على تنوع أعبائي بلا

ضجر، وتجتهد في إسعادي بلا مَنٍّ ولا أذى، وبعد أن وسع الله علينا في الرزق لم أرها يوما تطالبني بما تطالب به النساء من زينة وحلي، بل أنا الذي أبادرها. كانت لي نعم الزوج، ولأولادها نعم الأم، ولا غرو فهي هاشمية حسينية، نشأت في بيت دين وأخلاق، والشيء من معدنه لا يستغرب.

ومن حسنات زوجتي: أنها مكملة لي، فأنا رجل نظري، وهي امرأة عملية، أنا لا أفهم في الميكانيكا ولا الكهرباء ولا الآلات شيئا، وهي ماهرة في هذه الأشياء تصلح مهندسة.

وأذكر أني حينما سلمتها أول مرتب لي لتتصرف فيه: قسمته ثلاثة أقسام: قسم يدفع أجرة للسكن. وقسم للنفقات الشهرية المعتادة، للمأكل والمشرب والملبس وحاجات البيت. وقسم يدخر للمستقبل. وكان مرتبي لا يزال صغيرا، فأنا في الدرجة السادسة، ولم أحصل إلا على علاوة واحدة، ومن حسن حظي: أن الأزهر صرف لنا ثلاثة جنيهات بدل تنقل تصرف عادة للوعاظ، وأنا معين على وظيفة واعظ، وإن كنت لا أمارس الوعظ، فهو محظور علي.

كما كنت أكتب في مجلة (منبر الإسلام) ـ وهي مجلة وزارة الأوقاف ـ في كثير من الأحيان بعض المقالات، فأحصل على مكافأة عن كل مقالة خمسة جنيهات، وكانت هذه علاوة مهمة.

الانتقال من الأوقاف إلى الأزهر

كان وضعي أنا وأخي العسال في وزارة الأوقاف مريحا، ولكنه قلق غير مستقر، فالعمل الذي يزاوله كلانا ليس واضح الأهداف، محدد المعالم، فأخي أحمد يشرف على مكتبة لا تحتاج إلى متفرغ مثله، والمعهد الذي أشرف عليه ليس معهدا حقيقيا، يحتاج إلى

تفرغ مثلي له. وكلاهما مرهون ببقاء الباقوري وزيرا للأوقاف، والبهي الخولي مراقبا للشؤون الدينية، ومعه الغزالي وسيد سابق.

لهذا فكرنا جديا أن ننتقل إلى الأزهر، فهو مكاننا الطبيعي، ولا سيما أن شيخنا العلامة محمود شلتوت هو الآن شيخ الأزهر، وإمامه الأكبر، وبيننا وبينه من قديم مودة مكينة، وصلة متينة، ونعتقد أننا إذا ذهبنا إليه وكلمناه في نقلنا إلى الأزهر، فلن يتأخر عن تلبية طلبنا.

ترحيب الشيخ شلتوت بنقلنا إلى الأزهر

وهذا ما حدث بالفعل، فقد زرنا الشيخ في بيته، وحدثناه عن وضعنا في الأوقاف، ورغبتنا في الانتقال إلى بيتنا ـ بيت العائلة ـ بالأزهر، فرحب الشيخ بنا كل الترحيب، وقال: الأزهر داركم وموئلكم، وأنتم أبناؤه البررة، والأب يرحب بعودة أبنائه إليه، وإن اغتربوا فترة عنه. وطلب الشيخ الأكبر من صهره ومدير مكتبه الأستاذ أحمد نصار: أن يكلم الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية، لينقلنا إلى إدارته، فرحب بذلك وأيده. بل طلب الإسراع بإنجاز الإجراءات اللازمة التي كثيرا ما تطول بين الوزارات والمؤسسات المختلفة.

وما هي إلا أسابيع حتى تم النقل بسرعة، نظرا لأن الجهتين ـ المنقول منها والمنقول إليها ـ كانتا تساعداننا بإخلاص، ولا تضع العراقيل الروتينية في طريقنا، كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال.

وشكرنا لوزارة الأوقاف وشيوخها الكبار ما قاموا به نحونا من تكريم ورعاية، ولا نملك إلا أن نقول لهم: شكر الله لكم وجزاكم عنا خيرا.

العمل مع د. محمد البهي

وانتقلنا إلى الأزهر لنعمل في مراقبة البحوث والثقافة، التابعة للإدارة العامة للثقافة الإسلامية، تحت إشراف مديرها العام الأستاذ الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية، ومؤلف الكتب الشهيرة في الفلسفة والفكر مثل: (الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي)، و(الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) الذي كان له دويه في الأوساط الثقافية والفكرية، لوقوفه بالمرصاد للفكر الماركسي الذي يقول: الدين خرافة، والدين مخدر، والفكر العلماني الذي يقول: الإسلام دين لا دولة.

وكان الدكتور البهي مشهورا بالشدة ـ وربما العنف ـ في إدارته. ولكن ـ ولا أقول إلا الحق ـ: إنه كان معي في غاية الدماثة واللطف، ما دخلت عليه إلا أجلسني بجواره، وإذا كان عنده ضيوف كبار قدمني إليهم تقديما أشعر بالخجل منه، فهو يضفي علي من الأوصاف أكثر مما أستحق، ولم يفعل ذلك مع أي موظف يعمل معه، حتى رؤساء الأقسام عنده كانوا يقفون أمامه وجلين، وأنا جالس بجواره. وهذا لا تفسير له عندي إلا أنه فضل الله على عبده.

إخراج كتب الشيخ شلتوت

فكر الدكتور البهي فيما يسند إلي أنا وزميلي العسال من عمل، ثم قال: لدينا عمل كبير لا ينجزه غيركما، وهو: أن ننشر تراث الشيخ شلتوت على الناس في كتب كبيرة، ولا بد أن نجمع هذا التراث من مظانه المختلفة. في الصحف والمجلات، وفيما لدى الشيخ الأكبر من مقالات أو مسودات. وأنتما أهل لتجميع ذلك وتنسيقه وطباعته وتصحيحه. ومطبعة الأزهر رهن إشارتكما.

وكان الشيخ شلتوت ـ رغم شهرته وذيوع صيته ـ لا يكاد يوجد له كتب يقرأها الناس، غير كتاب شارك فيه العلامة محمد علي السايس، وهو كتاب (المقارنة بين المذاهب الفقهية) المقررة على السنة الرابعة من كلية الشريعة جامعة الأزهر.

وله كتاب آخر، كان في أصله محاضرات ألقاها على طلبة الدراسات العليا في كلية الحقوق، عنوانه: (فقه الكتاب والسنة: القصاص). وله رسالة صغيرة عن (القرآن والقتال) وأخرى عن: (القرآن والمرأة) وثالثة عن (منهج القرآن في بناء المجتمع).

وما عدا ذلك له فتاوى وبحوث في جوانب شتى، نشرها في بعض المجلات، أو بعض الصحف اليومية، أو بثتها الإذاعة المصرية، من ذلك ما كان في مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الأستاذ الزيات، وما كان في مجلة (الأزهر) وما كان في مجلة (رسالة الإسلام) التي تصدر عن (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) بالقاهرة.

وكانت الخطوة الأولى هي التنقيب عن هذا التراث في مظانه المختلفة، وتجميعه من كل من عنده شيء منه.

وبعد أن تجمع لدينا كم كبير من تراث الشيخ، ترجح لنا أن نضعه في أربعة كتب كبيرة:

الأول: يتضمن الجانب الفقهي والأصولي أو التشريعي من كتابات الشيخ، والذي كان قد كتب فيه رسالة صغيرة الحجم، سماها: (الإسلام عقيدة وشريعة) وفيه أفرغنا كتاب (فقه القرآن والسنة) وبعض ما كتبه الشيخ حول هذا الجانب من العقيدة والشريعة.

والثاني: يتضمن (فتاوى الشيخ) التي أصدرها ونشرها في مناسبات مختلفة، وهي فتاوى تتسم بالتجديد والجرأة، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة معا. وقد أودعنا فيه كل ما عثرنا عليه من فتاوى الشيخ.

والثالث: يتضمن المقالات الدعوية والتوجيهية في شتى جوانب الدين والحياة، وهو الذي اختار له الدكتور البهي عنوان (من توجيهات الإسلام).

والرابع: يتضمن مقالات (التفسير) للقرآن، التي نشرت في مجلة (رسالة الإسلام)، وكان جمعها أسهل من غيرها، لأنها مكتوبة منشورة مرتبة، فلا تحتاج أكثر من التجميع.

وكان علينا في هذا المجال عدة أمور:

1- أولا: أن نقسم الكتاب تقسيما علميا منطقيا إلى أبواب أو فصول، أو أجزاء يسهل الرجوع إليها.

وهو واضح في (الإسلام عقيدة وشريعة) لا يحتاج إلى معاناة وتفكير أكثر. أما في (الفتاوى) فقد قسمناها إلى ما يتعلق بالقرآن والحديث، وما يتعلق بالعقائد والغيبيات، ثم ما يتعلق بالعبادات: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وما يتصل بالمرأة والأسرة، وما

يتصل بالمعاملات، وما يتصل بالحكم والدولة والعلاقات الدولية، ثم متفرقات.

2- وثانيا: علينا بعد هذا التقسيم والتبويب: عمل آخر، وهو وضع العناوين الجانبية لتفصيلات كل موضوع. لتعين القارئ على حسن الفهم والاستيعاب.

وقد عرضنا تبويبنا وتقسيمنا وطريقة عملنا على الدكتور البهي فأقرها. وكذلك عرضناها على الشيخ شلتوت نفسه، فسر بها، ودعا لنا بالخير والتوفيق.

وقد كنا نراجع الشيخ في بعض الفقرات التي تكون لنا عليها ملاحظة، فيقرنا عليها، وأحيانا يوكلني بإتمام ما أراه ناقصا، وأذكر أنّا عرضنا عليه: أن بعض الآيات في سورة الأنفال لم تأخذ حقها من الشرح رغم أهميتها، فقال لي: سُدّ هذه الفجوة بما تراه. ذلك تفويض مطلق. وكان الأخ العسال كلما مر على هذه الفقرة ونحوها يقول: هذه قرضاوية. فأقول له: قد أصبحت بإقرار الشيخ شتلوتية!

والحقيقة أن ثقة الشيخ بي كانت غير محدودة، فكثيرا ما أحال إلي بعض الأشياء المعضلة لألخصها له، مثل رأي ابن القيم في (فناء النار) وقد لخصته له من كتابيه: (شفاء العليل في القدر والحكمة والتعليل) و(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح).

وأحيانا يحيل علي بعض الاستفتاءات لأرد عليها بقلمي. مثل فتوى إفطار الجنود في الصوم عند قتال العدو، وقد كتبتها وسلمتها للشيخ ونشرت باسمه.

3- وثالثا: علينا أن نشرف على الطباعة والتصحيح، حتى يخرج الكتاب للناس في صورة مقبولة.

وكنت أرى أن من القربات إلى الله أن نعمل على إخراج علم الشيخ شلتوت إلى النور، لتنتفع به الأمة، وأن أي جهد نبذله فهو ـ إن شاء الله ـ في ميزاننا، وإن ضاع عند الناس فلن يضيع عند الله.

ولقد نوّه الأستاذ الدكتور محمد البهي بما قمنا به ـ أنا والعسال ـ من جهد في تجميع هذه الكتب وتنسيقها حتى خرجت للناس بصورتها المشرقة مبوبة مفهرسة.

وكان هذا التنويه في الطبعة الأولى لهذه الكتب، فلما اختلف الدكتور البهي مع الشيخ شلتوت بعد ذلك، وخصوصا بعد أن صار وزيرا للأوقاف، أمر الشيخ بحذف مقدمات الدكتور البهي من جميع كتبه، وهذه المقدمات هي الشهادة الوحيدة التي سجلت جهدنا العلمي في خدمة تراث الشيخ.فلم يعد لجهدنا هذا أي ذكر في أي طبعة من الطبعات. وأعتقد من العدل والإنصاف، ومعرفة الفضل لأهله: أن يذكر هذا على غلاف هذه الكتب، أو في مقدماتها على الأقل.

زيارة لسورية لم تتم

في تلك الآونة كانت الوحدة بين سورة ومصر قائمة في إطار الجمهورية العربية المتحدة، وكانت ترتب زيارات بين البلدين لتوثيق الصلات، وإذابة الحواجز، وكان بعض هذه الزيارات تنظمها جهات حكومية مختلفة.

وقد طلب من الأزهر أن يرشح بعض الناس من علمائه ـ خصوصا الشباب منهم ـ لزيارة سورية، والاطلاع على ربوعها، والتعرف على شعبها ومؤسساتها، وقد رشحنا مكتب شيخ الأزهر لهذه المهمة ـ العسال وأنا ـ وقلنا لمدير المكتب الفني للشيخ: الأستاذ عبد الحكيم سرور: ربما لا توافق علينا جهات الأمن، فقال: نحن

أبلغناهم بالاسمين، ولم يعترضوا، وكيف يعترضون على عالمين رشحهما شيخ الأزهر نفسه؟ ثم إنكما تسافران في بلدكما من إقليم إلى آخر!

وأعددنا العدة، وأحضرنا حقائبنا للسفر، وذهبنا إلى المطار، وعملنا الإجراءات الأولى للسفر من الوزن وخلافه، وانتظرنا أن ينادى علينا لنركب الطائرة، وقبل أن نركب الطائرة: نودي على اسمي، معتذرين عن عدم إمكان سفري. ولكن لم ينادوا على العسال، وقلت له: ما أظن إلا أنهم سينادون عليك، وقد ركب الطائرة بالفعل، ثم بعد دقائق، نادوا عليه وأنزلوه من الطائرة، وأخذنا حقائبنا وعدنا إلى منزلنا، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى الأزهر، ففوجئوا بنا، وقصصنا عليهم ما حدث، وأخذ أخونا الشيخ سرور يضرب كفا على كف، ويقول: كيف يمنع مواطن من التنقل بين أقاليم بلاده؟ إذن هي ليست وحدة حقيقية!

زيارة العلامة المودودي لمصر

في هذه الفترة زار مصر الأستاذ الكبير العلامة أبو الأعلى المودودي أمير (الجماعة الإسلامية) ومؤسسها في باكستان والهند، وصاحب الكتب والرسائل التي قرأها المسلمون في لغات شتى. وكان يكتب تفسيره الشهير (تفهيم القرآن) وكان يجتهد أن يتعرف على الأماكن التي ذكرت في القرآن في مواقعها، ومنها (مصر) التي ذكرت في القرآن أربع مرات، ومنها: الطور أو طور سيناء، أو طور سينين، وهل يمكن معرفة أين فلق البحر بعصا موسى؟ وأين مجمع البحرين؟ وأين أرض التيه؟ إلى غير ذلك من الأماكن التي ذكرت في القرآن ولها علاقة بمصر، وقد سافر الشيخ إلى سيناء وغيرها من بلاد مصر.

وكان من برنامج الإمام المودودي: زيارة الشيخ شلتوت شيخ الأزهر، والعالم المجدد في فتاواه وبحوثه، والدكتور محمد البهي المعروف بوقوفه في وجه الملاحدة والماديين والعلمانيين.

ورحب به الدكتور البهي الذي يعرفه ويعرف فكره ومكانته، وطلب إليّ أن أصحبه ليزور إدارات الأزهر المختلفة، وكان فرصة ذهبية لي أن ألتقي بالشيخ المودودي وجها لوجه، بعد أن قرأت كثيرا من كتبه ورسائله التي ترجمت إلى العربية منذ سنوات، وكان فضل ترجمتها والتنويه بقيمتها يرجع إلى (لجنة الشباب المسلم) التي انبثقت من داخل جماعة الإخوان لتركز على جانب العلم والفكر والثقافة أكثر من جانب الجهاد والتربية العسكرية، التي كانت موضع اهتمام النظام الخاص.

ثم قابل المودودي الشيخ شلتوت في مكتبه ورحب به كثيرا، وأشاد بفضله ومنزلته في تجديد الفكر الإسلامي، وكان الشيخ شلتوت قد علق في إحدى مقالاته على رسالة (نظرية الإسلام السياسية) للأستاذ المودودي، وقد أودعناها كتابه (من توجيهات الإسلام). ودعاه الشيخ شلتوت إلى زيارته في بيته، ومن الجميل: أن الشيخ شلتوت عند زيارته له: طلب منه أن يفسر له سورة الفاتحة، وحاول المودودي أن يعتذر فأصر الشيخ، وفسرها الضيف تفسيرا مختصرا جميلا. وهذا من أدب العلماء الكبار بعضهم مع بعض.

وأذكر أني صحبت المودودي، لأمر به على إدارات الأزهر المختلفة، وكان ممن مررنا بهم: مدير مجلة الأزهر الأستاذ أحمد حسن الزيات الأديب المعروف، ومؤسس مجلة (الرسالة) التي كانت المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي. وكان مما فاجأني به: أني لما قدمت الأستاذ المودودي إلى الأستاذ الزيات، وجدته لا يعرف عنه أي شيء! فوقفت أشرح له مكانة الأستاذ المودودي

مؤسس (الجماعة الإسلامية) في باكستان والهند، وصاحب الكتب والرسائل التي شرقت وغربت، وترجمت إلى لغات شتى في أنحاء العالم، ومنها إلى اللغة العربية، وأن له مواقف كذا وكذا.. وأنا في خجل أن يكون مثقف كبير في مصر مثل الزيات لا يعرف عن المودودي وجماعته شيئا.

وكان مع المودودي الأستاذ عاصم حداد، مترجم كتبه إلى العربية، وقد بقي مدة في مصر، ثم عاد إلى باكستان.

تتبع الصحف والمجلات في مواقفها من الإسلام

وبعد أن فرغنا من إخراج كتب الشيخ شلتوت، كلفنا الدكتور البهي بعمل آخر، هو: أن نتتبع ما تكتبه الصحف والمجلات عن الإسلام إيجابا أو سلبا، لتوظيفها بعد ذلك في خدمة الدعوة، ومعرفة أصدقائها وأعدائها، ووسائلهم وخططهم، والكشف عن أفكارهم ومفاهيمهم من خلال ما يكتبون أو يكتب عنهم.

كان الهدف نبيلا وجميلا، ولكن لم تهيأ له الوسائل الضرورية لتحقيقه. فلم توضع ميزانية لشراء هذه الصحف والمجلات المصرية والعربية، لقراءتها واستخراج أهم ما فيها مما يخدم موضوعنا، لأرشفة هذه المعلومات.

ولم تكن لدينا سكرتارية، لتساعدنا في عملنا هذا، ويبدو أن المشروع اعتمد ارتجالا، دون إعداد وتخطيط كاف له. فقد أراد الدكتور البهي أن يشغلنا بعمل نبذل فيه جهدنا، دون أن يكون معنا من الآليات ما نستطيع أن نحقق به ما يراد منا.

الرد على الكراسة الرمادية

وفي هذا الوقت ـ على ما أذكر ـ نشر الشيوعيون في العراق هجوما على الإسلام وتعاليمه: عقيدة وشريعة وأخلاقا وحضارة، في بحث عرف باسم (الكراسة الرمادية) نشرت خلاصتها الصحف المصرية، والتي هيجت عليها الرأي العام المصري، المرتبط عقديا وفكريا وشعوريا بالإسلام، والذي يثور كالبركان إذا عدا على حماه عاد. (كما رأينا ثورته أخيرا ضد رواية "وليمة لأعشاب البحر").

وقد كلفنا الدكتور البهي ـ أنا والعسال ـ بكتابة رد علمي على الشبهات التي أثارتها هذه الكراسة، والأباطيل التي اتهمت بها الإسلام زورا.

وقد أعددنا ردا بالفعل اطلع عليه الدكتور البهي وأقره، وأمر بنشره في مجلة الأزهر، وقد اخترنا عنوانه (الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين). كما كلف الدكتور زميلنا الأستاذ حمودة عبد العاطي في إدارة الثقافة: أن يترجم هذا المقال إلى الإنجليزية، وينشر أيضا في مجلة الأزهر، وكان هذا المقال هو الذي أوحى إلى أخينا الأستاذ حمودة أن يكتب بالإنجليزية كتابه (جوهر الإسلام) (فوكس إسلام).

العمل بالمكتب الفني للوعظ والإرشاد

ولذا لم يستمر هذا العمل ـ تتبع الصحف ـ طويلا، وبعد مدة لم تطل كثيرا حولنا إلى العمل في المكتب الفني لإدارة الوعظ والإرشاد، لنعمل مع مدير الوعظ والإرشاد في ذلك الوقت، وهو الشيخ عبد الله المشد، وننتقل من مبنى إدارة الأزهر الذي كنا نداوم به حيث

مراقبة البحوث والثقافة، إلى مبنى (الرواق العباسي) في الأزهر القديم، وكانت إدارة الوعظ والإرشاد إحدى الإدارات التابعة للإدارة العامة للثقافة الإسلامية.

وكان معنا في المكتب الفني عدد من العلماء الأفاضل، منهم: فضيلة الشيخ عطية صقر، والشيخ محمد رمضان مدير تحرير مجلة (نور الإسلام) لسان حال علماء الوعظ والإرشاد، والأخوان أحمد حمد، وعبد الحميد شاهين.

وكان الشيخ عبد الله المشد مدير الوعظ من العلماء المستنيرين، ومن مجموعة الشيخ شلتوت، إذ كان الشيخ شلتوت والمشد والبهي وماضي كلهم من منطقة واحدة من محافظة البحيرة، وكانوا جميعا يدا واحدة، وقلبا واحدا، ثم فرقت بينهم الأيام والفتن، وأهواء الأنفس، ودسائس الشياطين.

وكان المشد رجل صدق، وقد كان معنيا بالقضايا الإسلامية، وكان رئيسا للبعثة التي أرسلها الأزهر قديما إلى (إريتريا) وقدمت تقريرا مهما له قيمته، ولا غرو أن ظل رجال إريتريا الكبار، وشبابها الصغار، يترددون على الشيخ المشد، ولا سيما عندما بدأوا يفكرون في إنشاء حركات التحرير من الاحتلال الأثيوبي لبلدهم، والاستقلال عن الحبشة، وأذكر من هؤلاء الأستاذ آدم إدريس أحد الزعماء المرموقين الذين قاوموا جبروت هيلاسلاسي وطغيانه.

وكان أهم ما بدأنا به: تطوير مجلة (نور الإسلام) وتحسين أدائها، وإضافة موضوعات جديدة إليها، وجلب أقلام جديدة للكتابة فيها.

وقد بدأت أكتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان (العقيدة الحياة) وهي التي نشرتها بعد ذلك في كتاب (الإيمان والحياة).

كتاب (الحلال والحرام)

ورغم عملنا في المكتب الفني للوعظ والإرشاد، لم تنقطع صلتنا بالدكتور البهي، فقد كان الوعظ والإرشاد من الإدارات التابعة له. إذ كان الأزهر يشمل ثلاثة أقسام: جامعة الأزهر بكلياته المختلفة. والمعاهد الدينية بمراحلها الابتدائية والثانوية.. والإدارة العامة للثقافة الإسلامية بما يتبعها من مجمع البحوث الإسلامية، ومراقبة البحوث والثقافة، وإدارة الوعظ والإرشاد، ومجلة الأزهر، ومطبعة الأزهر، وغير ذلك.

وفي هذا الوقت عرض علينا الدكتور البهي أن أشترك أنا والعسال في مشروع تثقيفي إسلامي كبير، فقد طلبت بعض سفارات مصر في بلاد الغرب: في أمريكا أو لندن: الكتابة في ثلاثين موضوعا تحتاج إليها الجالية الإسلامية في الخارج، على أن تكتب بلغة سلسة ميسرة، ملائمة لروح العصر، وموثقة من الناحية العلمية. منها موضوعات في العقائد والعبادات، والأسرة والمعاملات وغيرها من كل ما يفتقر المسلمون إلى معرفته خارج الوطن العربي.

وكان الذي عرضه على الدكتور البهي وطلب إلي أن أكتب فيه هو: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه.

كما عرض على الأخ العسال: أن يكتب عن العبادات.

وقد وفقني الله جل شأنه لكتابة الموضوع الذي كلفني به، وإن كنت رأيت أن أغير عنوانه من (ما يحل للمسلم وما يحرم عليه) إلى (الحلال والحرام في الإسلام) وقد سلمت مسودة ما كتبت إلى أستاذنا الدكتور البهي، وبعث به إلى الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة في دمشق والمفكر الإسلامي المعروف، ليرى مدى ملاءمته لمخاطبة العقل الغربي، ومدى أصالته العلمية، وقد أثنى

الأستاذ المبارك على الكتاب وكتب فيه تقريرا إلى إدارة الثقافة، قال فيه: إن الكتاب جيد في بابه، ضروري في موضوعه، ولو استدركت بعض الملاحظات لكان خير كتاب في موضوعه فيما أعلم.

ولا أذكر ماذا فعل الأخ العسال فيما كلف به: هل أكمله ولم يحز القبول أو أنه لم يكمله أصلا؟

وقد تجاوبت مع ما لاحظه الأستاذ المبارك على الكتاب، وعدلت بعض ما طلبه، وأقنعته بوجهة نظري في بعض الملاحظات، حين التقيت به في القاهرة بعد ذلك. ثم سلم الدكتور البهي الكتاب إلى مترجم معروف ليترجمه إلى الإنجليزية، ولكن الفصل الأول الذي ترجمه لم ينل القبول، واختير مترجم آخر، وفي النهاية لم يتم مشروع الترجمة، الذي من أجله ألف الكتاب، وإنما ترجم بعد ذلك بسنوات من طريق آخر غير طريق الأزهر.

وهذا ما دفعني ألا أنتظر الكتاب حتى يترجم، فدفعت به إلى دار إحياء الكتب العربية، (عيسى البابي الحلبي) لينشره بالعربية كما كتب، وقد أقرته اللجنة المختصة بالكتب عند الحلبي، رغم أنه أول كتاب لمصنفه. وكانت الطبعة الأولى من الكتاب الذي طبع منه ثلاثة آلاف نسخة، وحصلت في مقابلها على (ستين جنيها) كانت أول مبلغ آخذه من حقوق التأليف، وكان يمثل لي ثروة معقولة في ذلك الزمان.

قصة تأليف كتاب (الحلال والحرام في الإسلام)

(كما يحكيها مؤلفه)

أعتبر نفسي بدأت الكتابة والتأليف متأخرا نسبيا. ذلك أني كنت مشغولا بالدعوة الشفهية، وبالخطاب الارتجالي، طوال المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية بالأزهر. فكنت أخطب وأدرّس وأحاضر ارتجالا، إلا ما قد أعده من محاور ونقاط رئيسية في مذكرات خاصة.

ولم ينبهني أحد ـ ممن هم أكبر مني ـ أن لديّ ما يمكن أن يكتب ويحرر، وأن من المهم للداعية أن يستخدم القلم، كما يستخدم اللسان، وقد قال العرب قديما: القلم أحد اللسانين. وأقسم الله تعالى في كتابه الكريم بالقلم (ن. والقلم وما يسطرون) وكان من دلائل ربوبيته تعالى أنه (الذي علم بالقلم) العلق: 4.

ولعل هذا كان مما اختاره الله لي: ألا أبدأ الكتابة إلا بعد النضج سنا وتحصيلا. والخير فيما اختاره الله جل ثناؤه.

ولقد كتبت بعض رسائل صغيرة أشرت إليها من قبل، مثل رسالة (قطوف دانية من الكتاب والسنة) ومثل (رسالتك أيها المسلم) التي صودرت في المباحث العامة، ولم ترجع إلي، ومثل (رسالتكم يا شباب الأزهر) التي نشرتها بعد بعنوان (رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد).

ولكن الكتاب الذي أعتبره بداية حقيقية للتأليف، والذي دخلت به سوق الكتّاب والمؤلفين، هو كتاب (الحلال والحرام في الإسلام).

ولهذا الكتاب قصة يحسن بي أن أحكيها لقرائي هنا، لما فيها من فائدة وعبرة إن شاء الله.

لم يكن يخطر في بالي في سنة 1379هـ-1959م أن اكتب في أمر الحلال والحرام، بل كانت الكتابة في الفقه لا تحتل منزلة أولية عندي، وإن كنت قد بدأت شيئا من ذلك فيما كتبته في مجلة (منبر الإسلام) من فتاوى وأحكام تحت عنوان (يستفتونك) باسم يوسف عبد الله، دون التوقيع باسمي الكامل (القرضاوي) لما يثير من حساسيات لدى جهات الأمن التي تقف بالمرصاد لأي نشاط لي ولأمثالي يتعلق بالجماهير.

وكانت كتابة هذا الباب بتوجيه من أستاذنا (البهي الخولي) مراقب الشؤون الدينية في وزارة الأوقاف في ذلك العهد، الذي لاحظ عقليتي الفقهية من مناقشاتي معه في الدروس واللقاءات الخاصة.

ومع هذا لم أكن أنوي أن تكون بداية تأليفي في (الفقه). ولكن هكذا قدر الله أن يكون أول كتاب حقيقي أدخل به ميدان التأليف العلمي هو (الحلال والحرام في الإسلام) وهو كتاب فقهي، فكيف تم ذلك؟

إن لتأليف هذا الكتاب قصة طريفة جديرة أن تحكى، فقد وردت إلى وزارة الخارجية المصرية من بعض سفاراتها في أوروبا وأمريكا؛ أن المسلمين في تلك البلاد يحتاجون إلى كتب علمية ميسرة معاصرة في ثلاثين موضوعا من الموضوعات حددوها، بعضها في العبادات، وبعضها في المعاملات، وبعضها في الآداب والأخلاق، وكان من هذه الموضوعات الثلاثين؛ موضوع تحت عنوان (ما يحل للمسلم وما يحرم عليه).

وقد كتبت الخارجية المصرية مذكرة بالموضوعات المطلوبة إلى كل من مشيخة الأزهر في عهد إمامه الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، الذي أحال الموضوع برمته إلى الأستاذ الدكتور محمد

البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر في ذلك الوقت.. وإلى وزارة الأوقاف المصرية باعتبارها المؤسسة الدينية الثانية في مصر، في عهد وزيرها الشيخ أحمد الباقوري.

وكلفت الجهتان كلتاهما ـ إدارة الثقافة بالأزهر، ووزراة الأوقاف ـ عددا من العلماء بالكتابة في تلك الموضوعات.

وكان الموضوع الذي كلفني به أستاذنا الدكتور محمد البهي رحمه الله هو: (ما يحل للمسلم وما يحرم عليه) وهو موضوع لم يخطر ببالي أن أكتب فيه من قبل. ولا سيما أن مفرداته مبعثرة في أبواب الفقه الإسلامي، ومن الصعب نظمها في عقد واحد، إلا على من شرح الله له صدره، ويسر له أمره، ولهذا دعوت بما دعا به سيدنا موسى عليه السلام: (رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري) طه:.

وكان أصعب شئ علي هو نقطة البداية: من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ وفي ليلة من الليالي ـ وأنا مشغول بالموضوع ـ وفقت إلى تقسيم الموضوع، بما يشبه الإلهام، فقد انقدح في ذهني: أن أبدأ الباب الأول من الكتاب بمبادئ عامة في شأن الحلال والحرام، والباب الثاني يتناول الحلال والحرام في الحياة الشخصية للمسلم بما يشمل المأكل والمشرب والملبس والزينة، والمسكن والكسب، والباب الثالث يتناول: الحلال و الحرام في الحياة الأسرية، من الزواج وما يتعلق به، وعلاقة الآباء والأمهات بالأولاد، والعلاقة بذوي الأرحام، وما يتعلق بذلك من أمور التبني والتلقيح الصناعي وغيرها، والباب الرابع يتناول: الحلال والحرام في الحياة الاجتماعية والعامة للمسلم، بما يشمل المعتقدات والتقاليد والمعاملات، واللهو والترفيه، وعلاقة المسلم بغير المسلم، وما إلى ذلك.

وحينما هديت إلى هذا التقسيم، اعتبرتني قد وفقت إلى تأليف الكتاب، فما علي إلا أن أبحث في هذه المفردات في مظانها من كتب الفقه ـ وخصوصا الفقه العام ـ والحديث والتفسير، ونحوها، وهو ما هديت إليه بالفعل، وجمعت مادة الكتاب من مظانها، وكتبت له مقدمة بينت فيها منهجي الذي اخترته ورجحته، وهو منهج يقوم على التوسط والاعتدال بين الغلاة والمقصرين، أو بين المتشددين والمتسيبين، ومما أذكره هنا في هذه المناسبة: أني كنت أتردد كثيرا على مكتبة الأزهر، التي هي أحد مباني الجامع الأزهر القديم، وكانت قريبة من مقر عملي في (المكتب الفني لإدارة الدعوة والإرشاد). وكانت مكتبتي الخاصة محدودة في ذلك الوقت، كان فيها (نيل الأوطار) للشوكاني، و(سبل السلام) للصنعاني، و(المحلي) لابن حزم، لكن كان ينقصها مصادر أصيلة لم أستطع شراءها، ودخلي محدود في ذلك الحين، فكان لابد من الاستعانة بالمكتبات العامة، وأقربها إليّ مكتبة الأزهر.

كان مدير المكتبة فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغي، شقيق الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر وأحد أفذاذ العلماء في زمنه، وكان الشيخ أبو الوفا رجلا عالما باحثا، وكنت على مودة وصلة طيبة به، فلما رآني أتردد كثيرا على المكتبة، وأجمع أمامي عددا من المراجع كل يوم سألني؛ فيم تبحث هذه الأيام يا قرضاوي؟ قلت: أبحث في موضوع كلفت به من مشيخة الأزهر، قال: وما هو؟، قلت: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه، قال: وقعت في مَطَب يا قرضاوي، ودخلت امتحانا عسيرا دون أن تعرف!

قلت: أي امتحان؟

قال: هذا الموضوع نفسه كلفت بالكتابة فيه من قبل وزارة الأوقاف الشيخ فلان عضو هيئة كبار العلماء. فماذا تفعل في هذا الرهان؟

قلت له: يا فضيلة الشيخ. ما يدريك لعل الله سبحانه يضع سره في أضعف خلقه! لقد شرعت في الموضوع ولن أتراجع عنه وما توفيقي إلا بالله.

ومرت الأيام، وقد فرغت من الموضوع في حوالي أربعة أشهر على ما أذكر، وقدمته بخط يدي في كشكول أو كراسة للأستاذ الدكتور محمد البهي، فما كان في قدرتي المالية أن أعطيه لمن يكتبه على الماكينة.

ولما كنت أمسك قلبي بيدي خوفا على هذه النسخة المبيضة الوحيدة أن تضيع مني، كما ضاعت رسائل لي أخرى من قبل، ولم يكن التصوير معروفا في ذلك الوقت، فقد احتفظت بمسودتها عندي، لأستفيد منها عند اللزوم.

وأرسل الدكتور البهي مشروع الكتاب إلى الأستاذ الجليل محمد المبارك عميد كلية الشريعة في الجامعة السورية بدمشق، وأحد القلائل الذين يجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية العصرية، ويدركون ما يحتاج إليه المجتمع الغربي المعاصر ويلائمه من ثقافتنا الإسلامية، وهذا سر اختياره لمراجعة الكتاب.

كما أرسل بعض الكتب الأخرى إلى مراجعين آخرين منهم الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا،

وقد رد الأستاذ الزرقا الكتاب الذي أرسل إليه بأنه دون المستوى المطلوب. قلت: ربنا يستر ولا يرد كتابي.

وبعد مدة لم تطل أرسل الأستاذ المبارك إلى إدارة الثقافة، يثني على الكتاب، وينوه بحسن أسلوبه وطريقة معالجته، وتوخيه للاعتدال فيما يختار من آراء، وقد تضمن تقريره بعض أسئلة واستفسارات أجبت سيادته عنها، وبعض مقترحات استجبت لبعضها، ولم أستجب للأخرى، مبينا وجهة نظري في ذلك، وقد قبلها الأستاذ المبارك رحمه الله.

ومن اللطائف: أني حين لقيت الأستاذ المبارك بعد ذلك في إحدى زياراته للقاهرة في أيام الوحدة مع سورية، أخبرني بقصته مع كتابي، قال لي: كنت أقرأ مسودة الكتاب، فيعجبني تناوله للموضوع، وبيان الحكم والحكمة، وربطه بتعاليم الإسلام العامة، فأقول في نفسي: هذا الشخص واع فاهم لما يكتب، ولكن الغريب أنه غير معروف، وكان شقيقي مازن المبارك يحضر الدكتوراه في جامعة القاهرة، فعاد يوما إلى دمشق، فسألته: هل تعرف شخصا اسمه يوسف القرضاوي؟

قال: كيف لا أعرفه، وكم صليت وراءه الجمعة في جامع الزمالك بالقاهرة؟ وهو كذا وكذا وكذا؟ وظل يعدد لي من مناقب القرضاوي ما لم أكن أعلمه.

قلت له: الآن زدتني اطمئنانا إلى هذا الشخص الذي قرأت له ما عرفت به أني قد تعرفت على عالم جديد له مستقبله إن شاء الله.

تسلمت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية الكتاب، واختار الأستاذ الدكتور محمد البهي أحد المترجمين المعروفين ليبدأ في ترجمته إلى اللغة الإنكليزية، وكلما ترجم فصلا أرسله إلى الإدارة ليراجع، ثم يشرع في الفصل الثاني وهكذا.

وبعد مدة أعاد المترجم الفصل الذي ترجمه، ولم تقبل إدارة الثقافة هذه الترجمة، ورأت أن المترجم غير مؤهل لترجمة هذا النوع من الكتب، فسحبت مسودة الكتاب منه، بحثا عن مترجم غيره.

ولما رأيت أن هذا الأمر قد يطول، خطرت لدي فكرة نشر الكتاب بالعربية، عسى أن ينتفع به قراؤها، وبالفعل بيضت المسودة التي عندي، وأعددتها للنشر، وسلمتها إلى دار عيسى الحلبي للطباعة والنشر، لتنشره ضمن كتبها، فسلمت الإدارة الكتاب للجنة المكلفة بمراجعة الكتب، وكانت برئاسة الشيخ طاهر الزاوي العالم اللغوي الشرعي الليبي، الذي كان يعيش في مصر، وقد عين مفتيا للجمهورية الليبية بعد ذلك، وكان من المصححين معه الأخ الباحث الأزهري مصطفى عبد الواحد (د. مصطفى بعد) فأثنى على الكتاب خيرا، وأوصت اللجنة بطباعته.

وصدر الكتاب بعد نحو ثلاثة أشهر في طبعته الأولى، وتسلمت ـ لأول مرة ـ حقوق تأليفه (60) ستين جنيها مصريا، كانت بالنسبة لي ثروة لها قيمتها.

وبدأت أوزع بعض النسخ من الكتاب هدايا إلى العلماء الذين أعرفهم ويعرفوني، وأول نسخة أهديتها إلى شيخنا الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، الذي تصفح الكتاب طويلا، ومدحه بكلمات شجعتني، وسررت بها.

والنسخة الثانية ذهبت بها إلى الشيخ أبو الوفا المراغي مدير مكتبة الأزهر الذي كان قد قال لي: إنك دخلت امتحانا عسيرا دون أن تدري. وقلت له: هذا هو الكتاب الذي حدثتك عنه من قبل، فأخذه وقرأ فهرسه، وتصفح مقدمته، ونظر فيه طويلا، ثم قال: لقد نجحت يا قرضاوي في الامتحان، ما أظن صاحبنا الذي حدثتك عنه، سيوفق إلى مثل ما وفقت إليه، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

والنسخة الثالثة، ذهبت بها إلى أستاذي الذي أحبه وأقدره: الشيخ الدكتور محمد يوسف موسى، أستاذ الفلسفة من قبل، وأستاذ الشريعة اليوم، الذي كان لا يمكن أحدا زيارته إلا بموعد سابق، ولكنه كان يستثنيني من هذه القاعدة، ويعزني كثيرا، وسلمت إليه نسخة من الكتاب، وسألني عن سبب تأليف هذا الكتاب، فأخبرته بقصة تكليفي به من الأزهر، فقال عجيب، هذا الموضوع كلف به زميلنا الشيخ فلان عضو جماعة كبار العلماء، وقد كان محتارا: ماذا يكتب في هذا الموضوع المبعثر المشتت واقترحت عليه بعض الأشياء، ولكن ما أحسبه يهتدي إلى ما هداك الله إليه، بورك فيك يا يوسف.

وقد علمت أن الشيخ الكبير كان قد أرسل مشروع كتابه إلى الأوقاف قبل أن يظهر كتابي، فلما ظهر الكتاب سحبه من الوزارة، ولم أر له أثرا ولم أسمع له خبرا بعد ذلك. ولله الفضل والمنة.

والنسخة الرابعة: سلمتها لفضيلة الشيخ أحمد علي الأستاذ بكلية أصول الدين، والذي اختارته الكلية مشرفا على رسالتي للأستاذية (الدكتوراه).

تصفح الشيخ ـ رحمه الله ـ الكتاب، وأطال التصفح فيه، ثم قال لي: لماذا بادرت بطبع هذا الكتاب ونشره؟

قلت له: حفظك الله، وما المانع في ذلك؟

قال: كان يمكنك أن تقدم هذا الكتاب باعتباره أطروحة أو رسالة للدكتوراه، وهو جدير بذلك، كل ما في الأمر بعض الجوانب الشكلية، كأن تهتم بذكر المراجع وتوثيقها، وهذا أمر سهل عليك.

قلت له: يا فضيلة الشيخ، أنا أريد أن أقدم للدكتوراه رسالة في موضوع أتعب فيه، ويكون من خصائصه هذا وهذا.

قال لي: يا عبيط، المهم أولا أن تأخذ (رخصه) حتى يسموك (الدكتور) يوسف القرضاوي، ثم ألف بعد ذلك ما تشاء.

ولقد تبين لي بعد ذلك صدق نصيحة الشيخ أحمد علي رحمه الله، حين رفض مشايخ بكلية أصول الدين كتابي الذي أعددته عن (الزكاة) لتكون رسالتي للدكتوراه، فقالوا: إن هذا فقه، وليس بتفسير ولا حديث، ولا يدخل في علوم القرآن ولا السنة.

قلت لهم: إنه يدخل في فقه القرآن، وفقه الحديث.

قالوا: هذا أقرب إلى كلية الشريعة منه إلى كلية أصول الدين، وكتب أحد المشايخ رحمه الله إلى الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين يعتذر إليه من عدم الإشراف على رسالتي عن (الزكاة) لأن بها (آراء دينية خطيرة لا يستطيع أن يتحمل مسؤوليتها).

وأخيرا قبل أحدهم أن يشرف على الرسالة بعد أن الزمني بطرح عدد من فصولها، وإخراجها من صلب الرسالة.

والنسخة الخامسة أهديتها لشيخنا البهي الخولي، الذي سر بظهور الكتاب سرورا بليغا، وقال: لن أحكم له أو عليه حتى أقرأه، أو أقرأ ما يكفي منه للحكم عليه. فلما قابلته بعد ذلك قال: هذا الكتاب صدق نبوءتي. قلت له: وما نبوءتك حفظك الله؟

قال: اختلفت أنا والشيخ الغزالي بعد نشر قصيدتك (السعادة) في مجلة (منبر الإسلام) وكان من رأي الشيخ الغزالي ومعه بعض الحاضرين، أنك لديك قابلية أن تكون شاعرا عظيما إذا تفرغت للشعر وأديت له حقه، وكان من رأيي أن يتفرغ القرضاوي للعلم أولى من تفرغه للشعر، وهب أنه بلغ مرتبة شوقي في الشعر، فالذي آمله إذا تفرغ للعلم أن يكون ـ إن شاء الله ـ فقيه العصر،

وأحسب أن هذا الوليد الجديد (الحلال والحرام) يحمل البشارة بتصديق نبوءتي، وأدعو الله أن يحقق أملنا فيك، وألا يقطعك عن الطريق بأي آفة من الآفات.

والنسخة السادسة، كانت لشيخنا الشيخ محمد الغزالي مدير المساجد في ذلك الوقت، وقد تصفحها بسرعة، وقال: هذا نهج جديد في كتابة الفقه بروح الداعية.

والنسخة السابعة، أهديتها إلى مدير مجلة الأزهر والعالم والكاتب الأزهري الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة.

ومما أذكره هنا: أن الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة لقيني مرة في إدارة الأزهر بعد صدور كتاب (الحلال والحرام) وقال لي: أود أن أهنئك يا شيخ يوسف على أمرين:

الأول: على منهجك الرائع، وأسلوبك السلس، وترجيحاتك الموفقة في كتابك (الحلال والحرام).

والثاني: مخالفتك بصراحة لرأي شيخك وشيخ الأزهر الشيخ شلتوت في مسألة فوائد البنوك الربوية ونحوها. وهذه شجاعة قلما تتوافر إلا لمثلك.

قلت له: منهج الشيخ شلتوت هو التحرر من الجمود والتقليد، وأظنه لن يطالبنا بالتحرر من تقليد أبي حنيفة ومالك لتقليده هو. إني أعتقد أني وإن خالفت الشيخ شلتوت في بعض آرائه، فإني على منهج شلتوت في اتباع الدليل الراجح حيث لاح للباحث، والنظر إلى القول لا إلى قائله، فإن الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

وأرسلت أربع نسخ إلى سورية مع أحد الأخوة السوريين الذين يدرسون في مصر، لكل من الدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، بالإضافة إلى الأستاذ محمد المبارك الذي نشرت خلاصة من تقريره في آخر الكتاب.

وقد كان صداه طيبا عند الأساتذة الأربعة، حتى قال الشيخ الزرقا لتلاميذه: إن اقتناء هذا الكتاب فرض على كل أسرة مسلمة، والحق أن علماء الشام كانوا أكثر احتفاء بالكتاب من علماء مصر.

وكان من مظاهر ذلك: أن الشيخ ناصر الدين الألباني خرج أحاديثه، وهذا لا يحدث عادة إلا للكتب التي لها قيمة علمية.

كما أن الأستاذ الكبير علي الطنطاوي رحب به وزكاه، وقرر تدريسه في مادة (الثقافة الإسلامية) التي كان يدرسها في كلتي الشريعة والتربية بمكة المكرمة، ولعل ذلك لأني انقطعت عن مصر تسع سنوات لم يطبع فيها الكتاب داخل مصر.

وحين قدمت إلى قطر سنة 1961م وجدت الكتاب قد سبقني إلى قطر، وأهداه بعض المصريين إلى العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس قضاة قطر، ففرح به وأثنى عليه، ومهد لي الطريق إلى لقائه، فالتقاني بحفاوة وتكريم بالغ.

ولهذا أراد بعض شيوخ آل ثاني في قطر (الشيخ فهد بن علي) أن يطبع الكتاب ليوزعه مجانا على أهل قطر، فطبعه المكتب الإسلامي في بيروت لصاحبه الشيخ زهير الشاويش، الذي لم أكن عرفته بعد، وأرسل كمية منه إلى قطر، وعرض الأخرى للبيع، واستمر بنشره بعد ذلك إلى اليوم.

ومن الطريف هنا: أن أخانا الشيخ مصطفى جبر ـ وهو أحد المصريين الذي وصلوا إلى قطر قديما مع الأستاذين كمال ناجي وعلي شحاته ـ قرأ الكتاب فأعجب به إعجابا شديدا، فاستأذنني أن يرسل مجموعة من النسخ مع أحد الإخوة المسافرين إلى باكستان، فأرسل نسخة إلى العلامة أبي الأعلى المودودي، وعليها إهداء مني، ونسخة إلى جامعة البنجاب بلاهور، وأخرى إلى جامعة كراتشي.

وقد أرسل إلى الأستاذ المودودي يشكرني على إهداء الكتاب له، ويقول في رسالته: إني أعتز بهذا الكتاب، وأعتبره إضافة جليلة إلى مكتبتي.

أما جامعة البنجاب فقد اهتمت بالكتاب اهتماما لم أكن أتوقعه، فقد تناولته إحدى طالبات الدراسات العليا في دراستها للماجستير ليكون البحث المكمل للحصول على درجة الماجستير، واسمها جميلة شوكت ـ الأستاذة الدكتورة جميلة شوكت بعد ذلك ـ. وقد أرسلت تطلب مني خلاصة عن سيرتي الذاتية، وكانت رسالتها بإشراف العلامة الأستاذ الدكتور علاء الدين الصديقي رئيس قسم الدراسات الإسلامية، ومنسق الجامعة بعد ذلك.

وكذلك حصل طالب آخر ـ لا أذكر اسمه ـ بجامعة كراتشي على الماجستير ببحث عن الكتاب. لقد اهتم أساتذة الجامعات في باكستان بالكتاب، حيث اعتبروه نهجا جديدا في كتابة الفقه الإسلامي بما يلائم روح العصر، وثقافة العصر، ولغة العصر، مع الحفاظ على الأصول، والاستمداد من التراث.

ومن الطرائف أني حينما زرت باكستان، وزرت مدينة لاهور بصفة خاصة لأول مرة سننة 1969م، وكنت في أوائل الأربعينات من عمري، ولم يكن في لحيتي ولا في رأسي شعرة بيضاء، وقد

لقيني بعض العلماء الباكستانيين واحتفوا بي احتفاء حارا، ومما أذكره في تلك الزيارة: أن أحدهم سألني: أنت الشيخ يوسف القرضاوي؟ قلت: نعم أنا هو! قال: أنت صاحب الحلال والحرام؟ قلت: نعم أنا هو، قال: الحمد لله، الحمد لله. قلت له: الحمد لله على كل حال، ولكن لماذا تحمد الله هنا خاصة؟ قال: كنت أظن أن مؤلف الحلال والحرام في الستين أو السبعين من عمره، والحمد لله أراك في شرخ الشباب، فحمدت الله أنك في هذه السن، وعسى الله أن ينفع المسلمين بك في مستقبل السنين. قلت: أدعو الله أن يجعلني عند حسن ظن المسلمين بي، وأن يغفر لي ما لا يعلمون بفضله وعفوه إنه عفو كريم.

وقد ترجم الكتاب إلى عدد لا يمكن حصره من اللغات الإسلامية والعالمية.

وأعتقد أن أول ترجمة له كانت إلى (التركية) حتى إنني حين زرت تركيا لأول مرة في صيف سنة 1967م، وجدت الكتاب طبع مرتين، طبعة (دار الهلال) التي يملكها الأستاذ صالح أوزجان عضو رابطة العالم الإسلامي.

ثم طبعة دار أخرى، وتنازعت هي ودار الهلال أنهما أحق بالكتاب من الأخرى.

وترجم الكتاب إلى الأوردية في باكستان وفي الهند.

وترجم إلى عدد من لغات الهند، ومنها (الماليبارية) لغة إخواننا مسلمي ولاية كيرلا في الهند.

وترجم إلى الماليزية والأندينوسية.

ولما ذهبت في الثمانينات إلى (كمبالا) عاصمة أوغندا، في اجتماع مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية، وصلينا الجمعة هناك، وقدموني لألقي كلمة بعد الصلاة قال مقدمي: هذا يوسف القرضاوي صاحب كتاب (الحلال والحرام) الذي قرأتموه بلغتكم (السواحلية). ولم أكن أعلم ذلك.

ومنذ بضعة عشر عاما كنت أزور الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد، فقال لي مدير الجامعة أخونا وصديقنا الدكتور حسين حامد حسان: إن هنا مجموعة من الطلاب الطالبات من الصين يريدون أن يلتقوا بك لقاء خاصا بعد المحاضرة العامة، فرحبت بذلك والتقيت بهم لقاء كان طيبا ونافعا، حول الإسلام في الصين ونصاب المسلمين هناك. ثم بعد اللقاء جاءني كثير منهم يطلب مني توقيعا على كتاب، فسألتهم:

كما ترجم الكتاب إلى عدد من اللغات الأوروبية، مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها.

ومنذ سنوات أصدر وزير الداخلية الفرنسي قرارا بمنع نشر الكتاب في فرنسا باللغة الفرنسية أو العربية، وكان قرارا جائرا غير مبرر، احتج عليه كثير من الفرنسيين أنفسهم، حتى إن اتحاد الناشرين في فرنسا كان ضد الداخلية في ذلك، وقد انتهى الأمر باعتذار وزير الداخلية، وسحب قراره، وقال: إنه خطأ إداري، لوما بلغت عن ذلك قلت: بل هو خطأ حضاري وثقافي وسياسي، قبل أن يكون خطأ إداريا.

ولا أزعم أن كتاب (الحلال والحرام) قد حاز رضا جميع الناس، فهذا غير صحيح، وغير ممكن، فإن رضا الناس غاية لا تدرك. والكتاب ينهج المنهج الوسط في الأخذ بالأحكام، والوسط لا يعجب الطرفين: طرف اليمين، وطرف اليسار.

كما أنه لم يلتزم مذهبا معينا من المذاهب السائدة، فلا يتصور أن يعجب المقلدين المتمسكين بمذاهبهم.

وهو يتبنى (التيسير) فلا غرو أن يقف ضده المتشددون، حتى قال عنه من قال: هو كتاب (الحلال والحلال في الإسلام) إشارة إلى تضييق دائرة الحلال. وقد رددت على هؤلاء قائلا: أنصحكم أن تؤلفوا كتابا تسمونه (الحرام والحرام في الإسلام)!

وقد ظهرت بعض الردود على الكتاب، منها:

رد الشيخ عبد الحميد طهماز من علماء حلب، ومن تلاميذه الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

ومنها رد الشيخ صالح الفوزان من المملكة السعودية، المسمى (الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام).

ومنها تعليق (دار الاعتصام) التي طبعت سنة 1973م وعقبت عليه. وكان الأخ أسعد السيد ـ رحمه الله ـ طلب مني أن يطبع الكتاب، لأنه ينوي إنشاء دار نشر إسلامية جديدة، يكون الكتاب باكورتها، ولما لم يكن له دار بعد، أعطى الكتاب لدار الاعتصام، فتصرف الإخوة القائمون على الدار هذا التصرف، وردوا على الكتاب الذي نشروه في قلب الكتاب، ودون علم مؤلفه أو إذنه.

والحقيقة أني لم أعقب على هذه الردود، لأنها ركزت على الأمور الخلافية التي سيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، وقد ملت فيها إلى جانب التيسير وفق منهجي الذي اخترته لنفسي، واطمأننت إلى صوابه، وهو: التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، اتباعا للأمر النبوي الكريم "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" متفق عليه.

ولأن منهجي العام: ألا أضيع الوقت في الرد، ورد الرد، ولا سيما في القضايا التي لا ينتهي الخلاف فيها، نظرا لتعدد زوايا النظر، بين المقاصديين والحَرْفيين، وبين من يأخذون بالأيسر ومن يأخذون بالأحوط، وبين من يعيشون في الماضي ومن يعيشون في الحاضر، والأعمار أقصر وأنفس من أن ننفقها في جدال ليس له ثمرة عملية في النهاية.

ولكني عنيت فقط بالرد على تعليق (دار الاعتصام) لأنه نشر مع كتابي وفي جلده، ولم يكن تعليقا منفصلا، وقد نشر كذلك دون إذن مني، وهو لا يليق، وقد أغضبني وضقت به، وكتبت ردا عليه لينشر مع الكتاب، ولكن سبق السيف العَذَل، فقد نشر الكتاب، ووزع في الأسواق، ولم يعد يجدي طبع الرد معه، مع أن الرد قد جمع بالفعل وصححت (بروفته) وهو عندي إلى الآن لم ينشر.

وحين أعطيت الكتاب بعدها لمكتبة (وهبة)، واقترحت عليها أن تنشر تعقيب دار الاعتصام وردي عليها: أقنعني الأخ الحاج وهبة صاحب المكتبة: أن هذا سيزيد الكتاب في الحجم والسعر، ولا ضرورة لذلك.

وفي نيتي ـ إذا مد الله في العمر ورزقني البركة والتوفيق ـ أن أنشر طبعة تتضمن هذا الرد، وبعض الردود على الانتقادات الأخرى، وعلى بعض تعقيبات الشيخ الألباني على الأحاديث.

ومما يذكر هنا: كتاب سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز إلي في أواسط السبعينات، حول كتاب (الحلال والحرام)، وكان كتابا يفيض بالمودة والتقدير من الشيخ رحمه الله، ومما قاله في مقدمته: إن كتبك لها وزنها وثقلها في العالم الإسلامي، وتأثيرها في مثقفيه وشبابه، ولذا تحتاج منك إلى مزيد من التحري والتثبت، وهذه شهادة من الشيخ الجليل أعتز بها.

ثم ذكر الشيخ أن وزارة الإعلام عرضت عليه كتاب (الحلال والحرام) لينظر فيه: أيفسح له أم يمنع؟ ويرى الشيخ أن في الكتاب ثمانية مسائل انتقدها المشايخ في المملكة.

من هذه المسائل: قضية تغطية وجه المرأة، ومنها: قضية الغناء، بآلة وبغير آلة، ومنها قضية: التصوير، ومنها: مودة المسلم للكافر، ومنها: قضية التدخين، إلى آخر المسائل الثمانية، التي لا أذكرها الآن بالتفصيل، ويرجو مني الشيخ ـ عليه رحمة الله ـ في نهاية كتابه أن أعاود النظر في هذه المسائل، لعلي أغير اجتهادي فيها، وأوافق المشايخ فيما انتهوا إليه من رأي.

وقد رددت على الشيخ برسالة قابلت فيها مودته بأحسن منها، أو بمثلها، وذكرت له أن من أحب الناس إلي أن أوافقهم في اجتهادي هو الشيخ ابن باز، لما أكن له من محبة وإجلال، ولما اعتقد فيه من صدق وإخلاص وغيرة على الإسلام والمسلمين، ولكن سنة الله أن يختلف أهل العلم بعضهم مع بعض منذ عصر الصحابة وإلى اليوم، وما ضر الصحابة ولا الأئمة من بعدهم أن اختلفوا فقد اختلفت آراؤهم؛ ولم تختلف قلوبهم، وقد قال العلامة ابن قدامة في آخر (لمعة الاعتقاد): اختلافهم رحمة واسعة، واتفاقهم حجة قاطعة. وكذلك قال في مقدمة (المغني).

وقد رجوت سماحة الشيخ ألا يكون خلافي في بعض المسائل سببا في منع دخول كتابي إلى القراء الأشقاء في المملكة..فقد قال العلماء: لا إنكار في المسائل الاجتهادية، والشيخ الألباني يخالف المشايخ في بعض الآراء ولا تمنع كتبه.

على أن بعض هذه المسائل قد أخطأ المشايخ فيها فهمهم عني، مثل مسألة (التدخين) فأنا من المتشددين فيه، وقد ذهبت إلى تحريمه بالدليل.

وبعض المسائل أطلقوها، وأنا أقيدها، فأنا لم أقل بمودة الكافر بإطلاق، فالكافر المعادي للمسلمين المحاد لله ولرسوله لا يواد كما نطق القرآن، أما الكافر المسالم فلم ننه عن بره والإقساط إليه، كما قال الله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في المدينة ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة:

ولهذا أجاز القرآن للمسلم تزوج الكتابية، كما تقرر سورة المائدة (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) ومن مقتضى الزواج المودة بين الزوجين كما قال تعالى: (وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم:

وأحسب أن الشيخ قد استجاب لرسالتي، ولم يمنع الكتاب في تلك المدة من دخول المملكة.

هذه قصة كتابي (الحلال والحرام) عسى أن يجد القارئ الكريم فيها منفعة وذكرى.

لقائي بالأستاذين السباعي والمبارك

ومن مكارم الدكتور البهي: أنه عرفني بكثير من أصدقائه من الرجال الكبار، وقدمني إليهم تقديما كثيرا ما أخجلني، لما يلبسني فيه من ثوب أراه فضفاضا علي، ولم أر الدكتور البهي يصنع هذا مع أحد غيري. وأعتقد أنه كان في هذا مخلصا، فلم أكن ممن يرجى أو يخشى، حتى يقول فيّ ما لا يعتقده. بل كنت مضطهدا مطاردا من قبل سلطات الأمن، كما لا يخفى عليه.

وكان من أهم من عرفني بهم: الأربعة الكبار من علماء سورية: مصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، ومعروف

الدواليبي. فطالما ذكرني عندهم بخير في غيبتي، حتى شوقهم إلى لقائي.

أما مصطفى السباعي، فقد عرفته من قبل، حين زرانا بالمحلة، وألقي فيها محاضرة عامة رائعة استمرت نحو ساعتين، وهو يفيض كالبحر الزخار: وكان الإخوة هم الداعين إليها، والمنظمين لها. وهو رجل يسحر سامعيه، بوضوح فكره، وقوة عرضه، وجمال أسلوبه، وجمعه بين الجد والفكاهة المحببة. وقد قرأت له من قبل كتابه القيم:

السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. وكتابه (اشتراكية الإسلام) و(من روائع حضارتنا) وغيرها من الكتب والرسائل التي تجمع بين إقناع العقل، وإمتاع القلب.

وأما محمد المبارك فقد قرأت تعريفا به في سجل التعارف الإسلامي، الذي كانت تحرص عليه مجلة (الشهاب) الذي أصدرها الإمام الشهيد حسن البنا، فكان في كل عدد منها ملحق به عدد من الأسماء والصور في صفحة أو صفحتين، وكان من هؤلاء: الأستاذ محمد المبارك، والأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والأستاذ أحمد مظهر العظمة، وغيرهم من رجالات سورية وعلمائها ودعاتها الأكرمين.

وقد ساهم كل من السباعي والزرقا والمبارك والدواليبي مع الدكتور البهي في لجان تطوير الأزهر، وكان من مقترحاتهم أن يدرس طلاب الأزهر مادة (نظام الإسلام) التي يقدم فيها الإسلام نظاما متكاملا في العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق. وإن كان الأزهر لم ينفذ توصيتهم هذه على أهميتها.

كما أن هؤلاء العلماء ـ وخصوصا الأستاذ الزرقا ـ أسهموا بنصيب وافر في تطوير قانون الأحوال الشخصية، وعمل قانون موحد يأخذ بما انتهت إليه أفكار الإصلاح والتجديد في الأحوال الشخصية، منذ عهد الشيخ المراغي فما بعده. وإن لم ير هذا القانون النور، لانتهاء الوحدة قبل أن يكتمل، وقد نشره الأستاذ الزرقا بعد سنوات.

حضر الشيخ السباعي والأستاذ المبارك إلى مصر، فعرض الدكتور البهي علي أن يجمعني بهما، ودعاني إلى حفل شاي أقامه لهما في فندق (شبرد) بالقاهرة، وكان لقاء مباركا زاد من صلتي بالأستاذ السباعي، وأهداني بعض كتبه، ممهورة بتوقيعه بقلمه، ومنها: كتاب (السنة ومكانتها في التشريع). وقد بقي الدكتور السباعي في القاهر مدة من الزمن، لقيته فيها أكثر من مرة، وقد حدثني في إحدى زياراتي له: أنه زاره محمود أبو ريّا مؤلف كتاب (أضواء على السنة المحمدية) الذي تطاول فيه على السنة، وعلى بعض الصحابة مثل أبي هريرة، وعلى أئمة السنة، حتى البخاري، ورد عليه الشيخ السباعي في فصل من كتابه، ردا قويا مركزا هدم كتابه من أساسه. وقال لي الشيخ: إن أبا ريّا قال له: إنك كنت شديد القسوة علي. وكانت كلماتك كأنها شواظ من نار. فقلت له: وماذا كنت تريد أن أقول لك بعد أن هاجمت سنة رسول الله، وأصحاب رسول الله، وأئمة الإسلام، وخرجت عن الأسلوب العلمي في نقدك؟ هل كنت أريد أن أقول لك: معذرة يا شيخ الإسلام؟!

وخرج أبو ريّا من عند الشيخ ملوما محسورا، وقد زادته كلمات الشيخ قهرا على قهر، وغما على غم، جزاء ما أساء إلى السنة.

كما لقيت الأستاذ المبارك وجها لوجه، بعد تقريره عن كتابي (الحلال والحرام) وحدثني عن قراءته لمسودة كتاب (الحلال والحرام) وأنه أعجب به منذ شرع في قراءته. ولكنه لم يكن يعرف

القرضاوي كاتب هذا الكلام، ولماذا لم يعرف قبل ذلك ما دام لديه مثل هذه المعرفة، وهذه الرؤية، وهذا القلم؟

قال: وكان أخي مازن، يدرس الدكتوراه في اللغة العربية بالقاهرة، وفي إحدى رجعاته إلى دمشق: سألته: هل تعرف في مصر رجلا اسمه يوسف القرضاوي؟

قال: كيف لا أعرفه، وطالما صليت وراءه الجمعة في مسجد الزمالك؟ وهو كذا وكذا، وحدثني عنك بما شوقني إليك، وزادني شوقا حديث الأستاذ الدكتور البهي عنك.

قلت: أرجو والله أن أكون عند حسن الظن.

وقد توثقت الصلة بيني وبين المبارك، حتى توفاه الله في الأرض المقدسة، في مكة المكرمة، رحمه الله، وجزاه عن دينه وأمته خيرا.

الامتحان من أجل الابتعاث للبلاد العربية

كان من حقنا بعد مضي ثلاث سنوات علينا في العمل: أن نتقدم بطلب ليكون لنا حق الابتعاث أو الإعارة لبعض البلاد العربية التي تطلب مدرسين لمدارسها أو معاهدها.

وما إن اكتملت لنا مدة السنوات الثلاث ـ منذ بدء تعييننا في الأوقاف ـ حتى تقدمنا بهذا الطلب، لنلحق بالمعارين إلى السعودية والكويت وغيرهما. وبخاصة أننا قد تأخرنا في التعيين، وفي حاجة ماسة إلى سند مادي يشد ظهرنا في مواجهة مطالب الحياة، وكل منا يريد أن يكون له بيت يملكه، لا مجرد شقة يستأجرها، وأن يكون له قدر من المال يدخره لمفاجآت الحياة.

والإسلام لا ينظر إلى المال على أنه شر ونقمة على الإنسان، بل ينظر إليه على أنه نعمة يجب أن تشكر، وأمانة يجب أن ترعى، وهو وسيلة لتحقيق غايات الإنسان، جيدة كانت أم رديئة، فهو خير في يد الأخيار، وشر في يد الأشرار، وفي الحديث: "نعم المال الصالح للمرء الصالح" وقد امتن الله تعالى على رسوله فقال: (ووجدك عائلا (أي فقيرا) فأغنى) الضحى: وقال تعالى على لسان نوح: (فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) نوح:

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى" كما كان يستعيذ به من شر فتنة الفقر، ومن شر فتنة الغنى.

فلم يجئ في القرآن ما جاء في الإنجيل: أن الغني لا يدخل ملكوت السماوات، حتى يدخل الجمل في سم الخياط، ولم يقل الرسول لأحد أصحابه: اذهب فبع مالك ثم اتبعني. بل قال: ما نفعني مال كمال أبي بكر.. ودعا لخادمه أنس بدعوات منها: أن يكثر الله ماله.

على أن السفر لا يفيد الإنسان مالا فقط، بل يفيده علما وخبرة وتجربة، وقد كنا نحفظ شعرا ينسب إلى الإمام علي رضي الله عنه يقول فيه:

تغرّبْ عن الأوطان في طلب العلا وسافر، ففي السفر خمس فوائد

تفرج همّ، واكتساب معيشة وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

على أن في البعثة بالنسبة إلينا ـ معشر الإخوان ـ فائدة أخرى غير مصرح بها، وهي الفرار من ملاحقات المباحث والمخبرين،

والنجاة بالرأس من احتمالات الاعتقالات التي قد تكون بسبب أو بغير سبب، وقد يكون السبب أمرا لا علاقة لك به، ولا تعلم عنه شيئا. ولا عجب أن قدمنا طلب الإعارة أول ما استحققنا ذلك.

وكان المتبع في الأزهر: أن المتقدمين للبعثات أكثر من المطلوبين عادة، وفي بعض العهود كان الابتعاث موكولا إلى بعض الأشخاص في الإدارة يتحكمون فيه، وقد قيل عن هؤلاء ما قيل، وفاحت روائحهم، وكان بعض المشايخ يتمثل بقول القائل:

إذا كنت في حاجة مرسلا وأنت بها كلف مغرم

فأرسل حكيما ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال آخر:

ألا بالقرش تبلغ ما تريد وبالمصري يلين لك الحديد

تحويرا لقول الشاعر القديم:

ألا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

فجعل مكان الصبر (القرش) ومكان التقوى (المصري) أي الجنيه المصري.

وهذه آفة من أشد الآفات خطرا على المجتمعات وقيمها: انتشار الرشوة، وإعطاء الأمر: لمن يدفع، لا لمن يستحق. ولذا لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي والرائش، أي الوسيط بينهما. وفي الحديث الصحيح: "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة" قيل: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

وليس من الضروري أن تفهم (الساعة) هنا على أنها الساعة العامة للبشر جميعا. بل لكل أمة ساعة تذهب فيها عزتها وسيادتها، ويسلط عليها غيرها، فيصرف أمورها على ما يريد هو، لا على ما تريد هي.

ولئن جازت الرشوة ـ وما هي بجائزة ـ في أي مجتمع، لا يجوز أن تكون في الأزهر، الذي يخرج للأمة علماءها ودعاتها ومفتيها.

لهذا ضبط هذا الأمر في عهد الشيخ شلتوت بأن يدخل طالبو البعثة (امتحانا شفهيا) تقوم به لجنة من العلماء المرموقين، ويرشح منهم الناجحون الأول فالأول، وبهذا يأخذ كل ذي حق حقه.

وأذكر هنا: أن اللجنة التي امتحنتني كان على رأسها أستاذنا الشيخ محمد يوسف الشيخ الأستاذ بكلية أصول الدين، وأستاذ العقيدة وعلم الكلام والمنطق، الذي كانت له شهرته في التدريس في الكلية، وكانت اللجنة تمتحن المتقدم في القرآن الكريم وفي أسئلة عامة في العلوم الإسلامية.

وكنت بحمد الله حافظا للقرآن، لا أكاد أخرم منه حرفا، وكان أستاذنا محمد يوسف الشيخ يسأل أحيانا في تفسير بعض الآيات. ومما أذكره أنه سألني أن أقرأ من سورة فصلت: قوله تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين) وقرأت هذه الآيات إلى أن وصلت إلى قوله عز وجل: (فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم) فصلت:

وهنا سألني الأستاذ: ألا ترى يا قرضاوي في قوله تعالى: (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا): ردا على ذلك الزعم الذي يرى أن

بإمكان الإنسان أن يصعد إلى القمر، والله تعالى قد بين لنا أنه حفظ السماء؟

قلت له: اسمح لي يا شيخنا: إني لا أرى كلمة (حفظا) دالة على عجز الإنسان أن يصل إلى أي كوكب فوقنا. فهذا الحفظ حفظ مخصوص دلت عليه الآيات الأخرى مثل قوله: (وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب) الصافات:

وقال في سورة أخرى: (وحفظناها من كل شيطان رجيم) الحجر: فهو حفظ من استراق السمع.

ولا ينافي هذا الحفظ أن يصل الإنسان، الذي علمه الله ما لم يكن يعلم ـ وفقا لسنن الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس ـ إلى بعض كواكب السماء، وقد قال تعالى: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) الأعراف:

وأعتقد أنه من المجازفة يا مولانا: أن نعلن باسم الدين والقرآن: أن الصعود إلى القمر أمر مستحيل، ثم يتمكن الإنسان بعد سنوات ـ قد تطول أو تقصر ـ من تحقيق هذا الأمر، فماذا يكون موقف الذين أنكروا هذا الأمر واستبعدوه؟

قال الشيخ: وهل تعتقد أن هذا بالإمكان؟

قلت: لا ريب أنه في دائرة الإمكان حسبما وصل إليه الإنسان من إنجازات كانت تحسب من قبل في عداد المستحيلات، وقد قال تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون) النحل:

ولو لم يكن هذا الأمر في دائرة (الإمكان العادي) فهو قطعيا في دائرة (الإمكان العقلي) الذي درستموه لنا في علم الكلام.

وسكت الشيخ العلامة في العلوم العقلية، وإن كنت لاحظت عليه أنه غير مصدّق بقدرة الإنسان على الصعود إلى القمر.

والحمد لله، قد صدّقتني الأيام، فقبل مضي عشر سنوات كان الإنسان قد حقق هذا الإنجاز الخطير، وصعد أول إنسان إلى القمر، وجلب من فوقه صخورا وأتربة ليحللها الإنسان هنا على الأرض.

أول المتسابقين

ولم تؤثر هذه المناقشة التي خالفت فيها رئيس اللجنة في تقديرها لي، فقد منحتني اللجنة أعلى درجة نالها ممتحن، وكنت أول المتقدمين في هذا الامتحان.

ومن ثم كان من حقي أن أختار أي بلد أحب من البلاد التي يبعث إليها الأزهريون. وكان أفضل بلد يختاره الأزهريون عادة هو (الكويت) فقد كانت الكويت تعطي أعلى الرواتب للمعارين إليها.

اختيار قطر

ولكني لم أختر الكويت، بل اخترت (قطر) ولم يكن لقطر شهرة في ذلك الوقت، ولا يرغب المعارون فيها كغيرها، فقد كانت تخطو الخطوات الأولى في سلم الترقي الحضاري، وكانت رواتبها أقل من غيرها.

ولكن لأن الشيخ عبد الله بن تركي المسؤول عن العلوم الشرعية فيها كان قد طلبني من قبل من وزارة الأوقاف، ولا يزال حريصا على استقدامي إلى قطر. فكان من الواجب أن أبادله ودا بود، وأقابل تحيته بمثلها أو أحسن منها.

ولكن بدت هنا عقبة لم أكن أتوقعها، ولم تخطر لي على بال، وهي أن أستاذنا الدكتور محمد البهي رشحني لبلد آخر، هو المملكة الليبية، فقد كان للأزهر هناك معهد يتبعه اسمه (معهد القويري) بمدينة مصراطا، وكان شيخ هذا المعهد يعين من الأزهر، ويكون رئيسا للبعثة الأزهرية، وكان الأزهر هو الذي يدفع رواتب المبعوثين إلى ليبيا. وكان رئيس البعثة الأزهرية في ليبيا على غير هوى الدكتور البهي، وهو محسوب على الشيخ المشد، وقد أرسل إليه الدكتور البهي بتعليمات فلم ينفذها كما ينبغي، لذا أراد الدكتور البهي أن يتخلص من هذا الرجل، ويبعث مكانه شخصا يعتقد أنه سيملأ مكانه وزيادة، وسيكسب رضا الشعب الليبي وثناءه، فلأجل ذلك حرص على أن يرشحني لهذا المنصب.

ولكني اعتذرت برفق لأستاذنا الدكتور البهي، وقلت له: إن بعثة ليبيا لا تنفعني بحال، لأن رواتب مبعوثيها من الأزهر، وهو يعطي ثلاثة أمثال الراتب، وأنا لا زلت في أوائل الدرجة السادسة، وراتبي جد محدود، فمعنى هذا: أن راتبي سيكون نحو سبعين جنيها!!

قال الدكتور: هناك علاوة لرئيس البعثة.

قلت: هب أنه صار مائة جنيه، فماذا ينفعني هذا؟ وماذا أنفق منها وماذا يبقى لي؟

وكان منطقي قويا مبررا، فلم يملك أمامه الدكتور أن يقول شيئا، ولكنه يظهر ـ والله أعلم ـ أنه تأثر بهذا الموقف مني، وأنه كان يتوقع أن أستجيب له فيما أراده، وخصوصا بعدما قدم لي من إكرامات في صور شتى.

ولكن كانت هذه البعثة غير ملائمة لي على كل المستويات، ابتداء من المستوى المالي، ثم هي في بلد ليس عاصمة البلد الذي سنذهب إليه، ثم ما ذنبي أنا أن أدخل في تصفية حسابات بين الدكتور البهي والشيخ المشد، وعلاقتي بكل منهما في غاية الجودة؟

ولقد حضر إلى مصر في الإجازة الصيفية الشيخ عبد الله بن تركي من قطر، وقابلته أنا والأخ أحمد العسال، وكان لقاء علميا حيا، طرقنا فيه موضوعات في العقيدة والفقه والتربية، وسر به الشيخ ابن تركي، وطلبنا رسميا من الأزهر.

وقد دعانا الأخ إسماعيل حمد المدرس في قطر إلى وليمة على شرف الشيخ ابن تركي في يوم جمعة، بعد أن صلينا جميعا في المسجد الذي يخطب فيه شقيقه صديقنا الشيخ أحمد حمد في حي الدقي، وكان المقصود أن يستمع ابن تركي إلى أحمد، ويعجب به، ويطلب إعارته إلى قطر. ولكن الذي حدث هو العكس، فلم يدخل أحمد حمد قلب ابن تركي، ولم ينشرح إليه، ولا أعجبه، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ولهذا لم تفلح (عزومة) إسماعيل في طلب إعارة أخيه، وهذه قضية عادية، ولكن كان لها ما بعدها من الأثر في علاقتنا بأخينا أحمد. وليس لنا جرم فيها، لا أنا ولا العسال، وكل امرئ يأخذ نصيبه وفق قدر الله.

منعي من السفر إلى قطر

ومضينا نتخذ الإجراءات للبعثة، ونهيئ الأسباب للسفر القريب، واستخرجت جواز السفر لي وللعائلة، ولكني فوجئت بما لم يكن في

الحسبان، فقد مضت أمور أخي العسال بلا عقبات ولا اعتراض من أحد، أما أنا فقالوا: إن جهات الأمن معترضة عليك.

وسألنا عن سبب الاعتراض، فلم نجد جوابا، وطلبت من الدكتور البهي أن يسأل مكتب السيد كمال رفعت، ومديره السيد على امبابي الذي كان دائم الصلة بمكتب الدكتور البهي، وكانت إشارته حكما، وطاعته غنما، وتوجيهاته لا ترد ولا تناقش، وكل هذا لم يجد شيئا.

وظل الشيخ عبد الله بن تركي يرسل البرقيات تلو البرقيات لتسهيل إعارتي إلى حكومة قطر، ولا من سميع أو مجيب.

وقد أخبرني بعض الرجال في إدارة الأزهر، ممن لهم صلات بجهات الأمن: أن الذي حال بيني وبين السفر إلى قطر هو الدكتور البهي، وأنه هو الذي أوعز إلى جهات الأمن أن تمنعني، وذلك عندما سأله رجال الأمن: هل تضمنه؟ فكان جوابه: لا. وأن الدكتور البهي فعل ذلك، عقوبة لي على رفضي الاستجابة لرغبته في الذهاب إلى ليبيا شيخا لمعهد القويري هناك.

ولكني لم أصدق هذا الكلام، وأنا أستبعد هذا على الرجل وحسن علاقته بي، ولا أسيء به الظن إلى هذا الحد. وإن كنت قد لاحظت أنه ساءه موقفي، وليس من اليسير عليّ أن أتهم رجلا عاملني طوال مدة العمل معه معامل منقطعة النظير، ولم أر منه قط ما يسوءني، بل رأيت منه كل ما فيه تكريم وإعزاز لي، وقد ذكرت ذلك فيما مضى.

وليس من خلقي أن أسارع باتهام الناس، ولا إساءة الظن بهم بغير بينة، والأصل في الناس عامة: البراءة، كما أن الأصل في معاملة المسلم: أن يحمل حاله على أحسن المحامل، حتى يتبين منه غير ذلك. وقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن،

إن بعض الظن إثم) الحجرات: وقال عليه الصلاة والسلام: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث" متفق عليه.

والمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق دائما يبحث عن العيوب. وقد قال أحد السلف الصالح: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرا آخر لا أعرفه!

والمؤمن يريح نفسه حين يقول: الخير فيما اختاره الله، ويقرأ قوله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) النساء: والمثل يقول: كل تأخيرة وفيها خيرة. وهذا ما جربناه في مناسبات شتى.

وقد قال لي الأستاذ محمد مرسي مدير مدرسة الدوحة الثانوية حينما لقيته في الصيف المقبل بعد رفع الحظر عن سفري: من الخير أنك تأخرت هذه السنة، لأنك ستأتي هذه السنة قطر مديرا للمعهد الديني، تملك قرارك بدون معارضة ولا تعطيل، ولو جئت في العام الماضي، لكنت وكيلا للمعهد، وكنت ستتعب مع المدير الموجود.

وعلى كل حال، لا أملك إلا أن أدعو للدكتور البهي بالمغفرة إن كان قد فعل ذلك. فما هو إلا بشر يصيب ويخطئ، وقد قالوا: لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة! والمهم أن تغلب حسنات الإنسان سيئاته (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) الأعراف:

ولقد ظلت علاقتي بأستاذنا الدكتور البهي موصولة الحبال، لم تنقطع خيوطها يوما، رغم أنه ـ رحمه الله ـ ساءت علاقته بالشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق، بعد أن عين وزيرا للأوقاف. واصطدم بهما بغير مبرر، مع أنهما كانا حفيين به، وطالما دعواه وقدماه

وكرماه من خلال منصبيهما في الوزارة، ولكن (عنف) الدكتور البهي غلب عليه، فعاملهما بجفوة مستغربة، مما اضطرهما أن يطلبا نقلهما إلى الأزهر، وبقيا فيه حتى خرج د. البهي من الوزارة.

وقد طلبته بعد ذلك بمدة أستاذا زائرا لكلية الشريعة بجامعة قطر، عندما كنت عميدا لها، فجاءنا مع أهله، ورحبنا به، ووفرنا له ما يستحق من تكريم، وذلك حين عرفت ضائقته المادية، فلم يستفد من الوزارة شيئا غير راتبه، وغير العداوات التي جلبها على نفسه.

وقد كان من دأب الدكتور البهي ـ الذي عرفناه من سيرته ـ أنه لا يأخذ أجرا على مقالة يكتبها، أو محاضرة يلقيها، أو حديث يذيعه، طريقة اتخذها لنفسه، وأصر عليها إلى أن لقي ربه، رحمة الله عليه ورضوانه.

وحينما رأى نشاطي المتنوع في قطر، سرّ به سرورا بالغا، وقال لي يوما: كان ظني بك في محله، وأنك العالم المرجو لغد هذه الأمة. قلت: إنما أنا تلميذ لكم، مستفيد من فكركم.

وكان يقول للأزهريين الذين يزورونه: إن القرضاوي لم يأخذ حقه. إن مكانه الصحيح هو مشيخة الأزهر! إن الأزهر في حاجة إلى قيادة تجمع بين الفكر والدعوة، وبين الأصالة والتجديد، وإن علينا ـ نحن علماء الأزهر ـ أن نرشح القرضاوي ليقود سفينة الأزهر التي تميل بها الرياح. وكان هذا من حسن ظنه بي غفر الله لي وله. وكان الزملاء ينقلون إليّ قوله. وقد صارحني بذلك في إحدى زياراتي له في الفندق، وقلت له: يا فضيلة الأستاذ شكر الله، حسن ظنك بي. ولكن هل ترى مثلي يصلح لهذا المنصب في هذه الظروف التي تعرفها؟ وهل يقبلون مثلي لهذا الأمر؟! قال: هم لا

يقبلون، ولكن علينا نحن أن نقنعهم! وهبهم اقتنعوا، هل يطلقون يدي لأنفذ ما أريد؟

السنة الدراسية 1960، 1961م

وسافر العسال إلى قطر، وبقيت في مصر، أعمل بين المكتب الفني للوعظ والإرشاد، ومراقبة البحوث والثقافة، فكثيرا ما كلفني الدكتور البهي بتقديم بعض المحاضرين في موسم المحاضرات بقاعة الشيخ محمد عبده، وهي السُّنة الحسنة التي استنها الدكتور البهي لإحياء الجانب الثقافي في الأزهر، واستغلال قاعة الشيخ محمد عبده لدعوة كبار المفكرين والعلماء لإلقاء المحاضرات العلمية بها في مختلف التخصصات، وقد ظلت سنوات، وهي مهجورة، ولا يدخلها أحد.

وقد شهدت هذه القاعة محاضرات لبعض الرجال الكبار من مصر، ومن البلاد العربية، منهم: الكاتب العملاق عباس العقاد الذي ألقى محاضرة قيمة عن (فلسفة الغزالي)، ومنهم: الأستاذ محمد المبارك الذي كان موضوعه (نحو وعي إسلامي جديد) ومنهم: الأستاذ السيد علي السيد رئيس مجلس الدولة الذي تكلم عن العلم في القرآن، ومنهم: الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التي تحدثت عن القرآن فيما أذكر، وكانت حاسرة الرأس، فسارع العالم الورع الصوفي المعروف الشيخ محمود أبو العيون، بإلقاء (شاله) عليها، لتستر نفسها أمام الرجال الأجانب في قاعة محاضرات الأزهر.

وأذكر من الرجال الذين كلفني الدكتور البهي بتقديمهم في قاعة الشيخ محمد عبده: الشاعر الأديب السفير الحقوقي الداعية السوري

الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، الذي تحدث في محاضرة له عن العلاقة (بين العروبة والإسلام).

ولقد قدمته قبل المحاضرة، وعلقت على محاضرته بكلمات قوية، وقعت موقعها في قلب الأستاذ الأميري، فعانقني بعدها وشكرني، ومن يومها انعقد بيني وبينه صلة عميقة، لم تزدها الأيام إلا عمقا وقوة، ولا سيما بعد أن التقينا مرات ومرات في لبنان وفي قطر، وفي السعودية والمغرب والجزائر.

ولا أذكر في هذه السنة أحداثا ذات بال، حدثت في حياتي، إلا أني كنت أقرأ كثيرا في الموضوع الذي اخترته لرسالة الدكتوراه، وهو (الزكاة في الإسلام وأثرها في حل المشاكل الاجتماعية) والذي قدمته إلى الكلية، التي عينت لي مشرفا هو شيخنا في الكلية، وشيخي في الدراسات العليا: الشيخ أحمد علي رحمه الله.

وقد كنت معنيا بالمقارنة بين الزكاة وغيرها من الضرائب، ولكني قرأت كثيرا من كتب الاقتصاد، وخصوصا ما يسمى (الاقتصاد السياسي) ولم أجد فيها ما يشبع نهمتي. وكانوا يتحدثون عن الاقتصاد الرأسمالي، والاقتصاد الاشتراكي، ولا يخطر ببالهم أن هناك شيئا اسمه الاقتصاد الإسلامي، حتى حينما يتناولون التاريخ، يذكرون الاقتصاد عند اليونان، والاقتصاد عند الرومان، والاقتصاد عند الفرس، ولا يذكرون شيئا عن الاقتصاد عند العرب والمسلمين، الذين كانت لهم حضارة شماء، استمرت شمسها مشرقة نحو عشرة قرون!

وقد اكتشفت بالمصادفة أن الفرع الذي يهمني في دراستي أكثر من غيره من فروع الاقتصاد، هو: علم المالية العامة، الذي يتناول موارد الدولة ونفقهاتها، وفلسفة الضرائب وشروطها، وكيف تتحقق العدالة فيها. وقد قيل لي: إن أعظم كتاب في (أصول علم المالية)

هو كتاب الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي أستاذ علم المالية في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، والذي كتب في الاقتصاد الإسلامي عدة بحوث جيدة. وهو الكتاب الذي درسه عدة سنوات في الكلية، ولكني حاولت أن أعثر عليه فلم أجده، فمن المؤسف أن هذه الكتب القيمة المقررة في الكليات إذا لم تعد مقررة لتغير الأستاذ، فقدت من السوق تماما. وهذا ما حدث لهذا الكتاب وأمثاله من الكتب الأصيلة.

ولهذا لم أجد بدا: من أن أستعيض عن كتاب الدكتور العربي، بما يتوافر في السوق من كتب علم المالية، المقررة على الطلبة في كليات الحقوق. وقد استفدت منها على كل حال، ووجدت فيها طلبتي التي كنت أنشدها، وإن لم تبلغ مبلغ كتاب العربي.

قطر تواصل الإرسال في طلبي من مصر

وفي خلال هذه السنة الدراسية - 1960-1961م - لم تنقطع رسائل وزارة المعارف في قطر عن طلبي من الحكومة المصرية، وبخاصة أن فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي مسؤول العلوم الشرعية في المعارف، والمسؤول عن التعاقد مع علماء الأزهر في مصر. لم يكف عن إرسال البرقيات إلى الأزهر، وإلى السيد حسين الشافعي - عضو مجلس الثورة - والمشرف على الأزهر في ذلك الوقت، يطلب فيها (فك الحظر) عني، والسماح لي بالسفر إلى قطر.

ونظرا لكثرة البرقيات وإلحاحها: شرع مكتب حسين الشافعي يحقق في أمر منعي، وأسبابه، وانتهى إلى إلغاء قرار المنع، والسماح لي بالسفر إلى قطر، ابتداء من العام الدراسي القادم 1961، 1962م.

وفي 1961/9/12 سافرت إلى قطر مديرا لمعهدها الديني الثانوي، لأبدأ هناك مرحلة جديدة من مسيرة الحياة، حديثها يطول، وهو ما نتحدث عنه إن شاء الله، في الصحائف القادمة.

الاستعداد للسفر إلى قطر

بعد أن وافقت الجهات الأمنية في مصر على سفري معارا إلى قطر، انزاحت العقبة الكأداء التي كانت تقف في طريقي دائما. فقد وقفت في طريق تعييني في معاهد الأزهر من قبل، كما وقفت في سبيل تعييني خطيبا بالأوقاف، ووقفت في سبيل سفري إلى قطر. والحمد لله على كل حال.

بقي علي أن أعد العدة للسفر إلى قطر فالسفر إلى قطر ليس سفرا لعدة أيام أو أشهر، كما كانت سفرتي السابقة إلى بلاد الشام، ولكنه سفر إعارة لمدة أربع سنوات، قد تمد فتصبح خمس سنوات أو ستا. فهو (سفر اغتراب) يلزم المسافر أن يتهيأ له بما يناسبه.

ثم إنه سفر لي ولعائلتي معي، وكانت عائلتي تتكون من زوجتي وابنتي الصغيرتين: إلهام، وهي لم تكمل السنتين، وسهام وهي تقترب من إكمال السنة. فكان علي أن أعد جواز السفر، ولم يعد هناك عقبة في استخراجه.

وكان علي أن أهيئ الزي المناسب، وهو الزي الأزهري الذي ألفته وألفني مدة طويلة، ثم قهرتني الظروف الاجتماعية والاقتصادية على أن أخلعه، حين عينت بمدارس الشرق الأوسط الخاصة بالزمالك. والآن لم يعد هناك مانع من العودة إليه، بل هناك مقتض لذلك. فهو الملائم لعلماء الأزهر المبعوثين، فعدت إليه مختارا، وقد

قالوا في الأمثال: من فات قديمه تاه. وهذا يقال في الماديات والأدبيات على السواء.

ولكن كان علي أن أبحث عمن يخيط (الجبب) أو (الكواكيل) التي أريدها، و(الكاكولا) هي الجبة ذات الطوق، ولا أدري لماذا سميت (كاكولة) ومن أي لغة أخذت، ويقال: إن أول من لبسها وقلده الناس فيها هو الإمام الأكبر الشيخ المراغي، شيخ الأزهر في زمنه.

لقد قل الخياطون أو (الترزية) المتخصصون في تفصيل الكاكولة، بعد أن قل من يلبسها من الأزهريين، بعد أن غلب على أكثرهم ارتداء الزي الإفرنجي.

كما قَلَّ الذين يصنعون (طربوش العمامة) بعد أن أضحى عامة الناس لا يلبسون الطرابيش على رؤوسهم، وأضحى أكثر الأزهريين لا يلبسون العمائم، لهذا انحصرت صناعة الطرابيش في محلين معروفين في شارع الغورية بحيِّ الأزهر. وهما اللذان أتعامل معهما أو مع أحدهما (محمد أحمد) من سنين طويلة إلى اليوم.

وقد كانت مادة الطرابيش من قبل تستورد من مصانع في النمسا، وكان بعضها في غاية الجودة والرقي، فلما منع الطربوش في تركيا من قبل، وألغي عمليا ـ من بعد ـ في البلاد العربية: أغلقت هذه المصانع أبوابها، وبدأت صناعة محلية، ولكنها للأسف لا تزال رديئة، ولم ترتق إلى المستوى المطلوب أو تقاربه إلى اليوم، ومرد ذلك إلى قلة الإنتاج غالبا.

وأنا أعتمد في الطرابيش على ما يبعثه إليَّ الأصدقاء من المغرب، فصناعة الطرابيش فيها أرقى منها في مصر، لأن الطربوش يعتبر من الزي الرسمي للملك والأمراء والوزراء والسفراء وغيرهم.

ولكن تبقى مشكلة (شال العمامة) فقد كان من قبل هناك شيلان تعرف بـ (الاستانبلي) ناعمة كأنها الحرير. ثم اختفت، ولم يوجد للأسف البديل لها.

على كل حال: عند سفري إلى قطر، كانت هذه الأشياء لا تزال متوافرة إلى حد معقول. إلا (الترزية) ثم دلني بعض الإخوة على ترزي عريق، يخيط لشيوخ الأزهر الكبار، ودكانه في خان الخليلي، وهو (عم يوسف العدوي). وكان ترزيا متقنا، فخطت عنده كاكولتين، وفي كل صيف آتي له بالقماش ليفصل لي عدة كواكيل بعضها للشتاء، وبعضها للصيف. وكان يطلب أجرة خياطة الكاكولة (خمسة جنيهات). وظل على ذلك عدة سنوات، وكنت أقول له: يا عم يوسف، ألا تزيد في الأجرة قليلا؟ فيقول لي: رضا والحمد لله. ثم بعد مدة بدأت الحياة تغلو، والأسعار ترتفع، فظل يزيد الأجرة إلى عشرة جنيهات، فعشرين، فأربعين، فخمسين، إلى أن وصلت إلى 150 مائة وخمسين جنيها، أي ارتفعت إلى ثلاثين ضعفا!

وكان عم يوسف حريصا على أن يقول لي: خياط الكاكولة: ترزي أفرنجي، أما خياط الجبة العادية فهو ترزي عربي.

قال لي الإخوة الذين سبقوني: لا تأخذ كتبا معك، فهناك الكتب الشرعية والعربية موفورة وميسرة في مكتبة حاكم قطر السابق الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني.

كل ما عنيت بأخذه من الكتب: نسخ من الكتابين اللذين صدرا لي، وهما: (الحلال والحرام في الإسلام) و(العبادة في الإسلام) لأهدي منها إلى العلماء والمشايخ في قطر.

وقبل السفر بأيام ذهبت إلى القرية، لأزور الأقارب فيها وأودعهم قبل هذا السفر، الذي قد يطول، ولأكسب دعاءهم لي، ولأكسب فضل صلة الرحم وما لها من بركة في بسط الرزق، وإنساء الأثر، كما صح في الحديث.

استدعاء المباحث العامة

ومن المفاجآت التي أزعجتني قبل السفر: استدعاء المباحث العامة لي في وزارة الداخلية في (لاظوغلي) بالقاهرة، وكان الذي استدعاني هو الرائد أحمد راسخ (اللواء منذ سنوات) المسؤول عن إخوان القاهرة خاصة، بالمباحث العامة، وقد استقبلني بلطف ونعومة. وقال لي: أريد أن تتعاون معنا من أجل مصلحة البلد. قلت له: كلنا جنود من أجل مصلحة الوطن، ولكنني معار لعمل محدد هناك. وأنتم حذرتمونا أن نشتغل بالسياسة، فما لكم تريدون أن تعيدونا إليها؟

قال: لا نريدك أن تشتغل بالسياسة، ولكن إذا رأيت شيئا مهما، نرجو أن تبلغنا به. وهذا لا يكلفك إلا رسالة بريدية، وهذا عنواني.

وانصرفت من عنده مستغربا من فكرة رجال الأمن الذين عمُوا عن معرفة معادن الناس، واعتقادهم أن كل إنسان صالح لأن يعمل لحسابهم، وأن يكون عينا لهم، أو أذنا لهم، وأنهم ـ بالتهديد المبطن ـ يستطيعون أن يجندوا حتى العلماء والدعاة، وهم في ذلك جد مخطئين. وسنعود إلى أحمد راسخ مرة بعد مرة في حينها.

إطلاق اللحية

وجاء موعد السفر، ولبست جبتي وعمامتي، وكنت قد أعفيت لحيتي منذ أسابيع، إحياء للسنة، ورجوعا إلى ما كنت قد بدأت به من قبل قبل دخولي إلى السجن الحربي.. وكان إعفاء اللحية عند سفري أمرا منطقيا وطبيعيا، فقد تغيرت الظروف التي أجبرتني على حلقها. وأنا ذاهب إلى مجتمع أغلب رجاله ملتحون، ولا يستغربون إطلاق اللحية، بل لعلهم يستغربون من عالم الدين أن يكون حليقا.

الطيارة الكوميت

كان سفرنا بطبيعة الحال بالطائرة، وكنت قد ركبت الطائرة في رحلة قصيرة من قبل، من عمان إلى القاهرة، ولكن كانت الطائرة صغيرة بمحركات. واليوم نركب طائرة نفاثة من نوع (كومت)، وهي أول مرة تذهب من القاهرة إلى الدوحة، فقد كان المعارون قبلنا يستخدمون الطائرات ذات المحركات، وكانت الرحلة تستغرق ست ساعات، وربما أكثر، واليوم تستغرق هذه الرحلة نحو ثلاث ساعات، أي نصف زمن الطائرات السابقة.

وقرأنا أدعية السفر والركوب المأثورة، وحفظتها لزوجتي لتقرأها معي: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون" اللهم هون علينا سفرنا، واطو عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى".

لقد كنت أدعو بهذا الدعاء حين أركب القطار أو السيارة، فأولى أن أدعو به، ونحن معلقون في الفضاء. وقد قال طيار أمريكي: إن الإنسان أقرب ما يكون من الله، وهو في الجو، حيث لو حدث أي كرب، فلا منجاة من الله إلا إليه.

الوصول إلى الدوحة وحر الخليج

ووصلنا الدوحة حوالي الساعة التاسعة مساء، وعندما فتح باب الطائرة لننزل منها: فوجئنا لأول مرة بهذا اللهيب الذي يستقبلنا، وهذا الجو الخانق المشبع بالرطوبة والبخار، الذي لم يكن لنا عهد به، وإذا كان هذا هو الحال في الساعة التاسعة مساء، فماذا يكون الحال في الهاجرة والشمس في كبد السماء؟

قال الإخوة الذين استقبلونا: هذا هو جو الخليج، ولا بد أن توطنوا أنفسكم على احتماله، والتعايش معه. فليس هو جو مصر، ولا جو الشام. والشاعر يقول:

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بوسها

كان في استقبالنا بعض الإخوة الأصدقاء، منهم الشيخ محمد مصطفى الأعظمي العالم الهندي الذي يعمل أمينا لمكتبة الدوحة، والأخ الشيخ عبد اللطيف زايد، الذي يعمل في وزارة المعارف منذ سنتين. والأخ أحمد العسال، الذي كان قد سبقنا إلى الدوحة، وصحبنا في سيارة الأعظمي ـ وهي سيارة قديمة سقفها من القماش ـ إلى مسكنه لنبيت عنده في شقته.

صوت المكيف

وأعطينا حجرة لننام فيها أنا وزوجتي وابنتاي، ولأول مرة أرى (المكيف) الذي يبرد الهواء، وأسمع صوته، وعندما أردنا النوم قلت لهم: هل ننام وهذا المكيف يزعجنا بصوته؟ إنني لا يمكنني أن أنام وأنا أسمع أي صوت؟

قالوا: جرّب وأغلقه. وجربت وأغلقنا المكيف، فلم تمر دقائق حتى بدأ الجو يسخن، ثم يسخن، وقلت: مستحيل أن أنام في هذا العرق!

كان لا بد إذن من تشغيل المكيف، فهو ضرورة من ضرورات الحياة في تلك البلاد، أو على الأقل حاجة من حاجاتها الأساسية.

وقد اعتادت آذاننا بعد ذلك على صوته، وربما أصبح مساعدا على النوم، فهو يحجب عنا أصوات الشارع الآتية من الخارج، ثم تطورت صناعته وظهرت أنواع من المكيفات لا يكاد يسمع لها صوت.

كان وصولي إلى الدوحة في غرة ربيع الآخر سنة 1381هـ الموافق 1961/9/12م الثاني عشر من شهر سبتمبر (أيلول) سنة واحد وستين وتسعمائة وألف.

لم أكن أعرف من أهل قطر غير رجلين

ولم أكن عرفت من أهل قطر غير رجلين: أحدهما الشيخ عبد الله بن تركي مفتش العلوم الشرعية، والذي لقيته في القاهرة أكثر من مرة، والذي طلبني من قديم من وزارة الأوقاف، ثم طلبني وألح في طلبي من الأزهر. وكان من مآثر الشيخ ابن تركي أنه هو الذي

سعى بجد وحرص لجلب علماء الأزهر من مصر لتدريس العلوم الشرعية. وكان يعتز بذلك ويفتخر به.

الشيخ سحيم بن حمد

والرجل الثاني الذي عرفته من أهل قطر: هو الشيخ سحيم بن حمد آل ثاني، الذي كان يزور مصر في الصيف، وكان معه معلمه الخاص الشيخ علي شحاتة، وهو الذي أخبرني بوجود الشيخ، واستحسن مني أن أزوره، فهو من الشخصيات المهمة في قطر، فهو ابن عم الحاكم، وأخو ولي العهد ونائب الحاكم. وقلت للأخ الشيخ علي: إني أرحب بهذه الزيارة، فالرجل ضيف على مصر، ومن حقه علينا أن نكرم وفادته، ولا أقل من الزيارة. وزرته في فندق شبرد ـ على ما أذكر ـ وأهديت إليه كتابيّ (الحلال والحرام) و(العبادة في الإسلام).

البحث عن مسكن ملائم من مساكن الحكومة

بدأنا منذ الصباح نبحث عن سكن مناسب لي أنا والعسال، بحيث نكون متجاورين، وكانت وزارة المعارف تسلم المدرسين سكنا مؤثثا، تشرف عليه إدارة الإسكان الحكومي. وبعد أن رأينا عدة شقق اخترنا شقتين متجاورتين في بيت من أربع شقق مكون من طابقين، أخذت أنا والعسال الشقتين العلويتين، وكان البيت ملك الشيخ ابن تركي. وقد قضينا في هذا البيت خمس سنوات، ثم جاء

عليه الأمر بالإزالة حين أنشئ (جسر رأس أبي عبود) المعروف في الدوحة.

وكان علينا أن نجهز البيت بما يلزم من وسائل العيش: من السكر والأرز والسمن والزيت والملح والبصل وخلافه. ولم يكن لدينا سيارة، كما لا نعرف البلد، فكان الإخوة القدامى ـ جزاهم الله خيرا ـ يساعدوننا في إحضار هذه الأشياء.

الشيخ عبد المعز عبد الستار

وكان من المعارين من الأزهر إلى قطر: فضيلة أستاذنا الشيخ عبد المعز عبد الستار،أحد وعاظ الأزهر المشهورين، وأحد دعاة الإخوان المرموقين، والذي طالما هز أعواد المنابر بصوته الجهوري، الذي يشق أجواء الفضاء، ويكاد يبلغ عنان السماء. وقد جئنا في سنة واحدة إلى قطر.

كان الشيخ عبد المعز قد اختير ليساعد الشيخ ابن تركي في تفتيش العلوم الشرعية، كما اخترت لأكون مديرا للمعهد الديني الثانوي.

وقد قابلني الأخ الصديق محمد عبد الله مرسي، الذي كان يعمل مديرا لمدرسة الدوحة الإعدادية الثانوية، في القاهرة، وقال لي: إن تأخيرك السنة الماضية عن الإعارة إلى قطر، كان فضلا من الله عليك من حيث لا تشعر، لأنك جئت الآن مديرا للمعهد، وتستطيع أن تنهض بالمعهد كما تشاء، بخلاف ما لو جئت في العام الماضي، فقد كان للمعهد مدير، وربما عينت وكيلا، وسيختلف نهجك عن نهجه.

قلت: ما اختاره الله لنا خير من اختيارنا لأنفسنا. والقرآن الكريم يقول: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) النساء:

وكان من الإخوة الأزهريين الذين جاءوا معنا هذا العام الأخ الشيخ عبد الرحمن الجبالي، وهو من أسرة الجبالي الصعيدية المعروفة، والتي تتصل بالنسب والقرابة مع أسرة الشيخ الإمام المراغي رحمه الله.

وقد كنت تعرفت عليه من قبل عندما كنت في المكتب الفني للوعظ والإرشاد، وكان شخصية طيبة ذات مودة وعلاقات اجتماعية حسنة مع كل من يعرفه.

تسلم العمل بالمعهد الديني

وقد كان اتفاق الشيخ ابن تركي معي منذ التقينا في مصر، على أن أتسلم إدارة المعهد الديني الثانوي في قطر، خلفا عن مديره السابق فضيلة الشيخ الدكتور عبد الغني الراجحي، الذي تسلم إدارته لسنة واحدة، هي كل عمر المعهد الناشئ، وكان وكيله الشيخ محمد محفوظ، وكان بين المدير والوكيل خلاف وصراع طويل. وقبل عودتي نقل الشيخ محفوظ من المعهد. وكان من فضل الله تعالى علي، حتى لا أبدأ حياتي بصراع لا ضرورة له، وأنا أحب أن أعمل أبدأ في سلام وهدوء وسكينة تعين على العطاء والإنتاج.

وقد عينت براتب قدره 1475 روبية (أول راتب السنيار) ورغم أني مدير لم يكن لي راتب المدير، ولا بدل الإدارة، مثل مدير مدرسة الصناعة مثلا. ولكني رضيت بهذا، فقد كان خيرا وفضلا من الله ونعمة..

الشيخ عبد الله الأنصاري

في أول يوم من أيام دوامي بالمعهد الديني - (1381/4/4هـ - 1961/9/15م) وكان مبنى صغيرا قديما أزيل وبني مكانه رئاسة المحاكم الشرعية القديمة، التي احتل مكانها الآن صندوق الزكاة - كان أول من زارني رجل مهيب الطلعة، بشوش الوجه، باسم الثغر، دخل علي مكتبي وصافحني بحرارة، وقال: أنا أخوك عبد الله بن إبراهيم الأنصاري من طلبة العلم. ومدير مدرسة صلاح الدين بالدوحة. ولقد سمعنا بك قبل أن نراك، فأهلا ومرحبا بك في الدوحة بين أهلك وإخوانك. بيوتنا كلها مفتوحة لك، وأيدينا ممدودة إليك، ولا تتأخر في طلب أي مساعدة تحتاجها، فنحن إخوانك وأولى الناس بك.

أسرتني هذه الكلمات من رجل لم يلقني من قبل، وإنما سمع عني بعض ما حببني إليه، فشكرت له حسن صنعه، وجميل سعيه وزيارته، ورجوت أن أكون عند حسن ظنه، وألا أكون كما قال المثل العربي: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

قال: بل صدق الخُبر الخبر، وصدقت العين الأذن، والأذن تعشق قبل العين أحيانا، كما قال الشاعر. وانصرف الشيخ بعد أن دعاني إلى زيارته في مجلسه. ووعدته بذلك شاكرا له.

وعرفت بعد ذلك أن الشيخ الأنصاري من علماء الدين المعدودين في قطر، وأنه أحد العبادلة الثلاثة من أهل العلم: أولهم عبد الله بن زيد المحمود قاضي المحكمة الشرعية. وثانيهم: عبد الله بن تركي، وقد حدثتك عنه، وثالثهم: عبد الله الأنصاري. وسيأتي في مناسبات شتى الحديث عن هؤلاء العلماء الذين كان لكل منهم وزن وشأن.

وكان هذا التعبير: عبد الله الأنصاري من (طلبة العلم) جديدا علي، وهو تعبير شائع بين أهل الخليج، توارثوه خلفا عن سلف، يقولون عن العالم منهم: ويقول العالم عن نفسه: من طلبة العلم.

وإنه لتعبير موفق، فالإنسان ـ وإن بلغ من العلم ما بلغ وعلا كعبه ما علا ـ يظل طالبا للعلم، وفي مأثوراتنا: اطلب العلم من المهد إلى اللحد. لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل.

وما أجمل أن يعرف المرء بنفسه، فيقول: أخوكم من طلبة العلم!

الشيخ علي بن سعود

وكان الزائر الثاني في نفس اليوم هو الشيخ علي بن سعود بن ثاني آل ثاني، الذي كان وصله كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) وكان يقرأ الكتاب، وهو معجب به، وبمؤلفه، وأهم من ذلك: أنه كان يقرأه ليطبق ما فيه. فلما قرأ فيه أن الساعة والقداحة (الولاعة) والقلم إذا كان من الذهب فهو حرام على الرجال. وكان يستخدم هذه الأشياء الذهبية فتخلى عنها، وقال: والله لا حاجة لي إلى الحرام.

وكان الشيخ علي رحمه الله على صلة طيبة بأحد الأزهريين القدماء في قطر، وهو الأخ الشيخ يوسف عبد المقصود، فحدثه عما قرأه في كتاب (الحلال والحرام) وأنه معجب بهذا الكتاب، فقال الأخ يوسف: هل تعلم أن مؤلفه في الدوحة؟ قال: لا أعلم. ومتى قدم إلى الدوحة؟ قال: إنه قدم منذ يومين فقط، مديرا للمعهد الديني، وسيكون في مكتبه غدا. قال: إذن سأسعى لزيارته، وجاء الشيخ علي، وسعدت بزيارته، وعرفت أن له قراءات في التراث الإسلامي، وفي التراث الأدبي، وأنه يقول الشعر، وعرف مني

أيضا أني أقول الشعر، وانعقدت بيننا مودة ظلت موصولة الحبال، حتى لقي ربه رحمة الله عليه.

ومما أذكره للشيخ علي بن سعود: أنه بعد حوالي سنتين وربما أكثر في قطر، فاجأني بهدية، كانت عبارة عن تليفزيون صغير (14بوصة أبيض وأسود) قائلا لي: ليتسلى به الأولاد. ولم يكن يخطر ببالي في ذلك الوقت أن أقتني جهازا للتليفزيون، ولم يكن هناك محطات تليفزيونية لأي بلد عربي تظهر فيه، فلم تكن معظم البلاد العربية أنشأت محطات أو قنوات. وإنما كانت تظهر فيه قناة (أرامكو).

وظل هذا التليفزيون عندنا عدة سنوات، حتى فوجئنا بهدية أخرى من الشيخ علي نفسه، هي تليفزيون في حجم الأول، ولكنه ملوّن.

وكانت هذه مجاملة طيبة منه، وقد جاءت في وقتها، وربما يسأل الكثيرون: هل يجوز للمسلم ـ ناهيك بالعالم الداعية ـ أن يقتني جهازا تليفزيونيا؛ برغم ما قد يكون فيه من مفاسد؟

والجواب: إن التليفزيون إنما هو وسيلة، يمكن أن تستخدم في الخير، كما تستخدم في الشر، والوسائل إنما يحكم لها بحكم مقاصدها، مثل السيف أو البندقية: فهي في يد المجاهد أداة خير، ووسيلة للدفاع عن الحق، وهي في يد قاطع الطريق أداة شر وإفساد في الأرض، فلا نقول: البندقية حلال ولا حرام، إنما حكمها بحسب ما تستعمل فيه.

والتليفزيون كذلك مثل غيره من الصحافة والإذاعة والمطبعة، يستطيع المسلم أن يستفيد من خيرها، ويحذر من شرها. وهنا دور التربية والتوجيه.

وقد عمت البلوى بهذه الأدوات، فلم يعد من الممكن منعها إلا بضغط وإكراه، وفي هذه الحالة تكون مرغوبة، كما يقول الشاعر: أحب شيء إلى الإنسان ما منعا.

مشكلات المعهد الجديد

وأود أن أعطي فكرة عن المعهد الذي تسلمت إدارته. لقد أنشئ هذا المعهد سنة 1960م، أي قبل أن آتي بسنة واحدة، وأنشئ من صفين أو فرقتين: الصف الأول، والصف الثاني، وكان هؤلاء الطلاب في الصفين، هم أصلا من تلاميذ معهد ديني ابتدائي أنشئ قديما، وكان مديره الشيخ عبد الله الأنصاري، ثم رئي إغلاقه، وحول طلابه إلى مدرسة صلاح الدين.

فلما أريد إنشاء معهد ثانوي ـ بدل المعهد الابتدائي القديم ـ جئ بالطلاب القدامى ليكونوا نواة المعهد الجديد. فنشأ منهم المعهد بصفيه الأول والثاني حسب مستواهم الدراسي الذي كانوا عليه.

وكانت فكرة المعهد قائمة على أساس أنه (معهد ثانوي) على غرار معاهد الأزهر الثانوية القديمة، على النظام الذي درسناه نحن في أيامنا. ومدة الدراسة فيه خمس سنوات.

ويدرس الطلبة في هذا المعهد ما كان يدرسه طلاب المعاهد الثانوية قديما في الأزهر قبل قانون تطوير الأزهر ومعاهده.

ولهذا وجدت الطلبة يدرسون في الصف الأول الثانوي: شرح ابن عقيل على الألفية، في النحو والصرف، ويدرسون كتابا في البلاغة، على نحو ما كنا ندرسه في السنة الأولى الثانوية من كتاب (زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع).

كما يدرسون علم المنطق، وهو كتاب (شرح السلّم) المعروف لطلبة الأزهر. ويدرسون الفقه في كتاب على مستوى الثانوي أيضا من كتب الفقه الحنبلي، وهو كتاب (الروض المربع شرح زاد المستنقع).

ويدرسون في التفسير كتاب تفسير النسفي، وفي الحديث صفوة صحيح البخاري، ولا يدرسون من العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية واللغة الإنجليزية إلا القليل.

وكان هذا التصور للمعهد في قطر خطأ جذريا، لأنه بني على أساس غير سليم، من الناحية العلمية والموضوعية والواقعية.

أولا: لأن المعهد الثانوي في الأزهر مؤسس على مرحلة ابتدائية سابقة مدتها أربع سنوات، درس الطالب فيها النحو أربع مرات: في شرح الأجرومية، وشرح الأزهرية، وشرح قطر الندى، وشرح شذور الذهب، ثم درس الصرف في كتاب (شذا العرف في فن الصرف).

ثم درس فقه العبادات في السنة الأولى، ودرس الفقه كله في السنوات الثلاثة، وتأسس الطالب في العلوم الشرعية والعربية تأسيسا قويا مكينا.

أما طالب معهد قطر، فقد جاء من المدارس الابتدائية التي لم تؤهله هذا التأهيل المطلوب. لهذا كانت المقررات التي تدرس للطالب في معهد قطر غير مناسبة تماما، وفوق مستوى الطلاب بمراحل.

وثانيا: لأن الأزهر غيَّر من مناهجه، وأدخل اللغة الأجنبية ابتداء من أول سنة، كما زاد من كم العلوم الطبيعية والرياضية التي كانت تسمى (العلوم الحديثة). وسمى الأزهر المرحلة الابتدائية (المرحلة الإعدادية) أما الثانوية فبقيت على الاسم القديم.

طلاب يطلبون سحب أوراقهم

وقد فوجئت بمشكلتين واجهتاني في المعهد من أول يوم.

المشكلة الأولى: أن ثلاثة طلاب من الصف الثاني في المعهد جاءوا، وفي يد كل منهم طلب بسحب أوراقه من المعهد. أذكر منهم الطالب: عتيق ناصر البدر (سفير بوزارة الخارجية الآن) والطالب: موسى زينل موسى (مدير إدارة الثقافة والفنون الآن) وثالث نسيت اسمه.

قلت لهم مازحا: أتستقبلون الضيف بالإكرام أم بالإهانة؟

قالوا: بل بالإكرام والترحيب.

قلت: جئت ضيفا على بلدكم، ومن أول يوم، تقولون لي: لا نريد أن نرى وجهك!

قالوا: معاذ الله يا أستاذ.

قلت: هذا هو معنى طلبكم: أنكم تريدون أن تغادروا المعهد، حتى لا تعاشروني ولا تروا وجهي.

قالوا: لا يا فضيلة الأستاذ، ولكن الدراسة في المعهد لا تناسبنا.

قلت لهم: ما الذي لا يناسبكم؟

قالوا: لا ندرس إلا ثلاث حصص في اللغة الإنجليزية، ولا ندرس من العلوم ما يكفي، وندرس في العلوم الشرعية والعربية كتبا في غاية الصعوبة.

قلت لهم: أنا معكم في هذا كله، وأعدكم أن هذا كله سيتغير، واصبروا عليّ عدة أسابيع وسترون ما أقوله صحيحا.

وقد اقتنع هؤلاء الطلاب الثلاثة، وكانوا سببا في إقناع عدد آخر من زملائهم كانوا ينوون سحب أوراقهم.

لم يتقدم طالب للصف الأول بالمعهد

والمشكلة الثانية: أشد وأنكى من الأولى: فالأولى كانت انسحاب القديم، والثانية: أن لا جديد. ذلك أني لم أجد طالبا واحدا تقدم للالتحاق بالصف الأول بالمعهد. كل ما هنالك أن طالبا لم يدخل الامتحان في العام الماضي فأعاد السنة، فهذا هو الاسم الوحيد الموجود على قائمة الصف الأول.

ومر يوم واثنان وثلاثة، وبقية الأسبوع، فلم يتقدم إلينا أحد، ومعنى هذا: أن المعهد يصفي نفسه من أول يوم. إذا لا معنى لمعهد لا يأتيه طلاب جدد، والطلاب القدامى كأنما فرضوا عليه، أو فرض عليهم فرضا.

وبدأت أتهيأ لمواجهة هذه المشكلة العاجلة.فكتبت نشرة توزع على نطاق واسع في المساجد، تبين أهمية الدراسة الدينية والتفقه في الدين، وأنه واجب على كل مجتمع أن يهيئ من أبنائه فئة تتفقه في الدين، حتى إذا سئلوا أفتوا بعلم، وإذا قضوا قضوا بحق، وإذا دعوا إلى الله دعوا على بصيرة، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) التوبة: .

وفي يوم الجمعة، تحدثت بعد خطبة الشيخ ابن تركي في الجامع الكبير المعروف باسم (جامع الشيوخ) حديثا عن طلب العلم، وأهمية علم الدين الخ.. فبدأ يجيئنا طالب بعد آخر، حتى اكتمل

الصف الأول ثمانية طلاب. وقلنا: فيهم بركة، وربنا يبعث المزيد. أما تطور المعهد، فسنتحدث عنه بعد قليل.

التعرف على الشيخ ابن مانع

كان درسي بعد صلاة الجمعة جاذبا لانتباه من سمعوه من أهل العلم، وعلى رأسهم العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع، كبير علماء قطر، ومدير المعارف سابقا بالمملكة العربية السعودية، وكان بيته ومجلسه بجوار الجامع الكبير، وبعد كل صلاة جمعة، يجلس مع صحبه في مجلسه، فدعاني إلى مجلسه، وسلم علي ورحب بي، وأثنى على حديثي، وعرفني بأنه زار مصر، وأنه لقي الشيخ محمد عبده، وأنه أول من جلب علماء الأزهر إلى المملكة، وكان يذكر هذا على سبيل الفخر والاعتزاز.

والشيخ ابن مانع من العلماء الذين لهم ولع بالتراث وبالكتب، وله رسائل وتحقيقات بعضها نشر، وبعضها لم ينشر.

وكان عالما حنبليا معتزا بحنبليته، وكان يتمسك بالمذهب الحنبلي ويردد بيت الشاعر الذي يقول:

أنا حنبلي ما حييت، فإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا!

ومع هذا لم يكن متعصبا، بل كان رجلا سمحا، لطيف المعشر، لين الجانب، حسن الأخلاق، فكه الحديث، وكان يقول: اجتمع عندنا في الرياض من مشايخ الأزهر ما يكون حديقة حيوان، فكان عندنا من

العلماء والمشايخ: النمر والضبع والديب والسبع والسراحين! يعني آل سرحان، وكانوا ثلاثة.

وقد تعرفت في مجلس الشيخ ابن مانع على ابنه القارئ المثقف المهذب، الشيخ عبد العزيز، وقد توثقت الصلة بيني وبينه، حتى وافته المنية مبكرا. رحمه الله.

وكان من جلساء ابن مانع باستمرار: الشيخ قاسم درويش فخرو، الذي كان مجلسة أيضا ـ ولا زال ـ بجوار الجامع الكبير، وكان يعد من طلبة العلم أو من (المطاوعة) كما يسمونهم في الخليج. وكان قد ولي على المعارف في عهد الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، قبل أن يتولاها الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني ابن عم الحاكم، وشقيق نائبه وولي عهده الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

زيارة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود

وكان من أوائل الزيارات التي قمت بها: زيارة العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، قاضي المحكمة الشرعية، وصحبني في هذه الزيارة أخونا الشيخ علي شحاته، وكان هو والأستاذ كمال ناجي من القدماء في قطر، ممن قدموا من السودان إلى قطر، وكان قد أخذ مني كتابي (الحلال والحرام) وكتابي (العبادة في الإسلام) هدية مني إلى الشيخ، وتفضل بإيصالهما إليه.

فلما دخلنا على الشيخ وجدناه يقرأ في كتاب (العبادة في الإسلام) وقد وقف على فقرة في الكتاب وقال لجلسائه: الشيخ في هذه المسألة محقق، قد رد المسألة إلى جذورها، واستدل عليها بالقرآن والسنة، وقد نسيت أي مسألة هي.

وكانت جلسة علمية رفيعة المستوى، تبادلنا فيها الأحاديث، وانتهت بأن أهداني فضيلته رسالته القيمة التي كان قد أصدرها منذ عدة أعوام حول فقه الحج، وسماها (يسر الإسلام) وأجاز فيها (رمي الجمار قبل الزوال). وأقام على رأيه أدلة قوية، وأنه لا يوجد دليل ينهى عن الرمي قبل الزوال، وأن الرمي أمر يتم بعد التحلل النهائي من الحج، وأن الإنابة فيه تجوز، وأنه ـ عند الحنابلة ـ لو أخر الرمي كله إلى اليوم الأخير لأجزأه.. وأن النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل عن شيء قدم أو أخر يوم النحر، إلا قال: افعل ولا حرج.

وأن رفع الحرج مطلوب الآن أشد من أي وقت مضى، فالناس يموتون تحت الأقدام.

وأن طاووسا وعطاء من كبار فقهاء التابعين أجازا الرمي قبل الزوال، وأن بعض المتأخرين من الشافعية وغيرهم أجازوه.

الحقيقة أن منطق الشيخ كان قويا، وقد سبق زمنه بهذه الرسالة الشجاعة، فأصبح الكثيرون الآن يفتون به، وقد تبنيت رأيه منذ قرأت رسالته، ورده على علماء الرياض الذي شددوا غاية التشديد في القضية، وردوا عليه، وأرادوا أن يلزموه بالرجوع عن رأيه، ويبدو أنه وافقهم عندما كان هناك تحت الضغط، فلما عاد إلى قطر، غير رأيه، ورأى أنه إنما يدين الله بما اقتنع به، وانتهى إليه اجتهاده، وأن الله لا يكلفه أن يدع اجتهاده ليعمل باجتهاد الآخرين. وهذا من محاسن الإسلام، وإن كان المشايخ في (الرياض) قالوا عنه: أخلف وعده، ونكث عهده. وليس كذلك، بل تفسيره ما ذكرت، وهو بيّن، والحمد لله.

زيارة الشيخ قاسم بن حمد

وكان لا بد لنا أن نزور الرجل الأول المسؤول عن التعليم في قطر، ووزير المعارف، وهو الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني، شقيق ولي العهد ونائب الحاكم الشيخ خليفة بن حمد، وابن عم حاكم قطر. وهو الوزير الوحيد في حكومة قطر، مع الشيخ خليفة الذي كان يعتبر وزيرا للمالية أيضا.

وكانت وزارة المعارف أهم وزارة في البلد، وأكثرها موظفين، وهم يكونون قوة اقتصادية مهمة، فهم الذين يحركون الأسواق، وهم الذين يشغلون سيارات الأجرة، وكانت تعمل بنظام (الورّة) أي الدورة، كل من لديه سيارة أجرة (تاكسي) من القطريين يأخذ دوره في المعارف في حينه بالعدل والقسطاس المستقيم، وهم الذين يشغِّلون (تناكر) المياه، فلم تكن المياه قد وصلت إلى المنازل، إلا النادر، فكانت سيارات المياه توصل إلى المنازل كل عدة أيام ما يحتاج إليه من ماء. وكان أصحاب البيوت يؤجرونها للدولة، ليسكن فيها المدرسون. المهم أن حركة الحياة في الدوحة كانت في أغلبها مرتبطة بوزارة المعارف وموظفيها.

وكان طلاب المدارس يتغدون جميعا على حساب الوزارة، وكانوا يذهبون بعد الدرس الأخير إلى (قاعة التغذية) المعدة لذلك، وكان لها إدارة أو قسم، ورئيس لهذا القسم، وكان رئيس قسم التغذية أحد إخواننا المصريين الفضلاء الذين قدموا مع القادمين الأول إلى قطر، وهو الأستاذ عبد اللطيف مكي. وكانت التغذية تقدم طعاما طيبا شهيا على الطريقة الخليجية.

وكانت هذه التغذية من المغريات للتلاميذ بالالتحاق بالمدارس، فقد كان كثير من أهل قطر، من أهل البادية، الذين لا يقدرون التعليم حق قدره، فكان هذا مما يحفزهم لإلحاق أولادهم بالمدارس.

وأكثر من ذلك: أنه كانت تدفع لهم رواتب منذ أول يوم يسجلون فيه في المدرسة، فإذا كان البدوي لا يهمه التعليم، فهو يهمه الفلوس والدراهم.

وبهذا نرى أن وزارة المعارف ـ التي سميت بعد سنوات وزارة التربية والتعليم ـ كان لها دورها الفعال، وأثرها الحيوي في الحياة القطرية كلها.

وهذا ما جعل لوزير المعارف منزلة خاصة مستمدة من أهمية وزارته. ومن شخصيته التي كان لها هيبتها، وقدرتها على منع أي عبث أو تجاوز في المدارس، وخصوصا من أبناء شيوخ الأسرة الحاكمة، الذين لم يكن ليلزمهم الأدب، ويوقفهم عند حدهم سوى الشيخ قاسم.

زرت وزير المعارف الشيخ قاسما في منزله أو في قصره بالدوحة، وكنت مع فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار والشيخ أحمد العسال، فرحب بنا الرجل ترحيبا كبيرا، وتحدث معنا، وتحدثنا معه، ودعانا إلى أن نزوره في مزرعته في شمال قطر بمنطقة الزبارة.

فاستجبنا للدعوة، وزرناه بعد أيام في مزرعته. وكان الشيخ قاسم من أوائل الذين بادروا بإنشاء المزارع في قطر، وكان ينفق عليها حتى تنتج، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وفي الغالب لم يكن قصده تجاريا، بل هو هواية تخضير الأرض في تلك الرمال الصفراء.

وكان من هوايات الشيخ قاسم: صيد (المها) أو ما يسمونه (الوضيحي) وهو نوع من الظباء أو الغزالان ذات لون خاص، أقرب إلى البني، وهو نادر في العالم، وقد بدأ ينقرض، وبدأت

الهيئات الدولية المعنيّة تهتم بحمايته، وعمل الحظائر الخاصة به، وكانت (حديقة المها) عند الشيخ قاسم معروفة عند المهتمين به على مستوى العالم.

والمها هو ذلك النوع الذي التفت إليه شعراء العرب، وشبهوا الغيد الحسان من النساء به، ولا سيما العيون، كما قال الشاعر:

عيون المها بين الرصافة والحسر سلبن النهى من حيث تدري ولا أدري!

وفي كل فترة يدعونا الشيخ قاسم لمزرعته، فيكرمنا بما عرف عند العرب من كرم الضيافة، ويذبح لنا الخراف، ونأكل (المكبوس) وهو الرز الذي يطبخ مع الخروف.

زيارة الشيخ خليفة بن حمد

كان التلاميذ ـ كما ذكرت ـ يأخذون جميعا رواتب من الحكومة، ترغيبا لهم في الالتحاق بالمدارس، وكان جميع التلاميذ يأخذون هذه الرواتب أو المعاشات كما يسمونها. ولكن في السنة التي وصلت فيها: اتخذت الحكومة قرارا جديدا، وهو قصر الرواتب على التلاميذ القطريين وحدهم. أما غير القطريين فلا يصرف لهم شيء.

وكان في المعهد الديني عدد من الطلاب من غير القطريين، بعضهم من الإمارات مثل الطالب أحمد عبد الله عسكر، من خور

فكّان، والطالب محمد عبد الرحمن البكر من رأس الخيمة، والطالب محمود هزاع من اليمن، وغيرهم.

وتحدثت مع الشيخ عبد الله بن تركي عن هذه القضية، وقلت له: يجب أن يستثنى طلاب المعهد الديني من قرار قصر الراتب على القطريين، تشجيعا للتعليم الديني، فقال لي: إن هذا الأمر بيد الشيخ خليفة، وأنا أرى أن نذهب معا لزيارته ليتعرف عليك، ولتحدثه في هذا الأمر بنفسك، وأعتقد أنه سيقتنع بمنطقك.

وفعلا ذهبت مع الشيخ ابن تركي إلى الشيخ خليفة، فحياني الرجل ورحب بي، وقال لي: سمعنا عنك قبل قدومك، وأرجو أن تجد في قطر وطنك الثاني، وشكرته على المجاملة الطيبة. وقلت له: يا طويل العمر، أريد أن أشرح لكم موقف المسلمين من العلم الديني طوال العصور الماضية، فقد وقفوا عليه الأوقاف، والصدقات الجارية، ليستمر علم الشرع موصولا متوارثا جيلا بعد جيل، فهو فرض كفاية على الأمة، إذا قام به عدد كاف يلبي الحاجة، رفع الحرج عن الأمة، وإلا أثمت الأمة كلها.

وقد جرت عادة أهل الخير من المسلمين أن يخصوا الطلبة الغرباء بعناية أكبر من غيرهم، لشدة حاجتهم في غربتهم، وتشجيعا لهم أن يتفقهوا في الدين وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ونحن ـ طلبة الأزهر المصريين ـ في كلياتنا، لا يعطى لنا شيء، على حين يعطى طالب البعوث الإسلامية قدرا من المعونة يساعده على معيشته، وبعضهم يأخذها رغم أنه يسكن في مدينة البعوث الإسلامية التي خصصها لهم الأزهر. وهذا امتداد لنظام (الأروقة) الذي كان متبعا في الأزهر من قديم، فهناك في مباني الأزهر نفسه: رواق للمغاربة، ورواق للأكراد، ورواق للشوام، وهكذا.

وأنا لا أطالب سموكم بإعطاء الطلبة الغرباء، وحرمان القطريين.. بل أريد التسوية بين الجميع في ذلك، وتكون هذه ميزة لطلبة المعهد الديني، وتفهم الرجل قصدي، واستجاب له في الحال. بل ظلت هذه الميزة لطلاب المعهد مستمرة، حتى بعد أن ألغيت الرواتب من الطلاب القطريين أنفسهم بعد ذلك.

زيارة الشيخ الأنصاري في مجلسه

وقد ذكرت أن أول من زارني في مكتبي كان الشيخ عبد الله الأنصاري، فكان الواجب أن نرد إليه الزيارة في مجلسه، والله تعالى يقول: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) النساء:

وذهبت إلى فضيلة الشيخ في مجلسه القديم، وكان مجلسا ومكتبة في الوقت ذاته، فقد كانت المكتبات جزءا من البناء، أو من جدران المجلس، مكسوّة بالخشب والزجاج، ومصنفة على العلوم، فبعضها للتفسير، وبعضها للحديث، وبعضها للعقيدة، وآخر للفقه، وآخر للنحو والصرف واللغة، وغيره للأدب والتاريخ.

ووجدنا الشيخ يقرأ في أحد كتب الحديث على ما أذكر، فعلقت على الموضوع تعليقا ضافيا بما فتح الله علي في ذلك الوقت، وتلقاه الشيخ ومن حوله بالرضا والقبول.

وأصبحت أتردد على مجلس الشيخ بين الحين والحين، أحيانا وحدي، وأحيانا مع فضيلة الشيخ عبد المعز، أو الشيخ أحمد العسال.

وبعد قليل بني بجوار الشيخ مسجد الشيخ غانم بن علي آل ثاني، وهو مسجد جمعة، كان يخطب فيه الشيخ رحمه الله، ويقيم فيه الندوات الدينية ويدعونا للمشاركة فيها، ويحيي بعض الذكريات الإسلامية، مثل ذكرى الهجرة النبوية، أو ذكرى المولد النبوي. وفي إحدى السنوات، قامت مناقشة علمية حامية بين الشيخين ابن محمود الذي اعترض على الأنصاري في الاحتفال بالمولد، والأنصاري الذي دافع عن الاحتفال بالمولد بالدروس والمحاضرات. وكتب الأنصاري رسالة علمية رصينة شرح فيها وجهة نظره، موثقة بالأدلة الشرعية، مما دل على أصالته وتمكنه.

ثم أنشأ الشيخ الأنصاري ندوة قرآنية مساء كل خميس للتدريب على حسن تلاوة القرآن، وتعليم أحكام التجويد، وتنتهي بدرس قرآني، وقد استفاد منها الكثيرون فأحسنوا تلاوتهم، وكثيرا ما شاركت فيها، بالتلاوة وإلقاء درس في ختام

عودة إلى تطوير المعهد

وفي هذه الفترة بدأت أعد العدة لتصحيح النظرة إلى المعهد، وتطويره، تطويرا يساعد أبناءه على أداء رسالتهم الدينية والدنيوية.

ويبدأ تصحيح النظرة بإلغاء اعتبار المعهد مرحلة ثانوية مدتها خمس سنوات متصلة، إذ ليس قبلها مرحلة ابتدائية لمعاهد الأزهر.

تقسيم المعهد إلى مرحلتين إعدادية وثانوية

وبدا لي أن أقسم المعهد إلى مرحلتين: إعدادية وثانوية. كل مرحلة منهما ثلاث سنوات،مثل مراحل التعليم العام. يدرس الطالب في

المرحلتين ما يدرسه الطالب في التعليم العام تقريبا، إلا ما لا ضرورة إليه مما يوفر لنا بعض الحصص.. وتدرس نفس الكتب المقررة على الإعدادي والثانوي في العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية، واللغة الإنجليزية ونحوها. وفي الثانوي تدرس مناهج القسم الأدبي.

على أن نزيد الجرعات التي يأخذها الطالب من العلوم الشرعية والعربية. وهنا لا بد أن نبذل جهدا في تيسير هذه العلوم وتقريبها بحيث لا نرهق الطالب بتعقيداتها. ولا بد من تقرير الكتب المناسبة لذلك. وقد يضطرنا هذا أن نزيد حصتين في الخطة الدراسية.

ومعنى هذا: أن علينا أن نهيئ الطالب في الصف الثالث بالمعهد هذا العام لامتحان الشهادة الإعدادية. وحصول الطالب على هذه الشهادة سيشعره بأنه قطع مرحلة دراسية مهمة، وحصل على شهادتها.

وكلمت الشيخ عبد الله بن تركي في هذا التغيير، ورحب به ووافقني عليه، وقال: علينا أن نقابل مدير المعارف وتقنعه بهذا الأمر.

وكان مدير المعارف هو الأستاذ عبد الرحمن عطبة (أ.د. عبد الرحمن عطبة أستاذ اللغة العربية الآن). وقد كان مفتشا للغة العربية، وأبدى نشاطا ملحوظا، فعينه الشيخ قاسم مديرا للمعارف، وكنت قد لقيته في القاهرة في الصيف لقاء عابرا، وكان الأستاذ محمد المبارك أوصاه بي.

فذهبت إليه، وشرحت له فكرتي، فشد على يدي، وشجعني على سرعة التنفيذ.

كتب جديدة للمعهد

وفعلا شرعت في التنفيذ، فغيرت الكتب المقررة من قبل على الطلاب، وطلبت كتبا جديدة، منها: كتاب (النحو الواضح) للأستاذ علي الجارم والأستاذ مصطفى أمين بأجزائه ومستوياته الثلاثة، وألغيت دراسة المنطق والبلاغة وابن عقيل، أو قل: أجلتها إلى الثانوي، حسب التيسير.

وقررت تغيير كتاب الفقه من (الروض المربع) إلى كتاب (منار السبيل شرح الدليل) وهو كتاب سلس سهل العبارة، يهتم بالأدلة، ومطبوع على ورق فاخر في جزأين، وموجود في قطر، فقد طبعه الوجيه قاسم درويش على نفقته، وقررت أن يدرس نصف الكتاب في المرحلة الإعدادية، ونصفه في المرحلة الثانوية.

ولم يتطلب مني ذلك أن أزيد في خطة الدراسة غير ساعتين، واحدة يوم السبت، وأخرى يوم الأحد.

وكان هذه التطوير المقابل لتطوير الأزهر، إلا أن الأزهر طور العلوم الحديثة، ولم يمس العلوم الشرعية والعربية القديمة، فبقيت على حالها. واضطر الأزهر أن يبقي سنوات الدراسة كما هي: أربع سنوات للإعدادي، وخمس للثانوي. أي أنها أزيد من التعليم العام بثلاث سنوات.

وقد اضطر الأزهر بعد سنوات وسنوات أن يقترب منا في قطر، ويختصر بعض السنوات في المرحليتين.

استبشر طلاب المعهد بالتغيير الذي حدث، وأقبلوا على الدراسة بالمعهد بجد وحرص، وكنت أدرسهم بعض المواد بنفسي. وقد لمست فيهم ذكاء وانتباها وتجاوبا كبيرا. وشارك الطلبة في أنشطة ثقافية واجتماعية، أبلوا فيها بلاء حسنا، وبرزوا فيها، بل تفوقوا

على كثير من زملائهم. وصدقت وعدي للطلبة بالتغيير إلى الأحسن، وقد كان.

وبعد أشهر دخلت أول دفعة من طلبة المعهد امتحان الشهادة الإعدادية، ونجحوا جميعا، وجلهم ـ إن لم يكن كلهم ـ من النابهين المتفوقين، الذين صاروا بعد ذلك وزراء، أو شعرا، مثل عبد العزيز بن عبد الله تركي، ومحمد سالم الكواري من قطر، ومحمد عبد الرحمن البكر من الإمارات.

وكان عدد من المدرسين مثبتين، وعدد آخر ينتدب من المدرسة الإعدادية الثانوية، مثل مدرس العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية والإنجليزية.. ولم أطلب تغيير أحد من المدرسين الذين كانوا بالمعهد من قبل، وإن كان لي ملاحظات على بعضهم، ولكن قلت: بالتوجيه يمكن أن يتحسنوا ويتطوروا، وإلا طلبت التغيير وقد كان.

الشيخ عبد اللطيف زايد

لكني طلبت مدرسا واحدا، رجوت أن ينضم إلى أسرة المعهد، ليكون عونا لي فيما أريده للمعهد من رسالة، وقد عرفته مربيا بالفطرة والأسوة، ونموذجا مجسدا للإخلاص والبذل والعطاء دون منٍّ ولا أذى.

ذلكم هو الأخ الحبيب الشيخ عبد اللطيف زايد، الذي عرفته من قبل في معسكر التدريب بالأزهر، وفي تل بسطة بالشرقية في معارك القناة ضد الإنجليز، وقد سبقني إلى قطر، وهو يعمل مدرسا للعلوم الشرعية بمدرسة أم صلال علي الابتدائية. وأهلها محبون له متمسكون به،ولكني وسطت الأستاذ أحمد رجب عبد المجيد (د.

أحمد بعد ذلك) ليشفع لي عند الشيخ علي بن جاسم شيخ أم صلال، ليسمح بانتقال الشيخ عبد اللطيف إلى المعهد لشدة الحاجة إليه، واستجاب الشيخ علي رحمه الله. وبعد ذلك دعاني الشيخ عبد اللطيف إلى زيارة الشيخ علي بن جاسم، فزرناه معا في مجلسه بأم صلال، وهو رجل كبير السن، كبير القدر، وقد وجدناه يقرأ بعض كتب الفقه المالكي، فقد كان مالكي المذهب، على خلاف عموم آل ثاني، فهم حنابلة. وقد أنس الرجل بي، وطلب إليّ أن لا أقطع زيارته، وكنت أزوره مع الشيخ عبد اللطيف بين فترة وأخرى، حتى توفي رحمه الله.

وكان الشيخ عبد اللطيف نعم العون لي في توجيه الشباب بالمعهد، وخصوصا في الرحلات التي نقضيها مع الشباب يوم الجمعة، أو يوم الجمعة وليلتها.

ونال المعهد سمعة طيبة بين الناس، فأثنى عليه الشيخ ابن مانع، والشيخ عبد الله بن زيد، والشيخ الأنصاري وغيرهم من المشايخ، ومنهم الشيخ داود حمدان، الذي قال: إن المعهد أصبح بفضل الله ثم بفضل فلان معهدا للعلم والدعوة معا.

الشيخ داود حمدان

وبمناسبة ذكر الشيخ داود حمدان، فقد كان من الشخصيات العلمية الدعوية التي تعرفت عليها في قطر.

وكان الشيخ داود من علماء فلسطين، الذين لهم اطلاع جيد على العلوم الشرعية، ولهم قلم جيد في كتابة بعض الأبحاث العلمية والفقهية، وله بحث جيد في التأمين، رجح فيه الجواز، مستندا إلى

ما ذكره الحنابلة من ضمان حارس السوق. كما له جملة أبحاث أخرى.

وكان الشيخ داود من أعضاء حزب التحرير النشيطين، بل من مؤسسيه، ولكنه انفصل عنه، وتركه، وقد بدأ بزيارتي وعرفني بنفسه، وزرته بعد ذلك، وتوثقت صلتي به، حتى مات رحمه الله، ولقد قرأ كتابي (الحلال والحرام) وأعجب به، وكتب لي بعض الملاحظات عليه تناقشنا فيها، وقال: إنه كتاب يحمل روح اجتهاد حقة.

وكثيرا ما زارني في بيتي مع صديقه الشيخ عبد الله عبتناوي المدرس المرموق، وكثيرا ما زرته في بيته رحم الله الجميع.

زيارة الشيخ أحمد حاكم قطر

اقترح علنيا أخونا الأستاذ عبد البديع صقر: المقرب من الشيخ أحمد بن علي آل ثاني حاكم قطر، أن نزور الحاكم، فليس لائقا برجال في منزلة الشيخ عبد المعز، والشيخ القرضاوي، أن يجيئوا إلى قطر للعمل فيها، ولا يزوروا حاكمها. قلت له: أيضا لا يليق بنا أن نقحم أنفسنا على الرجل، أو نفرض أنفسنا عليه، ولم تأت مناسبة معينة لذلك. قال: أنا آخذ لكم موعدا منه.

وأخذ لنا موعدا لنزوره في مكتبته التي كان يشرف عليها الشيخ عبد البديع. وكان لقاء طيبا، استقبلنا فيه الرجل استقبالا حسنا، ورحب بنا في بلدنا الثاني، وتحدث معنا حديثا كله مودة ومحبة. وكان غاية في الدماثة والتواضع وحسن الأدب. ثم دعا بالعشاء فتعشينا معه.

وأصبحت هذه عادة متكررة كل مدة، حوالي كل شهرين أو ثلاثة، أذهب مع الشيخ عبد المعز لزيارة الشيخ أحمد، وكثيرا ما تنتهي الزيارة بالعشاء.

وفي إحدى الزيارات تحدث سمو الشيخ الحاكم عن الربا وتشدد بعض العلماء فيه، واضطررت أن أرد عليه، وأبين له أن تحريم الربا أمر قطعي، وأن الفوائد هي الربا، وأن الله تعالى لا يحرم على الناس إلا ما يضرهم، وأن الواجب على المسلمين: أن يحرموا ما حرم الله ورسله... الخ ما قيل في هذه الجلسة. وكان حديثي واضحا حاسما، لا مجاملة فيه ولا تهاون، وكان بعض الحضور ينظر إليّ وأنا أتكلم، كأنما هو مشفق علي: أن أعارض حاكم البلاد بهذه الصراحة، وهذه القوة. وذاع حديث هذه الجلسة وهذه المناقشة بين الناس، وخشي بعضهم عليّ من عواقبها، وقال بعضهم: كان عليه أن يراعي المقام، كما راعاه آخرون من الحضور.

ولكني عرفت بعد ذلك من الشيخ عبد البديع: أن الحاكم أعجب بحديثي، وزاد احترامه لي، وقال: هذا رجل يقول ما يراه حقا، ولا يخاف في الله لومة لائم. فمثله يجب أن يقدر، ويحرص عليه، ولا يفرَّط فيه.

وعرفت من هذا أن قول الحق لا يحرم الإنسان من رزق قد كتب له، ولا ينقص من قدره حتى عند من يجبههم بكلمة الحق، كما لا يقدم أجله أو ينقص من عمره لحظة (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أهلها) المنافقون:

الشيخ عبد البديع صقر

وبمناسبة ذكر الشيخ عبد البديع صقر، يحسن بي أن أذكر أني عرفته في معتقل الطور سنة 1949م.

فكان من دعاة الإخوان المعروفين في مصر، وقد ألف رسالة صغيرة الحجم، ولكنها نافعة، لما حوته من أفكار وتجارب عملية في حقل الدعوة، وعنوانها (كيف ندعو الناس؟). وكان عبد البديع على صلة طيبة بالإمام حسن البنا، وقد عمل فترة بالمركز العام للإخوان.

وكان الوجيه قاسم درويش في عهد الشيخ علي بن عبد الله الحاكم السابق لقطر، ووالد الحاكم الحالي الذي تنازل له عن الحكم قبل مجيئي إلى قطر بسنة واحدة، هو المسؤول عن المعارف قبل الشيخ قاسم بن حمد، وكان له صلة بالعلامة السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلتي (الفتح) و(الزهراء). فأرسل إليه يطلب منه ترشيح شخصية إسلامية قوية تتولى إدارة المعارف. فرشح له في أول الأمر: الكاتب الإسلامي الصاعد محمد فتحي عثمان، ولكن ظروفا خاصة حالت دون استجابة الأستاذ فتحي، فطلب من الإخوان أن يرشحوا له شخصا للقيام بالمهمة المطلوبة فرشحوا له الأستاذ عبد البديع.

وسافر الشيخ عبد البديع إلى قطر مبكرا سنة 1954، وعين مديرا للمعارف مع الشيخ قاسم بن درويش، وكانت المعارف في ذلك الوقت محدودة جدا، عدة مدارس ابتدائية للبنين، محدودة العدد، ولا توجد مدرسة إعدادية بعد، وكان تعليم البنات محدودا جدا. فقد قامت معركة جدلية بين المشايخ في تعليم البنات، وإلى أي حد يجوز لها أن تتعلم؟ فكان بعضهم يحبذ أن تتعلم البنت كما يتعلم شقيقها الابن. فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وبعضهم

يقول: يكفيها التعليم الابتدائي، ولا حاجة إلى ما بعد ذلك، وقد قال تعالى: (وقرن في بيوتكن) الأحزاب: .

وظلت هذه المعركة محتدمة، ولم تحسم إلا قبيل قدومي إلى قطر، وقد حسمت في صالح التوسع في تعليم المرأة.

ومن الغريب أن الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، صاحب الفتاوى الجريئة في الحج وغيره، كان من أنصار التضييق والتشديد في تعليم المرأة. وكان الشيخان: ابن تركي والأنصاري من القائلين بإتاحة الفرصة لتتعلم كل علم نافع تريده وتقدر عليه.

وقد عشت في قطر حتى رأيت الشيخ عبد الله بن زيد يكتب إلى مدير جامعة قطر ـ أ.د. إبراهيم كاظم رحمه الله ـ يستغرب منه كيف توضع الشروط والعقبات في سبيل تعليم الفتاة، ويطالب بأن تفتح الجامعة أبوابها على مصاريعها لكل فتاة ترغب في استكمال تعليمها.

فقلت: سبحان الله، ما أسرع ما يتغير الإنسان!

وقد انضم إلى عبد البديع بعد ذلك عدد من الإخوان الذين فروا من جحيم عبد الناصر بمصر، فمنهم من ذهب إلى دمشق، ومنهم من ذهب إلى السودان، وغيرها. ومن هذه البلاد جاءوا إلى قطر. كان ممن جاءوا من دمشق: عز الدين إبراهيم، وحسن المعايرجي، ومحمد الشافعي، وعبد اللطيف مكي، وممن جاءوا من السودان: كمال ، وعلي شحاته، ومصطفى جبر.

وكان الشيخ قاسم درويش ومعه عبد البديع صقر، وغيره من جهاز إدارة المعارف: حريصين على ألا يعينوا إلا مسلمين متدينين، فكان المدخنون مثلا لا يجدون فرصة للتعاقد معهم، وكان بعضهم يدخن،

ولكنه يخفي ابتلاءه بهذا الداء، ولا يستطيع أن يدخن في المدرسة إلا إذا استخفى في دورة المياه.

وقد تعاقد الشيخ عبد البديع مع عدد من أبناء فلسطين، معظمهم من الإسلاميين الذين أصبح لهم شأن ومكان فيما بعد، منهم: رفيق شاكر النتشة، الذي عمل مديرا لمكتب وزير المعارف الشيخ قاسم بن حمد، وكان له سطوته ونفوذه.

ومنهم: محمد يوسف النجار، الذي عمل أيضا في مكتب الوزير، وكان له أثره في حركة فتح وتأسيسها فيما بعد، حتى استشهد في بيروت رحمه الله.

ومنهم: أحمد رجب عبد المجيد، وغيرهم وغيرهم.

وكان عبد البديع صقر شخصية مرحة متميزة، كان يزور الشخص ولا يطيل، ويقول: أعتقد أننا شرفنا! ثم يستأذن وينصرف.

وكان يعزم الناس على الغداء عنده، ثم ينسى أن يخبر أهل بيته، فيفاجأ بالناس وقت الغداء يدقون عليه الباب، فيرحب بهم، ويأكلون ما حضر، ويقول لهم: نسيت أن أبلغ وزارة الداخلية!

وأحيانا يقول لأهله: اصنعوا لنا ثريدا، ويقول: إن قصعة الثريد تقبل القسمة على أيِّ عدد!

وقد بقي مديرا للمعارف حتى تغير الوضع، وأعفي الوجيه قاسم درويش، وجيء بالشيخ قاسم بن حمد، واحتضن الشيخ علي ثم الشيخ أحمد الشيخ عبد البديع، ليشرف على مكتبته الخاصة، وعلى المكتبات العامة في قطر.

وقد دخلت قطر، وهو مدير لهذه المكتبات، حتى تغيرت بعد عدة سنوات إلى (دار الكتب القطرية) التي أصبح لها مقر متميز، وكان هو أول مدير لها.

صورة الحياة في قطر

كانت قطر في بداية طريقها إلى التطور والنهضة العمرانية، وكان لا يزال فيها معتمد بريطاني، فلم تكن قد حصلت على استقلالها بعد.

وكان معظم السكان - حوالي ثمانين في المائة 80% منهم - مركزين في الدوحة، وهي مدينة تقع على شاطئ الخليج شرقي قطر. وكانت أشبه بقرية كبيرة، تريد أن تكون مدينة. وأعتقد أنها كانت حوالي 5% خمسة في المائة مما هي عليه اليوم، أي أنها تضاعفت خمسين مرة اتساعا وارتفاعا.

فأكثر المنازل فيها من طابق واحد، على النظام القطري المتوارث، وهو أن يكون الفناء أو (الحوش) في الداخل، لأن هذا أستر للعائلة، وأهون من أن يكشف الجيران بعضهم بعضا.

وبعض البيوت قد يكون من طابقين، وقليل جدا من ثلاثة، ولا سيما البيوت التي تعد للكراء والإيجار.

وأشهر بناية في الدوحة كانت (دار الحكومة) التي فيها وزارة المالية والبترول وإدارة شؤون الموظفين والإسكان على مستوى قطر كلها. وفيها يداوم نائب الحاكم وولي العهد ووزير المالية الشيخ خليفة بن حمد.

وكان أشهر موظف في الحكومة هو داود فانوس مدير شؤون الموظفين، الذي لا يعين موظف صغر أو كبر، ولا يرقى من درجة إلى أخرى، إلا عن طريقه، فلا يعين مدير ولا فراش ولا ناطور (حارس) إلا بموافقة فانوس.

ولم يكن التعيين أو الترقية وحدهما هما اللذين في يديه، بل الإسكان والتأثيث في يديه أيضا.

وأشهد أنه ـ رغم مسيحيته ـ كان رجلا دمث الأخلاق، ويفهم عمله جيدا، وكان يتعامل معي خاصة بلطف وأدب إذا احتجت إليه، ومن ذا الذي لا يحتاج إليه؟

الحالة الدينية في قطر

كان أهل قطر أقرب إلى الفطرة السليمة، لم تفسدهم الحياة المدنية الحديثة. كانوا متعاونين متكافلين، يسأل بعضهم عن بعض، ويشد بعضهم أزر بعض، الابن يبر أباه، والقريب يصل رحمه، والجار يرعى جاره. الغالب على الناس الصدق، حتى إني أول ما ذهبت إلى قطر، لم يكن التلاميذ يعرفون الغش في الامتحانات، ولا يفكرون فيه، ولو تركتهم وحدهم في الصف ما حاول أحد أن يسرق معلومة من أحد. وقد ظلوا هكذا عدة سنوات، ثم أصابتهم العدوى، من مصر وبلاد الشام وغيرها. وطفقوا يقلدون غيرهم، ثم تفننوا في الغش، حتى فاقوا من قلدوهم، وأمسى منهم من يكتب على ذراعيه، وعلى فخذيه، ومن يستخدم الجوّال (الموبايل) ومن .. ومن..

وعدوى الأخلاق أشد من عدوى الأجسام.

رأيت الجميع يحرص على الصلاة، وخصوصا في المسجد، ويصحب الرجل أبناءه إلى المسجد، وكان الناس قد نظموا حياتهم وفق مواقيت الصلاة، فكانوا أقرب إلى النظام اليومي للحياة الإسلامية. فالمحلات التجارية تغلق أبوابها قبيل أذان المغرب، ولا تفتح إلا في صباح اليوم التالي. والناس يتناولون عشاءهم بعد صلاة المغرب، أشبها بما كان عليه أهل الريف في مصر. فإذا صلوا العشاء أسرعوا إلى بيوتهم للنوم مبكرين.

وقبل الفجر تدب الحياة في قطر، ويتحرك الناس إلى المساجد، وبعدها يتناولون (الريوق) أي يغيرون ريقهم بتعبير المصريين بتناول الفطور، ثم ينطلق كل منهم إلى عمله، مستفيدا من بركة البكور، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "اللهم بارك لأمتي في بكورها".

ولا يعرف قيمة هذا الوقت، إلا من وازن بين شخصين: شخص يقوم مبكرا يتلقى الصباح من يد الله تعالى طاهرا قبل أن تلوثه أنفاس العصاة والفجار، ويستقبل نسمات الصباح من أول يومه، قبل أن تشتد الشمس، ويسخن حرها ويتصاعد، وخصوصا في بلاد حارة مثل بلدان الخليج.

وآخر نؤوم الضحى، بال الشيطان في أذنيه، فلم يستيقظ إلا بعد أن أضاع هذه السويعات الجميلة، واستقبله وهج الشمس اللافح منذ فتح النافذة أو الباب.

وكان مما ساعد الناس في قطر على الالتزام بهذا النظام: أنه لم يكن فيها إذاعة ولا تليفزيون ولا صحافة.. فكان الناس في راحة من الإعلام وأجهزته ووسائله. ولهذا كان الطلاب المجتهدون منكبين على الدراسة والتحصيل والاستذكار، لا يشغلهم عنها شاغل.

ومما كان يساعد الناس على الالتزام بصلوات الجماعة في المسجد: كثرة المساجد الصغيرة المنتشرة في الأحياء، والمتقاربة إلى حد بعيد.

فقد كان هناك نوعان من المساجد: مسجد جماعة، وهو عادة محدود المساحة، بسيط في مبناه، وليس فيه منبر للجمعة. والآخر: مسجد جمعة، وهو عادة كبير، وفيه منبر، وتصلى فيه الجمعة، وهو الذي يطلق عليه أهل قطر (الجامع). فليس الجامع عندهم كل مسجد، كما هو عرف الناس في مصر، بل مسجد الجمعة الكبير فقط.

وسر هذا فيما أرى: أن المذهب الحنبلي ـ وهو المذهب السائد في قطر ـ يرى أن صلاة الجماعة واجبة على الرجال إلا من عذر، وليست سنة أو فرض كفاية، كما في المذاهب الأخرى. من هنا كان على الناس أن يكثروا من مساجد الجماعة الصغيرة، لتعين كثرة المساجد على أداء هذا الواجب.

وفي رأيي: أن هذا النهج في بناء المساجد نافع، وليته يتبع في مصر وفي غيرها، ويكون هناك مسجد لصلاة الجماعة، لا بأس أن يكون في أسفل العمارة أو نحو ذلك، ولا تصلى فيه جمعة، أما مساجد الجمعة أو (الجوامع) فينبغي أن تكون واسعة ما أمكن ذلك، ولا سيما مع اتساع العمران، وكثرة المصلين، حتى إني لا أكاد أرى في مصر مسجدا، إلا والناس يصلون الجمعة في الشوارع من حوله.

وعلى ذكر المذهب الحنبلي، فقد كان هو المذهب الشائع والغالب بين أهل السنة في قطر، على خلاف سنة البحرين ودبي، فقد كان السائد عندهم هو مذهب مالك، وكان قليل من القطريين مالكية أيضا، مثل الشيخ علي بن جاسم شيخ أم صلال علي، فقد كان

مالكي المذهب، ومثل قبيلة (الخليفات) فقد كانوا موالك، وإن كان الجيل الجديد منهم قد انصهر في الأغلبية الحنبلية بحكم دراسته التي تلقاها في المدارس.

وكان في قطر أقلية شيعية جعفرية، ولكنها أقلية منسجمة مع الأكثرية، ومتفاهمة مع الحكومة، ولا تكاد تظهر أي مشكلات أو حساسيات من جهة الشيعة في قطر.

الحالة الاجتماعية

وأهل قطر ينقسمون إلى أقسام:

الأسرة الحاكمة، من آل ثاني، نسبة إلى ثاني بن ...

وأصلهم من قبيلة تميم العربية المعروفة من العرب المستعربة، التي تنتمي إلى عدنان، ومنه إلى إسماعيل عليه السلام. وفيها يقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم   رأيت الناس كلهمو غضابا

وقريب من آل ثاني: أصهارهم وأقرباؤهم من القبائل، مثل آل العطية، وآل السويدي، والمعاضيد، الذين ناصروهم في معركة الزبارة التي وقعت بين آل ثاني وآل خليفة حكام البحرين، وانتصر القطريون، وأخرجوا آل خليفة من الزبارة. وتعتبر هذه المعركة من المفاخر التاريخية عند أهل قطر!

وهناك قبائل أخرى في قطر: مثل المرة، والهواجر، وآل بوكوارة، والنعيمي، والخليفات، والمانع، والمناعي والخاطر والمالكي والنصر وغيرهم. وبعض هذه القبائل تجدها مشتركة بين قطر والسعودية والبحرين والإمارات. فقد كانت المنطقة كلها مفتوحة لهذه القبائل، ترحل من مكان إلى مكان، وتهاجر من بلد إلى آخر، طلبا للرزق أو للأمن أو لغير ذلك.

وهناك جماعات أخرى من أهل قطر يسمون (الهولة) ويقولون: إن أصل هذه الكلمة مأخوذة من (الحولة)، وذلك أنهم كانوا في الأصل من جزيرة العرب، وتحولوا إلى ساحل فارس، ثم عادوا إلى أصلهم، مثل عائلات الأنصاري، وفخرو وآل عبد الغني والمفتاح والصديقي والعمادي وغيرهم، وكلهم من أهل السنة. وبعض هؤلاء عاشوا سنين طوالا في قطر، ولكنهم لم يتمكنوا من الحصول على الجنسية، وقد ولد لهم أبناء وبنات في قطر، ولا يحملون جنسية، ولا جوازا ولا بطاقة، ولهذا لا يستطيعون أن يغادروا قطر، بل لا يستطيعون أن يتزوجوا، لأن المأذون الشرعي أو القاضي الشرعي الذي يعقد لهم، يحتاج منهم إلى ما يثبت هويتهم، وهم لا يملكون شيئا من ذلك. فلا هم يحملون الجنسية القطرية، ولا الجنسية الأصلية من إيران التي جاؤوا منها. وهؤلاء هم الذين سموهم في الكويت (الـ بدون) أي الذين بدون جنسية.

وإني لأرجو من حكام الخليج: أن يعاملوا هؤلاء بما يستحقون من الرحمة، ولا يدعوهم في العراء، لا تقلهم أرض ولا تظلهم سماء! وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

وهناك أناس من شيعة إيران جاءوا إلى قطر، واستوطنوها، ومنهم من حصل على جنسيتها، وغدا من مواطنيها الأصليين، ومنهم من لم يحصل عليها، شأن (البدون) ولكن أمر هؤلاء الشيعة أهون من

أهل السنة، فقد يستطيعون بغير صعوبة كثيرة الحصول على الجنسية الإيرانية، بخلاف أهل السنة.

وكانت المرأة في قطر ملتزمة بالحشمة، لم تغزها مفاهيم الحضارة الغربية وقيمها، التي غزت المرأة في البلاد العربية الأخرى مثل مصر والشام والعراق وغيرها. فكانت المرأة لا تخرج إلا وهي لابسة العباءة السوداء، تسترها من رأسها إلى أخمص قدميها. وكانت تلبس على وجهها (البطولة) وهي شيء يشبه البرقع، تلبسه المرأة طول النهار، حتى وهي داخل بيتها، ولا تخلعه إلا عند الوضوء أو النوم. فقد أصبح عادة لا عبادة.

وإذا خطبت الفتاة، فلا يمكن خاطبها من رؤيتها، ولا يسمح له بعد ذلك، حتى بعد العقد عليها، إلا ليلة الزفاف، وقد ظل هذا سائدا إلى اليوم، حتى بعد أن دخلت الفتاة المدرسة والجامعة، وذهبت إلى السوق، وسافرت إلى الخارج، يمكن أن يراها المعلم والطبيب وأستاذ الجامعة، وركاب الطائرة، والناس في القاهرة وبيروت ولندن وباريس، إلا شخصا واحدا، هو المسكين الذي لا يؤذن له أن يراها، وهو خاطبها، بل زوجها الذي عقد عليها.

وفي مقابل هذا ما رأيته في مصر، عند كثير من الأسر المتحررة! حيث يذهب الخاطب مع خطيبته يتأبط ذراعها، ويذهبا بعيدا في المتزهات أو حفلات السينما، ولا رقيت ولا حسيب، وهي لا تزال أجنبية منه. وكثيرا ما تنتهي هذه الفترة بفسخ الخطبة، وهنا تكون الحسرة والندامة.

والخير في الموقف الوسط بين المُفْرِطين والمُفَرِّطين (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) البقرة: 143. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة: أنظرت إليها؟ فقال: لا،

قال: اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما. أي يحصل بينكما الإدام والألفة، فإن العين رسول القلب.

وبعض فتيات الخليج اليوم خلعن البطّولة وخلعن العباءة، وسرن وراء التقاليد أو (التقاليع) الغربية، وبعضهن التزمن هذه التقاليد في أوطانهن، فإذا خرجن منها، صدر منهن الأعاجيب، ولا زلت أذكر حين سافرت من مدينة خليجية كبرى، إلى باريس، وكنت راكبا في الدرجة الأولى، ودخل عليّ مجموعة نساء لم أر منهن شيئا إلا سوادا في سواد، وكنا في منتصف الليل، وقبيل الصباح: أيقظنا المضيفون لنستعد للنزول في باريس، فالتفت فلم أر السواد الذي رأيته في الليل، ورأيت مكانه نساء على أحدث (الموديات) فقد ظهرت الشعور والنحور والصدور والأذرعة والسيقان، مع ألوان الزينة والعطور ونمص الحواجب، وكل ما يسمونه (الماكياج) فلم أملك إلا الحوقلة والاسترجاع.

وهذا دليل على أن الوازع الذاتي هو الأساس، لأنه يصحب الإنسان في خلوته وجلوته، وحضره وسفره (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) البقرة: (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) الحديد: 4.

على أن هناك أعدادا كبيرة جدا من الفتيات في الخليج التزمن الحجاب (الخمار الشرعي) كما قال تعالى: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن) النور: بل منهن من التزمت النقاب وغطت وجهها طوعا واختيارا، وهؤلاء هن الأكثرية العظمى من بنات الخليج، كما يظهر في الطالبات الجامعيات، والحمد لله.

ولأهل قطر تقاليد في الزوج، بعضها لا تمت بنسب إلى الإسلام، منها: الغلو في الصداق، فهم يتباهون بما يقدم للفتاة من مهر. فكأنما هي سلعة، فإذا كانت غالية، دفع فيها ثمن أكبر.

ونسي هؤلاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم زوج بناته بأقل ما يمكن من المهور، وتزوج نساءه كذلك، وقال: "أقلهن صداقا أكثرهن بركة" وقال لبعض أصحابه: "التمس ولو خاتما من حديد" ولما لم يجد حتى هذا الخاتم قال له: "زوجناكها بما معك من القرآن".

ومن التقاليد: المبالغة في هدايا العرس، وكثير منها قد لا تنتفع بها العروس، مثل ما يسمونه (الدزة) وهي مجموعة من الحقائب مليئة بالملابس، جاء بها أهل المِعْرِس (الزوج) على أذواقهم، وقد لا توافق ذوق العروس ولا تناسبها، ولكنها للفرجة والمباهاة.

وكذلك هدايا من حلي الذهب على الذوق القديم، ثقيلة الوزن، غالية الثمن، قد تلبسها العروس ليلة الزفاف ليراها الآخرون، ثم تخلعها فلا تكاد تلبسها بعد ذلك.

ومن التقاليد المتوارثة عند القبائل: أن البنت لابن عمها، لا يجوز لها أن تتزوج غيره، وكأن هذا عهد مقدس لا يجوز الإخلال به. وكثيرا ما لا يكون ابن العم راغبا في ابنة عمه، وهي تبادله نفس الشعور. ولكن تقاليد العائلة أو القبيلة الصارمة تفرض نفسها عليهما، وتسوقها كرها إلى الزواج المحتم فشله، فإما أن ينتهي بالطلاق، وإما أن ينتهي بزواج الرجل بأخرى، وتبقى ابنة عمه المسكينة معلقة، لا هي متزوجة، ولا هي مطلقة.

وهذا يذكرني بالقبائل العربية في صعيد مصر، فعندهم نفس هذه الأفكار والتقاليد، فلا يجوز للفتاة إلا أن تتزوج من القبيلة، ولو تقدم

إليها واحد من خارج القبيلة، ولو كان أستاذ جامعيا أو مديرا عاما أو حتى وزيرا، لرفضوا تزويجه، وعندهم مثل يقول: يأكلها تمساح، ولا يأخذها فلاّح. والفلاح: كل من لا ينتمي إلى قبيلة ولو بلغ مركزه ما بلغ.

والقبائل في قطر أيضا لها أوزان، فليس كلها قابلا لأن تزوج الفتاة منهم، وإن كان تزوج الفتى من بعضهم يمكن التجاوز فيه.

وهذه كلها اعتبارات ضيق الناس بها على أنفسهم، وعسروا ما يسر الله، والشرع الإسلامي يعتبر الناس كلهم سواسية، وأسرة واحدة، تجمعهم العبودية لله، والبنوة لآدم. فربهم واحد، وأبوهم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات: .

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض".

الحالة الاقتصادية

كانت الحالة الاقتصادية في قطر في بداية انتعاشها، وحظ قطر من النفط ليس كحظ الكويت أو أبو ظبي، ولكنها أحسن حالا من البحرين جارتها.

كما أن قلة سكانها يجعل نصيب الفرد من الدخل من أعلى المستويات في العالم.

ولهذا كان عدد التجار الكبار في قطر محدودا، مثل آل الدرويش (قاسم فخرو وإخوانه) وآل ناصر (عبد الغني ناصر وإخوانه) وآل

المناعي والمانع وغيره، وأكثر التجار الصغار من الهنود والباكستانيين، وإن كانوا أقل من نظرائهم في دبي.

وكان أشهر سوق في قطر هو (السوق الضيق) و(سوق واقف) وقلما توجد محلات كبيرة، ما عدا البيت الحديث للدرويش. وكانت (الروبية الهندية) هي العملة السائدة في قطر، وظلت هكذا حتى غيرت بعد الاستقلال إلى الريال.

وكانت الحياة تعتبر رخيصة بالقياس إلى ما حدث بعد سنوات، وإن كنا نحن نعدها غالية، بالنظر إلى الحياة في مصر. لا سيما أن مرتباتنا كانت محدودة نسيبا، فقد عينت بمرتب 1475 روبية. وهو أول ما يعين عليه موظفو الدرجة الأولى (سنيار اصطاف) ولم يكن هناك بدلات أخرى.

وكان الجنيه المصري يحول بإحدى عشرة روبية. فكان الموظف إذا توفر له في السنة ألف جنيه، يعتبر فضلا ونعمة.

ومع هذا كان للروبية قيمة، بل كان ربع الروبية له قيمة كذلك. ويسمى (الأربع آنات) فقد كانت الروبية مقسمة إلى ست عشرة آنة، وهناك نصف الروبية وربع الروبية.

وكانت معظم الخضروات والفواكه تأتي من لبنان والأردن وربما من سوريا، ومن إيران والهند، أما ما يأتي من إيران والهند فيأتي عن طريق البحر، وأما ما يأتي من بلاد الشام فيأتي عن طريق البر، عن طريق سيارات النقل الكبيرة. وكل هذه تصب في السوق التي يسميها الناس (الشَّبْرا). وبجوارها سوق للحم، وسوق للسمك الذي له رواج كبير عند أهل الخليج، فهو يعتبر ـ مع الأرز ـ الطعام الأساسي. وهناك أنواع من السمك غير السمك المشهور في مصر من البوري والبولطي والقرموط وغيرها، لكن هنا الكنعت

والصافي والشعري وغيرها. وكان سمك الهامور أول ما ذهبنا إلى قطر رخيصا جدا، الكيلو بريالين أو نحو ذلك. إذ كان الناس لا يعرفونه، ولا يهتمون به، وبخاصة أنه يحتاج إلى سلخ وتنظيف، قد لا يحسنه كل الناس.

وكانت بعض الأشياء تأتي في الطائرات، وكان الذين قدموا قبلنا إلى قطر، ينتظرون كل أسبوع الطائرة التي تأتي بالخضار من لبنان. ونحن لم ندرك هذه الفترة، فقالوا لنا: أنتم محظوظون.

وكان مطار الدوحة صغيرا جدا، ومحدودا جدا، وكانت طائرة الخليج التي تنقل الركاب بين دول الخليج بعضها وبعض طائرة صغيرة بمحركات، أطلق عليها الناس: أم أحمد.

نشاطي في قطر

كانت الفكرة التي بيتها في نفسي قبل قدومي إلى قطر: أني ذاهب إلى بلد جديد، لا يعرفني أهله، وعلي أن أنتهز هذه الفرصة، لأتفرغ للقراءة والكتابة، وأعوض ما فاتني من زمن لم أستخدم فيه القلم كما ينبغي.

والواقع أني كنت واهما، فقد سبقتني سمعتي قبل أن أحضر، وسرعان ما اكتشفني الناس بدون جهد، فمنذ أول درس ألقيته في جامع الشيوخ بعد خطبة الشيخ ابن تركي، ومنذ أول خطاب ألقيته في المدرسة الثانوية بمناسبة انفصال سورية عن مصر، وكان هذا الخطاب ذا طابع سياسي، كما كان درس جامع الشيوخ ذا طابع ديني، عرف أهل قطر شيئا عن هذا القادم الجديد.

وبعد فترة قليلة، دعاني الشيخ ابن تركي إلى إحياء ذكرى الإسراء والمعراج في المدرسة الثانوية. وكلما جاءت مناسبة دينية أو وطنية أو اجتماعية، دعيت إلى المشاركة فيها.

حتى جاء شهر رمضان المبارك. وكان ابن تركي قد سنَّ سنة حسنة في كل رمضان، وهو أن يرسل العلماء الأزهريين الذين يدرّسون العلوم الشرعية، إلى مساجد الدوحة وضواحيها، ومساجد القرى، ليلقوا فيها دروسا، إما بعد العصر، وهو الغالب، أو بعد العشاء. ويوزع جدول في كل رمضان بالمدرسين ومساجدهم.

فلما جاء أول رمضان علي في قطر، بعثني ابن تركي إلى مسجد الشيخ خليفة بن حمد ولي العهد نائب الحاكم المقام أمام قصره، الذي فيه مسكنه ومكتبه. فكنت أذهب لأصلي العصر بالشيخ، ثم ألقي درسا في تفسير آية، أو شرح حديث، أو الحديث عن موضوع معين بمناسبته، مثل الحديث عن غزوة بدر، أو فتح مكة، أو ليلة القدر، وهي مناسبات رمضانية معروفة، وكذلك الحديث عن فضل شهر رمضان أو أحكام الصيام في أول الشهر، وأحكام زكاة الفطر، وصلاة العيد في أواخر الشهر.

وكان هذا الدرس مفتوحا للجميع يحضره جمٌّ غفير من الناس. وكان الشيخ خليفة نفسه حريصا على حضوره باستمرار، لا يتخلف عنه إلا لمرض أو عذر.

وكان الترتيب الذي وضعه ابن تركي أن أذهب إلى هذا المسجد نصف الشهر، ثم يبدلني، ويأتي بشيخ آخر بقية الشهر، من باب التنويع، وفعلا بعد أسبوعين أرسل واحدا آخر، وألقى درسا، وفي نفس اليوم اتصل الشيخ خليفة بالشيخ ابن تركي، وقال له: لماذا غيرت القرضاوي؟ قال له: أردت أن أنوّع. قال: لا، أنا لا أريد تنويعا، ولا أريد عالما غير القرضاوي.

وعدت ثانية إلى مسجد الشيخ خليفة، حتى تغير المسجد بمسجد آخر في الريان بعد أن نقل الشيخ قصره إلى الريان، وبعد أن أصبح هو حاكم قطر.

ثم تغير مسجد الريان الكبير إلى مسجد داخل القصر، لا يأتيه إلا الخاصة، بناء على توجيهات رجال الأمن.

ولكن بقي حرص الشيخ على حضور الدرس بصفة دائمة، وإنصاته إليه، وكان في بعض الدروس يقول: أنت سلختنا النهارده يا شيخ يوسف.

وظل هكذا حتى تولى ابنه الشيخ حمد الحكم، أي حوالي ستة وثلاثين رمضانا، تخلفت فيها رمضانا واحدا عن هذه الدروس، وذلك في السنة التي أصبت فيها بانزلاق غضروفي، واضطررت للسفر لإجراء عملية في مدينة (بون) بألمانيا. أي أنني درست للشيخ 35 خمسة وثلاثين شهرا رمضانيا.

صلاة التراويح بجزء من القرآن كل ليلة

وكان لي نشاط آخر بجوار درس العصر، هو صلاة التراويح، فقد اقترح الأخ أحمد العسال، وكنا نسكن متجاورين في منطقة أم غويلينة: أن أؤمهم في صلاة التراويح بجزء من القرآن كل يوم، كما كنا نفعل في رمضان الثاني بالسجن الحربي، بحيث نختم القرآن آخر رمضان، أن تقام هذه الصلاة بالمسجد المجاور لنا، ومعنا بعض الإخوة الأزهريين الذين يسكنون بجوارنا، مثل الشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ عبد المحسن موسى، والشيخ سيد رجب.

قلت له: هذا اقتراح طيب، ولكن علينا أن نستأذن الإخوة القطريين الذين يصلون معنا في المسجد عادة، فربما يستطيلون هذه الصلاة، واستأذناهم ورحبوا.

وبدأنا الصلاة بصف أو صف ونصف في هذا المسجد الصغير ـ وهو مسجد جماعة ـ بمنطقة أم غويلينة، وهو يسمى (مسجد الرفاع).

ولا أدري من هي غويلينة ولا أمها، ولكن جرت عادة الناس في قطر أن يضيفوا الأماكن إلى (الأم) فهناك: أم سعيد (وهي ميناء تصدير البترول) و(أم باب) التي أقيم فيها مصنع الأسمنت بعد، وأم صلال، وأم قرن، وأم العمد، وغيرها. وقد تضاف الأماكن إلى (الأب) أحيانا، مثل (أبو الطلوف) و(أبو هامور)، و(أبو عبود). مثل ما يعرف في مصر بلاد مثل (أبو حمص) و(أبو المطامير) و(أبو كبير) و(أبو صوير).

وما هي إلا أيام حتى ازداد عدد المصلين، وخصوصا من المصريين والفلسطينيين والباكستانيين والهنود.

وكنت أصلي ثماني ركعات، غير الشفع والوتر، وبعد الأربع الأولى ألقي درسا يدور حول آية أو أكثر من الآيات التي قرأناها، وأحيانا أقدم الشيخ عبد المعز عبد الستار إذا حضر معنا، أو الشيخ العسال.

وكانت طريقتي ـ ولا تزال إلى اليوم ـ أن أبدأ قراءة الجزء منذ صلاة العشاء، فأصلي العشاء بربعين، ثم ركعتين بربعين أخرى، ثم ركعتين بربع واحد، ثم الترويحة والدرس، والأرباع الثلاثة الباقية: مقسمة على الأربع الباقية من التراويح وركعتي الشفع، ثم الوتر وفيه القنوت.

وفي السنة الثانية، كثر رواد صلاة التراويح. وفي كل سنة يزداد العدد، وقد وُسِّع المسجد أيضا، ولكنه ضاق بالمصلين، فانتقلت إلى مسجد أكبر في نفس المنطقة التي نسكن فيها، وهو مسجد (بنّة الدرويش) بنته على نفقتها، فنسب إليها، جزاها الله خيرا، وهو مسجد جمعة كبير نسبيا، وقد لبثت فيه عدة سنوات.

ثم ازداد العدد والإقبال مع بروز الصحوة الإسلامية المعاصرة في أواسط السبعينيات من القرن العشرين، فانتقلنا إلى جامع الشيوخ، وهو أكبر المساجد وأوسعها، ومع هذا كان يضيق بنا، ولا سيما في بعض الليالي مثل ليالي الجمعة والسبت، ويضيق أكثر وأكثر في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وليلة ختم القرآن في آخر رمضان.

وفي السنوات الأخيرة بعد ابتليت بوجع الركبة، أصبحت أوكل بعض الإخوة من أئمة وزارة الأوقاف في القيام بنصف الصلاة، وأقوم أنا بالنصف الآخر، فيما عدا ليلة الختم، فأنا حريص على أن أقرأ الجزء الثلاثين ـ جزء عم ـ كله، وأن أدعو وأطيل الدعاء، والحمد لله الذي منحني القوة على هذا، في حين يشكو بعض الشباب.

لك الحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة النعماء: قولي: لك الحمد!

لم أتخلف عن صلاة التراويح منذ ذهبت إلى قطر، إلا ذاك الرمضان الذي قضيته في علاج آلام الظهر بألمانيا، والحق أني حينما أقبل شهر رمضان، وكنت على سرير مرضي، لا أستطيع

التحرك منه، شعرت بحنين عجيب، وشوق حار إلى مسجدي بالدوحة، وإلى صلاة التراويح، وتلاوة القرآن، ودرس الترويحة، ودعاء القنوت، وتأمين المصلين، الذي يكاد يهز أركان المسجد، وفاضت دموعي، واضطرب قلبي بين ضلوعي، وانساب ذلك في شعر رقيق، كتبته وأنا على سريري، وبعثت به إلى الإخوة في قطر، في قصيدة نشرت في ديواني (نفحات ولفحات) ومنها:

في دوحةِ الخير، يا حياكم الله

تلوح منه لنا في (بون) أضواه؟

ولا تراويحنا، وَاحرَّ قلباه!!

ذكرَ الغريب بعيد الدارِ مأواه

وأفضلُ الذكر قرآن تلوناه

محبَّةٌ الله لا مالٌ ولا جاه

بالخير تعرفُه دَوْمًا بسيماه

قد عبَّرت عنه أرواحٌ وأفواه

وكلُّهم في نَقاءِ الروح أشباه

والاستباق هنا المحمود عقباه

أحَيوْه طَوْعًا، وما في الخير إكراه

يحيا، فطوبى لمن بالذكر أحياه

كأنه الدمُ يسري في خلاياه

والروحُ خاشعةٌ، والقلبُ أوَّاه

إلا لقاءً على ربي وتقواه

رغم الشدائدِ يلقاه وتلقاه

فسوف ينهارُ ما لم تبقَ دنياه

يا إخوةً في رضا ربي عرفتهمو

هلا بعثتم شعاعًا من مساجدكم

فلا أذانَ ولا قرآنَ نسمعه

إنّي لأذكركم في كل أمسية

كم التقينا على ذكر وموعظة

في موسم الطهر في رمضان الخير، تجمعنا

من كل ذي خشية لله ذي ولع

جيلٌ على الحبِّ والإيمان مرتبطٌ

إن أنْسَ أوجُهَهُم لم أنس رُوحَهمو

قد قدروا موسم الخيرات فاستبقوا

صاموه قاموه إيمانًا ومحتسَبًا

والوقت كالناس منه ما يموت وما

وكلهم بات بالقرآن مندمجًا

فالأذنُ سامعةٌ، والعينُ دامعةٌ

أحببتهم وأحبوني بلا غرض

ما كان لله يبقى دائمًا أبدًا

وما يقوم على دنيا ومنفعةٍ

بروز المعهد الديني

وكان المعهد الديني ـ على حداثة سنه وعلى صغر حجمه ـ يمثل نموذجا حيا للجمع بين القديم والحديث، أو الأصيل والمعاصر. وكان طلابه نماذج حية للاجتهاد وفي التحصيل وحسن الفهم، والالتزام الديني والخلقي.

وكان الطلبة يتنافسون فيما بينهم في التفوق العلمي، والنشاط المدرسي، والسلوك الأخلاقي. وكنا في كل عام دراسي نختار (الطالب المثالي) الذي يبرّز في العلم والنشاط الطلابي، وحسن العلاقة مع أساتذته وزملائه.

وكان الطلاب هم الذين يتناوبون حكم المعهد داخليا، عن طريق نظام الأسر. فهناك أسرة أبي بكر الصديق، وأسرة عمر بن الخطاب، وأسرة صلاح الدين الأيوبي، وأسرة أحمد بن حنبل. وكل أسرة تشرف على المعهد: نظافة ونظاما لمدة أسبوعين، ثم تسلمه لمن بعدها.

وكان الطلاب في قطر وبلاد الخليج على الفطرة السليمة، لم تفسدهم أجهزة الإعلام، ولا الأفلام والمسلسلات، وغيرها.

وقد ساعدني على أداء مهمتي إداريون متفاهمون متعاونون، منهم وكيل المعهد الشيخ عليوه مصطفى، وكان رجلا فاضلا، شاعرا، خفيف الروح. وسكرتير المعهد الأخ أحمد المنيب حسين، ثم الأخ يوسف السطري، وأمين المخازن الأخ حسني أدهم جرار، وضابط

هو الأستاذ أحمد سعد، وكلهم كانوا أعوانا صادقين، وإخوانا متحابين.

كما ساهم في نجاح المعهد: عدد من الأساتذة في مختلف المواد الشرعية والعربية والاجتماعية والعلمية، كانوا كأنهم أسرة واحدة، يعملون في المعهد بروح صاحب الرسالة، لا بمجرد الوظيفة.

من هؤلاء: الشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ علي جماز، والشيخ عبد المحسن موسى من مدرسي العلوم الشرعية. ومنهم الأساتذة: محمد علي الموافي، ورشدي عبد الغني المصري من مدرسي اللغة العربية، ومنهم الأساتذة: يعقوب الدباغ مدرس الرياضيات، وداود العباسي مدرس العلوم، وبشير عزام وإبراهيم أبو عزب وفايد عاشور (الدكتور) من مدرسي المواد الاجتماعية، وغيرهم ممن لا أذكره الآن، ممن قضى نحبه، وممن ينتظر.

حتى مدرس التربية الفنية، كان من خيرة من عرفت من المدرسين: موهبة وخبرة وتعاونا وفضلا، وقد ملأ المعهد باللوحات الطبيعية، والكتابات الجميلة. وهو الأستاذ عبد التواب عز الدين.

وكنت أدخل على المعلمين في دروسهم، وأسأل الطلاب، فيتجاوبون معي، وقد آخذ بعض الملاحظات على المعلم، وأناقشها بيني وبينه بعد الانتهاء من الدرس.

وكنت أطلب في بعض الأحيان من المدرسين: أن يؤدي درسا نموذجيا، بعده بأناة وتؤدة، وأحضره ويحضر زملاؤه من الأساتذة، ليدونوا ملاحظاتهم عليه: في مادته وفي طريقته وفي شخصيته. استفادة مما تعلمناه في التربية العملية في تخصص التدريس.

وكان من المآخذ التي أخذتها على بعض المعلمين: أن أحدهم لا يحضر درسه جيدا، فإذا دخل الفصل فرغ من درسه في دقائق،

وبقي حائرا، وكان يملأ هذا الفراغ بحديثه عن الإسلام، والدعوة الإسلامية. فلفت نظره إلى ذلك، وقلت له: الإسلام الذي تتحدث عنه يوجب عليك أن تهتم بإعداد درسك، وأن تتعب في ذلك حتى تفيد طلابك، وتؤدي حق المرتب الذي تقبضه آخر الشهر. وقد كان الطلاب ملّوه، بل كرهوه، وكرهوا حديثه عن الإسلام الذي يغطي به فشله وإخفاقه.

التدريس بالعامية المصرية

ومما لاحظته على المدرسين بالمعهد، وقد كان أكثرهم مصريين، وبخاصة أساتذة العلوم الشرعية والعلوم العربية: أن بعضهم يكثر من استخدام اللغة العامية المصرية.

والأصل أن يكون التدريس بالفصحى، فهي المفهومة لدى الجيمع، وهي لغة القرآن، ولغة الحديث، ولغة الثقافة الإسلامية، وكثير من الألفاظ العامية لا يفهمها الطلاب في بلاد الخليج، وخصوصا في ذلك الوقت، حيث لم تكن وسائل نشر العامية المصرية موفورة في قطر، فلا توجد سينمات تنشر (الأفلام) المصرية، ولا يوجد تلفزيون تذاع فيه هذه الأفلام أو المسلسلات ونحوها، بل لم تكن توجد إذاعة ولا صحافة في قطر. ولهذا كانت العامية المحضة مجهولة لدى الطلاب تماما.

كما كان بالمعهد طلاب من آسيا ومن إفريقيا، مثل الطلاب الذين جاؤوا من الهند، وهم يتقنون العربية الفصحى ويفهمونها، ولا يفهمون حرفا من العامية المصرية، ولا من أي عامية أخرى.

ولهذا نبهت المدرسين في الاجتماعات الدورية التي كنا نعقدها: أن يحرصوا على الكلام بالفصحى حتى يُفهموا، وأن يتجنبوا الكلام

بالعامية، والله تعالى يقول: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) إبراهيم: ولسان قومهم هنا هو الفصحى من غير شك.

وبهذه المناسبة أود أن أقول كلمة عن العامية المصرية.

فالعامية المصرية مزيج من كلمات عربية ـ وهي الأغلب ـ مخلوطة بكلمات أعجمية، ففيها كلمات من المصرية القديمة أو الرومانية أو القبطية، أو التركية أو الفارسية، أو ما وفد من الكلمات الأوربية من الفرنسية أو الإنجليزية أو اليونانية، ومن كان له إطلاع على اللغات لاحظ ذلك بسهولة.

والعجيب أن الكلمات الفرنسية أشيع في اللغة الدراجة من الإنجليزية، لأنها كانت أسبق في الدخول إلى مصر، منذ عهد محمد علي، ولهذا نجد كلمة (بوريه) و(بوفيه) و(أنتريه) (كبنيه) و(شيفونيره) و(دلسوار) إلى آخر هذه الكلمات، كلها فرنسية.

وكثيرا ما تحرف الكلمات العربية، فتنطق على غير أصولها، كأن ينطق حرف الثاء تاء، مثل ثعلب (تعلب) وثعبان (تعبان) وثلاثة (تلاتة) وغيرها. وكذلك الذال تنطق دالا، مثل ذهب (دهب) وذيل (ديل) وذرة (درة) وأحيانا تنطق الذال زايا مثل ذُلٌّ تنطق (زل).

وكذلك الظاء تنطق ضادا مثل الظُّهر (الضُّهر) والظَّهر (الضَّهر) والمنظرة (منضره).

وأبعد ما يكون عن الفصحى: نطق القاف همزة، كما في القاهرة وبعض محافظات الوجه البحري، ولم أر هذا في بلد عربي آخر.

وكثيرا ما تقلب الكلمات، فيقولون (أنارب) وأصلها (أرانب) ويقولون: (رزعه) في الأرض، وأصلها (زرعه) في الأرض.

وبعض الكلمات يظن أنها عامية، وهي عربية صرفة، مثل: شاف وبص وغيرها.

وكنت أدير المعهد بالهيبة والمحبة، ولم أضطر أبدا إلى استخدام العنف أو العقوبة مع أستاذ أو تلميذ. إلا مرة واحدة، لفت نظر أستاذ كان معارا من مصر، وخرج من المعهد بدون إذن، وتأخر عن درسه بضع دقائق، فلما لمته على ذلك رد بغير أدب. فكتبت (لفت نظر) في شأنه، ولكنه لم يغادر درج مكتبي، وسرعان ما عاد الأستاذ واعتذر إلي بشدة.

ومرة أراد أحد الطلاب ـ وكان مفتونا بعبد الناصر ـ أن يعلق له صورة في الفصل. وقد فعل، وشكا إلي بعض الأساتذة والطلاب، فأوعزنا إلى أحدهم: أن يعلق صورة للملك فيصل، وتنازع الطالبان، وجئ بهما إلي، فقلت لهما: أولا: من الناحية الذوقية لا يجوز أن تعلق صورة لزعيم في مبنى حكومي لبلد آخر.

وثانيا: من الناحية الشرعية، فالإسلام يكره تعليق صور للأشخاص، وخصوصا إذا كان مظنة التعظيم. وأنتم ترون أني لا أعلق في مكتبي أي صورة، لا لأمير البلاد، ولا لولي عهده، ولا لوزير المعارف، وقد قبل الناس مني ذلك، ولم يلمني أحد عليه.

وقد خرج المعهد مجموعة من خيرة أبناء قطر، وأبناء الإمارات، فقد كان المعهد لهم جميعا، وكان خريجوه هم الذين أكملوا دراستهم في الأزهر غالبا أو في كلية دار العلوم، أو في جامعة المدينة المنورة: أمثلة تحتذى، وقد أصبحوا جميعا من القيادات الدينية والتربوية والثقافية والسياسية في المنطقة.

حتى إني أذكر أنه في الوزارة السابقة في قطر، كان فيها أربعة وزراء من خريجي المعهد: الأستاذ عبد العزيز عبد الله تركي

(وزير التربية والتعليم) ود. حمد عبد العزيز الكواري (وزير الإعلام والثقافة) والأستاذ أحمد عبد الله المحمود (وزير الدولة للشؤون الخارجية) واللواء حمد بن عبد الله بن قاسم آل ثاني (وزير الدولة لشؤون الدفاع) واثنان بمرتبة وزير: الشيخ عبد الرحمن عبد الله المحمود (رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية) والشيخ محمد بن عيد آل ثاني (رئيس الهيئة العامة للشباب والرياضة).

وعدد من السفراء: أذكر منهم الأساتذة: محمد سالم كواري، وعتيق ناصر البدر، وأحمد غانم الرميحي، وحسن إبراهيم اليمني، وعدد من القيادات في الوزارات المختلفة: العميد مقرن هجرس العتيق في القوات المسلحة، ويوسف عبد الرحمن الملا، محمد عبد الله الأنصاري، وعبد الرحمن عبد الله المولوي، في وزارة التربية، وفي الجامعة: د. عبد الحميد إسماعيل الأنصاري، ود. علي محمد يوسف المحمدي. ود. عبد العزيز عبد الرحمن كمال، ود. مصطفى عقيل الخطيب، ود. عبد الرحمن الدرهم. ويوسف عبد الرحمن المظفر في الإعلام ثم الأوقاف، ومحمد فرج قاسم في رعاية الشباب. وآخرون في مواقع مختلفة لا تحضرني أسماؤهم الآن.

أما في الإمارات، فقد كان من أبناء المعهد: د. محمد عبد الرحمن البكر (وزير العدل والشؤون الإسلامية) ود. سعيد عبد الله سلمان (وزير التربية والتعليم والتعليم العالي) والأستاذ شبيب عبد الله المرزوقي الأمين العام لجامعة الإمارات. والأساتذة: ماجد الخزرجي، وخليفة سيف، وأحمد ناصر النعيمي، وصفر المري، وجمعة بطي، وغيرهم.

نشاط متنوع في المعهد

في هذا الوقت أصبح المعهد الديني في قطر مساحة لأنشطة متنوعة، يشغل بها طلابه، ويحرك حوافزهم، وينمي قدراتهم ومواهبهم، كما فتح أبوبه في المساء لنشاط ثقافي يسهم به في التوعية والتنوير للجمهور القطري.

على المستوى الطلابي، كنا نقيم بين الحين والحين مسابقات أدبية للطلبة، بعضها لأحسن خطيب، وبعضها لأحسن من يكتب مقالا، وبعبارة أخرى: يكتب موضوع إنشاء. وأود أن أقول هنا بكل صراحة: إن الذين فازوا بالأولية في الخطابة والكتابة لم يكونوا هم الطلاب العرب، وإنما هم الطلاب الهنود، الذين قدموا إلى المعهد من ولاية (كيرالا) من جنوب المعهد، وقد نشأوا في أحضان المدارس والكليات الدينية العربية، حيث يعلمون العربية وآدابها وعلومها منذ لحاقهم بها، ويدربون على التلكم والخطابة بها. فلا غرو أن يحوزوا نصب السبق متفوقين على أبناء قطر والخليج. أذكر منه هؤلاء الطلبة: الشاب الهندي اللامع محمد سليم.

وقد عرفت تفوق هؤلاء الشباب من شباب الهند بعد ذلك في جامعة قطر، في كلية الشريعة مثل الشاب النابه: عبد الغفار عزيز أحد مساعدي أمير الجماعة الإسلامية في لاهور، ولا سيما فيما يتعلق بالعرب والعروبة والعربية، وكذلك في كلية اللغة العربية مثل الطالب اللامع: علي باوتي، والطالب النابه: عبد الله كُنْهاين.

ومن الأنشطة الطلابية التي عنيت بها: المطارحات الشعرية، بين الطلبة بعضهم وبعض، إما بين طالبين متميزين، أو بين فريقين من الطلاب، وهو الغالب، وفكرة المطارحة تقوم على أن يلقي أحد الطرفين بيتا من الشعر، ويرد عليه الطرف الآخر ببيت يبدأ بحرف القافية التي انتهى بيت صاحبه.

فإذا قال أحدهم:

أخلقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

يرد عليه الآخر بقوله ملا:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

فيرد عليه الأول بمثل قوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويرد الثاني بمثل قوله:

من كل شيء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض

وهكذا، وكانت هذه المطارحات تقعد ما بين الحين والحين، فدفعت الطلاب إلى أن يتهيأوا لها بحفظ ما أمكنهم من الشعر، ومراجعة ما

حفظوه حتى لا ينسوه، والاطلاع على دواوين الشعر في مكتبة المعهد، وفي كل هذا خير وبركة على الطلاب، وخصوصا المتفتحين المرجوين للغد، أما الكسالى الخاملين، أما البلداء الغافلون، فهم عن هذا كله بمعزل.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي!

وكانت جوائزنا للمتفوقين في هذه الأنشطة بسيطة جدا، ولكنها كانت تسر الطلاب، وتحفز هممهم، وجلها كانت (كتبا) نحاول الحصول عليها من بعض الجهات، إلى كتابة اسم الفائز في (لوحة الشرف) بالمعهد، وإعلان اسمه في طابور الصباح.

نشاط ثقافي عام بالمعهد

أما النشاط الثقافي العام، فقد أخذ عدة صور، أذكر منها: أنا كنا نحتفي بالمناسبات الإسلامية مثل الهجرة النبوية، وذكرى الإسراء والمعراج ونحوها، وندعو من يتحدث فيها من الخطباء المرموقين مثل فضيلة شيخنا الشيخ عبد المعز عبد الستار، والدكتور عز الدين إبراهيم، وكثيرا ما ندعو بعض علماء قطر مثل الشيخ عبد الله بن تركي، والشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وغيرهما.

ومنها: إقامة موسم محاضرات، وأذكر أني ألقيت المحاضرة الأولى في ذلك، وعنوانها: نظرات في الاقتصاد الإسلامي.

ومنها: إقامة ندوات شعرية، يتبارى فيها الشعراء بإلقاء أروع قصائدهم. وأذكر أول مرة دعوت فيها إلى هذه الندوة، وكانت أول

ندوة من نوعها تقام في قطر، وقد تبارى فيها عدد من الشعراء الذين لم يكن الجمهور يعرفهم حق المعرفة، فأبدعوا وأحسنوا، ونالوا إعجاب الحضور، من هؤلاء الشاعر المطبوع المجيد: أحمد محمد الصديق، والشاعر: سعيد تيّم، والشاعر: معروف رفيق، والشاعر: الشيخ عليوة مصطفى. وكان لهذه الندوة صداها الواسع في الأوساط الثقافية والأدبية في قطر، ولم أشارك بشيء من شعري، واكتفيت بتقديم الآخرين للجمهور.

وتكررت هذه الندوات ما بين الحين والآخر، ولا سيما إذا وجدت مناسبة إسلامية، أو مناسبة وطنية، وكانت المناسبة الحية والحاضرة باستمرار هي قضية القضايا، قضية العرب والمسلمين الأولى: قضية المسجد الأقصى، قضية أرض النبوات، قضية فلسطين، وكان لفلسطين نصيب الأسد في كل ندوة، وحق لها.

مسابقات القرآن

كان من الأشياء التي أعتقد أن قطر كان لها فضل السبق فيها: مسابقات حفظ القرآن الكريم، التي اقترحها تفتيش العلوم الشرعية برئاسة الشيخ عبد الله بن تركي على الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف، فما كان أسرع من استجابة الوزير وتشجيعه ورصده الميزانية اللازمة لهذه المسابقة.

وكانت المسابقة على مستويين:

الأول: مستوى طلبة وطالبات المدارس. وهؤلاء يمتحنون في المقرر عليهم، وهو: سور من جزء عم، وجزء تبارك، لتلاميذ وتلميذات القسم الابتدائي، بحيث يحفظ من أتم الدراسة الابتدائية

(الجزأين: عم وتبارك). وفي الإعدادي والثانوي تقرر سور أخرى أو فقرات من سور.

الثاني: مستوى الجمهور العام، ويدخل فيه من أراد من الطلبة والطالبات. وهؤلاء يمتحنون فيما هو أكثر من المقرر، ابتداء من خمسة أجزاء، إلى عشرة، إلى خمسة عشر جزءا، إلى عشرين، إلى خمسة وعشرين، إلى القرآن كله. والامتحان يكون في قوة الحفظ، وجودة التلاوة.

وكان يصرف للأوائل من المتقدمين إلى المسابقة على المستويين: مكافأة مالية مقدرة، يتميز الأول فيها عن الثاني، والثاني عن الثالث. ومن بعد الثالث لا مكافأة له.

أما حافظ القرآن كله، فيأخذ على ما أذكر ثلاثة آلاف ريال، وكان هذا مبلغا مجزيا في ذلك الوقت.

وكان الذين يفوزون بهذه الجائزة في العادة هم إخواننا العجم (من الهنود والباكستانيين والأفغان) ممن يقيمون في قطر، ويعملون بها أئمة للمساجد أو موظفين في إحدى الدوائر.

وقد امتحنت كثيرا من هؤلاء ـ حين كنت أرأس لجنة المسابقة العامة ـ فوجدت الواحد منهم يحفظ القرآن لا يخرم منه حرفا، كأنه (مسجل). أسأله في متشابهات القرآن، التي تلتبس على كثير من الحفاظ، فإذا هي عنده كالماء الزلال. فإذا قلت له: ما اسمك؟ هز رأسه ولم يجبني بشيء، لأنه لم يفهم من سؤالي شيئا، فهو لا يعرف من معاني العربية شيئا.

وهذا والله من روائع هذا القرآن، بل من معجزاته، التي تجعل العجمي الذي لا يعرف لغته: يحفظه عن ظهر قلب. وهذا من

وسائل حفظ الله تعالى لهذا الكتاب (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

نشيد (مسلمون مسلمون مسلمون)

في هذا الوقت: أنشأت نشيد (مسلمون مسلمون مسلمون). وكان الذي أوحي إليّ به، هو: الغلو في القومي العربية، حتى زعم بعضهم أنها بنوة جديدة، وأن الولاء لها كالولاء لدين لله، وظهر شطط كثير لدى بعض الأقلام والألسنة، وأصبح بعض الناس يعتزون بالعروبة ولا يعتزون بالإسلام، وسمى بعضهم ابنه (لهبا) ليكنى بـ (أبي لهب). وهو ما هيج النزعات القومية الأخرى مثل (الكردية) في العراق، و(البربرية) في الجزائر وغيرها.

لهذا كتبت نشيد (مسلمون) لأؤكد فيه معنى (الانتماء) الإسلامي، والولاء لأمة الإسلام، والاعتزاز بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، وأتم به النعمة علينا، (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة:3.

قلت في هذا النشيد:

مسلمون، مسلمون، مسلـمونْ حيث كان الحق والعدل نكونْ

نرتضي الموت ونأبى أن نهونْ في سبيل الله ما أحلى المنونْ

وهذه متكررة بعد كل فقرة من فقرات النشيد.

نحن صممنا وأقسمنا اليمين أن نموت أو نعيش مسلمين

مستقيمين على الحق المبين متحدين ضلال المبطـلين

جاهدين أن يسود المسلمون

نحن بالإسلام كنا خير معشر   وحكمنا باسمه كسرى وقيصر

وزرعنا بالعدل في الدنيا فأثمر   ونشرنا في الورى (الله أكبر)

فاسألوا إن كنتمو لا تعلمون

سائلوا التاريخ عنا ما دعى   من حمى حق فقير ضيعا؟

من بنى للعلم صرحا أرفعا؟   من أقام الدين والدنيا معا؟

ذلكم تاريخنا يا سائلون

نحن بالأخلاق نورنا الحياة   نحن بالتوحيد أعلينا الجباه

نحن بالبتار أدبنا الطغاة   نحن للحق دعاة ورعاة

جاء هذا النشيد في موعده، وانتشر انتشارا هائلا، وتغنى به الشباب المسلم في كل مكان، ولحنه أكثر من واحد، في أكثر من بلد، حتى إنه كان نشيد المدارس اليمنية بصفة عامة، أيام رئاسة القاضي عبد الرحمن الأرياني.

وكان نشيد المدارس الإسلامية في عدد من البلاد، التي يعيش المسلمون فيها أقليات، مثل المدارس الهندية، ولا سيما أن النشيد يقول:

يا أخي في الهند أو في المغرب   أنا منك أنت مني أنت بي

لا تسل عن عنصري عن نسبي   إنه الإسلام أمـي وأبـي

إخوة نحن به مؤتلفون

وفي قطر أنشئت لجنة لتطوير مناهج اللغة العربية برئاسة الدكتور عز الدين إبراهيم، فكان نشيد (مسلمون) مما أدخلته اللجنة في مقرر (النصوص).

وقد حدثني الشيخ الغزالي رحمه الله عن أول مرة استمع فيها إلى هذا النشيد، وكيف تأثر به، وذرفت دموعه، عندما ألقاه الشباب في أحد المؤتمرات في الجزائر، وكان تلحينه قويا، وإنشاده جماعيا، وفي الفقرة التي تقول:

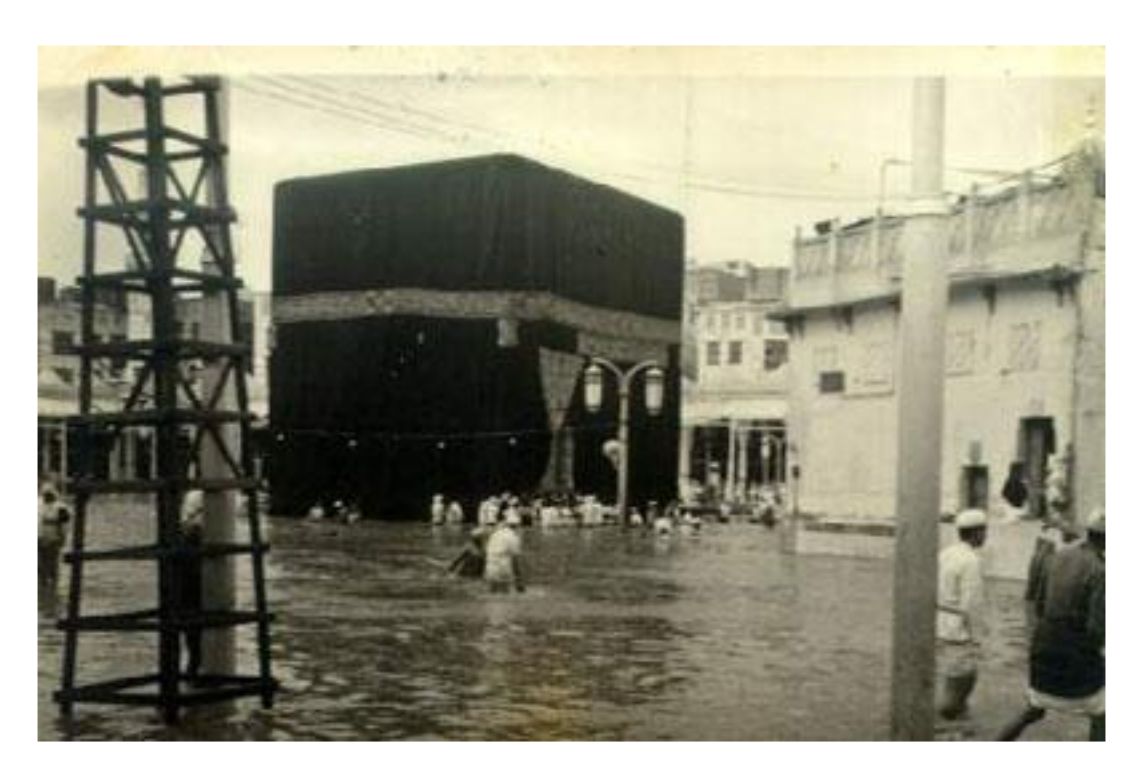
يا أخا الإسلام في كـل مكان   قـم نفك القيد قـد آن الأوان

واصعد الربوة واهتف بالأذان   وارفع المصحف دستور الزمان

واملأ الآفاق: إنا مسلمون

هنا صعد بعض الشباب، وهتف بالأذان: الله أكبر، الله أكبر بصوت جميل مؤثر.. ورفع عدد من الشباب المصاحف منادين: القرآن دستور الأمة.. وردد الحضور مع الشباب في النهاية:

مسلمون مسلمون مسلمون   حيث كان الحق والعدل نكون



رحلة حج الفريضة

وكان أهم أعمال سنتي الأولى في قطر: رحلتي لأداء مناسك الحج: حج الفريضة، فقد استطعت (السبيل) إلى الحج، فلا ينبغي أن أؤخره، صحيح أن هناك من أئمة المذاهب الإسلامية من يقول: الحج مفروض على التراخي. ولكنه يحمل الإنسان المسؤولية لو

واتته الفرصة ولم يغتنمها، ثم فقد الاستطاعة بعد ذلك، فهو يتحمل وزرها.

ولذا لم أر أفضل من التعجيل، فقد قال تعالى: (فاستبقوا الخيرات) وقال سبحانه (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الحديد:

وفي الحديث: "تعجلوا إلى الحج، فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له".

وفي الأمثال: خير البر عاجله. والشاعر يقول:

وانتهز الفرصة، إن الفرصة   تصير - إن لم تنتهزها - غصة

وقد نويت أن أحج وحدي دون اصطحاب العائلة، فقد كانت زوجتي حاملا في ابنتي الثالثة (عُلا) وكان عندها طفلتان، فلم يكن معقولا أن تحمل على يديها، وتحمل في بطنها، وتحتمل مشاق الرحلة، فأجلت حجها إلى حين، وكنا في أواخر السنة الدراسية، فرأيت أن سفرها إلى مصر مدة غيبتي في الحج أوفق وأولى، بدل أن تبقى وحدها.

وسافرت إلى الحج، وكان الجو حارا، فقد كان في الشهر الخامس (إيار - مايو) وأذكر ممن حجوا معي في تلك السنة: الأخوين الكريمين: عبد الحليم أبو شقة، ومحمد الشافعي صادق.

ولم تكن هناك في ذلك الوقت رحلات مباشرة من الدوحة إلى جدة، فركبنا إلى الظهران، ثم من الظهران إلى الرياض، ثم من الرياض إلى جدة. أخذ سفرنا إلى جدة قرابة يوم كامل

في جدة

ونزلنا في جدة لأول مرة، فلم يتح لي من قبل أن أزور أي مدينة في المملكة العربية السعودية، وكانت جدة مدينة صغيرة، أو قرية كبيرة، جدة القديمة، بأسواقها العتيقة ومينائها، وفنادقها الصغيرة والمحدودة القدرات والخدمات، وأذكر أننا بتنا ليلة في فندق يسمى (فندق الحرمين) ولا أدري: ألا يزال باقيا أم لا؟

إلى المدينة

ومن جدة سافرت إلى المدينة المنورة، وكانت مثل جدة، بل أقل كثيرا في عمرانها وتطورها، إلا ما أضافه الملك عبد العزيز رحمه الله إلى المسجد النبوي، وهي إضافة لها قدرها وقيمتها، في توسعة المسجد، وإن كانت لا تسع كل المصلين في أيام الموسم، فالصفوف تتصل وتمتد نحو نصف كيلو أو أكثر، ولا سيما من الناحية الشمالية.

لم تكن في المدينة فنادق كافية مناسبة، وكان معظم الناس يستأجرون بيوتا أو حجرات في بيوت، وكانت بيوت المدينة قديمة في بنائها، قديمة في تجهيزها، قديمة في أثاثها.

وكان الذين حجوا قبلنا يخوفوننا من شيء واحد في بيوت المدينة، هو: العقارب! وخصوصا في حر الصيف، الذي يهيج هذه الحشرات. وأنا شخصيا لا أدعي الشجاعة، فأنا أخاف من هذه المخلوقات التي لا نعرفها في الوجه البحري من مصر، والتي يشبهون بها بعض الناس من المؤذين لخلق الله، فيقولون: إنه كالعقرب، يلدغ ويختفي.

ولهذا استأجرت الحجرة، ولم أكن أنام بها إلا قليلا، خوفا من حمة العقرب، وكثيرا ما كنت أذهب إلى الشارع، أو إلى المسجد أول ما يفتح.

وإذا فتح المسجد، فإني لا أكاد أتركه، ففيه أجد قرة عيني، وأنس قلبي، وسكينة نفسي، وأشعر براحة لا أجدها في غيره، ولا سيما في (الروضة الشريفة) التي كنت أقضي ما تيسير لي من الوقت في رحابها، متمتعا بالصلاة حينا، وتلاوة القرآن وذكر الله حينا آخر.

ثم أسعد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما كان أسعدني حين وقفت أمام قبره عليه الصلاة والسلام لأول مرة في حياتي، أناجيه وأسلم عليه، كأنما هو حي حياة حسية أمامي، ولم لا؟ ألم يقل الله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) آل عمران: فإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم، أفلا يكون الأنبياء أحياء، فما بالك بسيد الرسل وإمام الأنبياء؟

إنه ليس شعوري وحدي، إنه شعور كل المؤمنين من حولي، يستحضرون رسول الله كأنه معهم، وليس

هذا تقديسا ولا شركا، كما قد يتوهم بعض الجامدين، إنه الحب والوجد والعاطفة، وهذه لها منطقها، ولها خطابها الخاص الذي لا يخضع لمنطق الأرقام والحساب والظاهرية.

وفي المدينة توجد مساجد تزار، يسمونها المساجد السبعة، وبهذا تتميز المدينة عن مكة، فليس في مكة أي شيء يزار.

ويوجد (مسجد قباء) الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يزوره كل سبت

وفيها البقيع الذي دفن فيه عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

وفيها: جبل أحد الذي وقعت عنده الغزوة، وهو الذي ورد فيه الحديث الصحيح: "أحد يحبنا ونحبه". وما أرعها كلمة، تعبر عن حقيقة شعور المسلم بالكون من حوله!

ويوجد هناك قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله، وأسد الله وأسد رسوله في أحد.

من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة

وبعد عدة أيام قضيناها في المدينة، ربما كانت أربعة ولم تكن خمسة، كما يحرص أكثر الناس على ذلك،

ولا شك أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة في المساجد العادية، وأن الصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة فيها. ومعنى هذا: أن الصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة صلاة في المسجد النبوي.

فحزمنا متاعنا القليل للسفر إلى مكة، عن طريق جدة: الطريق القديم، قبل شق الطرق الحالية السريعة المهيأة، فكان علينا أن نتهيأ للإحرام في الطريق قرب المدينة من (آبار علي) وهي قرب (ذي الحليفة) الميقات الذي حدده الحديث النبوي، وهو أبعد المواقيت عن مكة، ومن (آبار علي) أحرمنا متمتعين، وقلنا: لبيك اللهم عمرة، فإذا أدينا العمرة تحللنا من الإحرام، ولبسنا ثيابنا، وبقينا أحرارا حتى نحرم بالحج يوم التروية، وعلينا هدي، كما قال تعالى: (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي). وأخذ الطريق نحو ثماني ساعات إلى مكة على ما أذكر، حتى انتهينا إلى البلد الحرام، والذي ولد فيه محمد عليه الصلاة والسلام، ونشأ في ربوعه، وتعبد في جباله، ونزل عليه الوحي، وهو في غار حراء فيه. وفيه بدأ الدعوة إلى الإسلام، ولقي ما لقي هو وصحابته الذين رباهم في (دار الأرقم).

لأول مرة ترى عيني المسجد الحرام، والبيت الحرام، أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، ومنه تهب على المرء الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد.

هاهو البيت الذي نولي وجوهنا شطره خمس مرات كل يوم، نراه بأعيننا، ونطوف حوله بأقدامنا، وللبيت العتيق إيحاء عجيب، وتأثير عميق، في نفس المسلم، لا يستطيع الإنسان أن يصوره، ولكن يحسه ويشعر به في أعماقه.

وكان أول ما شغلنا به فور وصولنا إلى مكة: أن نفرغ من أعمال العمرة، والعمرة هي: الإحرام والطواف والسعي، ثم الحق أو التقصير. وفي أقل من ساعة ونصف أنهينا أعمال العمرة.

ومما أذكره: أنه في هذه السنة اكتمل بناء المسعي الجديد، وإن لم يتم (تشطيبه) وتكييفه، وقد حدثنا الذين حجوا في السنة الماضية (موسم 1380هـ) كان الناس كانوا يسعون بين المحلات التجارية، عن يمين وشمال، وبين الباعة والمشترين، والمتجولين، وقد تجد حولك من يركب حمارا، أو يجر عربة، أو نحو ذلك. على خلاف ما نرى عليه المسعى اليوم، وقد أصبح جزءا من المسجد الحرام، وإن أفتى العلماء أنه لا يأخذ كل أحكام المسجد، فيجوز أن تدخله الحائض والنفساء.

وأردنا ـ أنا والأخوان الكريمان: عبد الحليم أبو شقة ومحمد الشافعي ـ أن نسكن في فندق قريب من الحرم، يمكننا من أداء الصلوات الخمس فيه بيسر وسهولة. فكان أقرب الفنادق المحترمة في ذلك الوقت، هو: (فندق بنك مصر) ـ الذي يسمى الآن: فندق الكعكي ـ في شارع أجياد.

وكان الإقبال على الفندق شديدا، وخصوصا كلما قربت أيام الحج، فلم يجدوا لنا مكانا إلا صالة ملئت بالأسِرَّة، وكل سرير معه ما يسمونه (كوميدينو) وقلنا: لا بأس، فهذه رحلة عبادة ونسك، وليست رحلة رفاهية وتنعم.

ومن حسن حظي: أن وجدت بجواري اثنين من أهل قريتي، وهما من أعيان البلدة، أحدهما: الأستاذ علي حمزة خضر (المستشار الآن) وأظنه كان وكيل نيابة في ذلك الوقت، والثاني: هو الحاج عبد القادر العيسوي، وهو من الرجال الأفاضل الذين عرفوا بالتدين والصلاح والنزعة الصوفية. وقد فرحت بلقائهما كثيرا، كما فرحا بلقائي. ومن المعروف أن رحلة الحج لها نفحات وبركات، ومن نفحاتها توثيق الأواصر بين الحجاج، فيقول أحدهم: لقد كان رفيقي في الحج منذ عشرين أو ثلاثين سنة!

ولكن هذه الصحبة بيننا أبناء صفط لم تدم طويلا، فبعد يومين أو ثلاثة عرفنا أن الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني ـ وزير المعارف ـ يحج هذا العام، ونزل ضيفا على الحكومة السعودية، التي خصصت له ولمن معه منزلا كبيرا مجهزا في منى. فرأينا من اللائق: أن نذهب إليه، ونسلم عليه باعتبارنا موظفين في الوزارة، وبيننا وبينه مودة.

الشيخ قاسم بن حمد يستضيفنا معه في منى

وبالفعل ذهبنا إلى منى، وسلمنا على الوزير، ودعانا لتناول الغداء معه، ثم سألني: أين تقيم؟ فقلت: نقيم

نحن الثلاثة في فندق بنك مصر، فقال: أنتم ضيوف عندي هنا من اليوم، هاتوا أمتعتكم وانضموا إلينا، قلنا: نحاسب الفندق، ونأتي إليكم من الغد إن شاء الله.

وفعلا عدنا إلى الفندق لنبيت فيه ليلتنا، ونحاسبه، ونودع أصدقاءنا. وخصوصا ابنَيْ قريتي اللذين أنست بهما، كما أنسا بي: لا سيما علي حمزة خضر، الذي كان مثالا في الأدب والتواضع، والحرص

على خدمة الآخرين. وكم كنت حريصا على أن أبقى معه طوال مدة الحج، لأزداد معرفة به، ودنوا منه، ولكن لم يمكني القدر من ذلك، ولم يقدر لي أن ألقاه بعدها إلى اليوم، وإن كنت أعرف شيئا من أخباره ومآثره عن طريق زميله في القضاء، صديقنا المستشار علي الاختيار، الذي رافقنا في قطر مدة طويلة، وكان ينقل لي: أن علي خضر كان في نظر زملائه جميعا آية في الفضل ومكارم الأخلاق.

انتقلنا إلى منى في صحبة الشيخ قاسم، أو الشيخ جاسم، كما ينطقها القطريون وأهل الخليج، حتى إن بعضهم ناقشني أن أصلها (جيم) وليس (قافا). وقلت لهم: أنا لا أشك في أن أصلها قاف، فإن أهل الخليج ينطقون (القاف) على عدة أوجه، فأحيانا ينطقونها جيما معطشة مثل (جاسم) في (قاسم) وأحيانا (جيما قاهرية) غير معطشة أو (كافا فارسية) مثل قولهم: أجول أي أقول، ومثل قولهم: يا رفيج أي يا رفيق، وتارة ينطقونها (غينا) مثل قولهم: عبد الغادر في عبد القادر، وليلة الغدر في ليلة القدر، وعيد الاستغلال أي الاستقلال. ولا يوجد في الخليج من ينطق القاف همزة مثل أهل القاهرة وأكثر الوجه البحري في مصر.

والدليل على أن (جاسم) أصلها (قاسم): أن أهل الخليج يكنون محمدا (أبا جاسم). وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكنى بـ (أبي القاسم).

وشاء الله أن ننتقل إلى حج مرقّه، نأكل الخراف والمكبوس كل يوم، وننام على الحشايا وفي التكييف. وفي يوم التروية الثامن من ذي الحجة أحرمنا بالحج من حيث نقيم، فنحن في منى.

وفي يوم عرفة بعد أن صلينا الفجر، وتناولنا الفطور، نقلتنا سيارات معدة بسرعة فائقة إلى صعيد عرفات، حيث بركة المكان،

وبركة الزمان، وبركة تنزل نفحات الرحمن، فهذا يوم العفو والغفران، يوم يباهي الله ملائكته بهؤلاء الحجاج الذين جاؤوا شعثا غبرا حاجين. إنه يوم لم ير الشيطان في يوم أحقر ولا أدحر ولا أغيظ مما رئي في ذلك اليوم، إلا ما كان يوم بدر.

وقد أعتد لنا خيمة كبيرة نزلنا بها، وجلسنا نذكر الله ذكرا كثيرا، ونسبحه بكرة وأصيلا، أحيانا ندعوه ونتضرع إليه، ونسأله كل ما نحب لنا ولأهلينا وذوينا وإخواننا وأخواتنا المسلمين، وأحيانا نستغفره مما ألممنا فيه من الذنوب والخطايا، وأحيانا نذكره بالباقيات الصالحات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر. ونذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قتله أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير" وأحيانا نتلو القرآن.

وعندما جاء وقت الظهر، ذهب بعضنا إلى مسجد نَمِرة ليصلي مع الإمام، وبقي أكثرنا في الخيمة، وصلينا فيها الظهر والعصر جمع تقديم.

وتناولنا الغداء، وظللنا بعهده ندعو ونذكر ونستغفر، ثم أخذتني سنة من النوم، من طول التعب، فقال الشيخ قاسم بن حمد: الشيخ القرضاوي ينام في يوم الموقف العظيم! وأنا من الناس الذين نومهم خفيف، فسمعت كلام الشيخ فاستيقظت. فقال الشيخ: تنام في يوم الوقوف؟ قلت له: يا شيخ قاسم. العلماء قالوا: المراد بالوقوف في عرفة: الحضور والوجود، وليس المراد أن يظل المرء واقفا على رجليه. ومن حق المتعب أن يستريح، وما جعل الله علينا في الدين من حرج. وأمامنا الليلة سهر طويل، قد يستغرق الليل كله. فلا

حرج أن نستعين عليه بشيء من القيلولة. والمهم هو الإخلاص، وفي الحديث: "أخلص العمل يجزك منه القليل".

وبعد أن غربت الشمس أفضنا من عرفات، نفرنا إلى مزدلفة، وهي المشعر الحرام، وذكرنا الله بها، وصلينا المغرب والعشاء جمع تأخير.

ومما أذكره أننا وصلنا إلى مزدلفة بسرعة فائقة، قبل أن يأتي وقت العشاء، فهل نصلي المغرب والعشاء عند وصولنا، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم؟ أو ننتظر حتى نصليهما تأخيرا، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ورجحنا أن ننتظر قليلا، ونجمع بين الصلاتين جمع تأخير.

ثم تناولنا عشاء خفيفا، وبدأنا نلتقط الحصى، ولا سيما لجمرة العقبة، سبع حصيات. والأحوط أن نلتقط لليومين بعدها، فكان مجموع ما علينا أن نلتقطه: سبعا وأربعين حصاة لكل حاج.

وعندما طلع القمر، وقد ا نتصف الليل أو أوشك، بدأنا نستعد للرحيل من مزدلفة، على مذهب الحنابلة ومن وافقهم الذين يجيزون لمن معهم بعض النساء والضعفاء أن لا ينتظروا إلى الصباح. وهذا التيسير في أمور الحج مطلوب، وخصوصا مع كثرة حجاج بيت الله الحرام، وازدحام الناس في المشاعر، فينبغي على العلماء أن يأخذوا بالأقوال التي تيسر على الناس، والله يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

ذهبنا بعد منتصف الليل لنرمي جمرة العقبة، الجمرة الكبرى، وهي الجمرة الوحيدة المطلوبة في هذا اليوم، ثم حلق منا من حلق، وقصر من قصر، وأصبح من المشروع لكل منا بعد رمي الجمرة والحلق أو التقصير: أن نلبس ملابسنا، فهذا هو التحلل الأول، الذي

يحل فيه للمحرم كل شيء إلا النساء. ولذلك مررنا بمقرنا في منى، وقضينا حاجتنا، وجددنا وضوءنا، وخلعنا ملابس الإحرام، ولبسنا ملابسنا العادية، استعدادا ليوم الحج الأكبر، وقد قضينا بعض مناسك من الرمي والحلق، وبقي علينا الذبح والطواف والسعي، أما الذبح فقد أجلناه حتى نعود إلى منى. وأما الطواف والسعي، فقد نزلنا إلى مكة مسرعين، قبل أن تغرقنا الموجات الهائلة من زحام البشر في الطواف.

واستطعنا أن نطوف بحمد الله في سعة ويسر، وأن نسعى في سعة ويسر، فقد كنت في السادسة والثلاثين من عمري. وما أسهل المشي ـ بل العَدْو ـ علي. ولم أكن ممن نشأ في الرفاهية والطراوة والترف. بل تعودنا الحركة والخشونة والمرونة من الصبا، وزادتنا السجون والمعتقلات قوة وصلابة، فالحمد لله. وبعد الطواف والسعي تحللنا نهائيا من الحج، فمن كان معه زوجته حل له معاشرتها.

وأذكر أننا صلينا الفجر في الحرم الشريف، ثم امتطينا سياراتنا لنعود إلى منى، وهنا كانت المشكلة، فقد ازدحم الطريق وتوقف السير تقريبا، كل فترة نتحرك أمتارا، ثم نقف، أظن أننا لم نصل إلا بعد أربع ساعات. وهذا يؤكد لنا أن ما يحدث اليوم من سيولة الحركة، وسهولة التنقل، يعتبر إنجازا كبيرا بالنسبة لما كان في الماضي.

كنا قد وكلنا أحد الإخوة ليشتري لنا بقرة عن سبعة منا، وكان المعتاد أن يذبح الناس هديهم من الغنم والبقرة عادة، ثم يدعونها، فلا يستفيد منها أحد، ثم تطمر ويهال عليها التراب وتباد، حتى لا تؤذي الناس بروائحها ونتنها بعد حين. وهكذا كانت عشرات الألوف بل مئات الألوف من الهدايا والضحايا، دون أن ينتفع بها

أحد، وهناك من المسلمين من لا يجد ما يمسك الرمق، أو يطفئ الحرق. وهذا قبل أن يتدخل (البنك الإسلامي للتنمية) وغيره من المؤسسات: تنظيم الانتفاع بلحوم الهدي، عن طريق توكيله في الذبح والتصرف في اللحم.

وكان الأخ عبد الحليم أبو شقة رفيقنا في هذه الرحلة، له رأي إيجابي بناء في قضية الذبح، وهو أن الذي يضيع الانتفاع بالذبيحة هو عدم سلخها، ولهذا أصر على أن نأتي بمن يسلخ البقرة أو العجل، الذي اشتركنا فيه، فجاء هذا الجزار، وسلخ العجل، وقطعه عدة قطع، فإذا بالفقراء يختطفونه اختطافا، كل م حصلنا عليه شيء من الكبدة وقليل من اللحم، قلنا: نأخذه لنأكل منه، ونطبق قوله تعالى: (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) الحج:

وبقينا في منى، نصلي فيها أحيانا، وفي أحيان أخرى ننزل للصلاة في الحرم الشريف. ولنرمي الجمرات، ونذكر الله تعالى، كما قال الله عز وجل: (واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) البقرة:

ولا أدري هل أكملنا الأيام الثلاثة أو اكتفينا باثنين، فقد كنا مقيمين بمنى، ولكن الذي أذكره أني أخذت برأي العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود في جواز الرمي قبل الزوال، فقد اقتنعت بأدلته، وأصبحت أزاوله بنفسي، وأفتي به غيري، وأنا مطمئن كل الاطمئنان.

صحيح أني كنت شابا، وأستطيع أن أرمي بعد الزوال وأزاحم مع المزاحمين، ولكني حسبت حساب أمرين:

الأول: أن شدة الزحام تفقد الإنسان لذة العبادة، وحلاوة الذكر والدعاء، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة الأولى

والثانية، ويطيل الدعاء بعدهما، ومن أين للإنسان أن يدعو في هذا المعترك الهائل؟

والثاني: أني طول عمري لا أطيق حرارة الشمس إذا اشتدت، فكيف بشمس مكة ومنى في أوائل الصيف؟

لهذا أخذت بالرخصة، والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا أن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه.

وبعد ذلك تهيأنا للسفر عائدين إلى قطر، بعد أن قضينا مناسكنا، وأدينا فريضتنا، وودعنا الشيخ قاسم بن حمد، شاكرين له ضيافته الكريمة، وذهبنا إلى مكة لنطوف طواف الوداع، ونصلي آخر صلاة في المسجد الحرام في هذه الرحة الميمونة، داعين الله تعالى أن لا يكون هذا آخر عهدنا بالبيت، وأن يوفقنا للعودة إليه مرارا وتكرارا حاجين ومعتمرين.

ثم ذهبنا إلى جدة لنأخذ طريقنا إلى الدوحة، على الطريقة التي سافرنا بها، من جدة إلى الرياض، ثم ننتقل إلى طيارة أخرى من الرياض إلى الظهران، ثم إلى طيارة ثالثة من الظهران إلى الدوحة. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الأخ الحبيب محمد الدمرداش مراد

كانت وفاة أخي محمد الدمرداش صدمة هائلة لي، وكان فقده من أشد المصائب قسوة على نفسي. وقد فقدت أمي وعمي وابن عمي وكثيرا من الأقارب فلم أحزن عليهم كما حزنت على الدمرداش.

بل أشهد أني جزعت عليه أكثر مما ينبغي من مثلي، ممن يعلّم الناس أن الموت حق، وأنه قدر الله الذي لا يقابل بغير الرضا والتسليم، وأن الجزع لا يرد فائتا، ولا يحيي ميتا، وأن الصبر عند الصدمة الأولى، وأن الموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية سفر جديد إلى دار أخرى هي خير وأبقى للمؤمنين.

وما الموت إلا رحلة، غير أنها   من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي!

وقد سافرت من قريتنا (صفط تراب) أنا وأخي مصباح عبده رحمه الله وبعض الإخوة إلى السملاوية، ولكنا لم ندرك دفن الفقيد ولا الصلاة عليه، فقد تم ذلك منذ الصباح، ونحن لم نصل إلا في المساء. وكان الناس يكلمونني فلا أرد عليهم إلا بالبكاء.

وحضر بعض الإخوة من المحلة مثل الأخ مصطفى الغنيمي والأخ حسين عتيبة رحمهما الله، وطلبوا مني أن ألقي كلمة عن الفقيد بما أعرفه عنه، ولكن لم يكن عندي قابيلة للكلام، ولا قدرة عليه. ما عندي غير البكاء، ولغة الدموع.

لم أتذرع بالصبر الذي يتسلح به المؤمنون في مواجهة عوادي الدهر، وهو ما أمرنا به الله في كتابه حين قال: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ... ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) البقرة:

وكان ينبغي أن أتصبر، وأتكلف الصبر، حتى يصبرني الله على ما ابتلاني، كما وعدنا الرسول الكريم بقوله: "ومن يتصبر يصبره الله" متفق عليه.

ولكن الواقع أن مصيبتي في أخي هزتني وهزمتني، فقد كان الدمرداش هو الأخ الذي قال فيه المثل العربي: رب أخ لك لم تلده أمك. وكان الصديق الذي قال فيه الشاعر:

حسبي من الدنيا صديق صادق فرد، فكُنْه، ولا احتياج لثان

كان أكثر الأصدقاء قربا مني، ورضا عني، واعتزازا بي، وحبا لي، وتوقا إليّ، ورجاء فيّ، وكان يعرف مدخلي ومخرجي، وظاهري وباطني، وسري وعلانيتي، وأفضي إليه بما لا أفضي إلى غيره من الإخوة والأصدقاء، وقد اقترب كلانا من صاحبه حتى أوشكنا أن نكون شخصا واحدا.

وقد عرفته وعرفت أسرته جميعا: أباه وأمه وأخويه عبد العزيز وعبد اللطيف وأخته وزوجها الشيخ حامد عمر، وأصهارهم وكل من يتصل بهم، ومن دارهم وقريتهم اعتقلت سنة 1949م. كما عرف هو كذلك أهلي وأسرتي وعمي وخالي وكثيرا من أقاربي.

ربما كان عيبه أنه ينظر إلي بعين الرضا والحب، فلا يكاد يرى عيوبي ونواقصي وما أكثرها، وإنما يرى محاسني بمنظار مكبر، يجعل من القط جملا، ومن الحبة قبة، كما يقول المثل، أو كما قال الإمام الشافعي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا!

كان الدمرداش مثلي في نشأته الريفية، معتزا بأخلاق القرية المصرية الأصيلة، قبل أن تفسدها تقاليد المدينة التي غزتها من بعد، ونقلت إليها كثيرا من أمراضها التي انتقلت إليها بالعدوى من الخواجات والأجانب.

كان فيه شهامة أهل القرية ونجدتهم وكرمهم وصفاء طويتهم، وفيها أحيانا لون من الشدة أو الصراحة الفطرية، قال لي يوما عن سببها: إن أصلنا من الصعيد، فهم يقولون: المرايدة صعايدة.

وكان الدمرداش يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها، ويطمح إلى أن يجعل من نفسه شيئا مذكورا، فهو ينظر إلى من حوله، ويتأمل المواقف، ويتدبر السير، ويستمع إلى الكلمات، ويختزن هذا كله ويتمثله، ليأخذ أحسن ما فيه، قولا وعملا، وفكرا وشعورا وسلوكا. وكان يملك وعيا بصيرا، ويملك إرادة قوية، وإذا اجتمع الوعي والإرادة صنعا الكثير.

كان يحب أن يكون أديبا، وقد أخذ نفسه بالقراءة والمطالعة ما أسعفه وقته وجهده، حتى وصل إلى مرتبة يحسن أن يقول فيها فيُسمِع، وأن يكتب فيبدع.

رأيت معه مرة مذكرات يكتب فيها خواطره، فقرأت فيها فقرات تنبئ عن ارتقائه إلى درجة عالية من تذوق الأدب، وروعة البيان، وجمال الأسلوب، وأحسب لو أمهله القدر، لكان له شأن في عالم الأدب.

ولقد عين مدرسا للغة العربية والدين في مدينة (ملوي) بصعيد مصر، فكان خطابه في طابور الصباح يهز المشاعر، ويأخذ بالألباب.

كما كان محببا إلى طلابه لحسن طريقته معهم، وحدبه عليهم، ورعايته لهم، كما كان موضع حب وثناء من أهل البلد جميعا.

قابلني بعد أن صدرت الطبعة الأولى من كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) فكان حفيا به، ومزهوا بظهوره، كأنما هو مصنفه، وكان يقول: إنه باكورة طيبة، نرجو أن ينهمر بعدها الغيث.

ولم تمهله المنون حتى يرى بشائر الغيث. فقد اختطفه الموت، وهو في ريعان الشباب، أرجى ما كان قربا من النضج والعطاء. فما أقسى الموت، وهو يأخذ منا أحبابنا، ويعجل بخيارنا.

الناس للموت كحبل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد على كفه جواهرٌ يختار منها الجياد

لم يكن المرض الذي أصاب الدمرداش بالعضال ولا بالقتّال، ولكن يبدو أن الطبيب الذي عالجه في أول الأمر أخطأ تشخيص المرض، فأعطاه أدوية مرض آخر، وهي أدوية ذات تأثير كبير على الجسم، فهدت البنيان القوي، وظل يعاني مدة طويلة ولا يتقدم، حتى اضطر أن يترك (ملّوي)، ويذهب إلى قريته، ليبحث عن علاج آخر، وطبيب آخر.

وقد أخبرني أخي د. عبد العظيم الديب، الذي كان زميلا له في ملوي، مساكنا له في المنزل الذي يقيم فيه، فكل منهما يحتل أحد

الطوابق: أنه حين غادر ملوي، لم يكن بالحالة المتردية التي يخشى عليه فيها، ولكن سرعان ما اشتد عليه الداء، ونقل إلى مستشفى الدمرداش في القاهرة، التي وافاه فيها الأجل المحتوم، الذي لا يستأخر ساعة ولا يستقدم. وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

وما أصدق ما قاله ابن الرومي، وقد مرض، فغلط الطبيب في تشخيص دائه، ووصف دوائه، وكان في ذلك منيته، وقد قال في ذلك:

غلط الطبيب عليّ غلطة مُورد   عجزت موارده عن الإصدار!

والناس يلحَوْن الطبيب، وإنما   غلط الطبيب إصابة الأقدار!

وقد رثيته بقصيدة كتبتها، وأنا رهين محبس المخابرات المصرية في حي سراي القبة بعد وفاته، والعجيب أن هذه القصيدة تاهت مني مع قصائد وأوراق أخرى، ثم عثرت عليها مصادفة بعد 38 ثمانية وثلاثين عاما، ومما جاء فيها:

كان يوما مقطب الجبين أسود

يوم قالوا: مات الحبيب محمد

غرق الوجه بالدموع، وكاد الـ

قلب من فرط ما به يتجمد

وتهاويت مثخنا مثل طير
هاض منه الجناح سهم مسدد

غلبت روعة المصيبة صبري
ويقيني، ما استطعت أن أتجلد

كيف لا؟ والحبيب قد ودعْتُه اليـ
ـوم ودعا لا يعرف (العود أحمد)

فرق الموت بيننا، يا أسى قلـ
ـب لطول الفراق لم يتعود

يا لحظي!! أأفقد الأم والوا
لد حتى أخو شبابي يفقد!

يا لحظي!! أخي الذي كان درعي
في خطوبي، وكان سيفي المهند

رب عفوا! ما منك أشكو، ولكن

غلب الصدر حزنُه فتنهد

حكمة الله فوق أوهام عقلي
ولسان السماء والأرض يشهد

رب، آمنت بالقضاء، فهب لي
من لدنك الرضا، لأقوى وأصمد

حاش لي أسخط القضاء، ولكن
ما خلقتَ الذي بصدري جلمد

أنت عوضتني به عن أخ الد
م فكان الأخ الشقيق وأزيد

كان مستودعا لسري من آ
لام أمس مضى، ومن حلم الغد

إنها لم تكن صداقة أعوا
م ولكنه إخاء تجسد

ما رآني يوما سعيدا فيأسى
أو رآني يوما، حزينا، فيسعد

يبسم الدهر لي، فيطرب كا
لبلبل فوق الأغصان غنى وغرد

ويصيب الزمان قلبي بسهم
فكأن الرامي إليه تعمد

كنت منه وكان مني كشخص
قد تسمى بـ (يوسف) و(محمد)

فهو يبدو في صورتين وبإسميـ
ن وخلف الرسمين روح مفرد

**

**

لهف نفسي على فتى عاش للـ
ـه وللدين صارما ليس يغمد

عاش للخير ساعيا غير وان
عاش للحق جمرة ليس تخمد

عاش للمجد والمعالي طموحا
ودّ لو يمتطي السحاب فيصعد

عاش في ساحة الفضيلة جنديـ
ـا وفي حلبة الشهامة أوحد

خُلق القرية الأصيلة فيه
قبل غزو القرى بما ليس يحمد

يا عضالا حار الأطباء فيه
أرقد الفارس الفتى شر مرقد

ليس فيه من الحياة سوى قلـ

ـب بصدر أنفاسه تتردد

وفم قبل كان يهدر بالفصـ
ـحى تراه ما عاد يرغي ويزبد

ثم عين فيها بريق، ولكن
قبل كانت شرارة تتوقد

أين باقي الفتى، لقد مات منه!
بدن هامد، وحس تبلد

قدر الله أعجز الطب فارتد
حسيرا يقول: ما لي من يد

قل لذاك المغرور بالعلم: ماذا
يفعل العلم، والردى لك مرصد؟

فجِّر الذَّر شامخا، ثم طأطئ
عند سر الحياة هذا المعقد

كان الدمرداش قد وفق إلى الزواج والإصهار إلى أكرم عائلات قريته، فتزوج ابنة الأستاذ إبراهيم أبو سعدة، وهو من خيرة رجال التربية والتعليم، وقد ترك القرية، وأقام في مدينة زفتى، وكان موفقا في زواجه، سعيدا به، وقد رزق من زوجه ابنتين هما: ناهد ونجوى، كانتا قرة عينه، ومهجة فؤاده، وكبديه تمشيان على الأرض، وقد شاء القدر الأعلى أن يودعهما ويتركهما زهرتين لم تتفتحا بعد. واستودعهما عند من لا تضيع عنده الودائع.

وقد نشأت الفتاتان الكريمتان في حضانة جدهما وخالهما، ورعاية أمهما التي تأيمت عليهما. وسرعان ما توفي الجد رحمه الله، وبعد سنين توفيت الأم رحمها الله، على صغر سنها، وتوفي الخال أيضا، وتخرجت الفتاتان وتزوجتا.

ومنذ سنوات جاءتني الحبيبة ناهد الكبرى، وقالت لي: إنها مقدمة للعمل في وزارة التربية في قطر، مدرسة للتربية الرياضية، وفرحت بلقائها، واستعدت بعض الذكريات العاطرة برؤيتها، وسألتها عن أحوالها وأحوال شقيقتها التي لم يقدر لي أن أراها منذ صباها، ووجدتها فرصة أن أقوم ببعض حقها عليّ، فأوصيت عليها اللجنة المختصة باختبار المدرسات، ولكن يبدو أنها لم يكن لها نصيب.

والحقيقة أني مقصر في حقها وحق أختها، حتى إني لا أعرف عنوانهما، ولا كيفية الاتصال بهما، صحيح أني مهموم ومزحوم بما لا ينتهي من الواجبات، التي هي أكثر من الأوقات، ولكن هذا لا يرفع عني وزر التقصير، الذي أسأل الله أن يسامحني فيه.

وشكر الله للأخ الصديق الأستاذ عبد الله العقيل، الذي يسألني كثيرا عن أسرة الدمرداش، فجزاه الله خيرا عن وفائه وصدق أخوته.

العودة إلى القرية

ودعت (السملاوية) بعد أن أودعت في ثراها: أخي ورفيق دربي، وصديق عمري محمد الدمرداش، بعد أن بتُّ فيها ليلة لم يكد يغمض لي فيها جفن، أو يستقر لي فيها جنب. ودعت هذه القرية التي أحببتها وأحبتني، ولي فيها ذكريات عزيزة، وألقيت النظرة الأخيرة عليها، وأنا أحسب أنها آخر زيارة لي فيها.

لقد كان موت الدمرداش صدمة كبيرة لي، ومما زاد من صدمتي: أني لم أدرك جنازة صديقي، ولا الصلاة عليه، وكان علي أن أذهب إلى قبره لأصلي عليه هناك، ولكن هول الصدمة أذهلني عن ذلك.

لقد كنت أحفظ الشعر القديم الذي ينسب إلى سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ قوله:

شيئان لو بكت الدماء عليهما   عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما: فقد الشباب وفرقة الأحباب!

فكيف إذا كان فراق الحبيب فراقا لا يرجى معه لقاء في هذه الدار، لأنه فراق بالموت، هاذم اللذات، ومفرق الجماعات؟

وعدت إلى قريتي، وقد تركت فيها زوجي وصغيراتي الثلاث: إلهام وسهام وعلا، وهن فراخ لم ينبت لهن ريش.

كنت أريد أن تظل بيني وبين القرية صلة، لا تنسيها المدينة، ولا تقطعها الغربة، وأردت أن تعرف زوجي البيئة التي نشأت فيها، والدار التي درجت بها، والناس الذين عايشتهم في صباي وشبابي، وأن تعرف بناتي هذه القرية، ويرتبطن عاطفيا بأهلها، فهم مني، وأنا منهم.

والحق أني سعدت بموقف امرأتي، حيث لم تضق ذرعا بعيشة القرية، على ما فيها من ضيق وعسر، وعدم تيسر أسباب الراحة الموفورة في المدينة. واستقبلت الحياة في القرية بهدوء وطمأنينة، ظهر أثرها في بناتها اللاتي لم يتعودن مثل هذه الحياة الخشنة، لا في القاهرة، ولا في الدوحة.

ولكن شاء الله أن تحدث أكثر من مفاجأة في زيارتنا للقرية.

كانت المفاجأة الأولى: موت صديقي الدمرداش.

أما المفاجأة الأخرى، فكانت أمر وأقسى.

بعد عودتي من السملاوية، بت ليلة في دارنا، دار العائلة، التي يعيش فيها إبراهيم ابن عمي وأولاده.

ثم أصر خالي رحمه الله أن يكون لمنزله حظ مني ومن زوجي وبناتي، فانتقلنا صبيحة اليوم التالي، إلى منزل خالي، وهو المنزل الذي ولدت فيه، وكان ساحة للعبي، أنا وأبناء خالتي. ورأت زوجتي (المندرة) التي شهدت ولادتي.

وبعد أن تناولنا الغداء الذي أعدته خالتي (طاهرة) مما لذ وطاب من البط والدجاج والحمام البلدي مما يربى في منازل الريف من الدواجن والطيور، ويعيش وينمو على الغذاء الطبيعي، قبل أن يعرف الناس دواجن المزارع الجماعية، التي تغذى على الأعلاف

الصناعية، التي أمست مثار شكوى كثير من الناس في أنحاء العالم. نعمنا بهذه اللحوم البلدية وما يصحبها عادة من الرقاق والثريد والحساء (الشوربة) والملوخية وغيره.

اجتمع على هذه المائدة الخال والخالات وأولادهن، وكانت جلسة عائلية ممتعة، كان خالي فيها نجم الحفل، بما يروي من قصص ونوادر وحكايات، نستفرغ منا الضحك إلى حد القهقهة.

ومن عادة المصريين إذا جلسوا مثل هذه الجلسات التي يغلب فيها الأنس والفرح والابتهاج والضحك ملء الفم، أن يقولوا: اللهم اجعله خيرا. كأنما خبر الناس بطول التجارب والمعاناة: أن ساعات الأنس والبهجة لا تطول، ويتوقعون بعدها مفاجآت من الزمان الغدار، تحيل الفرح إلى حزن، والضحك إلى بكاء.

وما كدنا نصلي العصر، حتى حدثت المفاجأة التي كان الناس يخشونها بأحاسيسهم، وإن لم يتوقعوها بعقولهم.

لقد جاء واحد من قبل عمدة القرية، وهمس في أذن خالي: إنهم في دوار العمدة يحتاجون إلى فضيلة الأستاذ، لمدة خمس دقائق. ورأيت وجه خالي قد تغير واكفهر، فسألته: ماذا في الأمر؟ فأخبرني الخبر. فقلت له: لا بأس، أذهب إلى دوار العمدة، وهي فرصة للسلام عليه، ولبست حلتي الإفرنجية (البذلة) مستعدا لهذا اللقاء.

وعندما ذهبت إلى دوار العمدة قالوا: الحقيقة أن مركز المحلة هو الذي طلب الأستاذ. وهم ينتظرونه عند المحطة، حتى لا تحدث ضجة في البلد، وأمر العمدة بعربة (الحنطور) أن توصلني إلى المحطة.

الاستدعاء إلى مباحث طنطا

وعند المحطة وجدت بالفعل سيارة تنتظرني، ووجهها جهة المحلة، فما أن ذهبت إليها وركبتها، حتى غيرتْ وجهتها، واتجهت إلى طنطا، وقال لي رجال الأمن الذين فيها: حضرتك مطلوب في طنطا. قلت لهم: على بركة الله، ربنا يقدّر الخير.

وذهبنا إلى تفتيش المباحث العامة في طنطا، وكان رئيسه يعرفني منذ اعتقال سنة 1954م.

ولما دخلت عليه رحب بي، وسألني في دهشة: هل فعلت شيئا يا شيخ يوسف في قطر قبل أن تأتي؟ قلت له: لو كنت فعلت شيئا يؤاخذ به الإنسان في مصر، لبقيت في قطر، ولم أنزل برجلي إلى مصر مختارا! قال: معقول. طيب، هل فعلت شيئا في مصر بعد أن وصلت؟ قلت: وهل أنا لحقت أفعل أي شيء؟ إن لي أياما معدودة في مصر، شغلت فيها بمرض صديق لي، ثم وفاته ودفنه من يومين.

قال الرجل: فلماذا يطلبك الجماعة في مصر؟ وهم يطلبون معك زميلك في قطر: أحمد العسال!

على كل حال أعتقد أن الأمر بسيط، ولهذا لم يشددوا في طلبك، وأنت لك خالة هنا أخذناك من بيتها أيام (الهوجة) وتستطيع أن تخرج من هنا، وتذهب إليها، وتبيت عندها، وغدا في الثامنة صباحا تكون عندنا.

قلت له: أفعل إن شاء الله.

خرجت من تفتيش المباحث، لا متجها إلى بيت خالتي، ولكن إلى سنترال الهاتف (التليفون) لأكلم جماعتنا في القرية، فلا بد أنهم في

غاية القلق، إذ ذهبت إلى دوار العمدة لخمس دقائق، كما قالوا، ولم أعد، ولا يعرفون ماذا حدث، وليس في منزل خالتي تليفون حتى أتكلم منه، فليس أمامي إلا السنترال، لأكلم منه أقرب تليفون إلى جماعتنا في القرية. وقد عرفت منهم أنهم ذهبوا إلى المحلة بحثا عني، وأنهم لم يجدوني هناك، وقال لهم بعض الناس: إنه أخذوني إلى طنطا. كان تليفوني هذا مهما، ولا سيما لزوجتي التي أصابها من الاضطراب والقلق ما أصابها، وهي بعيدة عن منزلها ومستقرها.

طمأنتهم أني بخير، وأني سأبيت عند خالتي لأذهب إلى القاهرة في الصباح، لأجيب عن سؤالهم، ثم أعود في المساء إن شاء الله.

وبعد ذلك ذهبت إلى خالتي لأبيت عندها كما اتفقت مع رئيس المباحث.

ولم أكد أدخل بيت خالتي، حتى وجدت الجو مكهربا، والأعصاب متوترة، وقد بادروني بالسؤال: ماذا حدث؟ إن القوم جاءوا يسألون عنك.

وعجبت مما جرى، هل غير القوم رأيهم بهذه السرعة؟ وقالت خالتي: يمكنك أن تخرج من هنا الآن، لتذهب إلى بيت واحدة من ابنتي خالتك، حتى الصباح.

قلت لها: لا داعي، سأبقى هنا حتى يأتوا ليطلبوني، ولتجر المقادير في أعنتها، ويقضي الله ما يشاء.

وما هي إلا دقائق، حتى حضر رجال المباحث، ولم يهنئوني بتناول العشاء، وذهبت معهم إلى تفتيش المباحث، واعتذروا لي بأن الرئاسة في مصر، بعد أن وافقوا على أن تذهب إليهم غدا، رجعوا فطلبوا إرسالك إليهم على وجه السرعة.

والآن نحن ننتظر زميلك العسال، لنرحلكما إلى القاهرة. وقد أبقوني في حجرة المكتب، وظللت أكثر من ثلاث ساعات، وأنا أتابع بحثهم عن العسال، وكيف لم يجدوه عند أصهاره في طنطا، وبعد مزيد البحث لم يعثروا له على أثر، فطلبوا من بسيون الاتصال بقريته في الفرستق، وتكليف شيخ الخفراء بالذهاب إلى بيت والدته، فإن كان موجودا أتوا به إلى طنطا فورا، وأمسكت قلبي بيدي: ماذا سيكون وقع هذا الطلب على والدة العسال، وهم يطلبونه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟ وما هي إلا دقائق حتى أبلغ مركز بسيون طنطا: أن العسال ليس في قريته، وأنه غادرها من عدة أيام.

الترحيل إلى القاهرة

كان مكتب المباحث بطنطا مشغولا بالبحث عن العسال، ومكتب القاهرة يستعجل وصولنا أنا والعسال. فلما لم يجدوا العسال، قرروا أن يرسلوني وحدي، وفي الغد يرسلون صاحبي.

وكلف أحد الضباط أن يرافقني في سيارة الشرطة (البوكس) ليوصلني إلى المكان المقصود: ومعه عدد من الشرطة الحراس بأسلحتهم. وقد ركبت مع الشرطة في الخلف، حتى خرجنا من المدينة، فأمر الضابط السائق بالوقوف، ثم جاء إلي فناداني باسمي، وطلب إلي أن أركب إلى جواره بالأمام، وتأسف لي أن اضطرته الظروف أن يقودني في هذه الرحلة، قلت له: لا داعي للأسف، فأنت تؤدي واجبك.

قال: لقد كنت طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية حين كنت تخطب بمسجد آل طه بالمحلة الكبرى، وكنت وعدد من زملائي الطلبة نأتي إلى المحلة، في أيام الجمع، قاصدين لسماع خطبتك، والصلاة

خلفك، فلك علينا حق الأستاذية، وعلينا لك واجب التلاميذ، وقد تعلمنا منك الكثير، قلت: الحمد لله، الكلمة الطيبة لا يضيع أثرها لا عند الله ولا عند الناس.

ووصلنا إلى القاهرة، وسلمني إلى مكان معين، ومن هذا المكان نقلني إلى موضع آخر، ومنه إلى مكان هو السجن الحربي، ولنا به نسب وصلة قديمة، وقد وصلت إليه مع تباشير الفجر.

ووضعت في زنزانة من زنازين الحربي التي جربناها طويلا من قبل، وفي الصباح ألقوا إلي بقطعة خبز جافة صلبة كأنها الحجر. ولا أذكر هل كان معها إدام أو لا؟ ولم يكن عندي رغبة في تناول أي طعام.

ثم ما لبث أن جاء حلاق السجن، وعرض علي أن يحلق لحيتي، فأبيت، وظل الرجل يلح عليّ أن يحلقها لي حتى لا تسبب لي الأذى، كما سببت لآخرين، كلفوا أن ينتفوها بأيديهم. وما زال هذا الحلاق يغريني ويحذرني حتى سلمت له لحيتي فحلقها، وكنت قد عدت لإطلاقها عند سفري إلى قطر، بعد أن اضطررت إلى حلقها قديما (نوفمبر 1954) قبيل اعتقالي.

إلى مبنى المخابرات المصرية

وما هي إلا ساعات، حتى نودي علي للرحيل إلى مكان آخر، وركبت سيارة عسكرية وجدت فيها أخي أحمد العسال، بعد أن جاءوا به، دون أن يستطيع أحدنا أن يكلم الآخر، وأخذنا إلى مكان جديد، لا عهد لنا به من قبل، فليس هو سجن مصر، ولا سجن

القناطر، ولا سجن القلعة، ولا طرة، ولا غيرها. ولكنه مبنى في شكل عمارة كبيرة، فيها حجرات كثيرة، وقد وضعت في حجرة منفردة، ووضع أخي العسال في حجرة أخرى بجوارها. وقد عرفت في آخر المدة أنه مبنى المخابرات في منطقة سراي القبة.

وفي المساء نودي علي للتحقيق معي، وأنا لا أدري في أي شيء سيحققون معي، وعن أي شيء سيسألونني؟

ويبدو أن الذين يسألونني من الضباط الذي يلبسون ملابس مدنية، أظنهم كانوا ثلاثة أو أربعة.

وقد بدأوا سؤالي: هل تعرف أحدا في الدُّقي؟ قلت: نعم أعرف جماعة سعودي: الحاج سعودي وإخوانه.

قالوا: ألا تعرف أحدا آخر؟

قلت: لا أذكر الآن.

قالوا: ألا تعرف عبد العزيز كامل؟

قلت: بلى، أعرفه جيدا.

قالوا: فلماذا تنكر، وقد زرته أكثر من مرة.

قلت: لم أنكر، ولو سألتموني مباشرة لأجبت بالإيجاب. وهل في معرفة عبد العزيز كامل أو زيارته تهمة؟

على أن عبد العزيز كامل عاش دهرا وهو من سكان إمبابة، وهو حديث عهد بسكنى الدقي، ولذا لم يخطر ببالي لأول وهلة.

قالوا: هل تعرف أحدا من ضباط الجيش؟

قلت: لا أذكر أحدا غير معروف الحضري، وقد كان معنا في السجن الحربي.

قال: عادتكم تنكرون كل شيء، وليس هناك طريقة تنطقكم غير طريقة حمزة البسيوني والسجن الحربي.

قلت: وماذا أنكرت أنا حتى تقول هذا الكلام؟

قال: ألا تعرف الضابط محمود يونس؟

قلت: بلى، أعرفه.

قالوا: فلماذا ادعيت أنك لا تعرف أحدا؟

قلت: لو سألتني عن معرفة محمود يونس ما أنكرت، ولكن هذه معرفة قديمة، ولم أره منذ سنين، وصلته بالأخ العسال أقدم وأوثق.

قالوا: وهل تعرف صلة محمود يونس بعبد العزيز كامل؟

قلت: أظنه كان يريد أن يتزوج ابنة أخته أو نحو ذلك، فهذا هو سر صلته به فيما أعلم.

قالوا: أهذا كل صلته بعبد العزيز كامل؟

قلت: هذا كل ما أعلمه عن صلته به، وأي صلة يمكن أن تكون بين يونس وكامل؟

قال أحدهم: هكذا أنتم أيها الإخوان، تتخذون دائما سبيل الجحود والإنكار، ما لم تستخدم معكم أدوات تجبركم على الكلام.

قلت له: والله ما عندي شيء أخفيه.

وسألوني بعض الأسئلة عن قطر، وعن عملي في قطر.. ثم أمروني بالانصراف، وأنا لا أدري شيئا عن هذه الأسئلة التي وجهت إلي، ولماذا سئلت عن عبد العزيز كامل ومحمود يونس دون العالمين؟

وهل انتهى التحقيق معي أو لا زالت له بقية؟

كل هذه الأسئلة بقيت معلقة لم أجد لها جوابا.

النوم على الكرسي وفوق المكتب بالبذلة:

وعادوا بي إلى الحجرة التي خصصت لي، ويظهر أنها حجرة لبعض الموظفين، فيها كرسي ومكتب كبير، فكنت أنام على الكرسي أحيانا، وأحيانا أخرى أنام فوق المكتب، أفرد عليه ظهري، وإن كان طوله لا يتسع لي، أجتهد أن أنكمش وأضم بعضي إلى بعض.

لا أذكر كم ليلة بتها بهذه الطريقة المزعجة، ولكن أعتقد أنها لم تطل، فقد منوا علي بفراش وغطاء ومخدة. فكان هذا نعيما ورفاهية بالنسبة لما كنت عليه أولا.

أما طعامهم فالحق أنه كان جيدا، فكثيرا ما كانوا يطعموننا الكباب والكفتة والسمك وغير ذلك، مما لم يكن يخطر ببالنا أيام السجن الحربي.

ولكن مشكلتي أني بلا ملابس، فقد خرجت من بيت خالي على أني ذاهب لدوار العمدة لدقائق ثم أعود، ثم انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه.

ومن المؤسف أن أبقى على هذه الحال ما يقرب من أسبوعين، أنام وأستيقظ في ملابسي نفسها، ولولا أني بفضل الله قليل العرق بالفطرة، والغريب أني لا أجد مسؤولا أشكو إليه حالي، غير الحراس الذين يقفون على أبواب حجرتي، وهم لا يحلون ولا يربطون.

ثم جاء الفرج فإذا بطرد من الملابس يصل إلي بعد لأي، فقد ظل يتنقل من جهة إلى جهة، حتى انتهى إلي.

وصحب هذا أمر آخر، فقد نقلت إلى حجرة غير الحجرة، ودور غير الدور، وفي الحجرة الجديدة سرير سفري أنام عليه. فكان ذلك مزيدا من الرفاهية والتدليل.

ومع هذا بقي وضعي ووضع زميلي معلقا، لا أدري ما تهمتي؟ وهل أغلق ملف التحقيق معي أو لا يزال مفتوحا؟ وإن كان أغلق فلماذا لم يفرج عني؟

وفي أي مكان أنا؟ وما هذه الصرخات والآهات التي أسمعها أحيانا إذا جن الليل؟

كل هذه الأسئلة ونحوها لا أجد من يجيبني عنها.

لماذا كان هذا الاعتقال شديدا عليّ؟

الحق أن هذه الفترة التي اعتقلت فيها، وإن لم تطل كثيرا، فقد كانت نحو سبعة أسابيع أو خمسين يوما، من أشد الفترات قسوة على نفسي، رغم أني لم أمس فيها بإيذاء بدني، ولا بأي آلة من آلات التعذيب، لكنها مرت بطيئة ثقيلة، فيومها بشهر، وليلها بدهر، وكان هذا الاعتقال الذي آكل فيه الكباب شديد الوطأة علي، على خلاف اعتقالاتي السابقة في عهد الملكية 1949م وعهد الثورة أوائل

1954م، وأواخرها، وهو الاعتقال الذي استمر نحو عشرين شهرا في السجن الحربي.

فما سر هذه الشدة والقسوة؟

أعتقد أن سر ذلك يرجع إلى جملة أسباب أساسية:

أولا: أني أخذت في هذا الاعتقال غدرا، بلا تقدمة، ولا سبب أعرفه، وقديما قالوا: إذا عرف السبب بطل العجب. وأنا لم أعرف سببا قريبا ولا بعيدا لاعتقالي، إنما أخذت من الدار إلى النار، كما يقولون، وبهدومي التي علي.

ثانيا: كان الاعتقال في المرات الماضية ضمن مجموعات كبيرة من الإخوان، فالإنسان يعزي نفسه بالتأسي بهم، وقد قيل: البلايا إذا عمت طابت. والشر خير إذا ما كان مشتركا. وقد قال تعالى للكفار يوم القيامة: (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) الزخرف: أي أنهم في الدار الآخرة لن ينفعهم ما ينفع الناس في الدنيا من تخفيف العذاب عنهم إذا اشتركوا فيه.

فهذا الاعتقال لم يكن بهذه الصورة الجماعية، بل هو اعتقال خاص.

ثالثا: أن اعتقالي هذه المرة، وأنا زوج وأب، غير اعتقالي فيما مضى، وأنا خالٍ من المسؤولية. فقد كنت دائم التفكير في زوجتي وبناتي الصغيرات، اللاتي تركتهن في القرية. واختطفت من بينهن فجأة. ولا أدري ما وقع هذا الأمر عليهن؟ وماذا فعلت زوجتي؟ هل عادت إلى القاهرة أوْ لا؟ وهل علم أهلها بما حصل أو لا؟ وكيف واجهت الموقف وحدها؟ لا بد أنها مهمومة بأمري، وبخاصة أني فارقتها بالملابس التي على جسدي. إلى غير ذلك من التساؤلات الكثيرة التي كانت تشغل بالي وتؤرقني في هذا الاعتقال دون الاعتقالات الماضية.

رابعا: أن أقسى ما في هذا الاعتقال هو: الحبس الانفرادي، فقد كان السجن الحربي ـ على مرارته وقسوته ـ نعيش فيه مجموعات في داخل الزنازين: سبعة أو ثمانية. وكان في هذه الزحمة رحمة، وفي هذا التكدس إيناس لنا، وتهوين لما نحن فيه من بلاء، حيث يأنس كل منا بأخيه، ويتأسّى به، ويأخذ القوي بيد الضعيف، ويتعلم كل منا من إخوانه، فيصبر الجزوع، ويتشجع الجبان، ويرضى الساخط.

لقد قال علماء الاجتماع المحدثون: إن الإنسان حيوان اجتماعي، وقال الأقدمون: الإنسان مدني بطبعه، أي لا يستطيع أن يعيش وحده، بل يحيا مع غيره في جماعة. لهذا كان السجن الانفرادي عقوبة في غاية القسوة، ولا سيما إذا طال. ومن هنا خلق الله آدم وأسكنه الجنة، ولكنه لم يدعه وحده، بل خلق له من نفسه زوجا ليسكن إليها، وقال له: (اسكن أنت وزوجك الجنة) إذ لا معنى لجنة يعيش الإنسان فيها منفردا بلا أنيس ولا جليس.

التصبُّر والرضا

ومع قسوة هذه الفترة كان لا بد للإنسان أن يرضّي نفسه بالواقع، وأن يتصبر ويروض نفسه على الصبر ليصبره الله، كما وعد بذلك الحديث الصحيح: "ومن يتصبر يصبره الله".

إن السخط على الواقع لا يجلب على صاحبه إلا الشعور بالمرارة والكآبة واليأس، وهذه آفات خطيرة تكدر على المرء عيشه، وتضيّق عليه الأرض بما رحبت. والمؤمن يرضى بما كتبه الله له، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقد ورد: إن الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والرّوح (راحة النفس) في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك.

ولا غرو أن أسلمت زمامي لله، وفوضت أمري إلى الله، وتركت أمر أهلي وعيالي إلى رب كريم لا ينسى أحدا من خلقه، وقد عودني سبحانه أن يجعل لي من كل عسر يسرا، ومن كل ضيق فرجا، ومن كل محنة منحة. وقد قال تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) البقرة:

وقد قال عمر رضي الله عنه: ما أصبت ببلاء إلا وجدت لله علي فيه أربع نعم: أنه لم يكن في ديني، وأنه لم يكن أكبر منه، وأني لم أحرم الرضا به، وأني أرجو ثواب الله عليه**!**

وبهذا يفلسف المؤمن المصيبة تنزل به، فيحولها إلى نعمة تستحق الشكر لله، إذا نظر إليها من زوايا غير تلك التي ينظر منها عوام الناس.

كنت أقضي وقتي في تلاوة القرآن وذكر الله تعالى، أرطب بهما لساني، وأنوّر بهما قلبي، وأرضي بهما ربي.

لم يكن معي مصحف، كما كان مع أخي العسال، فقد أحضر معه حقيبته، وفيها ملابسه ومصحفه، ولكني كنت أحفظ القرآن جيدا بحمد الله وفضله، فلم أجد لي مؤنسا في هذه الخلوة أفضل من كتاب الله، فهو الذي يقويني إذا ضعفت، وينبهني إذا غفلت، ويذكرني إذا نسيت، ويملؤني ثقة وأملا بالغد، ويطرد عني كل شعور بالقنوط والإحباط، (فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) يوسف:

إني أقرأ في هذا القرآن كيف نجى الله إبراهيم من النار، وجعلها عليه بردا وسلاما، وكيف أخرج يوسف من الجب، وأخرجه من السجن، وولاه على خزائن الأرض، ومكن له في مصر يتبوأ منها حيث يشاء.

عرفت في القرآن كيف رد الله يوسف على يعقوب، وكيف كشف الضر عن أيوب، وكيف نجى ذا النون (يونس) من بطن الحوت،

حين نادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ثم إني طلبت من سجانيّ حين رأيتهم يحسنون معاملتي: أن يوفروا لي بعض الورق الأبيض، مع قلم لأكتب. وكان القوم كراما فلم يضنوا علي بما طلبت. وجاءوني بورق مسطور، وقلم رصاص، وشكرتهم على حسن استجابتهم، ورجوتهم أن يبروا لي القلم كلما احتجت إلى ذلك، وأن يمدوني بالورق كلما نفد من عندي.

وهكذا طفقت أستفيد من وقتي بالكتابة، منتفعا بهذه الخلوة الإجبارية. فكتبت شعرا، وكتبت نثرا.

كتبت ثلاث قصائد: أولاها في رثاء أخي محمد الدمرداش الذي ودعته قبل اعتقالي بيومين.

والثانية: قصيدة غزلية في (بنت قنا). وبنت قنا هي (القلة القناوية) البيضاء الشهيرة ذات العنق الطويل.

والغريب أن هاتين القصيدتين اختفتا عني بعد خروجي من الاعتقال، ولم أعثر عليهما إلا مصادفة بعد ثمانية وثلاثين عاما. وقد نشرتا في آخر طبعة من ديواني (نفحات ولفحات)!

والقصيدة الثالثة: عنوانها (ثورة لاجئ) وقد نشرتها أكثر من مجلة، وألقيتها في ندوة شعرية في قطر.

كما كتبت مقدمة لبحثي عن الزكاة، الذي أعده لرسالة الدكتوراه، وكان عن مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام؟ ثم رأيت بعد ذلك أن أطوره وأوسعه وأفصله عن بحث الزكاة، وأصدره في كتاب مستقل.

قلق على العسال

كان العسال يسكن الحجرة المجاورة لي، أحس به ويحس بي، ولكن لا يرى أحدنا الآخر، حتى إني عندما

كنت أذهب لدورة المياه أمر على حجرته، وهنا لا بد أن يغلقوها حتى لا أرى مجرد جسمه.

وفي مدة معينة أحسست أن أحمد غير موجود، حتى إنهم يسمحون بالمرور على حجرته وبابها غير مغلق تماما (موارب).

وهنا أخذ مني القلق كل مأخذ على رفيقي وصديقي. ترى هل أعادوا التحقيق معه، ونقلوه إلى مكان آخر؟ أم ماذا جرى؟

وكان الحراس الذين يتولون حراستنا: شبانا يبدو أنهم على شيء من التعليم. فهم يحملون الثانوية أو ما يعادلها، كما نسمعهم من وراء الباب يحدث بعضهم بعضا.

وفي يوم من الأيام سمعت أحدهم يقول لصاحبه: أنت يا فلان يا بتاع شنشور، قال له: ومالها شنشور؟ بلد العلماء الفضلاء.

وعرفت هذا الشنشوري بصوته، وفي مرة فتح علي الباب يناولني الغداء، فانتهزتها فرصة، وقلت له: أنت من شنشور؟ قال: نعم هل تعرفها؟

قلت له: أعرفها وزرتها أكثر من مرة، ولي فيها أصدقاء.

قال: من تعرف من رجالها؟

قلت: أعرف الشيخ مناع القطان، والشيخ عبد الرزاق عفيفي.

قال: تعرف الشيخ عبد الرزاق؟ قلت: نعم، وهو الآن في السعودية، وله مكانة كبيرة بين أهلها وعلمائها.

قال: الشيخ عبد الرزاق هو عمي.

كان الشاب يكلمني همسا، وهو يتلفت يمينا وشمالا، حتى لا يراه ولا يسمعه أحد، وهو يكلم أحد المعتقلين.

قلت له: أريد أن أسألك: في أي مكان نحن؟

قال: هذا مبنى المخابرات. ربنا يسترنا وينجينا منه.

قلت: وما وضعنا الآن؟ وهل بقي علينا تحقيق؟

قال: إن نقلكم إلى هذا الدور معناه تمهيد للإفراج عنكم. فلا ينقل هنا إلا من لم يثبت عليه شيء.

قلت: ولكني ألاحظ أن جاري لم يعد في حجرته، فأين ذهب؟ هل أعادوا التحقيق معه؟

قال: لا، لقد أصيب بمغص شديد، فنقلوه إلى المستشفى، وأظنهم أجروا له عملية الزائدة. وأعتقد أنه بمجرد عودته سيفرج عنكم.

قلت: جزاك الله خيرا، لقد أزحت عن نفسي غمة، وشرحت لي ما لم أكن أفهمه.

قال لي: أين تسكن؟ قلت له: في حدائق شبرا في شارع كذا.

قال: لولا أننا نعلم أننا مراقبون، لذهبت إلى بيتك، وطمأنت أهلك وأولادك، ولكن لو ثبت على أحد منا شيء من ذلك فيا ويله ثم يا ويله، ويا سواد ليله. ربنا يخرجنا من هذا المكان على خير.

تنفست الصعداء حين علمت أن أخي العسال لم ينقل إلى مكان آخر للسؤال والتحقيق، ودعوت الله له بالشفاء العاجل.

وما هي إلا أيام قليلة حتى عاد بسلامة الله. ثم نودي علينا ـ أنا والعسال ـ لنقابل الضابط المسوؤل، ولا أعرف اسمه ولا رتبته. ولكنه قال لنا: سيفرج عنكما الآن. ولا نريد أن يعرف أحد أين كنتما، ولا ماذا قلتما وماذا قيل لكما. واعتبرا هذه الفترة إجازة إجبارية خاصة أخذتموها.

إفراج

ولم نقل شيئا، وخرجنا من المكان الذي عرفنا من قريب أنه مبنى المخابرات، وكان بعيدا عن العمران وسط المزارع، بمنطقة قصر القبة أو سراي القبة، وإن كان اليوم قد أحاط به العمران من كل جانب.

وتعانقت أنا والعسال عناقا حارا، بعد أن غادرنا باب المخابرات، وودع كلانا أخاه، لأنه سيأخذ مواصلة غير مواصلتي.

ولم أجد في جيبي غير خمسة قروش، ولا أدري أكان معي نقود أكثر، وضاعت في (الأمانات) التي لا تؤدى إلى أهلها في السجن

الحربي. كما ضاع قلم (باركر) كان معي. أم ربما لم يكن معي نقود ساعة أخذوني؟

على أية حال، حمدت الله على القروش الخمسة، فهي تكفيني أجرة للأوتوبيس الذي يوصلني إلى العباسية، ثم أركب ترام (21) من العباسية إلى شبرا.

ومن حسن حظي: أني حين ركبت (الأوتوبيس) وجدت أحد إخواني وتلاميذي بالمحلة الكبرى، وهو الأخ عصمت عبد الرحمن، وقد فوجئ بي، وهو يعلم أني كنت معتقلا، فسألته: أمعك شيء من النقود؟ فقال: معي نصف جنيه. فقلت: أعطني إياه.

وهنا فكرت أن آخذ سيارة أجرة (تاكسي) من العباسية، بدل الترام الذي يأخذ مدة طويلة، حتى يوصلني، وأنا شديد الشوق إلى أهلي وبناتي، بعد هذه المدة، وتمنيت لو كان لي جناحان لطرت طيرا إلى منزلي.

إلى منزلنا بشبرا

وأسرعت إلى المنزل، ودققت جرس الباب، ولي دقة خاصة تعرفها زوجي، وهو أني أدق الجرس مرتين متتاليتين، فقالت زوجتي: سبحان الله، هذه دقة زوجي. وبادرت بفتح الباب، لتجدني أمامها.

فكان عناق وبكاء، ودموع وشموع. إنها دموع الفرح باللقاء بعد الفراق. وما أحلى اللقاء بعد الفراق. وخصوصا فراقا من هذا اللون الذي كان. لا رده الله.

وكان أول ما لفت نظري: أني وجدت شقيق زوجتي الأوسط (أحمد) يعيش معها. وحدثتني زوجتي طويلا عن تلك الأيام العصيبة الكئيبة، التي قضتها حين اختطفت من بينهم في صفط. فعندما نادوك، قالوا لي: إنه ذاهب للسلام على العمدة، فلما تأخرت بدأت أقلق، ولا سيما أنا كنا مدعوين إلى العشاء عند خالتي الكبرى (نور)، فأخبروني بتأجيل الدعوة إلى الغد، وبدأت أجد الحزن والغم على وجوه خالاتك، وهم لا يستطيعون أن يتكلموا حتى لا أعرف بما جرى. وفجأة مرت إحدى نساء الحارة وقالت بصوت مرتفع: صحيح يا جماعة أخذوا الشيخ يوسف! وهنا هبوا في وجهها وزجروها، فعرفت حقيقة الموقف، وأسقط في يدي. وبقيت يومين على أحر من الجمر، ننتظر عودتك، كما أفهمونا في أول الأمر. ثم صممت أن أعود إلى بيتنا في مستقرنا في القاهرة، فعدت، ومعي خالك، الذي أصر أن يرافقني ولا يتركني، وخصوصا في الأيام الأولى.

قالت زوجتي:

كان الذي يقلقني ويؤرقني أمران:

أحدهما: أني لا أعلم عنك شيئا، ولا نعرف أين أنت، حتى نرسل إليك بعض الملابس واللوازم، ولم أستطع لا أنا ولا خالك ولا أصدقاؤك أن نهتدي إلى مكانك، ولا أن نجد من يلتزم بأخذ

الملابس وإرسالها إليك. وكنت أقول في نفسي: كيف تعيش وليس معك غيار ولا أي شيء؟

وقد ذهبت أنا وخالك إلى الشيخ الغزالي في وزارة الأوقاف، وإلى الشيخ عبد الله المشد في الأزهر، وإلى غيرهما ممن يعرفونك، ليساعدونا في الوصول إليك، فحاولوا واجتهدوا، ولكنهم عجزوا أن يفعلوا شيئا، أبدوا لنا أسفهم واعتذارهم، وذرفت الدموع من عيني الشيخ الغزالي، وهو يعتذر إلينا من عجزه أن يفعل لنا شيئا. وقال لي: الله معك يا بنتي! وثقي أنه إن شاء الله سيعود إليك بخير.

وأخيرا استطاع بعض الأقارب أن يجد جهة تتسلم منا الملابس، وتتعهد بإرسالها إليك، فسلمناها لهم، ونحن لا ندري أبلغت محلها أم لا؟ فليس لنا إلى معرفة ذلك من سبيل. وقلت في نفسي: إن الله جل شأنه لن يتخلى عنك ولن يضيعك. ومن كان مع الله كان الله معه.

والأمر الثاني: أني لم أكن أريد لوالدتي أن تعرف بما جرى، ولا سيما بعد مرض أبي بالشلل النصفي، وانشغال أمي به، فإذا بلغها ما حدث، ازدادت هما على هم، وكربا على كرب. فكنت حريصة على كتمان الخبر ما استطعت، حتى لا يتسرب إليها.

وكان شقيقي سامي يزورني ما بين الحين والحين، وسرعان ما جاء لزيارتي، وعرف بما كان، واتفق معي على أن يبلغ والدته أن حكومة قطر، انتدبت الأستاذ يوسف في مهمة، وأني في حاجة إلى

أخي أحمد يقيم معي حتى عودته. وانطلت عليها الحيلة، وصدقت المقولة، وأرسلت أحمد للعيش معي.

وتعلم أن جيراننا فضوليون، وكثيرا ما سألوني: أين الأستاذ يوسف؟ لماذا لم يظهر منذ أول الإجازة؟ وأقول لهم: هو موجود، ولكنه مشغول في بعض مهام مكلف بها من قطر.

وقد جاء صديقك الشيخ محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر الآن) يسأل عنك، وفتح جيراننا الباب ليروا ويسمعوا ماذا أقول له، فاضطررت أن أدخله، وأقول له الحقيقة في الداخل، حتى لا يعرف الجيران شيئا. وقد كان الرجل كريما، وقال لي: أي مساعدة أو خدمة تطلبينها فأنا تحت أمرك. وشكرت له موقفه. جزاه الله خيرا.

متهم في انقلاب لا أعرف عنه شيئا

ولقد سألتني زوجتي، وسألني صهري، وسألني خالي، وسألني بعض المقربين من إخواني عن التهمة التي أخذت فيها، وغيبت عنهم من أجلها: ما هي؟

قلت لهم: علمي والله علمكم، وأنا في الحقيقة لم توجه لي تهمة، ولا أعلم: لماذا أخذوني وحجزوني عندهم هذه المدة؟

وكل ما سألوني عنه شخصان، لا أعلم عنهما شرا، ولا أعرف لهما جرما، وهما: الأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس، ولا أدري سر الربط بينهما.

وما هي إلا أيام حتى عرفت من الناس التهمة التي أخذت بها، وهي شبهة المشاركة في انقلاب ديني الطابع، دبره بعض الضباط في الجيش، مع فئة من القيادات الدينية الصوفية، وعلى رأسهم: الدكتور حسن عباس زكي وزير الاقتصاد السابق، والأستاذ عمر مرعي، شقيق السيد مرعي رئيس مجلس الشعب، ومعهما الأستاذ عبد العزيز كامل، وقد قال الأستاذ عبد العزيز الشوربجي المحامي المعروف: إن هذا الانقلاب لا وجود له إلا على ورقات تحمل مجرد أفكار وتخيلات.

ولم يثبت التحقيق على أي من هؤلاء ما أخذوا به، وقد أفرج عنهم جميعا بعد ذلك دون أن يدانوا بشيء.

أما تهمتي أنا والعسال ـ كما تخيلوها ـ فهي أننا ممولون من الخليج للانقلاب المزعوم. وذلك لما لنا من صلة بالأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس**!!**

وكيف نكون ممولين، ونحن لا زلنا حديثي عهد بالخليج، فلم يمض أكثر من تسعة أشهر لي في قطر، والعسال كان قبلي بسنة دراسية. فماذا عسى أن يكون لنا من مال نسهم به في تمويل انقلاب**؟!**

إنها الأوهام والخيالات التي يركض وراءها أحيانا رجال الاستخبارات، يحسبون السراب ماء، حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئا.

اللقاء بصلاح نصر

جاء موعد سفرنا إلى قطر في منتصف سبتمبر، ولم يؤذن لنا بالسفر، وبدأ العام الدراسي، ولم نتمكن من مغادرة مصر. وعدنا ـ أنا والعسال ـ لمباشرة عملنا في المكتب الفني لإدارة الوعظ والإرشاد بالرواق

العباسي بالأزهر. ولم تكفّ وزارة المعارف في قطر عن إرسال البرقيات إلى الأزهر وإلى الوزير المسؤول عن الأزهر السيد حسين الشافعي عضو مجلس الثورة، للسماح لنا بالسفر لمباشرة عملنا هناك.

ويبدو لي أن هذه البرقيات وصلت إلى إدارة المخابرات التي كان على رأسها رجل الاستخبارات الشهير صلاح نصر.

وفوجئنا يوما باستدعائنا ـ العسال وأنا ـ لمقابلة صلاح نصر في مكتبه في إدارة المخابرات في المبنى الذي كنا ضيوفا عليه سبعة أسابيع.

وفي الوقت المحدد استقبلونا بالباب، وحملونا إلى مكتب الرجل الذي إذا ذكر اسمه ارتعدت الفرائص، واصطكت الأسنان، زلزل الرعب القلوب!

دخلنا على صلاح نصر، فإذا هو رجل ناعم الملمس، حسن اللقاء، أحسن استقبالنا، ورحب بنا، وأظهر أسفه واعتذاره لما وقع لنا، وأنه كان خطأ لا مبرر له، لم يعلم به إلا بعد رجوعه من سفر طويل.

وقال: إني سمعت كثيرا عن إخلاصكما ونشاطكما وسمعتكما الطيبة في سائر الأوساط في الداخل والخارج. وإننا نعتبركم سفراء لبلدكم، ونريد أن نبدأ صفحة جديدة في التعاون من أجل مصر، وخير مصر، وتقدم مصر.

وقال: إن همزة الوصل بيننا هو واحد منكم تعرفونه ويعرفكم. هو الأستاذ محمد نجيب جويفل. وسيرتب معكم طريقة الاتصال بكم. وسأصدر الأوامر برفع الحظر عن سفركم، ويمكنكم أن تستعدوا للعودة إلى قطر متى شئتم.

كان صلاح نصر يتكلم، ونحن نسمع، وهو يتكلم بثقة واطمئنان إلى ما يقول، كأنما يصدر أمره إلى جنود في كتيبة يقودها، فما عليه إلا أن يأمر، وما عليهم إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا!

ولهذا لم يتصور أن يكون لنا رأي يخالف رأيه، أو إرادة تناقض إرادته. ومن نحن حتى نقول: لم؟ ناهيك أن نقول: لا!!

ولم نملك إلا أن نشكره على حسن استقباله لنا، وعلى إزالة العقبات من طريق سفرنا، راجين أن نتعاون جميعا على البر والتقوى، وأن يوفقنا الله تعالى لخدمة ديننا ووطننا وأمتنا.

شكرنا صلاح نصر، رغم أسفه واعتذاره لنا، واعترافه بأن اعتقالنا كان خطأ غير مبرر. وأعتقد أنهم اكتشفوا هذا الخطأ منذ حققوا معنا أول ليلة كنا فيها عندهم، وأننا ليس لنا في الثور ولا في الطحين، بدليل أنهم لم يستدعونا للسؤال مرة أخرى. ولكن الذي أمر باعتقالنا نسينا، أو أهمل أمرنا، حتى مضى علينا نحو خمسين يوما، بعيدين عن أسرنا وأهلينا.

شكرنا صلاح نصر، وهل كان يسعنا إلا أن نشكره، وإن أخطأت إدارته في اعتقالنا باعترافه! ولو كنا في بلد ديمقراطي لوجب أن يحاكم من أخطأ في اعتقالنا، بلا سبب ولا مبرر، وإذا كان أخطأ في الاعتقال، فلماذا لم يعالجه بسرعة الإفراج عنا؟ ولكن إهدار حقوق الإنسان، وحرية الإنسان، وقيمة الإنسان، جعلت أمثال هؤلاء لا يبالون بسجن من سجنوا، واعتقال من اعتقلوا، وإن استوثقوا أنهم برآء من كل ما ينسب إليهم براء الذئب من دم ابن يعقوب.

فكيف يمكن التعاون مع هؤلاء؟ وهل هو إلا تعاون على الإثم والعدوان؟ كيف يتعاون المسلم الملتزم مع الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق؟ والإسلام يحذر أشد التحذير من

أمرين: من الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة، ونذير بالهلاك والخراب في هذه الدنيا (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) النحل: .

ويحذر كذلك من معاونة الظالم، فإن معاونة الظالم مشاركة له في إثمه، وقد قيل: أعوان الظالم كلاب جهنم. ولهذا أشرك القرآن في الإثم ـ مع فرعون وهامان ـ جنودهما، كما قال تعالى: (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) القصص:

وقال تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) هود:

ولهذا حذر السلف من التعاون مع الظالمين أو الاقتراب منهم، والركون إليهم، حتى قال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه.

ولهذا كان مما أزعجنا في لقاء صلاح نصر: عرضه علينا أن نتعاون معهم، ونحن لا نشاركهم في الأهداف ولا في الوسائل. فهم لا يتورعون عن استخدام وسائل غير أخلاقية وإن كان الهدف نفسه مشروعا.

واتفقنا على أن نتهرب من لقاء جويفل إذا اتصل بنا، ولو ترتب على ذلك ألا ننزل إلى مصر في المستقبل، ولا نتورط ي أن نحطب في حبل هؤلاء.

والواقع أننا بعد رجوعنا إلى قطر، لم يتصل بنا أحد لا نجيب جويفل ولا غيره، وأعتقد أن الأخ نجيبا ـ رحمه الله ـ كان يعرف موقفنا جيدا، ويوقن في قرارة نفسه أن لا جدوى من الاتصال بنا، ولهذا لم يسع إلى ذلك، ولم يحاوله، ولم يفكر فيه. والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه.